دراسات في

التاريخ الأوربي والأمريكي الحديث

الأستاذ الدكتور

عمر عبد العزيز عمر

أستاذ التاريخ الحديث

وعميد كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٢

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - اسكندرية

ت : ٤٨٣-١٦٣

القسم الأول

معالم التاريخ الأوروبي الحديث

الفصل الأول

عصر النهضة The Renaisance

مقدمة فى الانتقال الى العصور الحديثة :

ينقسم التاريخ الانسانى الى قسمين غير متساويين : قسم عصور ما قبل التاريخ، وقسم العصور التاريخية . وتبدأ العصور التاريخية وهى الفترة التى ترك الانسان فيها سجلات مكتوبة عن حياته وأوجه نشاطه - بالعصور القديمة التى كان يميزها قيام الحضارات القديمة فى الشرق وتلت هذه الفترة العصور الوسطى التى حدد جمهرة المؤرخين زمنها من سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية على ايدى البرابرة فى حوالى منتصف القرن الخامس عشر . ولقد شاهدت العصور الوسطى هذه ازدهار الحضارة البيزنطية وانتشار الحضارة الاسلامية . اما غرب اوروبا فكان متخلفا عن تلك النهضة التى شملت كل نواحى الحياة من زراعة وصناعة وتجارة وعلم وفن وأدب . وانه لمن الأهمية بمكان القاء نظرة سريعة على أهم المظاهر التى كانت تميز العصور الوسطى حتى يمكننا أن ندرك التغيير الكبير الذى طرأ على نظم أوروبا فى العصور الحديثة وسنجمل هذه المظاهر فيما يلى :

١ - انه نتيجة لسقوط الدولة الرومانية بدأت العصور الوسطى بفترة قلق واضطراب بسبب هجمات البرابرة ، ولكن القائمين على الأمر استطاعوا ايجاد أمن وسلام نسبى ، أما عن محاولات الوحدة السياسية الاوروبية كما كانت من قبل ، فلم يجانبها التوفيق (مثل

محاولات جستنيان وشارلمان

٢ — كان وجود امبراطورية عالمية من أهم مميزات العصور الوسطى، وخضعت لحكم الامبراطورية الرومانية المقدسة معظم أجزاء اوروبا فى ذلك الوقت، ومعنى هذا ان الفكرة السائدة كانت فكرة العالمية (أى وجود حكومة عالمية) لأن فكرة القوميات أو الدولة الوطنية الحديثة Nation state لم تكن معروفة ومفهومة فى العصور الوسطى (وكان أصحاب النظريات السياسية فى العصور الوسطى يعتقدون ان المسيحية كلها تكون دولة واحدة يحكمها البابا والامبراطور بتفويض من الله، ويشرف الاول على الشئون الدينية والثانى على الشئون الدنيوية).

٣ — ولكن تحديد اختصاصات كل من البابوية والامبراطورية لم يحل دون قيام صراع بينهما نتيجة لنمو هاتين القوتين. فسلطات كل منهما لم تكن محددة تحديدا دقيقا وبالتالى حاول كل من الطرفين ان تكون له الغلبة فى النهاية على حساب الآخر . ولقد أضعف هذا الصراع تلك القوتين وكان ذلك ايذانا بانتهاء العصور الوسطى .

٤ — ومن مظاهر هذا العصر ايضا تسلط الكنيسة ورجال الدين على عقول وأفكار الناس فى اوروبا وتحت تأثير ذلك أخذت غالبية الناس تفكر فى ان الحياة الدنيا ما هى الا قنطرة يعبرون عليها للحياة الآخرة . وانصرف غالبية الناس عن دنياهم الى آخرتهم وأخذوا ينظرون الى الحياة المثلى كحياة التقشف والاشتغال بالامور الدينية كحياة الرهبان. ولقد اصبح الفرد يؤمن بما يلقى على

مسامعه من قول دون ان يخضع هذا الكلام للمنطق او العقل. وعلى ذلك نرى ان القول السائد كان I believe so that I may Understand ولكن تغير هذا الحال عندما اشرفت العصور الوسطى على الانتهاء وبدأ ظهور عصر النهضة الذى ظهرت فيه روح البحث والتشكك والنقد، وبالتالى فاننا نجد ان القول السائد فى هذه الفترة كان Nothing is to be believed unless it is Understood وبالاضافة الى ذلك كانت الكنيسة الكاثوليكية تحت رئاسة البابوية لها نفوذ وسيطرة عظيمة فى المجتمع الاوروبى الغربى الوسيط وكان اثرها ملموسا فى السياسة والاقتصاد وأحرزت الكنيسة حينذاك ثروة كبرى وكانت مثلا صادقا للحكم الاستبدادى فالكنيسة فى العصور الوسطى على حد قول احد الكتاب كانت بمثابة الدولة او السلطة المدنية لأنه لم يكن معترفا بوجود مجتمع منفصل، فالكنيسة اخذت عن الامبراطورية الرومانية نظريتها فى السلطان المطلق العام للسلطة العليا وحورتها الى نظرية السلطة التامة للبابا الذى كان المدبر الاسمى للقانون والمصدر الشرعى الوحيد للسلطة على الارض .

٥ — اما المظهر الخامس للعصور الوسطى فهو الجانب الحربى الذى وجه وجهة دينية عرفت باسم الحروب الصليبية التى اشتركت فيها مختلف طبقات المجتمع فى اوروبا، اما اظهارا للشجاعة وحبا فى القتال او للدفاع عن مثل دينية عليا. وكان تطور ونمو فكرة الحرب المقدسة فى غرب اوروبا من العوامل الرئيسية التى مهدت لقيام الحركة الصليبية. ولقد اتاح هذا الاتصال بين الشرق

والغرب ان يتعرف كلا الجانبين كل منهما على الآخر وان يلم بشئونه السياسية والاجتماعية .ولقد نشأت صلات تجارية بين الطرفين المتحاربين نتيجة لتعرف الغرب على حاجيات الشرق وكذلك لرغبة الشرق فى مبادلة الغرب بالفائض من منتجاته الزراعية والصناعية واستفاد من ذلك المماليك والبنادقة وظل الحال على ذلك الى ان تم كشف طريق رأس الرجاء الصالح .

٦ - ومن أهم المميزات الخاصة للعصور الوسطى هو قيام النظام الاقطاعى. ويجدر بنا ان نلم الماما سريعا بهذا النظام وتطوره . فلقد نشأ النظام الاقطاعى بعوامل ذاتية تحت ضغط الأحداث دون ان تكون له قواعد مرسومة . ومنذ انهيار الامبراطورية الرومانية الغربية وهجمات البرابرة عليها لم تعرف اوروبا الاستقرار لا فى الاجناس ولا فى الشعوب . وفى هذا الوضع المضطرب نشأ الاقطاع وتطور، فكان نظاما حربيا زراعيا اجتماعيا ،لم يكن يوجد فى تلك المرحلة حكم مركزى ،وان وجد فقد كان ضعيفا ،وكان من الطبيعى ان يلجأ من لا يقوى على الدفاع عن نفسه الى اولئك الذين تمركزوا نوعا ما واستطاعوا ان يحتفظوا بثروتهم الوحيدة وهى الارض . ولقد كانت الارض هى مصدر الرزق، يحيا عليها سكانها الاصليون وبجانبهم عدد من المستأجرين بشروط معينة . وكان الاقتصاد فى هذا المجتمع الاقطاعي قائما على سياسة الاكتفاء الذاتى Self Sufficient فلم يكن يستورد من خارج الاقطاع الا المواد القليلة التى لا يمكن انتاجها محليا كالاسلحة النادرة والملح والخمور وغيرها ،ولم يكن لأحد فى هذا المجتمع ان يجمع المال

مثلا أو يقيم مصرفا ، بل كان السيدمصدر كل شئ تقريبا . وكان هذا المجتمع ينقسم الى ثلاث طبقات هم النبلاء ورجال الدين ثم الشعب الذىكان قوامه رقيق الارض،وكان لكل فئة من هذه الفئات عملها ووظيفتها وبذلك فقد كان الاقطاع يمثل دولة داخل دولة .

كيف انهار نظام الاقطاع :

عندما زالت الظروفالتى أوحت بهذا النظام أصبح الاقطاع عبئا ثقيلا على كاهل الناس .فحياة طبقة رقيق الارض(طبقةالفلاحين) التى كونت نسبة كبيرة من المجتمع الاقطاعى الوسيط كانت حياة قاسية وتفتقرالىالاستقرار والامانة . ولقدعارض النبلاء تحويل أراضى الغابات الى اراض زراعية وذلك لرغبتهم فى الاحتفاظ بأراضى خاصة للصيد. وازاءهذا الوضع فكر الكثيرون فى السعى عن مصادر الرزق خارج اوروبا .وبذلك لبوا دعوة البابا للذهاب الى الشرق للدفاع عنالاراضى المقدسة . اما النبلاء انفسهم فقد اشتركوا فى هذه الحملات وشجعهمعلى ذلك ان الاقطاعات فى غرب اوروبا لم تعد تكفى أفرادالعائلات النبيلة المتزايدين. وكان من آثار الحروب الصليبية (التى بدأت فى نهاية القرن١١) على الغرب أن أخذ العهد الاقطاعىفى التدهور عندما قضت هذه الحرب علىالكثيرين من أمراء الاقطاعممن أسهموا فيها .فأدى ذلك الى الاستغناء عن الكثيرين من رقيقالارض الذين اخذوا ينفرغون للتجارة والصناعة ، فلما اخذت التجارة تنشط تبع ذلك حركة ظهورالمدن ،فأخذت معها الحركة الفكرية تنتعش منذالقرن الثانى عشر بتوفر الثروة واتساع الافق الاقتصادى ،ومن ثم آخذت طبقة

جديدة من المجتمع الاقطاعى فى الظهور، وهى طبقة البرجوازية التجارية. وكان ظهور هذه الطبقة من المظاهر الاجتماعية البارزة للحضارة الاوروبية الحديثة. وكان التاجر الجائل يتمركز فى المدن الواقعة عند مفرق الطرق وعند مصبات الانهار ليحتمى من الثلوج وعندما تهدأ الطبيعة يتمكن من متابعة سيره. ولقد كانت ضواحى هؤلاء التجار قرب الحصون ولكى تصبح تلك فى مأمن من الاعتداء عمل هؤلاء التجار على تقوية مركزهذه الضواحى Bourg وتحصينها ومن هنا اطلق على هؤلاء التجار اسم مرادف لكلمة تاجر سمى فيما بعد برجوازى Bourgeois ولقد احرزت هذه الطبقة السيطرة فى المجتمع بفضل تركيز الثروة التى تتمتع بها هذه الطبقة المتوسطة فقد زالت الاهمية التى كانت للارض فى العصور الوسطى كمصدر منفرد للثروة والقوة. وبالتالى زالت طبقة رقيق الارض Serfs الذين اصبحوا الآن عمالا اجيرين، ثم زال الاقطاع الاوروبى فى جملته من جهة، وظهرت الدولة الوطنية الحديثة Nation State من جهة أخرى. ونتج عن ظهور هذه الحركة التجارية ان دب النشاط فى المدن الايطالية واتسع نطاق بعض المدن الفرنسية، واصبحت المدينة مركزا تصب فيه المواد الاولية فحلت الصناعة محل الحرف المتنقلة. وهكذا نهضت بعض المدن فى غرب اوروبا منذ أوائل القرن الثانى عشر. أما من ناحية النهضة الفكرية، فقد كان لنشأة المدن فضلها فى رعاية نهضة العلوم والفنون، فمنها ظهرت هذه النهضة، فلم يكن هناك مدينة فى اوروبا منذ القرن الثانى عشر فصاعدا الا وبها مدرسة، ولها ارشيفها وسجلاتها مما أدى بالتدريج الى انتقال

مراكز التعليم من المؤسسات الكنسية والاديرة الى مدارس المدن ، فانتعشت على يد المدن وسكانها من البرجوازية ، الحركة الفكرية ، كما ان لاختراع البارود يرجع الفضل فى القضاء على النظريات الحربية فى العصور الوسطى التى تركزت حول اقامة الحصون والاعتصام بها فى اوقات الحرب فاستخدام البارود أفقد ماكان لحصون الاشراف من قوة ومنعة واصبحت الملكية بفضل هذا السلاح الجديد قوة يخشى بأسها وتتضاءل أمامها قوة الاشراف ، ولهذا بدأت قوة الملكية فى النمو .

وبانتهاء العصور الوسطى وبداية التاريخ الحديث آخذت مظاهر الحياة الاوروبية الوسيطة فى الاختفاء وقامت فى اوروبا حضارة جديدة لم يقتصر امرها على القارة الاوروبية بل انتشرت وتسربت خارج حدودها الى انحاء مختلفة من العالم فى الشرق والغرب وفى الشمال والجنوب . ولقد اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ أوروبا الى عصور قديمة ومتوسطة وحديثة . وأساس هذا التقسيم اطلاق اسم العصر على عدة قرون من الزمن كانت اسس الحياة فيها متشابهة متقاربة سواء كان ذلك من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية او الفنية . ولكن أين يبدأ ذلك العصر أو ذاك ومتى ينتهى ؟ من المستحيل ان نحدد حدثا واحدا او يوما معينا ونقول مثلا هنا ينتهى التاريخ القديم ويبدأ التاريخ الوسيط او هنا ينتهى التاريخ الوسيط ويبدأ التاريخ الحديث . فالتغييرات فى التاريخ تمهيدية وليست فجائية والواقع ان ماضى الجنس البشرى عبارة عن قصة واحدة متصلة الحلقات ، وان تقسيم التاريخ الى

فترات مختلفة بعرض تسهيل عملية الدراسة أمرا لا يخلو من الخطأ فان ذلك يجعلنا نميل الى الاعتقاد بوجود مراحل انفصال حاسمة فى الامور الانسانية ،كما يجعلنا نبالغ فى اهمية حدث معين. فعلى الرغم من ان الكثيرين من كتاب التاريخ قد جروا على تمييز التاريخ القديم عن الوسيط فى عام ٤٧٦م وهى السنة التى تحدد نهاية الامبراطورية فى الغرب على ايدى البرابرة الجرمان، الا أن العلماء الذين حددوا هذا التاريخ لم يعلقوا عليه أهمية بالغة بل رفضوه بمجرد الاشارة لمرحلة الانتقال من الحضارة الرومانية القديمة الى حضارة العصور الوسطى . وهناك آراء عن نهاية العصور الوسطى وبدء العصور الحديثة فحدد البعض لذلك عام ١٤٥٣ وهو العام الذى استولى فيه السلطان محمد الفاتح العثمانى على مدينة القسطنطينية ،كما حدد البعض الآخر عام ١٤٩٢ وهو العام الذى اكتشف فيه كريستوفر كولمبس العالم الجديد.

ولكل من هذين التاريخين اهميته الخاصة دون شك ،ولكن يجب أن ندرك تماما ان الانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة لم يحدث فجأة ، بل كان على شكل عملية تطور تاريخية دامت أكثر من قرنين،وان هذه العملية لم تعتمد على حدث واحد معين ولا على دافع واحد سواء أكان هذا الدافع أم ذاك الحدث سياسيا أو اقتصاديا او اجتماعيا أو فنيا .

النهضة الاوروبية :

والواقع ان بين كل عصرين تاريخيين عظيمين تأتى فترة انتقال تحدث فيها التغييرات العظيمة التى تميز بين نوعين فى النهاية ،

ولكنها فى العادة تظهر وتنموو تتطور تدريجيا شأنها فى ذلك شأن الكائن الحى حتى تنضج ويتم نموها. وفترة الانتقال من العصور الوسطى الى الحديثة قد أطلقت عليها عدة أسماء فسميت احيانا باسم The Decline of Medieval Europe واحيانا The Renaissance (The Beginning of Modern) وكلمة Renaissance كما تدل عليها الكلمة الاجنبية معناها تجدد الميلاد Rebirth أى عودة الحياة او البعث او الولادة الجديدة. ويتضح من هذا أن تعريف النهضة الاوروبية ليس بالامر السهل، فانها ليست حادثا معينا وانما هى حركة شاملة ظهرت واتجاه جديد فى تفكير الناس وأعمالهم ومعيشتهم جعلتهم يتحررون تدريجيا من قيود ما ألفوه فى العصور الوسطى. ولقد وقعت كل هذه التغييرات التى نقلت العالم الاوروبى من العصور الوسيطة الى الحديثة فيما بين القرنين العاشر والخامس عشر . ولقد كانت هناك عوامل مساعدة شجعت على حدوث هذا التغيير من أهمها : انحلال الامبراطورية والبابوية، ونهضة الشعوب وتمتعها بقسط من القوة السياسية، ثم نشأة الممالك الحديثة نتيجة لظهور الأمم وقيام الحكومات الملكية .

وكلمة Renaissance لها مدلولان، مدلول واسع والآخر ضيق، والمدلول الاخير استعمله الايطاليون خاصة وقد عنى هذا اللفظ بالنسبة لهم بعث الآداب والفنون والعلوم الكلاسيكية اليونانية والرومانية والاهتمام بدراستها من جديد . ذلك أن الايطاليين قد شعروا بأن العلوم الكلاسيكية والآداب والفنون كذلك قد انعدمت على اثر وقوع غزوات الجرمان والقبائل الاخرى فى

القرن الثالث والرابع والخامس وانه بعد مضى عدة قرون على اثر اندثار هذه العلوم الكلاسيكية بعثت هذه من حديد على يد بتـرارك والكثيرين غيره من الذين اهتموا بدراستها . وظهرت النهضة بهـذا الشكل فى ايطاليا وانتشرت منها الى غيرها من الدول الاوروبيـة الى ان اصبحت ايطاليا معلمة للعالم فى احياء الدراسات القديمة وساعد ذلك بالتالى على تغيير العقلية الاوروبية كلها ممـا أدى الى تطورات اخرى من الكشف الجغرافى والاصلاح الدينى وازديـاد المعرفة الانسانية . على ان نظرة الايطاليين الى النهضة بهذه الصورة هى نظرة قاصرة بلا شك فالنهضة كانت حركة أعظم من هذا ،وقد شملـت تغييرات خطيرة فى شتى مرافق الحياة وغيرت من معالم المجتمـع الاوروبى . والكلمة بمدلولها الاوسع تشمل كل التغييرات التى طرأت على المجتمع الاوروبى فى النواحى المختلفة من نظم الحكم والحالة الاجتماعية والعلوم والفنون والفلسفة والدين والأدب ،فهيـأت حضارة العصور الوسطى لتصير بالتدريج حضارة العصور الحديثة .
فعصر النهضة اذن هو عصر ظهور الفرد وعصر ظهور وانتعـاش الآداب القديمة وعصر الفن والبناء وعصر المخاطر والكشوف الجغرافية وعصر بداية العلم الجديد وعصر النقد والتهكم على الاوضاع القائمة وكذلك عصر ظهور الكنائس المحلية المستقلة عن سلطة البابا كما حدث فى انجلترا أو المانيا وغيرها من البلاد ،وعصر ظهـور المخترعات الحديثة مثل البوصلة او الاسطرلاب Astorlabe .

وقبل مناقشة خصائص النهضة الاوروبية علينا ان نبين لماذا ظهرت النهضة الاوروبية فى مدن شبه الجزيرة الايطالية قبل غيرها من

مدن أوروبا ؟ وفى الواقع يرجع ذلك الى اسباب كثيرة نذكر منها :

١ — **الرخاء الاقتصادى**: لقد شاهدت مدن ايطاليا الشمالية تقدما سبقت به غيرها من مدن اوروبا ،فكان يسودها حالة انتعاش فكرى واقتصادى منذ القرن الحادى عشر نتيجة لسيطرتها على تجارة التبادل بين الشرق والغرب فى اعقاب الحروب الصليبية .وكانت مظاهر الحياة فى شبه الجزيرة الايطالية تختلف عنها فى البلاد الاوروبية الاخرى حيث ساد نظام الاقطاع الذى اعتمد على الزراعة كأساس للحياة الاقتصادية . اما فى الدويلات الايطالية فقد ظهرت الرأسمالية وبدلا من سيطرة طبقة النبلاء الاقطاعيين وكبار رجال الكنيسة تولى مقاليد الحكم فى هذه الدويلات الايطالية رجال من ذوى النفوذ من اهل المدن.وعلى ذلك فكان من الطبيعى أن يتحول الكثير من الناس عن تقاليد العصور الوسطى بما فيها من تقشف وزهد الى الاهتمام بالحياة الدنيوية والتمتع بها ودراستها .

٢ — **بعث الحضارة القديمة** : كان من الطبيعى ان تقوم حركة بعث الدراسات القديمة فى بلاد كانت هى نفسها مهدا للحضارة الرومانية القديمة . ولقد ربط الكثير من الآثار الأدبية والفنية القديمة أهل ايطاليا بتاريخهم القديم ،وسيطر على اذهانهم اعتقاد راسخ بأنهم حفدة الرومان وورثتهم وانهم اجدر الناس بالقيام على احياء تراث الرومان واستعادة أمجادهم .

٣ — **قيام حكومات قوية مستنيرة فى المدن** : من الخصائص التى تميزت بها الحياة السياسية فى ايطاليا انقسام البلاد الى دويلات سياسية وقيام حكومات مستنيرة فيها ،واحتدم بينها التنافس على

تشجيع الآداب والفنون ، وقد حكمت فيها أسرات تركت بصماتها قوية فى تاريخ البلاد ، فنذكر منها على سبيل المثال: اسرة ميدتشى Medici وقد حكمت فلورنسا ، وأسرة فيسكونتى Visconti وقد سيطرت على ميلان (١٢٧٧ — ١٤٤٧) ، وأسرة بورجيا Borgia وقد قبضت بيد من حديد على الولايات البابوية . ولجأ كثير من حكام هذه الأسر الى النظام الاستبدادى اسلوبا فى الحكم للاحتفاظ بسلطتهم . ومن هنا اطلق عليهم اسم "الطغاة" وعلى حكمهم "حكم الطغاة" وعلى الرغم من هذا الطابع الاستبدادى الذى اتسم به حكمهم فقد كان من أبرز ما تميزوا به هو تشجيعهم العميق للعلماء والادباء والفنانين ومن اليهم . وكان بلاط اولئك الطغاة تهوى اليه أفئدة هؤلاء الاعلام مما ساعدهم على مزيد من النبوغ والابداع والانتاج .

٤ — تأسيس المكتبات : حدث تنافس بين المدن المختلفة فى انشاء المكتبات واقتناء انفس الكتب وأغلى المخطوطات وأبدع الصور . فقد شيد كوزمو دى ميدتشى (Cosmo de Medici) مكتبة فى مدينة البندقية خلال الفترة التى كان منفيا بها ، ودعم مكتبة سان كو فى فلورنسا وجمع لها المخطوطات ، واهتم البابا نيقولا بمكتبة الفاتيكان واقتنى لها الكتب القديمة النادرة حتى أصبحت المكتبة تضم على عهده قرابة ١٢ ألف مجلد .

٥ — المجامع العلمية : ظهور ونموما يعرف باسم المجامع العلمية او الاكاديميات . وقد إسهمت فى نشر الدراسات الاغريقية واللاتينية ، اذ كانت بمثابة حلقات ثابتة للبحث والتدريس يلتقى

فيها الاساتذة ويلقون المحاضرات تعقبها المناقشات العلمية الموضوعية العميقة يشترك فيها الاستاذ وطلابه الدارسون،وقد حوت هذه المجامع العلمية ألوانا مختلفة من الدراسات القديمة مثل الفلسفة الاغريقية والموسيقى والرسم،وكانت الاكاديمية أشبه ما تكون بجامعة غير رسمية .

وقد تنافست الأسرات الحاكمة في المدن المختلفة في انشاء المجامع العلمية وتدعيمها ودعوة كبار الاساتذة لزيارتها والقاء المحاضرات بها. وقد فاقت فلورنسا سائر المدن في هذا المضمار بفضل رعاية اسرة ميدتشي للآداب والفنون فأنشأ كوزيمو دي ميدتشي اكاديمية افلاطون،وكانت اشهر الاكاديميات التي شهدتها شبه الجزيرة الايطالية. وبعد وفاة كوزيمو تعهد حفيده لورنزو هذه الأكاديمية وكان يجمع اعضاءها تارة في قصره في فلورنسا،وتارة في بيته الخاص كما تأسست في روما عام ١٤٦٠ أكاديمية على يد جوليوس لاتيوس Julius Loetus وجعلت مقرا للدراسات التاريخية والآثار. كما شهدت نابولي تأسيس أكاديمية على يد الفونس الخامس حاكم نابولي ، وتخصصت هذه الاكاديمية في دراسة الآداب . وقامت اكاديمية اخرى في البندقية اسمها الاكاديمية الجديدة أسسها الدومانوزيو Aldo Manuzio واهتمت بالدراسات الاغريقية وأخرجت بعضا منها الى عالم الطباعة ،لأن مؤسسها ألدو كان صاحب دار طباعة فدفع الى المطابعه ببعض الكتب القديمة .ولقد كانت الطباعة التي دخلت ايطاليا في عام ١٤٦٥ من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار النهضة الفكرية في ايطاليا .

٦ - الموقع الجغرافى : اكتسبت شبه الجزيرة الايطالية اهمية كبرى بسبب مركزها الجغرافى ،فهى تقع فى وسط البحر المتوسط الذى قامت على ضفافه أقدم الحضارات وأعرقها ،وفى وقت كان فيه هذا البحر مركز النشاط الاقتصادى فى العالم ،وكانت المدن الايطالية هى حلقة الاتصال بين اوروبا وبين الحوض الشرقى للبحر المتوسط وبلاد الشرق كانت بفضل موقعها من اقرب الاقاليم الاوروبية الى الدولة البيزنطية . فكان العلماء البيزنطيون يذهبون الى ايطاليا اما أساتذة زائرين يلقون المحاضرات وينشرون من الدراسات الانسانية ألوانا متعددة ،واما مهاجرين الى ايطاليا للاقامة الدائمة . ومن ناحية اخرى كان الايطاليون المهتمون بالعلم ينزحون الى الدولة البيزنطية للتعمق فى دراسة اللغة الاغريقية وآدابها وفنونها ثم يعودون الى بلادهم حملة المشاعل الفكرية .

٧ - طبيعة الشعب الايطالى : كان لدى الشعب الايطالى ميل طبيعى للحياة الفنية بكل صورها وأشكالها . فقد فتن بالموسيقى والرقص والاغانى والتصوير والنحت والعمارة والشعر وغير ذلك من أنواع الآداب والفنون . اما الحياة العسكرية والمعارك الحربية فقد باعد الشعب الايطالى بينه وبينها وعهد حكامه بها الى جنود مرتزقة كانت غالبيتهم من الالمان والسويسريين . وقد أوجد ذلك الميل الفنى فى الشعب الايطالى ثم عمقته العوامل السابقة ،وفى مقدمتها الرخاء الاقتصادى والحياة المرحة التى كانت تموج بها قصور الامراء حكام المدن الايطالية والناس على دين ملوكهم أو

أمرائهم . وقد أدت هذه العوامل وغيرها مجتمعة الى تفجير طاقات عقلية وفنية ، وظهرت مواهب متفتحة نحو الفن أخذ الحكام الامراء بيد اصحابها وأجزلوا لهم العطاء ولذلك برز الموهوبون الخلاقون المبدعون الذين عاشوا وانتجوا فى مجتمع حساس مرهف .

٨ – ومن اهم العوامل التى ادت الى ظهور النهضة فى ايطاليا أيضا ، هو ان شبه الجزيرة كان مقرا للبابوية . فعلى الرغم من أن روما فقدت مركزها السياسى كعاصمة للامبراطورية الرومانية الغربية منذ عام ٤٧٦ ، فانها غدت فى العصور الوسطى مقر البابوية وقبلة العالم المسيحى الغربى . وكان سقوط الامبراطورية قد جعل من البابوية القوة الوحيدة القائمة التى التف حولها المسيحيون فى الغرب طوال القرون التالية ورأوا فيها الزعامة والسند الكفيل بحمايتهم الامر الذى اضفى على شبه الجزيرة الايطالية مكانة ممتازة لم تتوافر لغيرها من البلاد الاوروبية ، وهكذا كانت الزعامة الدينية للبابا عاملا هاما اكسب الايطاليين شعورا بنوع من السيطرة الدينية على بقية انحاء اوروبا . وقد اصاب الايطاليون كسبا آخر من الناحية المادية نتيجة وجود مقر البابوية فى بلادهم ، اذ كانوا يظفرون بمعظم وظائف الكنيسة وكانوا يتقاضون مرتبات ضخمة منها . ولقد كان من الممكن ان تقف البابوية موقف المعارضة من النهضة وتعمل على وأدها لولا انها تحولت فى نهاية العصور الوسطى الى ما يمكن تسميته "**امارة علمانية**" ذات اطماع سياسية واسعة تعتمد على الغدر والنفاق واشعال نار الحروب ابتغاء اخضاع اجزاء من شبه الجزيرة الايطالية سياسيا للبابا . وهكذا أصبح البابا

– بجانب صفته الدينية كرأس للكنيسة المسيحية العربية – حاكما دنيويا لا يختلف عن الملوك والامراء المعاصرين له : فكانت له اقاليم بحكمها ويسيطر عليها بواسطة اجهزة حكومية تابعة له دب فى اوصالها الفساد، وكان له بلاط يعج بالموظفين وتفوح منه رائحة المجون والفسق. وبينما كان المسيحيون فى شمال اوروبا يستهجنون انغماس البابوية وبلاطها فى الملذات ، كان الايطاليون ينظرون الى هذا الانحدار الخلقى الذى تردت فيه البابوية كأنه أمر عادى. وكان كل مايثير اهتمام الايطاليين هو استمرار بقاء المقر البابوى فى روما كى تتدفق على بلادهم الاموال التى يجئ بها من البلاد الاوروبية مبعوثو البابوية. وكان البابوات ينفقون بعضها فى النهوض بالعلم ونشر المعرفة بانشاء المكتبات وشراء المخطوطات واقتناء الكتب واقامة الاكاديميات وجمع الكنوز الفنية وتجميل مدينة روما نفسها بعد الاهمال الشديد الذى تعرضت له ردحا طويلا من الزمن . ومن ثم أخذ البابوات ينافسون الامراء الايطاليين فى تشجيع الآداب ورعاية الفنون، وكان الادباء والفنانون يهرعون الى بلاط البابا يطمعون فى كرم العطاء. ويطلق على هؤلاء البابوات فى التاريخ الاوروبى الحديث اسم " **بابوات النهضة** "، مثل البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧–١٤٥٥) والبابا ليو العاشر (١٥١٣–١٢٥١) الذى شيد كنيسة القديس بطرس ؛

ونتيجة لهذه العوامل التى اوجزناها وعوامل اخرى قامت فى ايطاليا نهضة ثقافية عظيمة فى الناحية الادبية والفنيه ،وبقيام تلك النهضة ارتحل الى ايطاليا طلاب العلوم والفنون من أنحاء

اوروبا المختلفة ، كما ان النهضة قد تعدت حدود ايطاليا الى بقية اوروبا حيث اخذت طريقها فى النمو والتقدم ،لأن هذه الدول ايضا كانت قد بدأت فى التخلصمن تقاليد العصور الوسطى وأصبحت مهيأة لقبول النهضة الجديدة .

ولايفوتنا أن نشير هنا بصفة خاصة الى اثر العرب والحضارة الاسلامية فى قيام النهضة الاوروبية ،والدور الذى أسهم به العرب فى قيام حركة احياء الدراسات القديمة التى سنشير اليها عند الحديث عن خصائص النهضة الاوروبية .ولولا العرب لكان من الممكن ان يقضى على كل ما تركه اليونان والرومان من حضارات قديمة وتراث انسانى عظيم . ولقدقام المسلمون بتوصيل الحضارات القديمة الى غرب اوروبا فى اواخر العصور الوسطى وذلك بعد ان اضافوا اليها الكثير مما توصلوا اليه فى الفنون والعلوم المختلفة وكانوا بذلك حلقة الاتصال بين حضارة العصور القديمة والعصور الحديثة .

كما ان جزءا كبيرا من النهضة الاوروبية التى قامت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ويطلق عليها اسم "النهضة الوسيطة " يرجع الى اثر الحضارة التى نشرها العرب فى جنوب اوروبا حيث درس بعض علماء اوروبا ونقلوا فلسفة القدماء وعلوم العرب . وهؤلاء العلماء بالتالى بفضل ما نشروه من علومهم مهدوا الطريق للتقدم الثقافى الاوروبى الحديثه وهكذا اخذت الحضارة الاسلامية تزحف الى اوروبا منذ اواخر القرن الحادى عشر الميلادى ،وسلكت فى طريقها عدة معابر اهمها ثلاثة ،هى : شبه جزيرة ايبيريا أولا، وجزيرة صقلية ثانيا، وبلاد الشرق الادنى ، وما ارتبط بها من

حروب صليبيه ثالثا . وكانت البلاد التى تخضع للحكم العربى فى الاندلس كمدينة طليطلة Tolido مثلا من أهم المراكز للحضارة الاسلامية فى العالم، كما كانت ملتقى الطلاب من مختلف الجهات فقد نزح اليها كثير من طلاب العلم من المسيحيين والمسلمين الاوروبيين على السواء والتحقوا بمعاهدها . ولقد ادى قيام النهضة الوسيطة الى تمهيد طريق الرقى وتحرير العقل الاوروبى من القيود الثقيلة التى فرضتها عليه الهيئات والانظمة المختلفة وأصبحت النفوس مهيأة لقبول الانقلاب العظيم الذى حدث فى بداية القرن الرابع عشر اى النهضة الاوروبية الحديثة .

خصائص النهضة :

اما عن خصائص النهضة الاوروبية فمن الممكن ان نقسمها الى عدة نواحى :

اولا : الناحية الثقافية :

١ - تمتاز فترة عصر النهضة عن العصور الوسطى بظهور روح البحث والتشكك والنقد والاهتمام البالغ باحياء الأدب اللاتينى والاغريقى القديم . كما تمتاز فترة عصر النهضة بظهور الحركة الانسانية (Humanist Movement) وحركة احياء الدراسات القديمة وتشمل هذه الحركة عنصرين اساسيين هما الدراسات الاغريقية والدراسات اللاتينية . ولقد وصف احد كبار مؤرخى عصر النهضة الـ Humanists القائمين بهذه الحركة بقوله :

The Humanists were the midwaives of the new culture, the culture of renaissance أى كان الانسانيون

مولودو الثقافة الحديثة وهي ثقافة عصر النهضة ،ولم تكن الحركة الانسانية حركة شعبية ،كما انها لم تنبثق من داخل الجامعات بل ظهرت خارجها ،وكان هذا الوضع امرا طبيعيا لأن الجامعات كانت توجه معظم اهتمامها الى دراسة العلوم العملية وبخاصة الطب والقانون . وقد ظلت الجامعات حقبة طويلة معادية للدراسات الانسانية ،واعتمدت هذه الدراسات على التشجيع المادى والادبى الذى اضفاه حكام المدن الايطالية على المشتغلين بها . وهكذا بدأ اهتمام الناس يتغير بعد أن كان قاصرا فى العصور الوسطى على علم اللاهوت والقانون الكنسى والرومانى والفلسفة ، فأصبحوا اكثر ميلا للتمتع بالجمال والقيم الدنيوية الانسانية . وقد استهوت الدراسات الاغريقية واللاتينية افئدة الكثيرين من الاوروبيين فى ذلك الوقت،واعتقدوا انها اروع وأرقى وأجمل ما يمكن ان تنتجه عقول البشر،وان الفرد لا يمكن ان يتبوأ مكانا عليا فى المجتمع مالم يكن على حظ موفور من هذه الدراسات وقامت الحركة الانسانية على دراسة المخطوطات القديمة .وكانت الكاتدرائيات والكنائس والاديرة تزخر بعدد وافر من هذه المخطوطات ،وكانت على نوعين : المخطوطات الاغريقية والمخطوطات اللاتينية ،وقد نشط البحث أولا عن المخطوطات اللاتينية فى شبه الجزيرة الايطالية وفى سويسرة والولايات الالمانية وغيرها من اجزاء اوروبا . اما المخطوطات الاغريقية فقد اتجهت الانظار الى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ونشأت تجارة واسعة نشطة للمخطوطات،وكانت القسطنطينية قبل سقوطها فى يد الاتراك العثمانيين مركز هذه التجارة ، وكان يقصدها عملاء من حكومات

المدن الايطالية يقتنون المخطوطات الاغريقية او دارسون موفدون من قبل هذه الحكومات يدرسون اللغة الاغريقية فى القسطنطينية ويجمعون اثناء دراستهم عددا وافرا من المخطوطات . وهذه الحقائق التاريخية تنفى بكل تأكيد الخطأ الشائع بين جمهرة المؤرخين وهو ان سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح العثمانى قد أدى الى انتقال الثقافة الاغريقية الى اوروبا ، والى ظهور حركة الاحياء فى ايطاليا . ولكن مجئ الثقافة الاغريقية الى اوروبا انما كان فى الحقيقة قبل ذلك كما ان حركة التنقيب عن المخطوطات القديمة قد ظهرت فى ايطاليا قبل سقوط القسطنطينية بحوالى خمسين عاما . ومن الحقائق الثابتة ايضا انه حدث قبل سقوط القسطنطينية تقارب فكرى بين الدولة البيزنطية وبين المدن الايطالية التى اشتهر حكامها بتشجيع العلوم والفنون والآداب .

وسارت فى نفس الوقت حركة احياء الدراسات اللاتينية قدما نحو الازدهار ، لأن الايطاليين كانوا ينظرون الى اللغة اللاتينية على انها لغة الحضارة الرومانية ، وكان وراء هذه الدراسات عالم ايطالى يدعى بترارك (Petrarch) (Petrarque) (١٣٠٤-١٣٧٤) ، انصرف الى دراسة اللغة اللاتينية حتى سيطر عليها سيطرة تامة . واستطاع بترارك بفضل تمكنه من هذه اللغة ان يتذوق الاتجاهات الانسانية التى حفلت بها كتابات الرومان . وقد قام بترارك بجمع المخطوطات اللاتينية والنقوش وعمل جاهدا على نشر الدراسات الانسانية وتشجيعها حتى اطلق عليه "والد الانسانية" ونجح فى تكوين مدرسة فكرية تنتمى اليه وتتكون من مثقفين

متحمسين للدراسات الانسانية ،وقد ألف بترارك باللغة اللاتينية ملحمته الشهيرة افريقيا التى سرد فيها حوادث الحروب التى اندلعت بين روما وقرطاجنة ،ولكن لم يتح له اكمالها .

ومما ساعد على انتشار الدراسات الانسانية وذيوعها اختراع الطباعة التى تعتبر من اعظم الاختراعات التى شهدتها الانسانية واسهمت فى اثراء الحياة العقلية على مر العصور. وكان من الممكن طبع الكتب القديمة التى رخص ثمنها واصبح من السهل على المتأدبين او الانسانيين تداولها. ويعود الفضل فى استعمال الحروف المتحركة فى الطباعة الى كل من يوحنا جوتنبرج (John Gutenberg) حوالى عام ١٤٥٠ من أهالى ماينز Mains ولوران كوستر Coster من اهالى هارلم بهولنده ولقد انتشر هذا الاختراع فى ربوع اوروبا فى عصر لم يتقيد بحقوق الاختراع. ففى عام ١٤٦٥ دخلت الطباعة بحروف معينة الى ايطاليا ، ودخلت الطباعة باريس فى عام ١٤٧٠ ووصلت الى لندن فى عام ١٤٧٧ والى استوكهلم فى عام ١٤٨٣ ومدريد فى عام ١٤٩٩ . وكان الانجيل هو أول الكتب التى طبعت فى عام ١٤٥٤ - وقال البعض بأنه حين انتهى القرن الخامس عشر كان يوجد فى اوروبا ما يقرب من تسعة ملايين كتاب مطبوع. ولقد اكتشف الورق ايضا فى عصر النهضة ،وكان النجاح فى صنعه هو الذى مكن الطباعة من اداء رسالتها .

ومما يجدر ملاحظته ايضا هو ان صاحب المطبعة كان يجمع بين المامه التام بفن الطباعة وبين العلم الغزير والثقافة الواسعة ومن ابرز اعلام الطباعة الايطاليين الدوس مانوتيوس

Aldus Manutius (١٤٤٩–١٥١٤) الذى تعمق فى دراسة اللغتين الاغريقية واللاتينية ، واصبح متخصصا فى النقد والنحو وتاريخ الأدب وعلم الاخلاق .

٢ — ظهور اللغات الحديثة :

كانت اللاتينية هى لغة العلم والكتابة فى العصور الوسطى دون بها العلماء ثمرات انتاجهم ، ثم تضاءل استخدامها حتى اصبحت مقصورة على رجال الكنيسة فقد عمد بعض الكتاب والادباء المتحررين من قيود العصور الوسطى الى الكتابة بلغة شعوبهم فنشأت فى شبه الجزيرة الايطالية وفرنسا واسبانيا لهجات مستقلة تعتمد على الاصل اللاتينى . وظهرت فى شمال اوروبا لهجات اخرى ترجع الى أصل تيوتونى ، وعمد علماء كل لغة الى تكوين كلمات وعبارات جديدة والارتقاء بمستواها حتى اصبحت هذه اللغات الوليدة صالحة لتدوين العلوم والاداب بها ، واصبح الاهتمام بهذه اللغات القومية الوليدة مظهرا من مظاهر النزعة القومية وعاملا هاما ساعد على نشر الافكار الجديدة التى اتت بها النهضة . ففى ايطاليا كتب دانتى Dante (١٢٦٥ — ١٣٢١) كتابه الخالد "الكوميديا الالهية " باللغة الايطالية ، وفى فرنسا كتب مونتين Montaigne (١٥٣٣ — ١٥٩٢) باللغة الفرنسيه رسائل رائعة فى الفلسفة والاخلاق . وفى انجلترا وضع جفرى تشوسر Geoffrey Chaucer (١٣٤٠ — ١٤٠٠) قصص كانتربرى Canterbury Tales باللغة الانجليزية . هذا بالاضافة الى غيرهم ممن ظهروا فى مختلف البلاد الاوروبية وكتب كل منهم بلغة شعبه .

٣ ـ الاثار وعلم التاريخ

لقيت الآثار الرومانية اهتماما كبيرا بها فيعصر النهضة والمحافظة عليها من التلفوالضياع بسبب تعرضها لعبث النبلاء وغيرهم من طبقات الشعب ولكن في عصر النهضة شعر الناس بالقيمة الفنية الرائعة لهذه الآثار وأخذ العلماء ينقبون عنها وظهر عدد من المؤلفات تناولت تاريخ الآثار الرومانية وتخطيط روما القديمة وعادات الرومان القدماء. كما شهد عصر النهضة ايضا اهتماما كبيرا بعلم التاريخفتطورت مناهج البحث التاريخي وظهرت مدرسة جديدة فيالنقد التاريخي كان من أهم مظاهرها البحث الذى قام به أحد الايطاليين ،وهو لورنزو فالا عن" هبة قسطنطين " وهى وثيقة قيل انها ترجع الى القرن الثانيأو الثالث الميلادى واستند اليها البابوات فى العصورالوسطى فى صراعهم مع الاباطرة حول حقهم فيالسلطة الزمنية . ولكن النتيجة الهامة التى خرج بها هذا البحث هيان الوثيقة مزورة وبذلك تنهاوى جميع ادعاءات البابوات وقد تكونت مدرسة تاريخية فى فلورنسة أخرجت عديدا من الكتب التاريخية فى موضوعات شتى

٤ ـ الفنون الجميلة :

لقد نبغ الايطاليون فى مجال الفنون الجملة ،واليهم يرجع الفضل فياحياء الفنون التى كانت مزدهرة فى العصور القديمة ولقد قام الفنانون الايطاليونبكشف النقاب عن الآثار القديمة ، ولذلك فهم أصحاب الفضل الاولفى ابتكار الفن الحديث، اذ تحرروا من قيود العصور الوسطى وتقاليدها المتزمتة ،وكرسوا كل طاقاتهم

المبدعة في الارتفاع بمستوى الفنون الجميلة الحديثة الى اسمى درجات الكمال وبخاصة في فني النحت والتصوير. ويعتبر ليوناردو دافنشي Leonardo de Vinci ومايكل انجلو Michael Angelo ورفائيل Rafael اعظم الفنانين الايطاليين في عصر النهضة. ولقد تحرر هؤلاء الفنانون وأخرجوا صورا تنبض بالحياة أبرزوا فيها جمال الوجه البشري وسائر أجزاء جسم الانسان وصوروا جمال الطبيعة ومشاهدها الخلابة. فكان ليوناردو دافنشي مثلا (الذي ولد في فلورنسة ١٤٥٢ - ١٥١٩) اكثر عظماء النهضة براعة من نواح كثيرة فكان رساما ونحاتا وعالما مخترعا متقدما على عصره بعدة قرون، وكان مهندسا وموسيقيا ومبتكرا في فن الرقص، وكان كيميائيا ومؤلفا لكتاب من اقدم كتب التشريح. وللاسف فقدت معظم صور دافنشي، ولكن العالم عرف عبقريته من صورته المشهورة "العشاء الاخير" الموجودة في متحف ميلانو ومن صورة موناليزا Mona Liza المحفوظة في متحف اللوفر بباريس وهي سيدة من نابولي تدعى موناليزا جيرارديني Gherardini تزوجت في السادسة عشرة من عمرها على كره منها احد ضباط مدينة فلورنسه يسمى فرانشيسكو زانوبي دل جيوكندا Del Gioconda . وقد استغرق رسم هذه الصورة اربع سنوات أثبت فيها الفنان أدق التفاصيل بالرسم والالوان حتى خرجت الصورة معجزة فنية خالدة. وقد شرع دافنشي نظرياته في الفن في رسالته الشهيرة في التصوير، ومما قاله فيها: " ان اهم القواعد التي تقوم عليها نظرية التصوير كلها ان تكون اعمال الشخص المصور معبرة عن حالته النفسية كالرغبة والاحتقار والغضب والرحمة وما الى ذلك " .

أما الشخصية الاخرى فهى شخصية ميكل انجلو(١٤٧٥ — ١٥٦٤) الذى اشتهر بتعدد الجوانب الثقافية مثل دافنتشى ولكن ذاعت شهرته فى النحت وهو لا يزال غلاما . ولما ذاعت شهرته آواه لورنزو ميديتشى فى قصره وعين له مرتبا . وقد اثرت فيه وقت ما خطب سافونا رولا Savona Rola ولكن يبدو انه خشى ان يحوله سافونا رولا عن عقيدته ، فخرج الى البندقية قبل ان يتولى سافونا رولا حكم فلورنسة ، ثم انتقل منها الى روما حيث صنع تماثيله الشهيرة للالهة الوثنية ، ولكن استشهاد سافونا رولا اثر فى نفسه تأثيرا شديدا ، فقضى السنين التى تلت هذه الحادثة فى نحت المجموعة الرخامية الشهيرة التى تمثل العذراء والطفل .

وبينما كان مايكل انجلو عبوسا حزينا ساخطا على العالم كان معاصره العظيم رفائيل (١٤٨٣—١٥٢٠) فنانا سعيدا . وقد عين فى عام ١٥١١ رئيسا لمهندسى كنيسة القديس بطرس فى روما ، ولم ينقطع عن العمل فى نقشها طول حياته . وعلى الرغم من أنه مات وهو فى سن الشباب الا انه جسد العبقرية الايطالية فى فن التصوير بما خلفه من آثار فنية رائعة . وخير مايعرف به الآن صورة البابا يوليوس الثانى ، وعذراء سيستين Sistine وعذراء انسدى Ansidei وهى محفوظة بالمتحف البريطانى بلندن ، وقد بيعت بسبعين الف جنيه .

ولقد تنكب انجلو طريقة دوناتيللو (Donatello) (١٣٨٦ — ١٤٦٦) — وهو الفنان الذى دشن نتاج النهضة فى فن النحت — التى اقتنعت فى سذاجة بصورة العالم المنظور المباشر ، فأخذ

يبحث فى اسرار عن الحقيقة الكامنة وراء المظاهر. ومن أشهر اساتذة فن النحت ايضا الذين أنجبهم عصر النهضة لورنزى جيبرتى Lorenzo Ghiberti (١٣٧٨ - ١٤٥٥) .

وبالنسبة لفن العمارة فلم يندثر طوال العصور الوسطى، بل ظل قائما مزدهرا معتمدا على نماذج الفن القديم، ولكن فى عصر النهضة ظهر الاتجاه الى احياء الدراسات والفنون القديمة، وانعكس هذا الاتجاه على فن العمارة ، فأدخلت الخصائص والرسومات الهندسية التى كان يتبعها الاغريق فى مبانيهم القديمة. وشهدت فلورنسة هذا التطور الكلاسيكى فى فن البناء فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ومنها انتقل الى بقية انحاء شبه الجزيرة الايطالية ،وقد نبغ فى فن العمارة فى مطلع النهضة فيليب برينلسكو Burnellesco (١٣٧٧ - ١٤٤٦) الذى يعتبر رائدا فى هذا الميدان ومن أهم آثاره المعمارية هى القبة التى تتوج بها كاتدرائية فلورنسة مسقط رأسه .

٥ - التمتع بملذات الحياة والانغماس فيها :

وهناك مظهر من مظاهر عصر النهضة لايمكن اغفاله، الا وهو التغيرات العميقة التى احدثتها النهضة فى المجتمع الاوروبى وعلى وجه الخصوص فى ايطاليا. اذ برز دور النساء فى مجتمع النهضة ،واصبحت السمة الظاهرة فيه تقديس الجمال والتمتع بملذات الحياة ونعيمها. ونتيجة لانطلاق روح الخيال فى رجال عصر النهضة ونموه نموا عظيما ان استهان الناس بالآداب العامة وخرجوا على التقاليد والاخلاق. فلم يتقيد اهل ذلك العصر

بالروابط الزوجية . وليس معنى ذلك ان الناس انصرفوا عن حياة الاسرة نهائيا ، بل احتفظوا بها كعنصر تقليدى فى حياة المجتمع ولكنهم الى جانب ذلك أرادوا ان يعيشوا احرارا يمتعون انفسهم الى اكبر حدد ممكن . واصبح من الامور المألوفة ان يتطلع كلا الزوجين الى حياة العشق والهوى بعد الزواج . وكانت تحدث احيانا فواجع ومآسى وقتل وغدر وانتقام عنيف . كما ظهر الانحلال الخلقى ايضا فى الاغانى العاطفية المبتذلة العبارات المفضوحة المعانى . وقد عبر مارتن لوثر عن انتشار هذه الآثام تعبيرا مهذبا جاء فيه " ان كل من يذهب الى روما يشعر بأن عقيدته الدينية تترنح تحت الضربات التى تصيبه من جراء ما يرى هناك" .

وأصبح من الأمور المألوفة ايضا ان يخالف الافراد أوامر الحكومات التى سيطرت على الشعب بالعنف والقوة تارة ، وبالخداع والحيلة تارة اخرى . وامتدت هذه الحالة الشاذة الى رجال الدين والكنيسة . ولم يعد هناك ما يمنعهم من ان يشتركوا فى اعمال النهب والقتل والاعتداء على النساء . ولم يعد اهتمام الكنيسة موجها الى الدين والى مساعدة الفقير . وعاش البابوات انفسهم حتى قبل نهاية العصور الوسطى ، عيشة مخالفة لقواعد الدين والاخلاق . ونتيجة لهذا التدهور الخلقى الشديد ظهر رد فعل هذه النهضة فظهرت فى ايطاليا وفى خارجها حركات دينية تصوفية ترمى الى اصلاح المجتمع من الناحية الدينية والخلقية والسياسية . ويمثل هذا الاتجاه الاخير اى نحو التمسك بالفضيلة الراهب جيروم سافونارولا Jerome Savonarola (١٤٥٢ —

١٤٩٨) الذى جاء الى فلورنسه منفرارا Ferrara والتحق بنظام الرهبان الدومنيكان فى دير سان ماركو. وفى فلورنسة اغضبه اهتمام اهلها باحياء تراث القدماء واشادتهم بآثار افلاطون وارسطو، وانكارهم فى مناقشاتهم بعض اسس الديانة المسيحية. كما كره النهضة ونظر اليها على انها السبب فى التدهور الخلقى والاجتماعى الذى اصاب المجتمع. ولقد قال" ان الكنيسة ذاتها هى المسئولة المجرمة لتأثرها وخضوعها لمادية العصر" وساعدت كتابات سافونا رولا الفلسفية والدينية التى طبعت فى تلك الفترة على ذيوع صيته بين الناس، وعملت على اجتذاب المثقفين الذين ظلوا مترددين بازائه. واكتظ المستمعون اليه فى كاتدرائية فلورنسة حتى بلغوا ١٠٠٠٠ نفس. وعندما وعظ سافونا رولا الناس فى موسم الصوم الكبير فى عام ١٤٩١ ندد صراحة بجشع رجال الدين وحرصهم على جمع الذهب. وقال ان الفقراء مضطهدون مثقلون بأعباء لا قبل لهم بها. ومنهم من يطالب بأن يدفع ضرائب تبلغ ضعف دخله فى حين ان الاغنياء لا يدفعون الا مبالغ زهيدة وهم الذين يفرضون الضرائب تحقيقا لمصالحهم الشخصية دون رعاية مصلحة الشعب وهكذا وقف سافونا رولا وجها لوجه امام لورنزو، وبدأ بينهما كفاح صامت خفى، وكان كفاحا بين المبادىء وطرق التفكير وأسلوب الحياة العملية. ومضى سافونا رولا فى وعظه فهاجم القمار والمقامرين وحمل على المرابين، وتكلم عن ميلاد المسيح، وآثار شعور الناس بتنديده بما لقيه من التعذيب على ايدى اليهود.

وبعد وفاة لورنزو فى عام ١٤٩٢ لم يحتمل ابنه بيرو — الذى

لم تكن له ملكات ابيه فيادارة شئون تسكانيا وفى حفظ التوازن فيايطاليا- وجود سافونا رولا على الدوام فى ايطاليا،وحاول ابعاده ولكنه فشل . وسيكون للغزو الفرنسى لايطاليا فى القرن الخامس عشر آثر مهم فى حياةسافونا رولا،فستتاح له الفرصة لكى يخرج من ميدانالوعظ والخطابة الى ميدان الواقع العملى. وبعد ان ذاعت أنباء استسلام بييرو للملك شارل ملك فرنسا - سخط أهل فلورنسة وآخذوا يتجمعون فيالشوارع، وتطلعوا الى سافونا رولا لايجاد سبيل للنجاة من الاخطار . فخرج منعزلته وخاطب الناس قائلا: "انظروا هذا سيف اللهمصلتا على رقابكم،هذه تنبؤاتى قد تحققتوبدأ عقاب الله.... آيافلورنسة لقد انتهى زمنالغناء والرقص ، هذا وقت سكب الدموع من اجلخطاياك ،خطاياك يافلورنسا وخطاياك ياروما وخطاياك ياايطاليا هى التى جلبت هذا العقاب الآن . فأعلنوا بندمكم وصلوالله وكونوا متحدين.." وسقطت الحكومة واصبح سافونا رولا رجل الساعة وتمكن من انقاذ فلورنسة من الغزو والسيطرة الفرنسية. واستعانبه الفلورنسيونلابداءالنصح والمشورة للحكومة والشعب بوضعنظام حكمديمقراطى سليم. كمارآى سافونا رولا انه من المستحيلالغاء العادات القديمة الغاءتاما ورآى من المناسب تحويلها وجهة اخرى واستخدامها لاغراضه .فأبدل الاغانىالوثنية بأناشيد دينية ،ووضع لهمنظاما عسكريا. فكل فرقة منهم تمثل احد احياء المدينة ،ولها رئيس من بينهم،واستقبل اعضاء السيوريا Sigonoria هؤلاء الرؤساء،وبذلك أدرك الاولاد ان لهم اهمية فى نظر الحكومة .فامتلأت نفوسهم حماسةوفخرا. وهكذاجعل سافونا رولا من اولاد فلورنسا نوعا من"بوليس الاداب"

وكلفهم اتباع بعض التعليمات .فأصبحوا يذهبون بانتظام الى الكنائس وامتنعوا عن حفلات السباق وعن المراقص والمساخر، وارتدوا ابسط الملابس، وقصوا شعورهم حتى مستوى الاذن. ومضى سافونا رولا فى خطته فكان يجمع فى الميادين العامة فى فلورنسة الكتب المخالفة للمسيحية ويشعل فيها حرائق عامة . ويرى بعض الباحثين أن حركة سافونا رولا هذه تمثل السلوك المسيحى المضاد لتيار النهضة وقد ادت حملته على البابوية بوجه عام وعلى البابا اسكندر السادس (١٤٩٢–١٥٠٣) بوجه خاص الى اتهامه بالكفر كوسيلة للتخلص منه ، وقد تم اعدامه فى أحد ميادين فلورنسة فى مايو عام ١٤٩٨ واحراق جثته .

ثانيا – الناحية السياسية :

من المسائل البارزة التى نراها انحلال النظام الاقطاعى الذى ساد فى العصور الوسطى وقيام ملكيات قومية ذات سلطة مركزية وعلى اساس قومى . ولقد نجحت دول غرب اوروبا مثل انجلترا وفرنسا واسبانيا والاراضى المنخفضة فى توحيد المملكة وبسط السلطة المركزية فى انحاء البلاد ، ثم جاء عصر النهضة فساعد على دعم القوى الباعثة للقومية واستكمال الشخصية المستقلة للأمم وتمكنت هذه الأمم من تكوين الامبراطوريات العظيمة فى العصور الحديثة قبل غيرها ،فان تحقيق وحدتها قد ساعدها على ذلك دون شك، ولقد شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر نمو نظم الحكم ونشوء الدولة الوطنية الحديثة ولم تكن فكرة العصر الحديث عن معنى الدولة والامة مفهومة فى العصور الوسطى كما نفهمها حاليا ،فالأمم

الحديثة كالأمة الفرنسية والانجليزية والاسبانية وغيرها لم تكن اذ ذاك الا فى دور التكوين ولم تتنبأ الى شخصيتها المستقلة ووحدتها وكيانها الا فى اواخر تلك العصور. وقد استغلت الملكيات فى غرب اوروبا الطبقة الوسطى فى دعم مركزها تجاه النبلاء (**أمراء الاقطاع**) وتجاه كبار رجال الدين. فوجدت فى كل من أمراء الاقطاع ورجال الدين مصدر خطر يهددها لأن ولاء الجماهير موزع بين الملكية والكنيسة . وكان افراد الطبقة الوسطى لايتصورون بقاء امتيازات النبلاء ورجال الدين، ومن ثم تلاقت مصلحة الملكيات مع مصلحة افراد الطبقة الوسطى فى دول غرب اوروبا للحد من امتيازات الطبقتين الاخريين. وقدم افراد الطبقة الوسطى الاموال اللازمة للملكية لكى تنفذ بنجاح الاهداف المشتركة . كما استفادت الملكية استفادة كبرى من اختراع البارود الذى كان من نتاج عصر النهضة وعجز نظام الفروسية الذى اعتمد عليه امراء الاقطاع من الوقوف امام هذا التطور الحربى الجديد. وكان من اهم النتائج المترتبة على هذا الاكتشاف هى سرعة تدهور النظام الاقطاعى وانهيار نظام الفروسية واختفاء طبقة رقيق الارض Serfs وازدياد نمو الروح القومية واستخدام اللغات القومية على نطاق واسع، وقيام الملكيات ذات الحكومة المركزية الموحدة .

كما اختفى فى عصر النهضة اصحاب النظريات السياسية السائدة فى العصور الوسطى الذين كانوا يعتقدون بأن المسيحية كلها تكون دولة واحدة ويحكمها البابا والامبراطور بتفويض من الله ،يشرف الأول على الشئون الدينية والثانى على الشئون الدنيوية وظهرت

نظريات سياسية كان بعضهامعروفا منقبل لبعض الملوك مثل لويس الحادى عشر ملك فرنسا (١٤٦١ -١٤٨٣) وتبيح استخدام كافةالوسائل الخلقية وغير الخلقية لتحقيق اهداف الحاكم، وفيها تجاهل تام لتعاليم الاديان واخضاع جميع المبادىء للمصلحة السياسية على ان الجديد فىتلك النظريات انسياسيا من فلورنسة هو ميكيافللى وجد فى نفسه الجرآة على تسجيلها فى كتابه "**الأمير**" مطالبا بتطبيق هذه السياسة تطبيقا حرفيا لتنفيذ الوحدة الايطالية التى كانت تهفواليها نفسه .ونادى سياسى انجليزى هو توماس مور بنظرية تقول ان الهدف منقيام الحكومة هو السهر على مصالح المحكومين ، وتأسيسا علىهذه النظرية فان افضل الحكومات هىاقدرهاعلى هذا الواجب .وقدوضح هذه النظرية فى كتابه " **عالم الكمال** " Utopia صور فيه الدولة المثالية وشرح انظمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية .

أما بالنسبة لألمانياوايطاليا فكانتا تكونان فىالعصور الوسطى الامبراطورية الرومانية المقدسة ،وقد تداعى نفوذ الامبراطور فيهما خلال القرنينالثانى عشر والثالث عشر لأن الامبراطور واجه فى المانيا خصوما اشداء هم حكام الامارات الاقطاعية التى كانت وحدات سياسية ،كان بعضها ذا طابع دينى يحكمه اسقف اوكبير اساقفة ، والبعضلآخر ذا طابع علمانى يحكمه أمير .ومن ناحية اخرى كان بعضهذه الوحدات السياسية عبارة عن مقاطعة كبيرة ،والبعض الآخرلميكن يتجاوز مدينة . ولما جاءت النهضة الاوروبية حاول الامبراطور الاستعانة بالمدن وأفراد

الطبقة الوسطى لدعم مركزه تجاه الأمراء ورجال الدين وكانوا يسيطرون على الارض ويحكمون الامارات الاقطاعية ،ولكن كان هؤلاء الحكام أحرص على الاحتفاظ بإماراتهم وامتيازاتهم من تحقيق وحدة سياسية فعلية تجمع شتات الوطن الالمانى • وظلت المانيا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ممزقة الى وحدات سياسية تجاوز عددها ٣٥٠ وحدة تشكل خليطا غير متجانس فى التكوين الجغرافى والاتجاه السياسى والمستوى الاقتصادى ،ولكن جمعت بينهما الجرمانية فى الجنس وفى اللغة ،وعلى ذلك لم يكن للنهضة تأثير على الاوضاع السياسية الداخلية فى المانيا • أما ايطاليا فعلى الرغم من ان مدنها كانت مهدا لمولد النهضة وازدهارها ، فانها لم تستفد شيئا من النهضة سياسيا • فلم تقم بها حكومة مركزية موحدة تبسط نفوذها على سائر انحاء البلاد ولكنها ظلت موزعة بين وحدات سياسية ناصب بعضها البعض العداء ، وخضع بعضها للنفوذ الاجنبى المباشر حينا • واكثر من ذلك اصبحت ايطاليا ميدانا لصراع رهيب بين ملكى فرنسا واسبانيا من اجل السيطرة على اوروبا ، وهذا ما يعرف باسم " **الحرب الايطالية** " •

ثالثا ـ الناحية الاقتصادية :

صاحب النمو فى الحركة الاقتصادية اتساعا فى نطاق التجارة الاوروبية الأمر الذى أدى الى الكشوف الجغرافية التى حدثت فى اواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، ومهدت الطريق لانتشار الحضارة الاوروبية فى جميع انحاء العالم وقد نتج عن الثورة التجارية التى اعقبت حركة الكشوف الجغرافية

تغيير كبير فى النظم الاقتصادية الاوروبية - فبدلا من الاقتصاد الذى قام فىاوروبا الوسطى وكاناقتصادا زراعيا ذا كفاية محلية Self Sufficent يسوده الركود، وجدت نظم اقتصادية ذات طابع تجارى زراعى متداخل،وقد اصبحت هذه النظم الاخيرة هىالقائمة فى القرون الثلاثة التالية لهم وكانت الاساس الذى قامت عليه الثورة الصناعية •

حركة النهضة خارج ايطاليا :

وضحنا فى المحاضرات السابقة كيف انالمدن المتناثرة فى شبه الجزيرة الايطالية اصبحت مهدا للنهضة والتطور الفكرى والثقافى ، ولكنمظاهر الحضارةفىايطاليا اخذت تخبو فىالسنوات الأخيرة من القرن الخامسعشر عندمابدأت الحروب الايطالية التى كانتمظهرا من مظاهر التنافسالدولى بين فرنسا واسبانيا• فمنذ ان غزا شارل الثامن ملك فرنسا،ايطاليا فى عام ١٤٩٤ أصبحت ايطاليا ميدانا لهذا الصراع الذى استمر من عام ١٤٩٤ حتىعام ١٥٥٩• كما كاناستيلاء قوات الدولة الرومانية المقدسة على روما فىعام ١٥٢٧ ايذانا بانهيارالنهضة الايطالية• اما العاملالثانى الذىاسهم فى تدهور النهضة الايطالية فكان ظهورحركة الاصلاح الدينى التى تزعمها مارتنلوثر فىالمانيا• وقد نقم البابوات على تلكالحركة واعتبروها ثمرة من ثمراتحركة احياء العلوم والآداب والفنون القديمة، ولذلك قام البابوات بمعارضة الحركة الانسانية

ولكن قبل ان يبدأ اضمحلال النهضة فىايطالياتسربت روحها

ومظاهرها الى ما وراء جبال الالب الى جهات متفرقة من القارة الاوروبية وذلك عن طريق الطلاب الذين كانوا قد جاءوا من انحاء اوروبا الى المدن الايطالية ينهلون من مراكز النهضة. وقاموا بعد عودتهم الى بلادهم بنشر تلك الافكار والآراء الجديدة. وكان اكبر داعية للنهضة خارج ايطاليا هو ارزمس Desiderius Erasmus (١٤٦٧- ١٥٣٦) وهو عالم هولندى ولد فى روتردام، تنقل للتدريس بين ايطاليا وانجلترا كما زار سويسره وباريس وكان من اهم اعماله اخراج نسخة الكتاب المقدس اليونانية (العهد الجديد) مصحوبة بترجمة لاتينية من عنده . وكان ارزمس يرى ان الدراسات الانسانية وسيلة لغاية هى اصلاح المجتمع الاوروبى وتخليصه من الشرور والآثام والفضائح الخلقية التى كانت ترتكب جهارا. وكان يهدف من وراء نشر النسخة الاغريقية الاصلية للانجيل هو ان يعود الناس فى اوروبا الى المسيحية الاولى فى بساطتها ونقائها. وكان يدرك ادراكا تاما التدهور الذى اصاب الكنيسة نتيجة سلوك كبار رجال الدين وحياة البذخ والفساد، ولذلك كان ارزمس فى طليعة الرواد الذين دعوا الى الاصلاح الدينى. كما كان يرى فى التعليم أرقى مهنة ومن كتاباته المشهورة تقريظ الجهالة The Praise of Folly ولعله اشهر مؤلفاته (١٥١٢) والامثال Adgia (١٥٠٠) والاحاديث Colloquia (١٥٢١)، وكلها ملأى بالنقد الساخر الموجه الى المساوىء المنتشرة فى عصره لاسيما بين رجال الكنيسة ، وقد توفى فى مدينة بال بسويسره عام ١٥٣٦، وقد اطلق عليه بعض المؤرخين فولتير اللاتينى.

١ - أما بالنسبة مثلا لانتشار النهضة فى المانيا ،فلم تجد

الدراسات الانسانية فى الاوساط العلمية والدينية اول الأمر ظروفا ملائمة تنمو فيها على الرغم من تشجيع بعض الحكام للقائمين بهذه الدراسات . فقد حدث معارضة رجال الدين الالمان من انتشار هذه الدراسات على نطاق واسع وقد ربطوا بين الدراسات الانسانية وبين ايطاليا باعتبارها مهد الدراسات الانسانية منذ بدأت النهضة وكان الالمان بوجه عام ورجال الدين بوجه خاص يشعرون بمقت شديد لرجال الكنيسة فى روما نظرا لما كان يتناقله الناس فى احاديثهم ومجالسهم من اخبار تدل على تدهور رجال الكنيسة فى روما ، وعلى هذا النحو نرى ان النهضة فى المانيا اتجهت اتجاها علميا ودينيا لأن الالمان لم يقنعوا بمجرد التقليد ، بل انكبوا على الدراسة العلمية والدينية معا بدلا من الاقتصار على الدراسات الانسانية وقد تمثلت نزعة الالمان العلمية فى يوحنا مولر Muller (١٤٦٣ - ١٢٥٦) الذى اختص بدراسة الفلك ووضع عدة تقويمات بحرية وارشادات فلكية افادت المستكشفين البرتغاليين والاسبانيين . كما ظهر فى المانيا يوحنا روكلن (Reuchlin) (١٤٥٥ -١٥٢٢) أحد أعلام الفكر الالمانى الحديثه وقد تخصص فى الدراسات الاغريقية واللاتينية فى روما وغيرها من مدن ايطاليا وفى باريس وبال ، وجاهد فى نشر هذه الدراسات بين الالمان ، كما اهتم باحياء دراسة اللغة العبرية . واهتم بدراسة هذه اللغة لخدمة الديانة المسيحية على اساس أن العبرية هى الوسيلة العملية لدراسة وتفهم كتاب "العهد القديم" وقد قام جدل بين روكلين وبين احد زملائه من المفكرين حيث هاجم زميله الدراسات الانسانية ولكن الرأى العام الالمانى وقف الى جانب روكلين . وعلى آية حال ادرك الالمان من خلال هذا الجدل العنيف

اهمية الدراسات الانسانية فيشرح الكتاب المقدس وبالتالى فى تفهم الديانة المسيحية على اساس سليم ،ومن هنا حدث ارتباط وثيق بين الدراسات الانسانية وبين الرغبة فى الاصلاح الدينى ،وهى رغبة جاشت فى صدور الجماهير الالمانية . ومن ثم اتخذ دعاة الاصلاح الدينى الدراسات الانسانية وسيلة لتحقيق رغبتهم بعد ان كان رجال الدين يعارضون هذه الدراسات .

حركة النهضة فى فرنسا :

تسربت عوامل الحضارة فىايطاليا الى فرنسا ،منذبدأ الاتصال بينها وبين فرنسا بنزولشارل الثامنايطاليا عام ١٤٩٤،ومن ثم آخذت حركة احياء الدراسات القديمة ،تؤتى ثمارها فى بناء الحضارة الحديثة فى فجرها الاول فىفرنساوكان العالم الايطالى جيروم الياندر Jerome Aleandre الذىجاء الى باريس فى عام ١٥٠٨ ، وحاضر بجامعتها فى اليونانية واللاتينية والعبرية أول من نبه الاذهان فى فرنسا الى دراسة اللغات القديمة بصفة حاسمة . ثمتزايد اهتمام ملوك فرنسا بعد ذلك بالدراسات الانسانية فأنشأ كلية فرنسا Le College de France فى عام ١٥٣٠ فى باريس وعينوا لها اساتذة متخصصين فى اللغة الاغريقية بوجه خاص . ونشطت فى باريس حركة نشر الكتب الاغريقية وآسست مطبعة يونانية متخصصة لنشر هذه المؤلفات . وتذخر النهضة فى فرنسا بأسماء اعلامها المشهورين مثل جيوم بوديه Guillaume Bude (١٤٦٧ — ١٥٤٠) وكان منآكبر العلماء المتخصصين فىاللغة الاغريقية وهو الذى زين لفرنسوا الاول ملك فرنسا انشاء كلية فرنسا . ومن بين هؤلاء الاعلام ايضا

فرنسوا رابليه Rabelaio (١٤٨٣-١٥٥٣) وقد تعلم الطب وأصبح استاذا فى علم التشريح،وكان اول من خالف أمر البابا وشرح جثة انسان .ونذكر ايضا فىسياق حديثنا عن اعلام النهضة فى فرنسا دوليه Dolet (١٥٠٩ – ١٥٤٦) الذى تخصص فى القانون والدراسات الكلاسيكية، وبيير ليسكو Lescot (١٥١٠ – ١٥٧٨) الذى تخصص فىالحفر وخطط عمارة اللوفر وبدأ فىبنائها،ومما تجدر الاشارة اليه فىهذا المجال ايضا ان الانتاج الذىقام به علماء فرنسا فى عصرالنهضة كان مزجا بين القديم الذىيتمثل فى المخلفات الاغريقية والرومانية وبين الجديد الذى يتمثل فى خصائصهم الذاتية .ويتضح هذا الفارق بين الانتاج الايطالى والانتاج الفرنسى فى قطاع الادب والبناء والنحت.

حركة النهضة فى انجلترا :

تأخر دخول الدراسات الانسانية الىانجلترا بعض الوقت بسبب انشغالها بحرب المائة عام (١٣٣٧– ١٤٥٣) مع فرنسا،ثم بحرب الوردتين (١٤٦١ – ١٤٨٥) .وبعد انتهاء الحرب الاخيرة أخذت الدراسات الانسانية سبيلها الى انجلترا .وكانجماعة من الانجليز من اكسفورد قد ذهبوا الى ايطاليا ودرسوا اللغات القديمة فى فلورنسة والبندقيةوروما. ولما عادوا اتخذوا من اكسفورد مكانا لالقاء محاضراتهم ونشر آرائهم الجديدة،فأطلق عليهم اسم" **مصلحو اكسفورد**" Oxford Reformers ولقد حاضر ارزمس عندزيارته الاولىلانجلترا عام ١٤٩٩فىاكسفورد، ثم حاضر فيما بين١٥١٠و ١٥١٣ فىجامعة كمبردج . ولقد اهتممصلحو اكسفوردبالدراسات الادبية القديمة وطالبوا بتحرير الفكر الانسانى من القيود التى كانت

الكنيسة تفرضها على حرية البحث العلمى وحرية الفكر. ومن أعلام النهضة فى انجلترا توماس كوليت Thomas Colet الذى لم يكن من الاساتذة المعروفين قبل سفره الى ايطاليا ولكن بعد عودته منها ادهش اساتذة اللاهوت فى اكسفورد بأن اذاع انه ينوى المحاضرة فى رسائل سانت بول فى الجامعة وقام بادخال اللغة اللاتينية فى جامعة اكسفورد. ومن الذين عملوا ايضا على نشر الدراسات الانسانية سير توماس مور More صاحب كتاب Utopia وكلاهما (مور وكوليت) كان صديقا لارزمس وتعاون الثلاثة على نشر الانجيل .

وانتقلت الدراسات الانسانية من جامعة اكسفورد الى جامعة كمبردج بواسطة ارزمس الذى كون حلقة من الدارسين الشغوفين بتلك الدراسات . وتعاقب بعد ارزمس عدد من صفوة الاساتذة الانجليز يحاضرون فى اللغة الاغريقية حتى اصدر الملك هنرى الثامن فى عام ١٥٤١ مرسوما ملكيا بانشاء خمسة كراسى استاذية فى جامعة كمبردج للغة اليونانية والعبرية واللاهوت والقانون المدنى والطبيعة وفى النصف الاول من القرن السادس عشر اصبح كوليت عميدا لكاتدرائية سانت بول وأنشأ مدرسة سماها مدرسة سانت بول Saint Paul وأدخلت اليونانية واللاتينية القديمة فى مناهج المدرسة . وعلى العموم آخذت النهضة فى انجلترا طابعا دينيا يستهدف خدمة المسيحية ،ولذلك لم تكن النهضة فى انجلترا مقصورة على الآداب والفنون بل شملت ايضا الدين،وحاولت التوفيق بين الفن والعقيدة وبين الجمال والدين . وظهرت فى انجلترا تراجم لاعلام الفكر القديم مثل هوميروس وبلوتارك وغيرهم ،كما نقلوا كتابات آدباء ايطاليا

فى عصر النهضة . وعلى هذا المتقدم انجلترا خلال القرن السادس عشر روائع ادبية مبتكرة الى الدراسات الانسانية حتى جاء القرن السابع عشر فبلغ الانتاج الادبى فى اللغة الانجليزية الذروة فى الروعة والابداع ،وقد تمثل ذلك فى انتاج وليم شكسبير Shakespeare (١٥٦٤ – ١٦١٦) وجون ملتون John Milton (١٦٠٨ – ١٦٧٤).

حركة النهضة فى شبه جزيرة ايبيريا :

انتقلت بذور الحركة الانسانية الى شبه جزيرة ايبيريا عن طريق عدد غير قليل من التلاميذ الذين زاروا ايطاليا فى القرن الخامس عشر ،وكانت شبه جزيرة ايبيريا فى اوائل القرن السادس عشر مهيأة للدراسات الانسانية كبقية جهات اوروبا ،ولكن الخوف من بوادر حركة الاصلاح الدينى دفع الامبراطور شارل الخامس ملك اسبانيا الكاثوليكى والبابا كلمنت السابع الى عقد اتفاق فى بولونيا فى عام ١٥٣٠ استهدفا منه تصفية الحركة الانسانية ،ونجم عن هذا الاتفاق ان اصبح للدراسات الانسانية فى اسبانيا خصوم أعز نفرا وأقوى نفوذا واستعانوا بمحاكم التفتيش تنكل وتبطش بأصحاب الدراسات الانسانية وتعتبر اسبانيا مسئولة عن تأخر هذه الدراسات فى الاراضى المنخفضة (بلجيكا وهولندا) لانها كانت تابعة لاسبانيا وفرض عليها نفس الحجر الذى فرض على الدراسات الانسانية فى اسبانيا ،وما لبث ان قامت الثورة فى الاراضى المنخفضة مطالبة بالاستقلال عن اسبانيا وفى اثناء الصراع العسكرى المرير بين فيليب الثانى ملك اسبانيا وثوار الاراضى المنخفضة انشئت جامعة ليدن Leyden تخليدا لذكرى انتصار الهولنديين على الاسبان فى عام ١٥٧٤ وسرعان ما

اصبحت هذه الجامعة مركزا هاما للدراسات الانسانية ،واهتمت بالدراسات اللاتينية وبخاصة مايتصل منها بالتاريخ والآثار .

أما عن اثر النهضة فى روسيا والبلقان الذى كان خاضعا للدولة العثمانية فلم يتعد بعض مظاهر فردية ،كما لم يحدث اى تغير فى المجتمع او نظم الحكم او الفنون او الدين أو الأدب . ومن هذه المظاهر الفردية صورة رسمها احد فنانى مدينة البندقية للسلطان محمد الفاتح ووضعت فى قصر السلطان فى استانبول،وتشييد قصر الكرملين فى موسكو وقد اقتبس تصميمه من ميلان .

عرض سريع لبعض أعلام النهضة الأوروبية الأوائـــل

١ - دانتي اليجييري Dante Aleghieri (١٢٦٥ - ١٣٢١)

لا تكتمل دراسة النهضة فى ايطاليا دون الاشارة الى أحـــد أعلامها الأوائل الذى بدأ به تاريخ الادب الاوروبى الحديث . كما يعتبر دانتي من رواد اللغة الايطالية التى كتب بها معظم انتاجه الادبى وكان قد وضع باللغة اللاتينية رسالة فلسفية سياسية أسماهـــا الملكية (de Monarchia)وقد قسمها الى لغتين : لغة عامية ولغة فصحى. ولقد ولد دانتيفى فلورنسة وتعلم فى بادوا وبولونـا فى شبه الجزيرة الايطالية ثمفى باريس واشتغل لفترة معينة فـــى الحياة السياسية فى فلورنسة ولكنه نفيمن فلورنسة علىايدىأنصار البابا الذين تغلبوا على أنصار الامبراطور الالمانى ،فأخذ ينتقل من مدينة الى أخرى حتىتوفىفىرافنا .وفىاثناء نفيه تعمق فـــى المطالعات الاغريقية واللاتينية وأخرج الكوميديا الالهيـــة (Divina Commedia) والتى تحدث فيها عن زيارة خيالية قـام بها للجحيم والجنة ،وتكلم خلالها معنزلائها من رجال الأدب والعلم والدين والسياسة . والأساس فىالكوميديا الالهية هو الرغبة الدينية الشديدة فى معرفة اسرار الحياة الاخرى .

وقد نجح دانتيفى تصوير العدالة الالهية يوم الحشر أروعتصوير وتنقسم الكوميديا الالهية الىثلاثة أقسام : الجحيم، المطهر(سـور الجنة أو الاعراف) والفردوس ، وهذه الأجزاء الثلاثة تضم مائـــة أنشودة ، اربعا وثلاثين للجحيموثلاثا وثلاثين لكل من المطهر(الاعراف)

والفردوس واختلفت تفسيرات الباحثين حول الاهداف التى من أجلها كتب دانتى الكوميديا الالهية ،فمنهم من يرى انه أراد تخليد اسم معشوقته ،ومنهم من يرى انه توخى التشفى والانتقام من أعدائه السياسيين ،على ان الفكرة التى يخرج بها دارس الكوميديا الالهية ان صاحبها أراد وعظ أبناء جيله الذين ضلوا سواء السبيل فأسرفوا فى ارتكاب المنكرات والجرائم وقد أراد أن يرشدهم الى السعادة الأبدية ،ويتضح هذا الوعظ من ثنايا ماجاء فى الكوميديا الالهية اذ قال : " اننا ظللنا نرتكب الخطايا الى ان وافتنا المنية ، فاستنارت بصائرنا واستغفرنا الذنوبنا وتبنا منها الى الله " . والكوميديا الالهية بمثابة موسوعة أو دائرة معارف مصغرة تعرض فيها دانتى بأسلوب جذاب لشتى انواع المعرفة من مذاهب فلسفية واتجاهات سياسية ومبادىء دينية مر بها المجتمع على توالى العصور . فهى ثمرة لقاء فكرى بين الثقافات العربية والمسيحية واللاتينية والاغريقية . ولكن يظهر فيها بوضوح اثر التراث الشرقى العربى الاسلامى ، فقد نهل دانتى الكثير من هذا التراث الذى كان قد انتشر فى اوروبا منذ استيلاء العرب على اسبانيا ،وسرعان ما أصبحت الاندلس طريقا رئيسيا من طرق الثقافة العربية الاسلامية الى أوروبا منذ اواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

كما وضع دانتى رسالة باللغة اللاتينية سماها "**الملكية**" de Monarchia وقد قال فيها ان الحرب هى آفة التقدم وان السلام العالمى يجب ان يكون هدف الساسة ،وقال كذلك ان قيام الدولة العالمية أمر لا مناص منه لتحقيق السلام العالمى الذى يجلب

معه الخير والسعادة للبشرية .ووضع أيضا كتابا آخر باللغة الايطالية سماه "الوليمة" II Convivio عالج فيه موضوعات شتى فى السياسة والحكمة والاخلاق والحب . وتتمثل الفلسفة السياسية فى مؤلفات دانتى فى ان مثله الاعلى فى نظم الحكم السياسية الامبراطورية الرومانية المقدسة ،وانه كان لا يحبذ قيام النظام الجمهورى ، وان هدفه سيطرة القانون لا الحرية .

٢ - نيقولا ميكيافيللى (١٤٦٩ - ١٥٢٧)

ولد ميكيافيللى فى فلورنسة فى عام ١٤٦٩ من أسرة متوسطة الثراء. وحصل ميكيافيللى على قسط من التعليم أهله ليتدرج فى الوظائف الحكومية فى فلورنسة ،فعين سكرتيرا عاما للحكومة بعد أن استشهد سافونا رولا ،وأرسل رسولا فى عدة بعثات دبلوماسية دقيقة كان بعضها الى خارج ايطاليا،والبعض الآخر الى الامارات المختلفة فى شبه الجزيرة الايطالية لتنفيذ السياسة الخارجية لفلورنسة . وقد استفاد ميكيافيللى كثيرا من هذه البعثات الدبلوماسية ،فخبر الكثير من خفايا السياسة الدولية ، ولمس عن كثب اخلاق رجال السياسة ، وأضاف الى حصيلته العلمية الكثير من المعلومات والآراء السياسية وكان من بين الآراء التى خرج بها من تجاربه ان اعتماد دولة ما على دولة اجنبية فى الدفاع عن اراضيها يعتبر نكبة تؤدى الى ضياع الدولة الاولى .وبناء على ذلك رأى ان سلامة فلورنسة تتطلب انشاء جيش وطنى قوى بدلا من الاعتماد على الجنود المرتزقة ، وكان أمرا مألوفا فى تلك العصور استخدام الجنود المرتزقة فى الدفاع عن المدن

الايطالية وفى تكوين الجيوش الاوروبية عامة . وقد بذل ميكيافيللى جهدا مضنيا فى انشاء جيش قوى لفلورنسة دل على صدق وطنيته ورغبته فى حماية مدينته .

وحدث أن أراد البابا يوليوس الثانى الذى جلس على كرسى البابوية عام ١٥٠٣ اجلاء الفرنسيين عن ايطاليا ، وكان على فلورنسة ان تختار بين صداقة البابا الطموح وبين صداقة حليفتها فرنسا . واختارت فلورنسة صداقة فرنسا ،وأوفدت حكومة فلورنسة ميكيافيللى الى لويس الثانى ملك فرنسا لابلاغه استمساك فلورنسة بتحالفها مع فرنسا ،واشتعلت الحرب بين فرنسا وبين البابا يوليوس الثانى واستطاع اجلاء الفرنسيين عن ايطاليا ولكنه استبدل النفوذ الاسبانى بالنفوذ الفرنسى ، وكان من نتائج هذه الأحداث أن سقطت الجمهورية الفلورنسية وعادت آسرة ميديتشى الى الحكم ،وطرد ميكيافيللى من منصبه ، وأصبحت فلورنسة خاضعة خضوعا تاما للأسرة ممثلة فى الكاردينال جيوفانى ميدتشى . ورغم ذلك عرض ميكيافيللى خدماته على اسرة ميدتشى آملا فى استرداد وظيفته ولكن الحكومة الجديدة لم تقنع بعزله بل آمرت بنفيه مدة عام على ان يبقى فى حدود دولة فلورنسة ،ولما لم تسفر مساعيه فى العودة الى منصبه عن النتيجة التى كان يبتغيها رأى ان ينتقل بمواهبه وخبراته من ميدان السياسة الى ميدان التأليف . فشرع يؤلف فى منفاه كتاب "الأمير" وقدمه لأسرة ميدتشى ثم وضع كتابا آخر بعنوان " تاريخ فلورنسة "،وكتابا ثالثا بعنوان " فن الحرب " .

وعندما سطورت الاحداث بسرعة داخل فلورنسة ،وقام أهلها بثورة على أسرة ميدتشي وأعلنوا النظام الجمهوري تطلع ميكيافيللي الى استعادة منصبه القديم ،ولكن أعرض عنه رجال النظام الجديد لتعاونه السابق مع اسرة ميدتشي . وأثرت هذه الانباء في نفس ميكيافيللي ومات حزينا في عام ١٥٢٧ .

ويعتبر ميكيافيللي هو الذي وضع أساس الفلسفة السياسية التي كان لها اكبر الاثر في تاريخ اوروبا حتى آخر القرن الثامن عشر ، وكتاب " الامير " الذي وضعه عبارة عن دراسة مستفيضة عن أصول الحكم وفن السياسة وشرح فيه الاماني القومية التي كانت تجيش بها نفسه ومنها تحرير بلاده من الجيوش الاجنبية التي تحتلها ،وقيام وحدة سياسية تجمع شتات الوطن الممزق ، وانشاء جيش وطني قومي يحمي البلاد. والكتاب لا يقتصر على دراسة العصر الذي عاش فيه ميكيافيللي بل يتعرض للتاريخ القديم بوجه خاص يستقي منه مادة علمية غزيرة تؤيد الآراء السياسية التي يبسطها على امل ان يأخذ بها الامير الذي يأخذ بيد ايطاليا نحو الحرية والوحدة والاستقلال فهو يشير الى احداث معينة في تاريخ اسبرطة واثينا وطيبة والفرس وامبراطورية الاسكندر المقدوني والامبراطورية الرومانية مما يدل على انه كان على علم موفور بالتاريخ القديم ونظريات وآراء فلاسفة العصور القديمة ، فالكتاب يشتمل من ناحية على آراء استمدها من دراسة الماضي وتجارب الحاضر، ويتضمن من ناحية اخرى نصائح وارشادات يقدمها للامير كي يسترشد بها في حكمه ليصل الى أوفى قسط من القوة والمنعة .

والامير الذى يصفه ميكيافيللى فى كتابه هو امير ايطالى ، ولكنه يحمل سمات أمراء عصر النهضة ، وهو حاكم مستبد طاغية ، وهو فى تقديره لا يمكن ان يكون الحاكم غير ذلك اذا اريد تحقيق الاهداف القومية على يديه .وهو يقصد بكلمة "الامير" ما نعبر عنه فى الوقت الحاضر بلفظة "الملك" ولكنه ملك لدولة صغيرة أو دويلة لأن ايطاليا كانت لاتزال تعبيرا جغرافيا وكانت ممزقة الى وحدات سياسية صغيرة أو امارات . وخيل لميكيافيللى ان الصورة التى رسمها فى كتابه للامير الذى ينقذ ايطاليا قد تستهوى خيال احد امراء اسرة ميدتشى فيأخذ على عاتقه عبء النضال القومى .

وتعرض ميكيافيللى فى كتابه الى نظم الحكم واختيار افضل النظم التى تكفل النهوض ببلاده ،وقد رأى أن وطنه تمزقه الجيوش الاجنبية . ووضع بعض الشروط عن كيفية قيام امير جديد بانشاء دولة جديدة . وكان أول شرط طرحه هو مقدرة هذا الامير على ايجاد الوحدة السياسية بين الولايات الايطالية المختلفة سواء تمت الوحدة بالعنف وشن الحروب او بالاقناع والمسالمة . كما تعرض ميكيافيللى لموضوعات خطيرة منها مدى محافظة الامير على وعده . وقد جاءت كتابته تحريضا سافرا على نكث العهود اذ نصح الامير بألا يقيم وزنا لعهد قطعه على نفسه ، او لوعد التزم به اذا كان الوفاء بالعهد يعرضه للخطر ،ولأن الناس أشرار متأكيد لا يحترمون العهود ،والامير فى حل من ان يتمسك بعهد او وعد .ثم قرر ميكيافيللى بعد ذلك أن الانسان لا يقدم على فعل الخير الا مكرها فلا مناص من استخدام الضغط والعنف بشتى صورهما وانواعهما حتى يمكن حجب نزعته الشريرة عن

الظهور وحمله على فعل الخير .

ثم يقوم ميكيافيللى بعدذلك بعرض النظرية السياسية المشهورة وهى ان الغاية تبرر الوسيلة القذرة او مجموعة الوسائل القذرة التى يلجأ اليها الحاكم للمحافظة على كيان الدولة . وقرر أن القوانين الخلقية وضعت لتقوم على ضوئها العلاقات بين الافراد فحسب اما السياسة فلا مكان فيها للاخلاق . ويجوز لمن يريد انشاء دولة قوية وتدعيمها ان يلجأ الى الرذيلة والخداع والبطش والقسوة وجميع انواع الجرائم . وعلى هذا الاساس طالب ميكيافيللى بأن يكون الامير بارعا فى الكذب والغش ، وان يكون منافقا يتظاهر بالتحلى بالصفات الحسنة . ويقول ميكيافيللى فى هذا الصدد " ان ما يضير الامير ان يتصف بهذه الصفات الحسنة وان يعمل على هواها ، فى حين انه من الخير له ان يبدو متحليا بها فقط" . ويضيف الى ذلك انه لا حرج على الامير ان يأثم فى حق الدين والفضيلة والانسانية اذا رأى ان المحافظة على الدولة تتطلب منه ارتكاب مثل هذه الآثام . ويروج ميكيافيللى فى كتابه لمسألة جد خطيرة فيقول اذا تمسك الامير بالفضائل فان هذه الفضائل ستقضى عليه لا محالة واذا مارس الرذائل وجعلها اسلوب الحكمه فان هذه الرذائل ستجلب له الأمن والرخاء . يقول انه يجدر بالامير أن يرهبه رعاياه ويخشون بأسه وسطوته بدلا من ان يكون محبوبا لديهم ، ويقول فى هذا الصدد : " ان البشر بصفة عامة قوم ناكرون للجميل وانهم قوم .. يميلون الى الكذب والغش والخداع ، ويطمعون فى الكسب ويتحاشون تعريض انفسهم للاخطار .. فهم يقفون الى جانبك طالما كنت تقدم لهم خيرا وطالما كان الخطر بعيدا ، فاذا اقترب الخطر وأحدق

بك فانهم يتنكرون لك ويركنون الى الفرار فتجد نفسك وحيــــداً . والامير الذى يقنع بالاعتماد على الوعود ولا يصطنع الحيلة يبوء بفشل ذريع . ان الناس لا تبالى بالاساءة الى الامير الذى يجعل نفسه محبوبا ، ولكنهم يخشون ان يمسوا بسوء الامير الذى يخشون بأسه".

ويقول ميكيافيللى للامير ان قوة الدولة فى قوة جيشها ، وللجيش فى نظره مهمتان : حماية الامن الخارجى وتوطيد الامن الداخلى . وينصح ميكيافيللى الامير بالتزامه القسوة المتناهية مع جنود جيشه . والحرب فى نظره هى اول شىء يجب ان يكون موضع تفكير الامير لانها المهنة الحقيقية لمن يتولى الحكم . وعندما فشل ميكيافيللى فى دعوته الدينية فى فلورنسة ولقى مصرعه وعى ميكيافيللى هذا الدرس القاسى وهو انه لابد لكل من يريد الاصلاح ان يكون له من قوة السلاح ما يجعله قادرا على فرض سياسته الاصلاحية .

وتوجد فى كتاب الامير الازدواجية والمتناقضات . فميكيافيللى يبدو فى كتابه نصيرا للنظام الملكى وهو فى قرارة نفسه ومن بين ثنايا السطور جمهورى العقيدة والنزعة . ولقد فسر الباحثون هذه الازدواجية تفسيرات مختلفة فيقول بعضهم ان مناصرته للنظام الملكى هى وليدة نزعة عارضة استهدف منها التقرب الى الامير الجديد الذى تولى الحكم فى فلورنسة ليعده الى منصبه الذى عزل عنه . ويرى البعض الآخر انه كان يؤمن ايمانا راسخا بحاجة بلاده الى امير قوى الشكيمة شديد المراس يعيد اليها وحدتها السياسية ، ولن يكون هذا الامير البطل سوى حاكم فلورنسة الذى يهدى كتابه اليه . ويخرج هذا الفريق من الباحثين الى القول بأن ميكيافيللى ينشد النظام الملكى لدولة

واحدةهى ايطاليا ولهدف واحد هو تحقيق وحدتها وفيما عدا ذلك فهو مؤيد قلبا وقالبا للنظام الجمهورى ٠ اما بالنسبة للعوامل التى ادت الىتفضيل النظام الجمهورى على النظام الملكى فيتلخص فى ان النظام الجمهورى يقوم على مبدأ تكافؤ الفرص بمعنى انه يفتح الباب امام اصحاب الكتابات بخلاف الحال فى النظام الملكى الذى يقوم على مبدأ الوراثة بصرف النظر عن حظ الوارث من العلم او الكتابة ، كما ان النظام الجمهورى اكثر مرونة واسهل قابلية للتطور من النظام الملكى الذى يتصف بالجمود وعدم قدرته على تطوير نفسه ٠ويضيف ميكيافيللى ايضا ان الحكومة الجمهورية اكثر حرصا على الوفاء بالتزاماتها الدولية من الحكومة الملكية ،فقد يرى الملك ان من مصلحة أسرته التحلل من احكام معاهدة جماعية ٠

ويبدو من دراسة كتاب ميكيافيللى "**الامير**" انه خرج على تقاليد العصور الوسطى : فنبذ الناحية الدينية وتجاهل تعاليم الاديان السماوية وتغافل عن مقومات الانسانية وفى مقدمتها الاخلاق المثالية ،واخضعها جميعا للمصلحة السياسية ،وطالب بأن يكون الشعب أداة مسخرة فى يد الحاكم وان تكون مصلحة الحاكم وهى مصلحة الدولة مقدمة على كل اعتبار آخر فهو ينادى بالسياسة الملتوية الغادرة الخائنة اذا كان فى اتباعها محافظة على كيان الدولة ولا يقيم وزنا للسياسة الامينة الصادقة ٠ ومما يؤخذ على ميكيافيللى انه اغفل ذكر المقومات الاخرى للدولة ،مثل الدين والثقافة والاقتصاد فهو لا يهتم الا بدعامتين : السياسة والجيش ، وهما ضروريتان للمحافظة على كيان الدولة ٠

ولكن ماهى الدوافع التىاثرت على ميكيافيللى وجعلته ينحو نحو ما يره البعض شططا فى الآراء السياسية ؟

١ - الدافع الاول هوالازمة النفسية المريرة التىكانميكيافيللى يمر بها اثناء فترة نفيهوعندماكان يضع هذا الكتاب . فكان يعانى من الفقر والحرمان ولا يملك ماينفقه على زوجته وأولاده . وهذا تغير ملحوظ فى حياته لانه كان يشغل مكانة عليا فى داخل المجتمع الفلورنسى قبل ذلك .

٢ - كانت نفسه تجيش بعاطفةوطنية دافئة ،وحز فى نفسه ما رآى عليه وطنه من تفكك الى وحدات سياسية متعددة ،وما يسود هذهالوحدات من مشاحنات وحروب داخلية ،وغزو الجيوشالاجنبية لشبه الجزيرة الايطالية التى اصبحت ميدانا للصراع على السيطرة بين فرنسا واسبانيا . فتطلع الىقيام وحدة سياسية تضم جميع اجزاء شبه الجزيرة الايطالية فى دولة واحدة ذات حكومة مركزية واحدة .

٣ - كان العصر الذى كتب فيهميكيافيللى كتابه عصرا حافلا بالمتناقضات . فكانت حركة احياء العلوم على اشدها ،وحركة الكشوف الجغرافية تسير قدما الىالامامثم حلفى نفس الوقت إلرخاء المادى الذى جاء معه الترف والانغماس فى الملذات والمجون والفسق. ولهذا اصبحت السمة البارزة المميزةلهذا العصر هى الانحلال الخلقى. ومما هو جدير بالذكر ان ميكيافيللىلم يكن وفيا لزوجته ، فانغمس فى المتع الجنسية التى اولع بها معاصروه ، واهتم بمفاتن الدنيا وكانت له مغامرات غرامية ، وكانضميره يستيقظ من وقت لآخر ليشعر فى قرارة نفسه بسلوكه المعيب، ولكنه كان يعترف بعجزه عن كبح

جماح نفسه .

وانقسم رأى الكتاب بالنسبة لكتاب ميكيافيللى الى قسمين فالقسم الاول هاجمه ونقده لأنه رأى أنه أسوأ مثل للسياسى الذى ينادى بمبادىء تنبو عنها الاخلاق ، وان الحكام المستبدين اتخذوا آراء ميكيافيللى ذرائع للجرائم السياسية الكبرى والاضطهادات الدينية . اما القسم الثانى فمدح الكتاب لأنه رأى أن ميكيافيللى كان أحد أعلام الفكر الاوروبى الحديث وانه كان رجلا وطنيا من الطراز الاول يعمر قلبه بالايمان بحق وطنه فى الوحدة وفى الحياة الحرة الكريمة . وهكذا يعتبر هذا القسم ان الاثر الذى احدثه كتاب الامير فى تاريخ العالم يكاد يضارع ما تركه كتاب العقد الاجتماعى لجان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) والذى قرر فيه ان الامة مصدر كل سلطة ، وان سلطة الحكومة مستمدة من سلطة الشعب ، ولقد لقيت آراء ميكيافيللى استجابة من عدد كبير من ملوك اوروبا . فقد سار على سنته فى عصر النهضة آل فلوا Valois فى فرنسا وجلسوا على العرش من عام ١٣٢٥ الى عام ١٥٨٩ ، وآل تيودور Tudor فى انجلترا (١٤٨٥ ـ ١٦٠٣) . وسار فردريك الاكبر ملك بروسيا على نفس النهج السياسى الميكيافيللى ويقال انه وجدت نسخة من كتاب الامير ضمن مخلفات نابليون بعد معركة وترلو . وعلى اية حال اصبحت كلمة ميكيافيللية مرادفة الى الآن لمعنى التصرفات التى يشوبها الغدر والدهاء والانانية وغيرها من الصفات التى نادى بها ميكيافيللى وغدت كلمة ميكيافيللى تطلق على الشخص الذى يمارس فى حياته اسلوبا يقوم على الغدر والخيانة وما الى ذلك من عدم الالتزام

بالمبادىء الخلقية ابتغاء الوصول الى تحقيق اهدافه فى الحيـــــاة
وعلى آية حال فان اوروبا فى المائتين والخمسين عاما التى أعقبت
موته كانت اما خاضعة للمبادىء الميكيافيللية او ثائرة عليها .

الفصل الثانى

التكوين السياسى لأوروبا ونشأة الدول الحديثة فى بداية القرن السادس عشر

لقد لعبت الطبقة البرجوازية الناشئة دورا هاما فى نمو نظام الدولة الحديثة وتطورها الى نظام الملكية المطلقة وقيام الحكم المركزى . وكانت البرجوازية ظاهرة اجتماعية جديدة بدأت تلعب دورها لاقامة هذا اللون من الحكم من اجل مصالحها . ففى العصور الوسطى قام الطريق التجارى عبر جبال الالب بدور مهم اذ نمى تجارة التبادل بين منتجات الشرق ومنتجات اوروبا الشمالية . وأفاد كذلك المدن الواقعة على هذا الطريق بسبب النشاط التجارى ، فلقد قامت بها الصناعات لتحويل المواد الخام التى دخلت الى هذه المدن ، الى سلع صالحة للاستعمال . وظهر بذلك عند طرف هذا الطريق التجارى عبر جبال الالب منطقتان رئيسيتان للصناعة ، واحداهما تشمل الاراضى المنخفضة وبلاد البلطيق والمانيا ، والاخرى فى ايطاليا الشمالية وبذلك عرف هذا الطريق بأنه "السلسلة الفقرية الاقتصادية لأوروبا The Economic Spino of Europe وكان ثمرة هذا الرواج التجارى والصناعى ان ظهرت طبقة متوسطة اخذت تنمو ووقع على كاهلها عبء هذا النشاط ، واستفادت منه كما حدث فى انجلترا وفرنسا والاراضى المنخفضة . وألف التجار جزءا هاما من تلك الطبقة التى تمكنت من السيطرة على المجتمع بفضل تركز النشاط الاقتصادى فى يدها ، وكان ذلك النشاط ممثلا فى التجارة والصناعة ، وبفضل هذا

النمو الاقتصادى والاجتماعى اخذت الاعتبارات الجغرافية، ثم اتفاق أهل الاقليم الواحد فى اللغة والجنس وغيره، تعمل على تقسيم اوروبا الى مجموعة من الأمم، ولم يلبث ان ادى الاحساس بالمصلحة المشتركة، بجانب ذلك الى نمو الشعور القومى Nationalisme

ورغبت هذه الطبقة المتوسطة فى انشاء الحكومة المركزية القوية التى تستطيع تنشيط التجارة الوطنية وفتح الاسواق، وتصريف المتاجر وصون المعاملات، وحفظ الأمن، وتنظيم القضاء. ولم تكن هذه الطبقة تخشى وجود مثل هذه الحكومة طالما كانت فى ثراء وغنى يجعلان هذه الحكومة فى حاجة مستمرة الى معونتها المالية، ورغم ان مثلها الاعلى فى الحكم كان بحكم تكوينها، هو الجمهورية فقد رضيت بالتنازل عن هذا مؤقتا لحاجتها فى بداية نموها وتطورها الى الحكم القوى الذى يقضى على الفوضى ويضم شتات المجتمع . على ان هذه الطبقة رغم غناها كانت لا تزال تشعر بضعفها ازاء النبلاء القدماء، لذلك ارادت نظاما يكفل مواصلة النضال ضدهم وبذلك لم تر غضاضة حينئذ فى قبول الخضوع لملك مطلق فى سبيل سهره على مصالحهم. وعندما حاولت هذه الطبقة المتوسطة انشاء الملكية المطلقة للدولة الوطنية الحديثة كان قد طرأ على تكوين اوروبا الاقتصادى تغيير كان له آثار بعيدة المدى، ونجم عنه انتقال السلسلة الفقرية الاقتصادية، انتقالا تدريجيا الى الجهة الغربية بدلا من امتدادها الاول من الشمال الى الجنوب فى اوروبا فانتقلت بسبب ذلك مراكز التجارة، فى المنطقة الشمالية الغربية الصناعية فى اوروبا، من بحر البلطيق الى الاراضى المنخفضة، وذلك لانتقال

منطقة الاسماك حوالى ١٤٥٠ من بحر البلطيق الى بحر الشمال واعادة فتح الطريق التجارى عبر الالب من ايطاليا الى فرنسا . وهو الطريق الذى اغلقته حروب المائة عام ،بعد انتهاء هذه الحروب عام ١٤٥٣ هذا فضلا عما حدث خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر من قيام حركة الكشوف الجغرافية وتركز الحركة فى موانىء غرب اوروبا ، وفى السير منها غربا وشرقا ،فكان لهذا اثر ظاهر فى سرعة انتقال الطرق التجارية الى الجزء الغربى لاوروبا . ولقد أثر هذا الانتقال فى مدى أو درجة تقدم أو تأخر الدولة الوطنية الحديثة ،عندما اصبح نمو ورقى هذه الدولة أو تأخرها متوقفا على مدى قربها أو بعدها من هذه السلسلة الفقرية الاقتصادية .

أما الامم البعيدة قليلا من هذا المحور فكانت هى الامم الشبيهة بالموحدة ، وكانت ذات ميزات خاصة وان كانت تدخل مع ذلك ضمن المجموعة الاولى ، وتمثل هذه الامم الاراضى المنخفضة . ويلى ذلك الامم غير الموحدة ،وهى التى انعدم فيها اطلاقا وجود الحكومة المركزية لعدم توفر عواملها وكانت تمثل هذه المجموعة ايطاليا والمانيا والدول الاسكندنافية وروسيا وبولنده ، وفى الامم الموحدة استطاعت المدن الحصول على المركز السياسى ،كما حدث فى كل من فرنسا واسبانيا وانجلترا ، عند الحدود الزمنية الفاصلة بين العصور الوسطى وعصر النهضة . فكانت المدن تمد الملك بالمال اللازم فى نزاعه مع الامراء الاقطاعيين .

وهكذا اختلف التكوين السياسى للدول الاوروبية الحديثة فى القرن السادس عشر بين بلد وآخر تبعا لظروف كل منهما فى نموه

الاقتصادى والاجتماعى وموقعه الجغرافى خصوصا ، بعدا أو قربا من المحور الاقتصادى الذى لعب دوره الكبير فى تكييف ذلك التكوين السياسى لكل أمة .

بعض الدول الاوروبية فى مطلع القرن السادس عشر

١ - الدولة العثمانية :

بالرغم من ان الدولة العثمانية كانت دولة اسلامية شرقية الا انها كانت تعد من ضمن الدول الاوروبية ، وذلك لتوسعها وسيطرتها على كثير من البلاد الاوروبية ،والواقع ان تاريخ أوروبا الحديث يبدأ فى وقت الزحف العثمانى على اوروبا من ناحية الشرق، ولقد بدأ ظهور العثمانيين فى التاريخ عندما دفعت غزوات المغول فى نهاية القرن الثالث عشر الشعوب التركية الاسلامية تجاه الشرق حيث سلكوا طريقهم الى المناطق الغربية الى ما وراء سيطرة المغول واستقروا فى الاناضول ،وفى حوالى عام ١٣٠٠ ظهرت فى عالم الاحداث امارة تركية صغيرة اسسها زعيمها "عثمان " حول مدينة " بروسة " فى الطرف الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ،وكان العثمانيون (نسبة الى عثمان) يعتبرون انفسهم فى حالة جهاد مع الامبراطورية البيزنطية التى استقروا على حدودها . ولقد تكاتفت العوامل التاريخية والجغرافية لتساعد على تطور الامارة العثمانية ،وفى انشاء الدولة ، بمعنى التوسع الاقليمى وانشاء تنظيم سياسى ـب الحكام دورا قياديا . وفى عام ١٣٢٦ - وهى السنة التى ـى فيها عثمان مؤسس الاسرة - احرز اتباعه أول غزو كبير لهم ـلك بالاستيلاء على المدينة البيزنطية الهامة بروسة والتى ـصبحت بالتالى عاصمة الاسرة العثمانية . وفى عام ١٣٥٣ أغار خلفاء عثمان على اوروبا ،واستولوا على ادرنه وجعلوها حاضرتهم فى

اوروبا عام ١٣٦١، فقطعوا بذلك الطريق بين القسطنطينية وما خلف ادرنة من بلاد البلقان، وعزلوا عاصمه المسيحية الارثوذكسية عن الامم السلافية الارثوذكسية التى قد تجد فيهم خير احلاف لها. ولم يأت عام ١٤٠٠ على اية حال الاوكانوا قد مدوا حدودهم الشمالية الى نهر الدانوب فضلا عن استيلائهم على الجانب الاعظم من آسيا الصغرى، وكادت القسنطينية تسقط فى ايديهم لولا ان دهمهم فى هذه اللحظة سيل تيمورلنك وهزمهم هزيمة منكرة عند انقرة فى عام ١٤٠٢ وانتزع آسيا الصغرى من ايديهم، وان كانوا قد احتفظوا بأملاكهم فى البلقان.

وقد أخذ العثمانيون بعد عام ١٤٢٠ ينقلون عن اوروبا الغربية الاسلحة النارية، واستطاع السلطان محمد الثانى فتح مدينة القسطنطينية فى ٢٩ مايو عام ١٤٥٣، واصبحت مدينة الاباطرة، ثالث وآخر عاصمة لبيت عثمان. كما استطاع محمد الثانى خلال فترة حكمه التى امتدت ثلاثين عاما (١٤٥١ - ١٤٨١) من ان يحرز الكثير من الاعمال بجانب هذا العمل العظيم. فالامبراطورية العثمانية، كما يمكن ان نسميها الآن، قد امتدت فى البلقان وبلاد اليونان. وبالاضافة الى ذلك اصبح البحر الاسود بحيرة عثمانية. ولقد قامت معظم فتوحاتهم على اكتاف قوة المشاة العسكرية التى كونها العثمانيون من ابناء المسيحيين الخاضعين لحكمهم والتى عرفت باسم الانكشارية. ولقد استطاع العثمانيون بعد ذلك السيطرة على معظم مناطق الشرق الاوسط بعد هزيمة الصفويين فى ايران فى موقعة جالديران عام ١٥١٤، وتمكنوا من احتلال سورية بعد موقعة "مرج دابق"

فى عام ١٥١٦، ثم احتلوا مصر فى العام التالى . وقد وصلت الامبراطورية فى عهد سليمان القانونى (١٥٢٠ – ١٥٦٦) الى اقصى اتساع لها حيث وصل العثمانيون الى اسوار مدينة فينا. أما نظم الحكم العثمانية فلقد اعتمدت على الثنائية اذ كان هناك فى داخل الامبراطورية هيئتان : الهيئة الحاكمة والهيئة الاسلامية .وكان السلطان على رأس الهيئة الحاكمة ، وتركزت فى يده كل السلطة ، واستمر الامر على هذا النحو حتى بدأت مظاهر الضعف والانهيار تظهر فى داخل الامبراطورية بعد وفاة سليمان القانونى فى عام ١٥٦٦ وعند مجىء سليم الثانى الى العرش .

ولقد أثرت الدولة العثمانية فى اوروبا تأثيرا ملحوظا فى ناحيتين مهمتين :

أ – كان نظام الحكم فيها هو نظام مركزى استبدادى ، بينما كان حكام اوروبا يحاولون القضاء على سيطرة وسلطة امراء الاقطاع وتركيز السلطة فى ايديهم، وبذلك وجدوا فى النظام العثمانى مثلا يحتذى .

ب – عندما كانت الامبراطورية العثمانية دولة قوية فى بداية نشأتها وقامت بتوسعاتها فى اوروبا فاننا نجد ان معظم الدول الاوروبية قد بدأت تتكتل ضد هذا الخطر من جانب دولة اسلامية شرقية .وكانت نظرة اوروبا تجاه الدولة الناشئة المتوسعة نظرة دينية لازالت قائمة على مدى العلاقة بين المسيحية والاسلام حيث لم تكن الحروب الصليبية التى قامت فى العصور الوسطى قد غابت بعد عن الاذهان اذ كان هم اوروبا حتى نهاية القرن السادس عشر هو التكتل والوقوف

ضد الخطر العثماني وانقاذ الدول الاوروبية من السيطرة العثمانية وبذلك فاننا نجد ان قوات السلطان سليمان قد فشلت في الاستيلاء على مدينة فينا التي وصلتها في ٢٧ سبتمبر عام ١٥٢٩، وسرعان ما انسحبت منها في ١٥ اكتوبر.ولقد قام العثمانيون بمحاولة آخرى في مدى قرن ونصف اى في عام ١٦٨٣ ولكنهم فشلوا أيضا . ولقد ظهر الآن تقدم اوروبا عسكريا بينما كانت الامبراطورية العثمانية في حالة تأخر مستمر وبذلك أوقفت اوروبا التقدم العثماني . وكان فشل العثمانيين أمام فينا للمرة الثانية حاسما حيث تقدم النمسويون وحلفاؤهم الى المناطق العثمانية في المجر واليونان وعلى سواحل البحر الاسود وانتصروا على العثمانيين في موقعة موهاكس Mohacs عام ١٦٨٧ وفي موقعة زنتا Zenta عام ١٦٩٧ وعقدت بينهما معاهدة كارلوفيتز Carlowitz عام ١٦٩٩ والتي كانت أول معاهدة توقعها الدولة العثمانية كدولة مهزومة ، وبدأما يعرف باسم المسألة الشرقية يظهر الى حيز الوجود منذ ذلك الوقت .

والمسألة الشرقية تعني في قاموس السياسة الاوروبية ضعف الدولة العثمانية ومحاولة الدول الاوروبية تقسيم ممتلكاتها والقضاء عليها وبذلك فقد اصبح يطلق على الامبراطورية العثمانية فيما بعد اسم رجل اوروبا المريض The sick man of Europe ولقد بدأ التهديد الروسي للامبراطورية في القرن السابع عشر في عهد بطرس الاكبر، عندما حاولت روسيا الحصول على مركز لها في المياه الدفيئة . وكان ذلك بداية مرحلة طويلة من الحروب بين روسيا والامبراطورية العثمانية، وكانت من أهم المظاهر التي ميزت تاريخ اوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، غير انه

كانت هناك دول تنادى بمبدأ المحافظة على كيان الدولة العثمانية كانجلترا مثلا،وكان لورد بامستون (Palmerston) أحد وزراء خارجية بريطانيا فى القرن التاسع عشر هو الذى قنن تلك السياسة •

٢ — المانيا :

استوطن المانيا منذ بدء العصور الوسطى عدد من القبائل الجرمانية التى هاجمت الدولة الرومانية القديمة فى القرون الأولى وقد ظهر من هذا العنصر شارلمان Charlemagne (٧٧١ — ٨١٤) الذى نجح فى تكوين امبراطورية واسعة مترامية الاطراف وتوجه البابا امبراطورا عام ٨٠٠م•ومنذ قيام الدولة الرومانية المقدسة على يد شارلمان أثرت فى تاريخ المانيا عوامل كثيرة كان اهمها العامل الجغرافى • فكانت الملكية الالمانية اقوى ملكية فى اوروبا فى العصور الوسطى ولكنها اصبحت اضعفها شأنا فى القرن الخامس عشر• ولقد قسمت الامبراطورية بين ابناء شارلمان بمقتضى معاهدة فردان عام ٨٤٣م وتولى العرش بعد ذلك الملك الالمانى آوتو الأول Otto 1 عام ٩٦٢، وتوجه البابا وآنشأ امبراطورية مقدسة ،لكن سرعان ما تلاشت سلطة الامبراطور واصبحت سلطة صورية وانقسمت المانيا الى اكثر من ٣٠٠ ولاية بعضها خاضع للكنيسة والبعض يحكمه امراء وأحيانا وجد اكثر من امبراطور واحد•

وظلت اللامركزية قائمة فى المانيا على اساس التقسيمات الاقليمية حتى اواخر القرن التاسع عشر، ولكن كان فى المانيا من العناصر ما أهلها بعد ذلك للوحدة القومية ،وقد تمثلت احداها خير

تمثيل فى المجلس الامبراطورى اوالديت Diet وهو مجلس يمثل الامارات ، وكان مشكلا من ثلاث طبقات : الاولى كانت من الناخبين Electors الذين كان من حقهم انتخاب الامبراطور،والثانية من الامراء ورجال الدين،والثالثة من المدن الامبراطورية (أى التى يكون رئيسها الاعلى الامبراطور نفسه) . وكان من بين هذه العناصر ايضا وجود الامبراطور كملك ، وان لم يكن يقوى على فرض سيادته على الاقطاع القوى ، فقد كان يسعى دائما لتوطيد نفوذه وانشاء حكومة مركزية موحدة ،ولم يستطع الامبراطور تحقيق رغبته فى العصور الوسطى بسبب كفاحه مع البابوية ،وضعف الامبراطورية نفسها .وعندما تولت أسرة الهابسبرج Hapsburg شئون الامبراطورية بعد سقوط اسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufenعام ١٢٧٣، كان من المنتظر ان تصلح احوال المانيا ولكن ذلك لم يحدث ، بل استمر النزاع فى عهد هذه الاسرة على تاج الامبراطورية حتى استطاعت سويسرة الخروج عليها من دائرة نفوذ الامبراطورية الرومانية المقدسة ،فلما اعتلى مكسمليان الاول ـ من اسرة الهابسبرج العرش (١٤١٣ - ١٤١٩) أعاد للامبراطورية كثيرا من هيبتها المفقودة ،ويعتبر حكمه فترة انتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة . وحتى سقوط الامبراطورية الرومانية المقدسة عام ١٨٠٦، بقى تاريخ الامبراطورية وراثيا فى اسرة الهابسبرج . وكانت هناك ولايات متعددة فى داخل المانيا . فبالاضافة الى النمسا وجدت براندنبرج Brandenburg وسكسونيا Saxony وبفاريا Bavaria وفورتمبرج Wurtemburg ومنحت اسرة الهوهنزلرن Hohenzollern حكم امارة براندنبرج عام ١٤١٥، وأسست لنفسها ملكية قوية فى بروسيا ظلت تحكم المانيا

بعد حركة توحيد المانيا The Unification of Germany عـــام ١٨٧٠ حتى انهيارها فى اعقاب الحرب العالمية الاولى .

٣ - حالة ايطاليا فى نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث :

كانت ايطاليا كألمانيا تتبع الدولة الرومانية المقدسة مـن الناحية الاسمية واشتركت مع المانيا من حيث ان وحدتها القومية لم تتم الا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وكانت ايطاليا فى بادىء الامر قلب الامبراطورية الرومانية القديمة التى شملت بلادا كثيرة فى اوروبا وآسيا وافريقيا وتركت تراثا حضاريا عظيما للحياة الانسانية فى شتى النواحى . ثم بدأت هذه الامبراطورية فى الانهيار بسبب هجمات الجرمان وسقوط روما فى ايديهم فى بداية القرن الخامس الميلادى. وعندما كون شارلمان امبراطوريته الواسعة كانت ايطاليا جزءا منها وذلك فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى . وبعد تقسيم الامبراطورية فى عام ٨٤٣ أصبحت ايطاليا من نصيب احد ابنائه ، كما انها صارت جزءا من الامبراطورية الرومانية المقدسة فى عهد أوتو Otto فى النصف الأول من القرن العاشر . لكن لم يبق نفوذ الاباطرة قويا فى ايطاليا وأخذ فى الضعف ، وأخذت الولايات الايطالية المختلفة فى الخروج على نفوذ الامبراطور حتى لم يصبح الا نفوذا شكليا فى القرن الثانى عشر وترتب على ذلك ان انقسمت ايطاليا الى وحدات صغرى واستمر هـذا الانقسام السياسى واضحا حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

والواقع انه منذ بداية القرن الثانى عشر وخلال عصر النهضة

تميز تاريخ ايطاليا بوجود نظم سياسية تشابه تلك التى وجدت فى بلاد اليونان فى التاريخ القديم. فقد وجدت عدة مدن ومقاطعات مستقلة نشأ بينها صراع عنيف كما نشأت منافسات سياسية حزبية فى المدينة الواحدة، وكان لوقوع ايطاليا على الطريق التجارى بين الشرق والغرب وشروق الحضارة الحديثة فيها مبكرا، عن سائر أوروبا اثر فى التعجيل بتفكك وحدتها تفككا انبعث من نموها السريع. وكان ضعف الاقطاع وعدم انتشاره فى ايطاليا من اكبر العوامل التى ساعدت على هذا النمو السريع . وعلى هذا وجدت عدة مدن ومقاطعات مستقلة نشأ بينها صراع عنيف كما نشأت منافسات سياسية حزبية فى المدينة الواحدة . وكانت الدويلات الرئيسية فى ايطاليا فى عصر النهضة هى البندقية وممتلكات البابوية ومركزها روما وميلان وفلورنسة وقد احرزت هذه المراكز مكانا متفوقا على الدويلات الاخرى المجاورة. كما يجب الا نغفل اهمية المدن الايطالية الاخرى مثل جنوه وفيرونا Verona وفيرارا Ferrara . فكان لهذه المدينة الاخيرة نشاطها السياسى وكانت فى سياستها صورة مصغرة للدويلات الرئيسية السابقة الذكر. وبالاضافة الى ذلك كانت هناك عدة امور يجب ملاحظتها فى تاريخ تلك الفترة مثل :

١ - كان الايطاليون قديما يقاتلون بأنفسهم لكنهم كفوا فى عصر النهضة عن ممارسة القتال شخصيا واستخدموا طوائف من الجنود المرتزقة ، ذلك لأنهم قد آثروا الاشتغال بالتجارة والصناعة وجمع الثروة، واتجهوا لدراسة الادب والفنون، ولذا استخدموا هؤلاء الجنود من عناصر مختلفة وغالبا كانت من السويسريين - وكان يقودهم قوادا يعرفون باسم (Condottieri) ، وقد امتازت

هذه الفرق من الجنود المرتزقة بمهارتها فى القتال وبالشجاعة والمحافظة على النظام .

٢ — لم يتقيد الايطاليون بالاخلاق واتبعوا فى السياسة الوسائل التى توصلهم الى اهدافهم سواء وسائل العنف أم القتل أم القسوة ، وحتى البابوات انفسهم قد اتبعوا هذه الوسائل فقتلوا اعداءهم ومثلوا بهم .

٣ — كان لازدياد الثروة فى المدن الايطالية نتيجة لنشاط التجارة ان انقسم الشعب فى المدينة الواحدة الى طبقتين متنازعتين ، الاولى وهى طبقة الـ Popolo Grosso والثانية هى الـ Popolo Minuto ، وكانت الاولى هى الطبقة الثرية أما الاخرى فكانت تتكون من العناصر الفقيرة من اصحاب المهن المختلفة ومنهم الخبازين والنجارين وصناع الاحذية وغيرهم ، وقد قام صراع بين الطبقتين أدى الى الكثير من الشغب والمتاعب الداخلية . ولتحقيق الامن والنظام فى الداخل عهد بادارة شئون المجتمع الى شخص Signora أو أشخاص Signori وقد تمكن بعض هؤلاء الرجال من ذوى الكفاءة من القبض على زمام الامور .

وكانت هناك ولايات خمس رئيسية فى ايطاليا هى البندقية وميلان وفلورنسة والولايات البابوية ومملكة نابولى .

أما عن البندقية Venice فكان لها تاريخا مجيدا فى عصر النهضة الاوروبية وعرفت هذه المدينة باسم ملكة الادرياتى Queen of the Adriatic واشتغل اهلها منذ القدم بالتجارة ، وقد

منحتها الدولة البيزنطية امتيازات تجارية ،ولم يكن للبندقية أملاك في نفس ايطاليا ، ولذا لم تنشأ بها ارستقراطية من أمراء الاقطاع ، كما كان الحال فى معظم البلاد الاوروبية الوسيطة . ولقد اشترك البنادقة فى الحركة الصليبية ،وازداد تبعا لذلك نفوذ البنادقة فى الشرق الادنى .ومنذ فترة مبكرة تحدت مدينة جنوة - تلك المدينة التجارية الايطالية الهامة - النفوذ البندقىفاستحوذت على امتيازات تجارية فىالقسطنطينية بعد سقوط الامبراطورية اللاتينية فى الشرق عام ١٢٦١،كما انتهىالصراع بينهما حول النفوذ فى البحر الاسود بانتصار البندقية على جنوه عام ١٣٨١. ولقد اكتفت البندقية حتى القرن الرابع عشر بأن تعيش فىمعزل عن سائر الاراضى الايطالية معتمدة على مستعمراتها التجارية خارج ايطاليا . وعندما توغل العثمانيون فى البلقان اصطدموا بالبنادقة ،ومن ثم عملت البندقية على توجيه عنايتها الى اراضى ايطاليا نفسها .وكان لكشف طريق رأس الرجاء الصالح اثركبير عليها اذ ضاع جزءكبير من الثروة التى كانت تحصل عليها . ومن اهم خصائص البندقية فى عصر النهضة هو تمتعها بالوحدة والاستقرار الداخلى ،وقد خالفت فى ذلك اغلب الدويلات الايطالية الاخرى وخاصة فلورنسة التى عانت من الحياة الصاخبة ، ولم يعرف بالبندقية الصراع الداخلى بين الاحزاب بالشكل الذى وجد فى الدويلاتالاخرى. وقد تركزت السلطة فى يد الاقلية الغنية القوية وكانعلىرأسها الدوج Doge ، وهو اصلا ممثل الامبراطور البيزنطى ، وكانت سلطته فى بادىء الامر قوية ولكن الى جانبه وجد المجلس الكبير، وقدتكون من افراد من اغنىالعائلات وعمل المجلس علىالحد من سلطة الدوج، وكان للمجلس حق اختيار

هذا الحاكم . والى جانب المجلس الكبير وجد مجلس العشرة ،وكان يختاره كذلك المجلس الكبير للمحافظة على الامن العام للدولة . وبفضل هذه النظم السياسية تمتعت البندقية بحياة داخلية مستقرة واعتمدت قوتها الدولية على بحريتها واسطولها الذى كان اعظم اسطول فى اوروبا . اما فى قوتها البرية ،فقد اعتمدت كلية على الجنود المرتزقة ، وكان هذا الوضع مصدر متاعب لها فى تاريخها وخاصة فى الفترة المتأخرة .

أما ميلان فكانت مركزا زراعيا عظيما فى سهل لمبارديا الخصيب فى شمال ايطاليا . وبعد انتعاش حركة التجارة فى أواخر العصور الوسطى جذبت هذه المدينة اليها عددا كبيرا من التجار ورجال الاعمال من كل انحاء العالم التجارى من البندقية وجنوة وفلورنسة وغيرها . وكانت ميلان مركزا اقتصاديا هاما كذلك فى عصر النهضة . وكان لازدهار التجارة وتفوق الصناعة والمركز الجغرافى الممتاز لميلان اهمية خاصة فى السياسة الايطالية . فقد عمد حكام بيت هابسبرج وملوك فرنسا الى الاستيلاء عليها اثناء الحروب الكبرى التى قامت فى القرن السادس عشر . وفى اوائل القرن الرابع عشر تولى حكم ميلان اسرة الـ Visconti وسرعان ما أصبح لهذه الاسرة حكما وراثيا فى ميلان .وحكموا حكما عسكريا استبداديا واعتمدوا على استعمال الجنود المرتزقة ، وقد جر ذلك عليهم المخاطر حيث استحوذ بعض قواد هؤلاء الجنود على السلطة مثلما حدث فى حالة فرانشيسكو سفورزا Francesco Sforza (١٤٥٣) الذى تزوج ابنة آخر ممثل لعائلة الـ Visconti فى أواخر

القرن الخامس عشر، وقد امتاز هذا الرجل بالذكاء وقوة الشخصية وتمكن من تأسيس اسرة سفورزا كأسرة حاكمة فى ميلان. ثم استولى الفرنسيون على المدينة فى عام ١٥٠٠ وانتزعها منهم بعد ئذ الامبراطور شارل الخامس (امبراطور المانيا وملك اسبانيا) فى عام ١٥٢٢، وبقيت منذ ذلك التاريخ حتى عام ١٧١٤ تابعة لاسبانيا، وفى هذه السنة ضمت الى النمسا وظلت خاضعة لها حتى الغزو النابليونى لايطاليا.

أما فلورنسة وتسمى احيانا بمدينة الزهور، فتعتبر من عدة نواحى اعظم الدول التى وجدت فى عصر النهضة، وتمتاز فى عصر النهضة بوجود اروع الآراء السياسية، فامتاز اهلها بالعمق فى التفكير والبراعة فى النقد والقدرة على الانتاج الفنى وروح السخرية والدهاء. وقد أخذت هذه العقلية تعمل باستمرار على تغيير الحياة الاجتماعية والسياسية فى فلورنسة التى شاهدت انقلابات سياسية عنيفة بشكل فاق ما ورد فى الدويلات الايطالية الاخرى. وقد اشتد فى فلورنسة الصراع بين الديمقراطية والاوليجركية (اى حكم الاقلية - وكان اليونان القدماء يستعملون هذا اللفظ للدلالة على الحكومة التى تتولاها اقلية من الاعيان Oligarchy). ووجدت نقابات للصناع واصحاب الحرف، كما وجدت حكومات متنوعة من شعبية وديمقراطية وارستقراطية، بل قد اتخذت احيانا طابعا دينيا مثل تلك الحكومة التى اسسها سافونا رولا. وعمل سافونا رولا - كما اشرنا قبل ذلك - على العناية بمصالح الشعب، فخفض الضرائب وأوجد العمل للمتعطلين، وجمع كتب الفساد والحلى والملابس

الفاخرة وحرفها . وقامت بين السكان طائفة اخذت تطالب بالرجوع الى عصر آل ميدتشى واستفاد البابا اسكندر السادس - الذى طالما ندد سافونا رولا بخطاياه - من هذا القلق المتزايد، وحرض البابا أهل فلورنسة ضد سافونا رولا فى عام ١٤٩٨ ، فقبض عليه وأعدم وأحرقت جثته . وبعد ثلاثين عاما من وفاة سافونا رولا ضاع استقلال فلورنسة وضمت الى دوقية تسكانيا (Tuscany) التى استمرت من القرن السادس عشر الى ايام الثورة الفرنسية تابعة للامبراطورية . وكان من اشهر حكام اسرة الميدتشى كوزيمو Cosemo ولورنزو Lorenzo وقد اشتهر الاخير بمساعدته وتشجيعه للفنانين والعلماء والادباء . وقد اعتمدت فلورنسة فى تكوين ثروتها على تقدم أهلها فى الصناعة وخاصة صناعة المنسوجات الصوفية ، وكذلك على المهارة فى المعاملات المالية والتجارية ، ولكن كان من اكبر عيوبها الاعتماد على الجنود المرتزقة .

أما الولايات البابوية فكانت تسمى كذلك Patrimony of St.Peter ولقد اهتم البابوات بتكوين ملك دنيوى لهم بأواسط ايطاليا ونجحوا فى ذلك وشملت املاكهم المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط والبحر الادرياتى ، وشملت مدنا مهمة منها روما وأسيسى (Assisi) وانكونا (Ancona) وغيرها . ولكن المدن الواقعة داخل ممتلكات البابوية لم تشارك المراكز الايطالية الاخرى فى نشاطها التجارى وتقدمها الصناعى ، فقد كانت بلادا زراعية قبل اى شئ . وميز الاملاك البابوية كذلك ان النظام الاقطاعى قد بقى فيها قويا ، كما امتلأت حياتها بالحزبية . وكانت اعظم نقط ضعف

الدويلات الكنسية هى نوع حكومتها ،فعلى رأسها وجد البابا أو الباباوات وكان هؤلاء عادة عند توليهم لمنصبهم شيوخ مسنين،ولم تكن البابوية وراثية وقد نتج عن ذلك عدم وجود سياسة واحدة ثابتة ٠ وعلاوة على هذا فان المشاكل التى واجهت البابوية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين قد اضعفت من سلطان البابا فتجاهل الحكام الاقطاعيون والحكومات المدنية السلطة المركزية للبابوية ٠ وتمكنت العائلات الارستقراطية المحلية من تأسيس حكم استبدادي وخاصة اثناء غياب البابوية فى افينيون ٠ وعلى كل ، فقد قامت الاملاك البابوية بدور كبير فى التطور الثقافى فى عصر النهضة ،فشجع بعض الباباوات العلوم والاداب والفنون مما ساعد على بدء النهضة والتمهيد لها٠ وقد كان ذلك امرا عظيما ،فان الباباوات فى أول الامر قد قاوموا العلم الحديث ٠ ولكن جرفهم التيار فأخذوا فى نشر فلسفة ارسطو بعد ان كانوا يقاومونها ،وهذه الفلسفة قد لاءمت التقدم الفكرى الحديث اكثر من فلسفة افلاطون الشعرية التى سيطرت على الناس فى العصور الوسطى، فبقيام الدول الاوروبية الحديثة وانتشار حركة النهضة ، ضعف نفوذ البابوية فى اوروبا ،ولذلك اتجه الباباوات الى ايطاليا ذاتها وعملوا على توحيد جهودهم للسيطرة عليها بدلا من السيطرة على اوروبا كلها٠ ولكن ذلك كان شرا على ايطاليا لأن الباباوات قد قاموا بكثير من الفتن والدسائس فى الولايات الايطالية لبسط سلطانهم عليها وتنصيب اقاربهم على رأس هذه الامارات ٠ ونتيجة لهذا الاضطراب تنافست على ايطاليا فرنسا واسبانيا وتأخرت الوحدة الايطالية بالتالى ٠

ويمتاز التاريخ الانجليزى منذ هذه السنة حتى عام ١٤٥٠ بالصراع بين الملكية والنبلاء والشعب ونمو السلطة المركزية فى نفس الوقت ونتيجة لذلك نمت الحياة البرلمانية فى انجلترا بشكل لم يعرف له مثيل فى سائر الدول الاوروبية . ولقد تم اجتماع كلمة الاشراف (امراء الاقطاع) ورجال الكنيسة وفيما بعد العامة كذلك على تقييد سلطة الملكية فأصدرت الملكية فى عام ١٢١٥ ما يعرف باسم العهد الاعظم Magna Carta (اساس الدستور الانجليزى) ، واقدم العهود التى دونت بها قبل كل شىء حقوق وامتيازات البارونات ثم الكنيسة ثم العامة . وتعهد الملك فى هذا العهد بما يلى :

١ - احترام حقوق الاشراف ، واعلن انه لن يفرض ضريبة غير الضرائب الاقطاعية المعتادة الا بموافقة المجلس الاعظم الذى يمثل طبقات الامة .

٢ - تعهد بألا يقبض على احد أو يسجنه مالم يقرر ذلك مجلس مختص او محكمة قانونية . ولو ان العهد الاعظم لم ينفذ بحذافيره ، فانه اصبح للملك مجلس اعظم من رجال الكنيسة والاشراف والفرسان الى ان جاءت سنة ١٢٩٥ وعقد اجتماع يمثل الكنيسة والاشراف والشعب ويقرب كثيرا من شكل البرلمان الحالى .

وقد حدثت حرب الوردتين Wars of the Rlses عام ١٤٥٥ حتى عام ١٤٨٥ بين اسرتى لانكستر Lancaster (وكانت شارتها الوردة الحمراء) ويورك York (وشارتها وردة بيضاء) وكانت هذه الحرب بمثابة انتحار من جانب طبقة الاشراف والنبلاء الانجليز ، اذ قضى على عدد كبير منهم ، وعقب انتهاء هذه الحرب (بعد انتصار لانكستر)

اما بالنسبة لنابولى ، فكانت تشغل الجزء الجنوبى من ايطاليا ،وقد كونت مع صقلية مملكة مستقلة عن باقى ايطاليا وسميت احيانا بالصقليتين ،ولعبت دورا مهما فى نشأة الادب وتطور الفكر الايطالى. واستمدت مملكة نابولى وصقلية ثقافتهما من العرب والنورمانديين. ومن الملوك البارزين فى تاريخها فردريك الثانى Frederic II الذى حكم فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، وقد اسس جامعة نابولى عام ١٢٢٤، وكان مهتما بجمع المخطوطات العربية واليونانية وأمر بترجمتها الى اللاتينية .وفى نهاية القرن الثالث عشر ، تدخل الفرنسيون فى شئون هذه المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة الايطالية ونازعتهم السلطة هناك اسبانيا

٤ - انجلترا :

تعرضت انجلترا منذ تاريخها القديم لاغارات مختلفة وأصبحت فى فترة تحت حكم الرومان ،ثم استوطنت بها بعد ذلك العناصر الانجلوسكسونية . وجاءت بعد ذلك موجة من النورمانديين واستقروا بالبلاد منذ عام ١٠٦٦ . ولقد كان الفتح النورماندى فى هذه السنة حدث هام فى التاريخ الانجليزى كله ،فبينما ظلت انجلترا الى ماقبل الفتح النورماندى لا يربطها بالقارة الاوروبية سوى علاقات واهية ، اذ هى صارت بعد ذلك الفتح الى اواخر العصور الوسطى مرتبطة بفرنسا اشد الارتباط .وفى تلك العصور شاعت المؤثرات الفرنسية وسادت بين الامم . فبعد انتصار وليم النورماندى على الملك ادوار التقى Edward the Confessor عند بلدة هيستنجز Hastings اعترف به مجلس الدولة The Witan ملكا على انجلترا.

ظهرت اسرة التيودور Tudors ، حيث توج قريبهم هنرى تيودور (وهو يمت بصلة الى اسرة لانكستر) ملكا على انجلترا باسم هنرى السابع وحكم من ١٤٨٥ الى ١٥٠٩ وكان هنرى قد جاء الى انجلترا بمساعدة البلاط الفرنسى . وتمكن افراد اسرة تيودور (١٤٨٥- ١٦٠٣) بعد ضعف سلطة الاشراف الانجليز، نتيجة للحرب السابقة من حكم انجلترا حكما مطلقا ،فكان ملوك هذه الاسرة اصحاب الكلمة النافذة فى سياسة البلاد الداخلية والخارجية لا يقف فى طريقهم اشراف ولا هيئات برلمانية ، اذ كان الاشراف قد قضى على سلطتهم فى الحرب الاهلية السابقة ، وكان البرلمان قد اقنعته تلك الحروب بأن يترك للملوك السلطة الكافية لضبط الامن وحماية البلاد من الغزو. وفى عهد هنرى السابع بدأت انجلترا تمهد لبسط نفوذها على الجزر البريطانية ، وتعقد صلات وثيقة بأوروبا ، وتتطلع الى آفاق واسعة فى الاستكشافات والتجارة فيما وراء البحار. فاكتشف جون كابوت John Cabot بتكليف من الملك نيوفوند لاند عام ١٤٩٦، وهى اقدم ممتلكات التاج البريطانى فى امريكا. وعلى اساس هذا الكشف ادعت انجلترا لنفسها حق احتلال هذه الاجزاء الواسعة من امريكا الشمالية بعد ذلك بأكثر من مائة عام. وتبعت اسرة التيودور فى الحكم اسرة ستيوارت Stewart . وفى الواقع يرجع الى ملوك انجلترا من التيودوريين الفضل فى تحويلها الى دولة قومية ذات مصالح فى العالم الجديد.

٥ - فرنسا :

كانت فرنسا جزءا من الدولة الرومانية حتى اغارت عليها قبائل الفرنجة فى القرن الخامس الميلادى ، ومن اشهر حكامهم شارل مارتل

وحفيده شارلمان. وكانت فرنسا بعد عهده بلدا اقطاعيا وليس للملكية فيها الا نفوذ ضعيف وذلك الى ان اخذت الملكية فى فرض نفوذها على حساب الامراء الاقطاعيين ، وخاصة اثناء حرب المائة عام التى قامت بين انجلترا وفرنسا فى اخريات العصور الوسطى (١٣٣٨ -١٤٥٣) وخرجت منها فرنسا قوية ،وبدأ نمو الروح القومية فى البلاد. وكان لوى الحادى عشر (١٤٦١ — ١٤٨٣) ،ممن عملوا على اضعاف سلطة الامراء الاقطاعيين، فلم يكن قد مضى على توليه العرش وقت طويل حين واجهه تألب خطير من النبلاء الساخطين (عرف بعصبة الصالح العام) يقوده شارل كونت شارلوا (الملقب بالجسور)، ووريث دوقية برجنديا Burgandy. واستطاع لوى بذكائه الخارق ان يكسب خصومه فى باريس بما اظهره من دلائل الصفح الحكيم وبذلك استطاع ان يعتمد على باريس وان يواجه جميع اعدائه الذين دبت الفوضى فى صفوفهم. وكان من حسن حظ لوى ان شارل الجسور لم ينجب ذكرا ولهذا فبوفاته عام ١٤٧٧ آلت برجنديا الى العرش الفرنسى ، كما آلت اليه دوقية بريتانى بعد ذلك وأصبحت فرنسا بعد وفاته دولة متماسكة قوية مأمونة الحدود من كل جانب ،كما انهى حكمه عهد العصور الوسطى فى فرنسا .

وخلف لوى شارل الثامن وحكم حتى اواخر القرن الخامس عشر (١٤٨٣ — ١٤٩٨) وقد تبعه فى مواصلة تلك السياسة (اى فرض السلطة المركزية على حساب الامراء الاقطاعيين). كما عمد هذا الملك الى توسيع نفوذ فرنسا عبر جبال الالب ، وغزا ايطاليا وبدأ الصراع بين فرنسا وآل الهابسبرج للسيطرة على اوروبا . وفى بداية العصور

الحديثة تم توحيد فرنسا على اساس قيام الحكومة الملكية ذات السلطة المركزية الثابتة لها. ومن اهم اعماله عزمه على فرض سلطان فرنسا على ايطاليا، وهكذا تبدأ حروب فرنسا فى ايطاليا (١٤٩٤ - ١٥١٩).

٦ - اسبانيــــا :

امتد حكم روما الى شبه الجزيرة الايبيرية، ثم أسس القوط الغربيون دولة بها ثم جاء العرب وازدهر حكمهم فى تلك البلاد. ولكن دولتهم هناك بدأت فى الانحلال وقوت الامارات المسيحية مركزها على حساب قوى الاسلام، واستولت على عدد من المدن الاسلامية ومنها قرطبة فى النصف الاول من القرن الثالث عشر. وقبل النصف الثانى من القرن الخامس عشر كانت اسبانيا مقسمة الى مقاطعات يحكم كل منها ملك مستقل. فكانت هناك نافار Navarre واراجون Aragon وكاستيل Castile ثم البرتغال، وفى الجنوب كانت توجد الاملاك العربية. وبدأ عهد جديد لاسبانيا المسيحية عندما اتحدت اراجون مع كاستيل (قشتالة) بالمصاهرة فى أواخر القرن الخامس عشر، اذ تزوج فرديناند ملك أراجون من ايزابيلا Isabella اخت ملك كاستيل عام ١٤٦٩، وقد خلق هذا الزواج وحدة اسبانيا. ولتقوية هذه الوحدة تابع الاسبان تقدمهم فى شبه الجزيرة الايبيرية واستولوا على غرناطة فى عام ١٤٩٢.

ويعد حكم فرديناند وايزابيلا فترة عظيمة فى تاريخ اسبانيا فالكشوف الجغرافية فى امريكا قد اعطتها ممتلكات شاسعة واتخذ فرديناند وازابيلا من تزويج بناتهما من امراء البرتغال وانجلترا

وفرنسا والنمسا وسيلة لتحقيق سياستهما الخارجية ،وانتهى هـــــذا بأن آل تاج اسبانيا الى الهابسبرج. فابنتهما جوانا Joanna صارت زوجة لفيليب الابن الاوحد للامبراطور مكسمليان . وموت الابن الاوحد لفرديناند وايزابيلا ، ثم موت ايزابيلا(١٥٠٤) وفرديناند (١٥١٥) جعل العرش الاسبانى يؤول الى شارل بن جوانا وحفيد مكسمليـــــان الذى تولى الملك باسم شارل الاول ، ولكن بموت مكسمليان وكـــان ابنه قد تبعه من قبل ، صار شارل الاول امبراطورا باسم شارل الخامس فى يونيو عام ١٥١٩.

الفصل الثالث

حركة الكشوف الجغرافية

كانت حركة الكشوف الجغرافية التى تم جزء كبير منها فى القرن الخامس عشر هى اهم نتيجة عملية للنهضة الاوروبية . فلقد تمكن الملاحون الاوربيون من التوصل الى نتائج هامة فى مجال الكشف الجغرافى وفى تاريخ العالم ، مثل اكتشاف الامريكتين ابتداء من عام ١٤٩٢ واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى عام ١٤٩٨.

ولقد كانت معلومات اهل اوروبا عن العالم ضئيلة ، ومعظمها من نسج الخيال وخاطئة فى مجموعها وكان ذلك يرجع بطبيعة الحال الى عدة عوامل من آهمها :

١ - قصور وسائل المواصلات عن التغلغل فى انحاء العالم .

٢ - ضعف مقدرة الانسان على الملاحة فى اعالى البحار .

٣ - سطحية معلومات اهل اوروبا فى علم الفلك

٤ - الحياة فى مجتمع مغلق والانفصال بين العالم المسيحى والعالم الاسلامى.

ولذلك اقتصرت معلومات الاوروبيين على اوروبا والاقاليم التى يسكنها "الكفرة" من المسلمين كما كانوا يسمونهم . اما بقية القارات فكانت غير معروفة لديهم ، واستمدوا معلوماتهم عن آسيا وافريقيا من التجار الايطاليين الذين كانوا يترددون على موانى مصر والشام من اجل التجارة الشرقية ، ولقد انتشرت بعض الافكار الخرافية فاعتقدوا

بأن المحيط الاطلسي والبحار الجنوبية مأوى الشياطين والجن والوحوش ،وهكذا صور لهم الوهم والخيال الوانا من الاخطار والمخاوف . وكل المصورات الجغرافية التي وضعها الاوربيون في القرن الحادي عشر تبين أنهم كانوا يعتقدون ان الارض عبارة عن قرص منبسط، مركزه بيت المقدس يحيط به البحر،وكان هذا التصور امتدادا للافكار التي سادت قبل ذلك. فكتب كوزماس Cosmas (٥٤٧) كتابا عرف باسم Christian Geography استخدم فيه توراة موسى في برهنة ان الارض منبسطة وان القدس في وسطها .

الدوافع التي ادت الى قيام حركة الكشوف الجغرافية :

ادت عوامل كثيرة الى ظهور حركة الكشوف الجغرافية وتنشيطها وتتلخص هذه العوامل او الدوافع فيما يلي :

اولا - الدافع الاقتصادي :

كان الدافع الاقتصادي في مقدمة الدوافع التي ساعدت على ظهور تلك الحركة ونموها ، اذ حاول الاوروبيون التخلص من الرسوم الجمركية الباهظة التي كانت تفرضها سلطنة المماليك ، في مصر والشام على التجارة الشرقية عند مرورها في هذين البلدين . وكانت هذه السلع الشرقية ذات اهمية كبرى بالنسبة لاوروبا ،فلقد اشتملت على التوابل والعطور العربية والاقمشة الحريرية والبن والسجاجيد والاحجار الكريمة والعقاقير الهندية مثل الافيون والكافور والصمغ ،وهي مواد كان الصيادلة الاوروبيون يستخدمونها في اعداد الدواء. وكانت معظم هذه السلع الشرقية تسلك طريقين رئيسيين الى اوروبا في العصور الوسطى،

كان أولهما طريق الخليج العربي حيث كانت سفن المسلمين تحمل المتاجر الى البصرة ، ثم تنقل برا الى بغداد حيث تعبر نهر دجلة والفرات ، ثم تتجه القوافل غربا نحو ثغور الشام . اما ثانيهما فكان طريق البحر الاحمر الذى تمر فيه السفن حتى السويس ثم تنقل المتاجر عبر الصحراء الى القاهرة ومنها الى الاسكندرية واحيانا الى دمياط . وكانت السفن الايطالية تنقل هذه المتاجر من الموانى المصرية والشامية الى المدن الايطالية ، وكانت سفن جمهورية البندقية تحمل الجزء الاكبر من تجارة الشرق الى ميناء البندقية حيث تعرض فى سوق ريالتو Rialto الذى غدا من أشهر اسواق التجارة فى حوض البحر المتوسط . وتمكنت جمهورية البندقية بفضل علاقتها الوطيدة مع سلطنة المماليك فى مصر والشام من ان تحتكر معظم المتاجر الشرقية ، وجنت من وراء ذلك اربا حا خيالية ، ولقد اثار هذا الازدهار الذى حصلت عليه البندقية رغبة ملحة فى اوروبا فى القضاء على الاحتكار الذى كان يمارسه تجار البندقية فى نقل المتاجر الشرقية ، وتطلع التجار من رعايا دول اخرى غير البندقية الى النزول الى ميدان التجارة الشرقية والحصول لانفسهم على جزء كبير من هذه الارباح الطائلة . لأن التجار الاوروبيين فى ذلك الوقت كانوا يعيشون عيشة الملوك من الارباح الخيالية التى كانت تدرها تلك التجارة ، فكان البهار يساوى وزنه فضة ، وكان الناس فى اوروبا يصفون الرجل الغنى بأنه كيس بهار . ومما ساعد التجار فى الوصول الى الشرق فى بداية العصور الحديثة للاستفادة من هذه الارباح التى حصل عليها تجار البندقية ظهور الدولة الاوروبية الحديثة التى اصبحت تشعر بالعزة القومية

وتريد ان تبسط سيطرتها على غيرها من الامم .

ثانيا - الدافع الدينى :

كان الدافع الدينى من اهم العوامل التى شجعت على القيام بحركة الكشوف الجغرافية . وكانت البرتغال واسبانيا اسبق الدول فى القيام بالكشف الجغرافى لأن الناحية الدينية لعبت دورا كبيرا فى تخطيط سياسة هاتين الدولتين، وكانت تكمن فى هذه الناحية الدينية روح صليبية جارفة . فكانت البرتغال مثلا تهدف الى تحويل المسلمين فى غرب افريقيا وغيرها من المناطق الآهلة الى المسيحية الكاثوليكية اما اسبانيا فكانت تبغى نشر المسيحية وفق المذهب الكاثوليكى بين السكان الاصليين والوثنيين فيما وراء البحار . وقد استهدفت هذه الروح الصليبية ايضا تحويل الحبشة الى المذهب الكاثوليكى وفصلها عن الكنيسة القبطية الارثوذكسية بمصر .

ولقد تجلت فكرة التعصب الدينى والروح الصليبية فى اسبانيا فى عام ١٤٦٩ عندما تزوج فرديناند حاكم اراجون من ايزابيلا حاكمة قشتالة ، وكان ذلك بمثابة مولد دولة اسبانيا المتحدة فى التاريخ الحديث ، وبدا فعلا سياسة الاضطهاد الدينى والقضاء على كل فرد لا يدين بالمذهب الكاثوليكى . وكانت اول الاعمال التى قاما بها الاستيلاء على غرناطة ، وهى آخر معقل للمسلمين فى شبه جزيرة ايبيريا وبعد طرد المسلمين من الاندلس ازداد مسيحيو شبه جزيرة ايبيريا تحمسا وشراسة فى مطاردة المسلمين خارجها ، وانتقل نشاطهم الى شمال افريقيا وغربيها ، وراودتهم الآمال فى محاصرة الاسلام عن

طريق البحر والقضاء عليه . وظفرت حركة الكشوف الجغرافية باهتمام كبير من البابوات الذين اصدر بعضهم عدة مراسيم تخول ملوك اسبانيا والبرتغال الحق فى ملكية كل اقليم جديد، وتورط بعضهم فى هذه المراسيم فوصفوا الاسلام بأنه طاعون The Plague of Islam وطالبوا ببذل الجهود لتنصير سكان المناطق التى كشفت أو سوف تكتشف والحيلولة بينهم وبين اصابتهم بطاعون الاسلام . وبالاضافة الى ذلك كان البابوات يعدون المشتركين فى الرحلات الكشفية بالعفو عند الحساب فى اليوم الآخر .

ارسل البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧-١٤٥٥) فى عام ١٤٥٤ مرسوما الى ملك البرتغال اشتمل على ما اطلق عليه اسم " خطة الهند" وهى تقوم على اعداد حملة صليبية نهائية تشنها اوروبا الكاثوليكية للقضاء قضاء مبرما على الاسلام .

ثالثا - الرغبة فى زيادة المعلومات الجغرافية :

سيطرت على الاوروبيين فى عصر النهضة رغبة قوية لزيادة معلوماتهم الجغرافية ، وكان سبب ذلك هو ما توصلت اليه اوروبا من تقدم فى فنون الملاحة والمعرفة الجغرافية المتزايدة والاهتداء الى آلات لا غنى عنها للقيام برحلات بحرية طويلة ،فقد عرف الاوروبيون بوصلة الملاحة وعمم استعمالها فى حوالى منتصف القرن الخامس عشر ، والاسطرلاب (وهو جهاز لتقدير المسافات وتعيين الاتجاهات فى عرض البحر) ،وكذلك الدفة المتحركة لعبور البحار . ومما شجع على القيام بحركة الكشوف ايضا تلك الرحلات التى قام بها الاوروبيون منذ

القرن الثالث عشر فى آسيا مثل رحلة ماركوبولو Marco Polo وكان ماركوبولو (من اهالى البندقية) هو اول اوروبى توغل نحو الشرق فى اماكن كان بعضها مجهولا. وقد امتدت الرحلة من ١٢٧١ حتى عام ١٢٩٥ واتجه من شواطئ آسيا الصغرى الى قلب الصين ومن بلاد المغول الى سومطرة وسيلان وبلاد الهند وفارس . وعقب عودته من رحلته وضع كتابا بالفرنسية اطلق عليه اسم "كتاب العجائب" ونشر فيه الكثير من القصص المثيرة عما شاهده من كنوز الثروة فى البلاد التى زارها ومنتجاتها الزراعية والصناعية وتقدم التجارة. وكان من اهم نتائج رحلة ماركو بولو انها اوضحت للاوروبيين ان الكرة الارضية تختلف كل الاختلاف عما تصوره الاولون وانه توجد فى اقصى اطراف آسيا بلاد تمتاز بكثرة سكانها وضخامة ثروتها. وتتابعت بعد ذلك رحلات الكثيرين من الاوروبيين الى بلاد الشرق وتحققوا من صدق ما ذكره ماركوبولو.

الكشوف البرتغالية

وساعد البرتغاليون على القيام بحركة الكشوف الجغرافية ما تلقوه عن فنون البحار وما تعلموه عن بناء السفن الكبيرة، كما وقعت فى ايدى هنرى الملاح (١٣٩٤-١٤٦٠) أو Don Hanrique الذى تزعم حركة الكشوف نسخة من كتاب رحلة ماركوبولو اهداها اليه اخيه دون بيدرو Don Perdro . كما تلقى البرتغاليون فنون الملاحة عن الجنويين الذين قاموا بأول محاولة للطواف حول ساحل افريقية ،ففى عام ١٢٩١ أبحر اوجولينو دى فيفالدى Ugolino di Vivaldo من اهل جنوه فى سفينتين كبيرتين للبحث عن الطريق

البحرى الى الهند، ولكن السفينتين تحطمتا فى مواجهة الساحل الافريقى . وبالاضافة الى ذلك سيطرت على هنرى الملاح الروح الصليبية المنتشرة فى ذلك الوقت، اذ جاء فى مستهل المرسوم الذى بعث به البابا نيقولا الخامس فى عام ١٤٥٤ الى هنرى: " ان سرورنا العظيم ان نعلم ان ولدنا العزيز، هنرى، امير البرتغال قد سار فى خطى ابيه الملك جون، بوصفه جنديا قديرا من جنود المسيح ليقضى على اعداء الله واعداء المسيح من المسلمين الكفرة....".

ولم يكن فى استطاعة البرتغال وهى بلاد صغيرة فقيرة ان توسع حدودها البرية . اذ كانت هذه الحدود مشتركة مع جارتها اسبانيا فلم يبق الا ان تتوسع من ناحية البحر بالتجارة والاستعمار. ولم يهتم هنرى كثيرا بالخرافات التى كانت سائدة فى ذلك الوقت مثل القول بأن الرجل الابيض عندما وصل الى منطقة معينة على شاطئ افريقيا تنقلب بشرته الى اللون الاسود من شدة حرارة الشمس التى تجعل المياه تغلى حول سفينته وتهب عليها ريح عاصف تحمل لهبا محرقا يدمر السفينة تدميرا . فأسس أكاديمية بحرية ومرصدا على الطرف الجنوبى لشاطئ البرتغال، وزودهما بمجموعة ضخمة من المراجع والخرائط واستقدم صفوة العلماء والجغرافيين، وكان يجمع المعلومات من كل ربان عائد من رحلة بحرية، وصنفت هذه المعلومات كلها فى ملفات خاصة . وخرج هنرى من دراساته بفكرة تناقض الرأى السائد عند علماء الجغرافيا فى ذلك الوقت، والذين كانوا يعتقدون أن افريقيا ملتصقة بالقطب الجنوبى، وانه لاسبيل الى الطواف حولها من ناحية الجنوب . وانصرف هنرى الى بذل الجهود لتحسين بناء السفن

وفى بضع سنوات انزلت الى البحر سفن قوية تراوحت حمولتها بين ثمانين طنا وبين مائة طن .

وفى عهد الامير هنرى الملاح بدأت الخطوات الاولى فى الكشوفات الجغرافية واستطاع البرتغاليون الوصول الى ماديرا ثم جزر الازورا ، ثم وصلوا فى عام ١٤٤٦ الى مصب نهر السنغال والى الرأس الاخضر. واستطاعوا الوصول الى بلاد غانا ، وانطلق التجار والملاحون يقتنصون اهالى هذه البلاد وينقلونهم الى اسواق اوروبا لبيعهم عبيدا . ولقد لقيت تلك الرحلات تشجيعا عميقا من الامير هنرى الملاح طوال حياته حتى توفى عام عام ١٤٦٠ بعد ان نجح فى بث روح جديدة فى الشعب البرتغالى واصبحت بلاده رائدة الدول الاوروبية فى مجال الكشوف الجغرافية .

وبعد وفاة هنرى اجتاز البرتغاليون خط الاستواء الى رأس كاترين فى عام ١٤٧١ وتأكدوا ان القارة الافريقية تمتد وراء هذا الخط وان الملاحة فى هذه المناطق ليست عملية انتحارية ،كما كان يعتقد الكثيرون. وفى عام ١٤٨٢ وصلوا الى مصب نهر الكونغو واحتكرت البرتغال الحق فى الملاحة الساحلية اى بمحاذاة الشاطىء الافريقى حتى غينيا . وفى عام ١٤٨٦ خطت الكشوف الجغرافية البرتغالية خطوة هامة فى مجال الكشف الجغرافى اذ قام بارثلميو دياز برحلة وصلت الى الطرف الافريقية الجنوبى ،واجتاز رأس الرجاء الصالح.ولكن دياز لم يستطع المضى فى رحلته لانه واجه تمردا خطيرا من البحارة البرتغاليون ، فقطع رحلته وعاد الى البرتغال .

وبعد فترة ركود استأنف البرتغاليون جهودهم فى مواصلة الكشوف الجغرافية ابتغاء الاهتداء الى طريق بحرى متصل الى الهند حول افريقيا. واوفد عمانويل الثانى ملك البرتغال فى عام ١٤٩٧ الرحالة فاسكو دا جاما Vasco da Gama الذى وصل بأول رحلاته المشهورة الى الهند بطريق يدور حول افريقيا. ففى مارس ١٤٩٨ وصل داجاما الى موانى شرق افريقيا وكان منها موزمبيق وممبسة وماليندى . وكانت هذه الثغور غاصة بالتجار العرب . ومن ثغر ماليندى اتجه الى الهند بمساعدة ملاح عربى، فوصل فى مايو عام ١٤٩٨ الى ثغر كاليكوت (قاليقوط) Calicut على الساحل الغربى للهند المسمى ساحل ملبار. وبعد ان أقام داجاما قرابة ثلاثة شهور فى كاليكوت قرر العودة الى البرتغال ، فوصلها فى سبتمبر عام ١٤٩٩ وهو يحمل كنوزا من الاحجار الكريمة والسلع الهندية وغيرها.

وبوصول البرتغاليين الى المحيط الهندى فى عام ١٤٩٨ أقاموا لأنفسهم مراكز تجارية مسلحة فى افريقيا الشرقية وفى الساحل الغربى للهند وفى جزر المحيط الهندى والخليج العربى ،وعملوا على بسط سيطرتهم العسكرية والتجارية على هذه المنطقة ابتغاء احتكار تجارة الشرق ونقلها الى اوروبا عبر الطريق الجديد. وفى عهد الملك البرتغالى عمانويل السعيد (١٤٩٥-١٥٢١) خرج الفاريز كابرال Alvarez Cabral فى رحلة من قادش فى مارس عام ١٥٠٠ الى شرق افريقيا والمحيط الهندى وأراد قائد الرحلة ان يتجنب خليج غانا فضل الطريق وانحرف نحو الجنوب الغربى، فاذا به يصل الى البرازيل وحقق لبلاده كسبا كبيرا. وأعقب هذا الكشف ارسال حملات كشفية لهذه البلاد الجديدة بعث بها الملك

عمانويل ووقع اختياره على رحالة آخر هو امريجوفيزبوتشى Amerigo Vespucci قام بعدة رحلات واطلق اسمه على الامريكتين .

وتوالت رحلات كابرال وداجاما ،وعندما نشط البرتغاليون على ساحل الملبار شرع المغاربة المسلمون يبحثون عن طريق آخر الى متاجر الشرق الاقصى ، واستخدموا طريقا جديدا من الشواطىء العربية والافريقية الى ملقا Malacca (اى الى ساحل شبه جزيرة الملايو الغربى) متحاشين ساحل الملبار. ولذلك قرر البرتغاليون الاستيلاء على مفاتيح الشرق الاقصى بالاستحواذ على مراكز المسلمين فى الشاطئين الافريقى والعربى وفى هرمز وفى عدن اى ان خطة البرتغاليين الجديدة كان معناها مهاجمة الملاحة الاسلامية فى جميع وجوه نشاطها بدلا من مناصبة العداء لامير واحد معين ، وقد قام بتنفيذ هذه السياسة كل من فرنسوا الميدا (١٤٥٠ - ١٥١٠) والبوكيرك Albuquerque (١٤٥٣ - ١٥١٥) الذى استولى على جوا فى نوفمبر عام ١٥١٠ على ساحل الملبار. وقد جعلها البرتغاليون منذ ذلك الوقت المركز الرئيسى لممتلكاتهم الاسيوية .

الكشوف الاسبانية :

وفى الوقت الذى اهتمت فيه البرتغال بحركة الكشف الجغرافى اتجهت اسبانيا ايضا الى هذا الميدان. وشق كريستوفر كولومبس Colombus (١٤٥٠ - ١٥٠٦) وهو من اهالى جنوه

طريقه فى المحيط الاطلسى لحساب فرديناند وايزابيلا ملكى اسبانيا بعد ان حصل على مساعدتهما . وتختلف اسبانيا عن البرتغال فى مجال الكشوف ، فبينما قام المواطنون البرتغاليون بعبء ارتياد البحار كشفا لطريق ملاحية جديدة .وبحثا عن ممتلكات جديدة ،كانت اسبانيا تدين بهذا الفضل الاجنبى عنهاهو كولومبس . كان ملاحا مثقفا وتوفر على دراسة الخرائط ،وخرج من دراساته وتجاربه ، بفكرة علمية جديدة هى انه اذا ابحر غربا من مضيق جبل طارق عبر المحيط الاطلسى، استطاع ان يصل الشواطئ الشرقية لآسيا . ومنذ عام ١٤٧٩ شرع كولومبس بعرض مشروعاته للقيام برحلة استكشافية فى المحيط الاطلسى (او الغربى كما كان يسمى فى ذلك الوقت) لاستكشاف ارض جديدة اعتقد بوجودها ولكنه لم يلق تأييدا من البرتغال. غير انه لم ييأس وعاود السعى لدى ملكى اسبانيا واسفرت مساعيه عن قبول مشروعه .

وكانت الاسباب الدينية والاقتصادية هى التى دعت فرديناند وايزابيلا الى قبول مشروع كولومبس . وكان الطابع الدينى يغلب على سياسة هذين الملكين وكان لقبهما " الملكان الكاثوليكيان"

خرج كولومبس فى اغسطس عام ١٤٩٢ من ميناء بالوس Palos فى غرب اسبانيا ووصل فى اكتوبر الى احدى جزر باهاما Bahama واطلق عليها اسم سان سلفادور San - Salvador ثم كشف بعدها كيوبا وهايتى Haiti التى اطلق عليها اسم Espanola اى اسبانيا الصغيرة . وفى مارس عام ١٤٩٣ عاد الى اسبانيا وهو يعتقد انه وصل فعلا الى طرف العالم الشرقى . وفى سبتمبر من نفس العام قام كولومبس برحلته الثانية لاحتلال الاراضى الجديدة واستعمارها

لاستخراج الذهب ، ولنشر المسيحية ٠ فوصلت الحملة الى اسبانولا، وكشفت جمايكا وعادت الى اسبانيا في عام ١٤٩٦٠

وقام كولومبس برحلته الثالثة في عام ١٤٩٨ ثم الرابعة والاخيرة في عام ١٥٠٢ وكان دعاة المسيحية يرافقون هذه الرحلات الاستكشافية للقيام بمهمة نشر الدين المسيحي بين سكان البلاد الاصليين ٠ وكان كولومبس قد خسر كثيرا من سمعته الطيبة منذ رحلته الثالية بسبب وشايات اعدائه٠ ولانه اضطر الى استخدام الرقيق في الممتلكات الجديدة فأثار بعمله هذا غضب ايزابيلا،وأهمل امره وتوفي في عام ١٥٠٦٠

وكان لرحلات كولومبس اثران، اولهما ان الملوك الكاثوليك عملوا على تثبيت ملكيتهم لهذه الاراضي الجديدة بخاصة عندما نشط البرتغاليون في استكشافاتهم٠وكان البرتغاليون حريصون على الاحتفاظ بالاقاليم الجديدة ملكا خاصا لهم ولكن ظهر لهم منافس جديد يحاول الاستحواذ عليها٠ ومما زاد الموقف تعقيدا ان البرتغال كانت قد ظفرت من البابا فيروما بمرسوم بابوي يخولها الحق في تملك جميع القارات والجزر التي تكتشفها البرتغال فيما وراء رأس بوجادور واقر هذا المرسوم ثلاثة باباوات اخرون،ورأى البرتغاليون عدم جدوى المرسوم البابوي الذي منحهم جميع البلدان الواقعة في طريق الهند من الشرق اذ كان الاسبان قد سبقوهم من الغرب وانتزعوا منهم الهند٠ وكادت الحرب تقع بينهما لولا ان لجأت الدولتان الى البابا اسكندر السادس تلتمسان تدخله بينهما لتسوية المسألة تسوية سلمية ٠

وقد أصدر البابا مرسوما تقرر بمقتضاه اتخاذ خط وهمى للتقسيم بين ممتلكات الامبراطوريتين الاسبانية والبرتغالية ،ويبدأ هذا الخط من القطب الشمالى الى القطب الجنوبى ،ويمر على بعد مائة فرسخ الى الغرب من جزر الرأس الاخضر ،فيكون من نصيب اسبانيا كل الاقاليم التى تقع الى غرب هذا الخط الوهمى ،وتكون الاقاليم التى تقع الى شرقيه من نصيب البرتغال. لكن طعنت البرتغال فى هذا التقسيم وتدخل البابا مرة اخرى بين اسبانيا والبرتغال وقرر نقل الخط الوهمى للتقسيم بين ممتلكاتهما الى نقطة تبعد ٣٦٠ فرسخا غرب جزر الرأس الاخضر. وعلى ضوء هذا القرار البابوى ، عقدت فى ٧ يونيو ١٤٩٤ معاهدة توردسيلاس Tordesillas بين اسبانيا والبرتغال لتثبيت ذلك الخط الوهمى بين ممتلكات هاتين الدولتين وكان من نتائج تنفيذ تلك المعاهدة ان وجد وضع شاذ، ذلك كان البرازيل عندما اكتشفت اصبحت من نصيب البرتغال ، لان هذا الخط الوهمى يمر بالشاطئ الشمالى لامريكا الجنوبية ،ولم يفكر احد فى ذلك الوقت ان هذا الخط الوهمى سوف يقسم امريكا الجنوبية وانه سيجعل من البرازيل مستعمرة وواجهة برتغالية لقارة ستصبح اسبانية .

اما الاثر الثانى لرحلات كولومبس ، فكان فتح الطريق لرحلات الافراد والمغامرين، فاستطاع الرحالون الجدد بين عامى ١٤٩٩، ١٥٠٨ الوصول الى اسبانولا ثم الى مصب نهر الامازون ، وبرزخ بناما وحول كيوبا. وتلى ذلك توطن الاسبان بامريكا الوسطى وامريكا الجنوبية . وكان فى مقدمة هؤلاء المغامرين الجدد بلباو Balbao

الذى شاهد المحيط الهادى واعلن امتلاكه باسم ملك اسبانيا (١٥١٣) ودى سوليس de Solis الذى بلغ شواطئ البرازيل ووصل الى مصب نهر لابلاتا. واستولى الاسبان مثلا على المكسيك فى عام ١٥٢١.

رحلة ماجلان حول العالم :

توفى فرديناند ملك اسبانيا وتولى عرش اسبانيا بعده حفيده شارل الاول عام ١٥١٦، الذى بلغت الكشوف الجغرافية فى عهده الذروة حين نفذ اكبر مشروع جغرافى ظهر فى العالم الى ذلك الوقت وهو الطواف حول العالم فى رحلة بحرية متصلة وفى اتجاه واحد والعودة الى مكان بدء الرحلة . ويقترن هذا المشروع باسم ماجلان Magellan (١٤٧٠-١٥٢١) وهو برتغالى سبق له الاشتراك فى حملة البرتغال على الهند بقيادة الميدا. وكان ماجلان يرى انه فى الاستطاعة الوصول الى جزر التوابل فى الهند الشرقية عن طريق الغرب بالطواف حول الطرف الجنوبى لامريكا وليس عن طريق الشرق بالطواف حول الطرف الجنوبى لافريقيا .

صادف ماجلان عقبة فى سبيل تنفيذ مشروعه، فقد كان مغضوبا عليه من ملك البرتغال فاتجه الى البلاط الاسبانى وعرض على شارل الاول ملك اسبانيا مشروعه. ورحب الملك بهذا المشروع وفى ٢٢ مارس ١٥١٨ وقع شارل العقد المبرم بين التاج من ناحية وبين ماجلان من ناحية اخرى . وكان من بين النقاط التى تم الاتفاق عليها اعطاء ماجلان حق الاستيلاء على جزء من عشرين من دخل البلدان التى يكتشفها وجزيرتين اذا تجاوز عدد الجزر المكتشفة ستا. وفى اغسطس عام ١٥١٩ اقلعت حملة ماجلان _ وعددها خمس سفن _ من ميناء سان

لوكار San Lucar ،واتجهت فى المحيط الاطلسى جنوبا ثم عرجت فى اتجاه الجنوب الغربى ثم الى ريو دى جانيرو فى البرازيل ثم الى مصب نهر ريو دى لابلاتا ،وسارت بمحاذاة الساحل الشرقى لامريكا الجنوبية ،ووصلت السفن الى خط عرض ٤٩ درجة جنوبا. ثم واصلت الحملة سيرها نحو الجنوب بمحاذاة الشاطىء الشرقى لامريكا الجنوبية وفى اكتوبر عام ١٥٢٠ اكتشف مضيق ماجلان،وفى نوفمبر من نفس العام دخلت السفن المحيط الهادى،وقد اطلق عليه ماجلان الاسم Pacifique لانه وجده قليل الاعاصير التى تكثر فى المحيط الاطلسى. وابحرت السفن شمالا فى اتجاه الغرب ووصلت الى جزر الفلبين - وهى مجموعة من جزر الملايو فى بحر الصين - واطلق عليها هذا الاسم تكريما لفيليب ابن الامبراطور شارل الخامس الذى سيلى عرش اسبانيا باسم فيليب الثانى . وقد اعتقد ماجلان انه وصل الى جزر التوابل ولكنه كان قد أخطأ فى تقدير درجات العرض وابتعد عشر درجات شمالا عن الطريق المؤدى الى جزر التوابل . وادى هذا الخطأ الى نتيجة هامة هى ان جزر الفلبين اصبحت من ممتلكات اسبانيا وقد اشتعلت الحرب بينها وبين الولايات المتحدة الامريكية عام ١٨٩٨ ادت الى ضياعها منها وانتقالها الى ممتلكات الولايات المتحدة .

وفى اثناء الرحلة مات ماجلان فى ابريل ١٥٢١، وتولى قيادة الحملة احد رجالها وهو جون سباستيان ديلكانو John Sebastian de Cano وفى نوفمبر من نفس العام وصلت الحملة الى جزيرة تيدور Tidor احدى جزر التوابل التى كانت حلم ماجلان. وفى ٢٢ فبراير عام ١٥٢٢ غادرت الحملة جزر التوابل فى طريق عودتها الى اسبانيا ، فعبرت المحيط الهندى، ومرت برأس الرجاء الصالح .

ولقد اثبتت هذه الرحلة ان السير فى اتجاه واحد سواء أكان ذلك من الشرق أم من الغرب لابد أن يؤدى الى المكان الذى بدأ منه الانسان رحلته ،وبذلك استقرت فى الاذهان الحقيقة الجغرافية وهى كروية الارض وايقن الجميع ان هناك قارتين عظيمتى الاتساع هما امريكا الجنوبية تقعان بين اوروبا وآسيا . كما فتحت رحلة ماجلان الشرق الاقصى امام اوروبا بطريق ملاحى متصل ،كما انها ربطت بين العالم الجديد وبين الشرق الاقصى باكتشاف الممر الذى يعرف باسم ماجلان فى اقصى الطرف الجنوبى من امريكا الجنوبية .

وهكذا سبقت اسبانيا والبرتغال باقى الدول الاوروبية فى القرن السادس عشر فى مضمار الاستعمار والتجارة ،ولكن بعد القرن السادس عشر اخذت البرتغال واسبانيا فى الضعف تدريجيا فى الوقت الذى اخذت فيه قوى الهولنديين والفرنسيين والانجليز فى النمو واصبحت الدول البحرية الاستعمارية الكبرى فى اوروبا .

نتائج وآثار حركة الكشوف الجغرافية :

اولا - بعد ان كان البحر المتوسط هو الطريق الرئيسى للتجارة فى العصور الوسطى بل مركز النشاط السياسى . انتقل هذا المركز بعد حركة الكشوف الجغرافية الى المحيط الاطلنطى الذى اصبح طريق التجارة العالمية فى العصر الحديث ، وبالتالى انتقل مستقبل اوروبا الاقتصادى من مدن البحر المتوسط من البندقية وجنوه اللتين كانتا تقومان بتوزيع التجارة الشرقية التى كانت تأتى من الهند والشرق الاقصى عن طريق مصر، واكتسبتا من وراء هذه التجارة ثروة

طائلة ، الى امم الغرب الناشئة ، الى البرتغال واسبانيا ثم هولندا وانجلترا وفرنسا التى كانت تقع على الطريق الغربى للدنيا القديمة واصبحت فى قلب العالم بعد الكشوف الجديدة . ونظمت فى المحيط الاطلنطى خطوط ملاحية بين اوروبا والعالم الجديد ومنطقة المحيط الهندى ،ويطلق فى التاريخ الاقتصادى على هذه الحركة اسم "الثورة التجارية The Commercial Revolution وتدفقت على اسواق اوروبا نتيجة لذلك منتجات الشرق بكميات اوفر وبأسعار اقل مما كانت تعرض به قبل اكتشاف الطرق الملاحية الجديدة .

ثانيا - اما النتيجة الثانية فقد تمثلت فى حركة التوسع التجارى التى ظهرت على اثر فتح اسواق جديدة ، وقد زادت كمية المعادن الثمينة ولاسيما الذهب والفضة ،واتخذت طريقها الى اوروبا وساعد ذلك على ان يحل النقد محل المبادلة فى البيع والشراء ، وتدفقت كميات عظيمة من معدن الفضة على اوروبا نتيجة للاستكشافات الاسبانية على وجه الخصوص . وكانت الفضة فى أواخر القرن الخامس عشر قد اخذ وجودها يقل كثيرا فى اوروبا بسبب الحاجة المستمرة اليها من مدة طويلة من اجل استيراد المتاجر من الشرق فتعطلت الحياة الاقتصادية عموما بسبب قلة النقد (العملة) .وكان هذا النقص فى الفضة احد الاسباب التى جعلت الاوروبيين يجدون فى البحث عن طريق موصل الى موطن تجارة الشرق الاصلية من غير حاجة الى وساطة العرب اوغيرهم من الذين سيطروا على طرق التجارة القديمة ،وارغموا الاوروبيين على ان يدفعوا اثمانا باهظة للسلع التى يحتاجونها وفى عهد فيليب الثانى (١٥٥٦-١٥٩٨) تدفقت الفضة بكثرة على الموانى

الاسبانية خاصة بعد اكتشاف مناجم الفضة فى بوتوسى Potosi فى بوليفيا عام ١٥٤٥، وفى عهده اصبحت اسبانيا القناة التى تجرى منها الفضة الى بقية اوروبا ومنذ ذلك الوقت بدأ عصر الفضة فى اوروبا. وظلت الفضة خلال الخمسين سنة التالية تسيطر على تطور الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية فى اوروبا. وأحدث تدفق الفضة ثورة فى الاسعار Price Revolution وارتفعت الاجور واثمان السلع وتكاليف المعيشة والحياة. تحسنت الحالة الاقتصادية فى اوروبا بوجه عام واخذت محصولات جديدة ترد اليها كالذرة والبطاطس والكاكاو والتبغ ،واصبحت عاملا اساسيا فى الحياة الاقتصادية.

ثالثا - تكونت امبراطورية برتغالية واخرى اسبانية ،وفتح بابا الاستعمار امام الدول الاوروبية الاخرى التى لم تلبث ان دخلت الميدان لتأخذ بنصيب من الاملاك الجديدة، ودعا هذا الى التنافس والتطاحن فى البحار ،وازداد نتيجة لذلك اهتمام الدول بانشاء الاساطيل البحرية باعتبارها الوسيلة الاولى للاحتفاظ بأقطار فيما وراء البحار، فانتقل مركز التوازن الدولى من البر الى البحر.

رابعا - سادت بين الدول نظرية استغلال المستعمرات لصالح الدول المستعمرة وسيطرة الرجل الابيض التى تبيح تملك الارض التى تسكنها شعوب غير اوروبية وغير مسيحية وجعل ارادتها وجهود ابنائها مسخرة لارادة الشعب المالك وللسياسة التى يريد انتهاجها. وقد ادى ذلك الى تذمر السكان وثورتهم فى النهاية طلبا لرفع نير الاستعمار الذى كان فاتحة لسيل من الهجرة من اوروبا الى الاصقاع الجديدة.

خامسا - قاسى سكان البلاد الاصليون الكثير من المستعمرين، وكان هذا الانتصار كارثة عظمى عليهم فى الكثير من الاحوال وخاصة فى امريكا الشمالية حيث قضت على الكثير منهم الحروب والاوبئة الاوروبية، ومن بقى منهم اضطر للعيش فى معزل عن المستعمرين واخذ عددهم فى التضاؤل حتى لم يبق منهم الآن الا عدد قليل فى غرب الولايات المتحدة الامريكية وكندا. وكان الحال اخف وطأة فى امريكا الجنوبية اذ بعد هدوء الزوبعة الاولى التى قامت على اثر الفتح والاستعمار اخذ السكان الاصليون يختلطون بالاسبان والبرتغاليين وتعلموا لغتهم واعتنقوا ديانتهم، ومن ذلك الامتزاج نشأ الجيل الحاضر .

وبعد ذلك عمل الاسبان والبرتغاليون على التبشير بالمسيحية على المذهب الكاثوليكى بين اهالى المكسيك وامريكا الجنوبية، وكان فى ذلك اكبر تعويض للبابوية والكنيسة الكاثوليكية عن نفوذها الذى ضاع فى كثير من جهات اوروبا بعد ظهور حركة الاصلاح الدينى .

سادسا: اثرت حركة الكشوف الجغرافية بدرجة كبيرة على مركز مصر التجارى وكان العرب قد اهتموا اهتماما بالغا بالتجارة التى درت عليهم ثروات طائلة بصفتهم وسطاء بين الهند والصين من ناحية واوروبا من ناحية اخرى، وسيطروا على التجارة العالمية فى العصور الوسطى حيث كانت تنقل تجارة التوابل والحرير الى اوروبا عبر الطرق الهامة المارة بالمنطقة العربية. ولقد جنت مصر من هذه التجارة الكبيرة الغنية، واصبحت الضرائب المفروضة على هذه التجارة موردا هاما من موارد المالية المصرية، وظل الامر كذلك حتى شاهد

العالم التحول الواضح من البحر المتوسط الى المحيط الأطلسي .
وعندما فتح هذا الطريق الجديد في عام ١٤٩٨ حاول مماليك مصر يؤيدهم في ذلك البنادقة الذين عانوا ايضا من جراء هذا الكشف ، أولا بالوسائل الدبلوماسية ثم بالحرب ، القضاء على هذا الخطر البرتغالي . ولكن جهودهم باءت بالفشل اذ استطاع البرتغاليون ايقاع الهزيمة بالاساطيل المصرية وتوغلوا حتى الخليج العربي و البحر الاحمر . وفي عام ١٥١٥ وقعت مسقط وهرمز والبحرين في ايدي البرتغاليين .

على آية حال لم يستطع الشرق العربي استعادة طرق مواصلاته مرة اخرى حتى القرن التاسع عشر . ولقد نتجت عن تحول طريق التجارة آثار متعددة ، اذ أقفرت أسواق القاهرة و الاسكندرية من تلك الحركة التجارية الهائلة وحرمت حكومة مصر من تلك الضرائب التي طالما تمتعت بها ، كما فقد الاهالي الفوائد الكثيرة التي كانوا يجنونها من نقل هذه المتاجر . وبينما اخذت دول غروب اوروبا في التوسع والاستعمار ازدادت مصر ضعفا واضمحلالا وانتهى الامر بالاحتلال العثماني لها في عام ١٥١٧ .

أما حياة سورية الاقتصادية ، فكانت عرضة لتدهور متواصل نتيجة لهذه الكشوف الجغرافية . واضطر التجار السوريون بعد ذلك أن يجعلوا جل اعتمادهم على التجارة البرية . وأخذت من مدينة حلب في طريق الازدهار ، اذ كانت رأس الخط التجاري الذي ينتهي الى بغداد فالبصرة . وهكذا تمكنت حلب من التفوق على دمشق الى حين بينما استطاعت الاسكندرونة وطرابلس ان تنتزعا من بيروت مكانة مرفأها التجاري بل ان حلب بقيت حتى في القرن السابع عشر السوق الرئيسية للشرق الأوسط .

الفصل الرابع

الحـــــرب الايطالية

(أو التنافس الدولى بين فرنسا واسبانيـــــــا)

١٤٩٤ - ١٥٥٩

مقدمـــــة :

تعتبر الحروب الايطالية التى نشبت بين فرنسا واسبانيا فيمـــا بين ١٤٩٤و١٥٥٩ مظهرا من مظاهر التنافس الدولى بين هاتين الدولتيـن من اجل السيطرة والنفوذ فى اوروبا والرغبة فى التوسع الاقليمـــى داخل القارة . ولقد كانت شبه الجزيرة الايطالية ميدانا لتصـــارع الدولتين خلال المراحل الاولى من مراحل الحرب ،غير انها تطورت بعـــد ذلك الى صراع اوروبى اتسع نطاقه وانتقل الى ميادين متعددة خارج شبـه الجزيرة الايطالية . وكانت ايطاليا كما وضحنا من قبل - مجرد تعبيـر جغرافى،ولم تتمكن من اقامة الوحدة السياسية حتى بداية السبعينات من القرن التاسع عشر . ولقد أدى تفتت ايطاليا السياسى الى حـــدوث آثار بعيدة المدى فى السياسة الدولية وفى السياسة الاقليمية الخاصة بالدويلات الايطالية . اما من ناحية السياسة الدولية ،فقد ارتبـــط التفتت السياسى بالضعف العسكرى، ومن ثم تطلعت الدول الموحدة الـى غزو شبه الجزيرة الايطالية التى اصبحت مطمعا للدول ومسرحا للصـــراع الدولى. وانعكست هذه الاطماع على العلاقات الدولية ،فنشطت الدول فـى الدخول فى احلاف عسكرية وايجاد تكتلات دولية ،وظهر مبدأ سياسى سيكون السمة البارزة فى السياسة الدولية فى اوروبا فى القرن السادس عشـر

ونقصد بذلك مبدأ المحافظة على التوازن أو توازن القوى بين الدول The Balamce of Power (Equilibre des Pouvoirs) ومعنى هذا المبدأ هو انه اذا بلغت احدى الدول الاوروبية درجة من القوة والسيطرة تهدد أمن الدول الاخرى والسلام العام فانه يجب على هذه الدول ان تتحالف فيما بينها ضد الدولة الأولى .

أما من ناحية العلاقات السياسية بين الدويلات الايطالية فقد كان هناك نزاع مستمر بينها كان مبعثه المنافسة والبغضاء مثل النزاع الذى حدث بين جمهورية البندقية والولايات البابوية حول امتلاك رومانا Romagna الواقع بينهما ، وارادت البندقية امتلاك دوقية ميلان لوفرة محاصيلها وغزارة مواردها ، وتطلعت الولايات البابوية فى فترات معينة الى ضم فلورنسة اليها . ولقد لجأت الدويلات الايطالية الى تطبيق مبدأ التوازن الدولى فى ايطاليا للحيلولة دون تفوق وسيطرة دويلة على باقى الدويلات الاخرى . ومن ذلك يتضح ان مبدأ توازن القوى قد طبق فى القرن السادس عشر فى نطاقين : نطاق دولى على مستوى القارة الاوروبية وبين دولها الكبرى ، وفى نطاق محلى داخل ايطاليا بين الدويلات الايطالية .

الوضع الدولى فى اوروبا عند قيام الحرب الايطالية

كانت فرنسا واسبانيا قد تطلعتا الى ايطاليا لتحقيق هدفين هما : التوسع الاقليمى بالاستيلاء على ممتلكات جديدة فى شبه الجزيرة الايطالية ، ثم السيطرة والتفوق السياسى فى القارة الاوروبية . وساعد الدولة الوطنية الحديثة ذات الحكومة المركزية التى تكونت فى كل

من فرنسا واسبانيا على تحقيق ذلك انه كان لفرنسا بعض المزاعم يدعيها ملكها بخصوص وراثة عرش ميلان ونابولى، وانه كان لاسبانيا كذلك ادعاءات فى وراثة عرش نابولى كما انها كانت تطمع فى امتلاك ميلان لثروتها وغناها .

واختلف موقف الدول الاوروبية الاخرى من الحروب الايطالية طبقا للقدر الذى يمس مصالحها مباشرة. فانجلترا كانت لاتزال تحتفظ منذ ايام حروب المائة عام بثغر كاليه فى الاراضى الفرنسية، وكان ملكها هنرى الثامن (١٥٠٩ _ ١٥٤٧) يخشى ضياع كاليه اذا قويت فرنسا وتمكنت من اجلاء الانجليز عنها. وكان هنرى الثامن يبغى من التدخل فى الحروب الايطالية الحصول على زعامة سياسية لانجلترا بين الدول. أما امبراطور مكسمليان الاول (١٤٩٣ _ ١٥١٩) امبراطور الدولة الرومانية المقدسة فكانت املاكه فى اقليم التيرول متاخمة لجمهورية البندقية ولذلك كان يخشى ان تتأثر مصالحه بأى تغيير سياسى يقع فى شبه الجزيرة الايطالية. وكان يخشى تفوق نفوذ جمهورية البندقية أو تسلط دولة كبرى على شبه الجزيرة الايطالية . كما وجد اهل سويسره فى هذه الحرب مجالا للعمل امام ابنائها للانخراط فى الجيوش المحاربة كجنود مرتزقة. وكان السويسريون اشهر جنود مرتزقة فى اوروبا، وأصبحوا مضرب الامثال فى الشجاعة والاقدام وتحمل المصاعب والتمسك بالنظام، مما جعل منهم قوة عسكرية ضاربة رهيبة تنافست الدول المتحاربة فى اوروبا على استخدامهم فى جيوشها كجنود مرتزقة، وأصبحوا اعظم المحاربين مقدرة وأشدهم بأسا على الاطلاق فى اوروبا حتى منتصف القرن السادس عشر. وأما بالنسبة للدويلات الايطالية، فلم تقف موقفا سلبيا ازاء

الصراع العنيف الذى خاضته الدولتان المتنافستان، فقد انضمت بعض الدويلات الى اسبانيا، وانضم البعض الآخر الى فرنسا .

وعندما بدأت هذه الحروب الايطالية مرت فى دورين، بدأ أولهما من سنة ١٤٩٤ وانتهى فى عام ١٥١٥، وقد حاولت فرنسا فى هذا الدور تحقيق ادعاءاتها فى وراثة عرش كل من مملكة نابولى، ودوقية ميلان، فوقع الهجوم الفرنسى الاول على مملكة نابولى فى عهد شارل الثامن ملك فرنسا، ووقع الهجوم الثانى على دوقية ميلان فى عهد الملك لويس الثانى عشر، وقد اتخذت هذه الحرب شبه الجزيرة الايطالية ميدانا لها .

أما الدور الثانى فقد بدأ فى عام ١٥١٥، أى بارتقاء فرنسوا الأول عرش فرنسا، وانتهى فى عام ١٥٥٩ بتوقيع معاهدة كاتو كمبريسيس (Cateau-Cambrésis) وقد دار فيه النزاع بين الاسرتين الكبيرتين اللتين تنازعتا السيطرة والتفوق السياسى فى أوروبا وهما اسرة الهابسبرج Hapsburg النمسوية والتى اشتد بأسها عندما انتخب شارل ملك اسبانيا امبراطورا على الامبراطورية الرومانية المقدسة عام ١٥١٩، واسرة الفالوا Valois الفرنسية ذات الاطماع الواسعة فى ايطاليا . وحول هذا النزاع بين الهابسبرج والفالوا، توزعت جميع الدول الاخرى، تبعا لمبدأ التوازن الدولى، ولذلك انتقلت الحروب الايطالية، فى هذا الدور، من مجرد حوادث محلية مسرحها ايطاليا الى نضال اوروبى واسع النطاق فى ميادين متعددة .

الفصل الأول (١٤٩٤ — ١٥١٥)

عندما تولى عرش فرنسا الملك شارل الثامن (١٤٨٣ — ١٤٩٨) بعد وفاة لويس الحادى عشر، وكانت الملكية الفرنسية قد وطدت دعائمها وسيطرت على موارد الدولة الى حد فاق سيطرة اية دولة اخرى فى أوروبا فى ... ، وكانت لفرنسا قوات مسلحة تدين بالولاء العميق له، كانت ... ، كما طورت فرنسا سلاح المدفعية الفرنسية اثناء الحروب ... ضد انجلترا بحيث وصل هذا السلاح الى درجة من الكفاية والقوة لم يبلغها اى جيش فى اوروبا فى ذلك الوقت .

كان شارل ذا اطماع واسعة، اذ أراد ان يقوم بأعمال يبهر ... معاصريه ويخلد ذكراه فى التاريخ مستغلا فى ذلك قوة السلاح ... الذى فى يده ونقصد بذلك سلاح المدفعية . وتجاهل شارل ... السياسة الداخلية والخارجية واهتم بايطاليا لأنها كان ... فى نظره : فهى ارض التاريخ القديم، وهى البلاد التى شهدت ... النهضة الاوروبية، واعتقد ان الايطاليين سوف يرحبون به كمنقذ ... الاستبداد الذى يشنون منه وان البلاد الايطالية سوف تغمر خزائنه ... الخيرات ، وسيكون فى استطاعته اعادة الحكم الجمهورى الى ... وتخليص نابولى من نير الاسرة المالكة فيها .

وهكذا تكاتفت عدة عوامل لتجعل من المغامرة الايطالية مشروعا ... الى شارل الثامن . وبالاضافة الى ذلك كان للأسرة الحاكمة فى فرنسا ادعاءات بخصوص وراثة العرش فى نابولى ووراثة العرش فى ميلان . ولم تكن هذه الادعاءات تقوم على اسانيد قوية ولكنها كانت ...

دبلوماسيا وعسكريا كافيا لأن بولى شارل الثامن وجهه شطر الجزيرة الايطالية ولكى يستطيع العمل بحرية تامة فى ايطاليا رأى من الأفضل عقد سلسلة من المعاهدات مع انجلترا والدولة الرومانية المقدسة وقد سجل على نفسه فى هذه المعاهدات تنازلات مالية واقليمية استرضاء لهذه الدول ٠

وقد سنحت الفرصة لملك فرنسا للتدخل العسكرى فى ايطاليا عندما تنازع على السلطة فى ايطاليا مغامر عسكرى له اطماع سياسية واسعة ويدعى لودوفيكو سفورزا Ludovico Sforza مع جان جاليازو Jean Galeazzo فاستنجد الاول بشارل الثامن ملك فرنسا بينما استنجد الثانى بفردیناند الاول ملك نابولى ٠ وأوفد لودوفيكو سفورزا بعثة دبلوماسية الى ملك فرنسا طلبت اليه ممارسة حقوقه على عرش مملكة نابولى ٠ ولقد كانت هذه الادعاءات تقوم على اساس آن شارل كونت مين وبروفنس ain et Provence هو الوارث الشرعى لعرش نابولى وانه قد تنازل فى عام ١٤٨١ عن حقه فى الوراثة الى لويس الحادى عشر ملك فرنسا ،وقد ورثها عن هذا الاخير ابنه شارل الثامن ملك فرنسا فى ذلك الوقت ٠

وشجعت الوعود التى قطعتها بعثة لودوفيكو على نفسها شارل الثامن فقرر التدخل وزحف على ايطاليا عبر جبال الالب ٠ وفي سبتمبر ١٤٩٤ نزل الجيش الفرنسى فى بيدمونت واجتاح الجيش الفرنسى فلورنسة وبيزا دون ان يلقى مقاومة تذكر، واطاح بحكم اسرة ميدتشى وكان الحاكم وقتذاك هو بيير دى ميدتشى Pieere(Piero)de Medici وأعلن

قيام النظام الجمهوري في فلورنسة ،وباشر الراهب الثائر سافونا رولا نشاطه الديني في ظلال الجمهورية كما سبق أن آشرنا . وواصل الجيش الفرنسي زحفه على العاصمة الايطالية ، وفي ٣١ ديسمبر ١٩٤٤ دخل شارل مدينة روما ، ثم غادرها في طريقه الى نابولي التي دخلها في ٢٢ فبراير عام ١٤٩٥.

وهكذا اصبحت فرنسا سيدة الموقف في شبه الجزيرة الايطالية بعد هذه الحروب الخاطفة التي اعتبرها البعض نزهة حربية .

وادت الانتصارات السريعة التي احرزها شارل الثامن في ايطاليا الى قيام تحالف دولي ضد فرنسا . فتكتلت الولايات الايطالية لكي تتخلص من السيطرة الفرنسية فكونت في مارس عام ١٤٩٥ حلف البندقية League of Venice وكان اعضاء هذا الحلف هم البندقية وميلان والبابا اسكندر السادس ومكسمليان الأول امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وفرديناند الثاني ملك اسبانيا ، ويلاحظ ان لودوفيكو سفورزا حاكم ميلان الذي استنجد بملك فرنسا وشجعه على الزحف على ايطاليا قد انقلب عليه ، لانه حدث آثناء الزحف الفرنسي ان توفي منافسه في حكم الدوقية فجأة (جان جليازو) فخلا الجو أمامه وانتفت بذلك مبررات التدخل العسكري الفرنسي . أما بالنسبة للامبراطور مكسمليان فقد ساءه هذا الكسب السياسي والعسكري الذي نالته فرنسا في شبه الجزيرة الايطالية . اما فرديناند الكاثوليكي فقد كانت له هو الآخر ادعاءات في عرش نابولي .

علم شارل الثامن بهذه المحالفة - وكان في نابولي في ذلك

الوقت ، ولكنها كانت مفاجأة اليمة له اذ ان مركزه اصبح فى غاية الحرج . وادرك شارل ان الموقف يزداد خطورة وتعقيدا اذا مكث فى ايطاليا ، فقرر العودة الى فرنسا ، وخرج من نابولى فى ٢٠ مايو عام ١٤٩٥ . والتقى الجيش الفرنسى اثناء انسحابه بجيش الحلف عند فورنوفو Fornovo ولكنه تمكن من مواصلة الانسحاب الى فرنسا . ولقد كانت هذه المعركة كسبا لاشك فيه للقضية الايطالية ، لأنها خلصت البلاد من الاحتلال الفرنسى ، او حالت على اقل تقدير دون جعل ايطاليا منطقة نفوذ فرنسى ، وأخليت نابولى و المراكز الاخرى من الحاميات الفرنسية .

وعندما مات شارل فى ابريل ١٤٩٨ لم يكن لفرنسا شئ من المكاسب الاقليمية فى ايطاليا . اما حلف البندقية فقد تفككت عراه بعد ان حقق هدفه ، ولأن الخلافات بين الدول الاعضاء فى الحلف عادت أعنف ما تكون بعد خروج الفرنسيين من شبه الجزيرة الايطالية .

وتولى عرش فرنسا بعد وفاة شارل ابن عمه لويس الثانى عشر (١٤٩٨ — ١٥١٥) ، وكان يطلق عليه قبل توليه العرش دوق اورليان . وانتهج الملك الفرنسى الجديد نفس السياسة الخارجية التوسعية ، أى المضى فى تنفيذ المشروعات الايطالية التى كان قد تبناها سلفه شارل الثامن . وكانت حملته الاولى على دوقية ميلان تحت ستار الادعاء بأن له حقا فى وراثة عرش هذه الدوقية ، اذ كان ينتمى من جهة جدته فالنتين فيسكونتى Valentine Visconti الى اسرة فيسكونتى وكانت هذه الاسرة تحكم دوقية ميلان قبل اسرة سفورزا . وكانت الظروف الدولية مهيأة للتدخل العسكرى الفرنسى فى ايطاليا : فالعلاقات كانت قد تدهورت بين جمهورية البندقية وبين لودوفيكو سفورزا حاكم ميلان

وانضمت البندقية الى فرنسا وكذلك حدث تقارب بين البابا اسكندر السادس وبين فرنسا تحول الى اتفاق بينهما على المصالح. ونجح لويس الثانى عشر فى عقد اتفاق مع كل من انجلترا وفرنسا لتقفا على الحياد فى الصراع المرتقب كما عقد هدنة مع مكسمليان الأول امبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

وبعد أن أتم لويس الثانى عشر هذه الاجراءات السياسية والعسكرية عبر الجيش الفرنسى جبال الالب فى اغسطس ١٤٩٩ واتجه نحو ميلان التى احتلها الجيش الفرنسى دون صعوبة تذكر، واستخلصوها من لودوفيكو سفورزا الذى وقع اسيرا فى ايدى الفرنسيين. وتمكنت فرنسا باستيلائها على دوقية ميلان من السيطرة على شمالى ايطاليا . ولكن ما لبث ان تحول لويس الثانى عشر بأطماعه الى مملكة نابولى يبغى ضمها اليه حتى تستكمل فرنسا سيطرتها على شبه الجزيرة الايطالية شماليها وجنوبيها . ولكن الطريق الى مملكة نابولى لم يكن معبدا ، فقد وجد ان فرديناند الكاثوليكى ملك اسبانيا يريد الاستيلاء عليها لنفس الاسباب التى يتذرع بها لويس الثانى عشر، وهى أن له الحق فى وراثة عرش نابولى .

ولكن تمكن ملكا فرنسا واسبانيا تجنب الصراع الحربى وعقدا معاهدة سرية تحت رعاية البابا اسكندر السادس وتسمى معاهدة غرناطة Grenade فى نوفمبر عام ١٥٠٠، واتفقا فى هذه المعاهدة على ارسال حملة عسكرية مشتركة لغزو مملكة نابولى واقتسامها بعد النصر عليها ،كما اتفقا على ان يتخذ ملك فرنسا لنفسه ايضا لقب ملك

نابولى وان يتخذ فردينا ندملكاسبانيا لنفسه لقب الدوق الكبير .

ولم تستطع نابولى مقاومة الغزو العسكرى ، فعندمابدأ الفرنسيون هجومهم تساقطت تباعامدن مملكة نابولى بما فيها العاصمة ووقع ملك نابولى فى الاسر وتنازل عن جميع حقوقه للويس الثانى عشر ملك فرنسا ولما انتهت العمليات العسكرية بانتصار فرنسا واسبانيا تصادمت مصالح هاتين الدولتين واشتعلت الحرب بينهما ، وهكذا تحول حلفاء الأمس الى خصوم ألداء . ومنى الفرنسيون بهزائم متعاقبة وطردوا من نابولى التى انفرد الاسبان بالاستيلاء عليها . واعترف الفرنسيون فى مارس عام ١٥٠٤ بامتلاك الاسبان لنابولى ، وعندئذ بات الفرنسيون لايملكون فى ايطاليا غير ميلان وحدها .

غير ان الموقف السياسى تغير بعد ذلك بصورة ادت فى النهاية الى ضياع ميلان ذاتها من الفرنسيين . فبعد وفاة البابا اسكندر السادس اعتلى كرسى البابوية فى أول نوفمبر ١٥٠٣ بابا طموح هو يوليوس الثانى Julius II (١٥٠٣ـ ١٥١٣) ترك بصماته قوية سواء فى ايطاليا او فى الحياة السياسة الدولية . فأراد هذا البابا أن يقوم بدور ايجابى فى الحياة السياسية فى ايطاليا وكان من نتائج محاولته أن تزاحمت على ايطاليا المحن والكوارث . وكان يوليوس الثانى من أصل جنوى ، ومن المعروف ان جنوه من الدويلات الايطالية التى نافست البندقية فى ميدان التجارة الشرقية منافسة قوية ، ولذلك كان البابا يشعر نحو جمهورية البندقية بحقد دفين ، فى نفسه ، ورأى أنها بسطت سلطانها على اراضى فى شبه الجزيرة الايطالية كانت فى يوم ما ضمن الممتلكات البابوية ، وكان هذا البابا حريصا غاية الحرص على ان يزيد من رقعة

مساحة الولايات البابوية ، كما ان حكومة جمهورية البندقية كانت تمارس فى ادارة شئون كنيستها سلطات استقلالية دون الرجوع الى كنيسة روما، وهو أمر كان يتعارض مع السياسة العليا للبابوية على عهد يوليوس الثانى، ولهذه الاسباب اخذ يوليوس الثانى منذ وصوله الى كرسى البابوية يعمل لتأليف محالفة ضد البندقية . وفى ديسمبر عام ١٥٠٨ تألفت ضد جمهورية البندقية محالفة كمبراى League of Cambrai من البابا وفرديناند الكاثوليكى، والامبراطور مكسمليان، ولويس الثانى عشر ملك فرنسا، وبعض الدويلات الايطالية، وبقيت فلورنسة على الحياد. ولقد لقيت سياسة البابا يوليوس الثانى استجابة من معظم الدول الاوروبية لانها كانت لها أطماع فى البندقية. فبالنسبة للويس الثانى عشر ملك فرنسا كانت البندقية حلما جميلا يراود خياله ورأى فى السيطرة عليها تعويضا عن الخسارة التى لحقت به فى مملكة نابولى ، أما مكسمليان الاول امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، فلقد رأى ان البندقية قد مدت أملاكها فى القارة الاوروبية أكثر من اللازم ، وانها وضعت يدها على اراض كانت اصلا تتبع الدولة الرومانية المقدسة وانضمت فلورنسة الى هذا التحالف لحقدها على البندقية ، فلقد كان لفلورنسة نشاط واسع ومتعدد فى عالم المال ودنيا الاقتصاد ، واشتهر ابناؤها ببراعتهم فى الاعمال المصرفية ، ووجدوا منافسة عنيفة من البندقية فى المواطن التى امتد اليها نشاطهم ونفوذهم مثل الأراضى المنخفضة ومنطقة البحر الأسود .

وكانت فرنسا اولى الدول الاعضاء فى هذا الحلف استعدادا للدخول فى الحرب فأرسلت جيشا كبيرا تمكن من ان يوقع هزيمة ساحقة

بجيش البندقية فى المعركة اجنادلو Agnadello فى مايو عام ١٥٠٩، وحاولت البندقية عقد الصلح ولكن رفض كل من البابا وملك فرنسا وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة الاستجابة الى هذا الطلب ولكن كان من حسن حظ البندقية ان انقذها من الفناء وقوع الخلاف بين الحلفاء بعد انتصارهم ثم تحول البابا عن خطته بعد ان ادرك خطأ السياسة التى انساق اليها حين دعا دولا اجنبية لغزو الاراضى الايطالية كما وجد انه نجح فى تحقيق اهدافه من حلف كمبراى ، اذ استولى على المواقع والمناطق التى اراد ان يجعل منها مراكز امامية للدفاع عن ممتلكات البابوية فأصبح الاستمرار فى الحرب بالنسبة له ضد جمهورية البندقية غير ذى موضوع ،وادرك ان بقاء جمهورية البندقية بأسطولها البحرى المتفوق يعتبر بمثابة درع يحمى المسيحيين وايطاليا وبقية اوروبا من خطر الاتراك العثمانيين .كما ان موقع البندقية الذى يتيح لها السيطرة على معظم المداخل الشمالية لايطاليا من وسط اوروبا يجعل منها مركزا استراتيجيا هاما يحمى شبه الجزيرة الايطالية من الغزو الفرنسى او الالمانى. وكانت ميلان – وهى على مقربة من البندقية – مطمع انظار ملكى فرنسا واسبانيا ، يريد الاول تثبيت دعائم الحكم الفرنسى فى ربوعها ،ويبغى الثانى الاستئثار بها دون الفرنسيين، ورأى البابا ضرورة الابقاء على البندقية وقال فى هذا الصدد اذا لم تكن البندقية قد وجدت على وجه الارض فيجب بناء بندقية أخرى.ولكل هذه الاسباب عقد البابا صلحا منفردا مع البندقية فى ابريل عام ١٥١٠ وبذلك انفرط عقد محالفة كمبراى .

وقد اثار هذا التحول غضب مكسمليان الاول امبراطور الدولة

الرومانية المقدسة ، ولويس الثانيعشر ملك فرنسا اللذين اعتبرا هذا التصرف من جانب البابا لونامنالوان الغدر والتخلى عنالقضية التى حارب من اجلها. وقرر الامبراطور والملكالمضى فى الحرب .وقد رد البابا عليهما باعلان عزمه على طرد هؤلاء المتبربرين منايطاليا وظهر البابا امام الايطاليينبطلامنابطال القومية الايطالية ،ووقفت الى جانبه فى هذه المرحلة البندقية واسبانيا. ولكن استدعى لويس الثانى عشر الكرادلة الفرنسيين المقيمين فى روما ،وبدأ فىالأفق انقسامدينى خطير يتهدد كنيسةروما. وفى ١٠ اكتوبر ١٥١٠ قامت الجيوش الفرنسيه بمحاصرة البابا فى مدينة بولونا فى شمالايطاليا حيث كان يقيم . ولكى يتخلص منهذا الموقف الحرج طلب الصلح كسبا للوقت وتراجعت الجيوش الفرنسية دون ان تخوض المعركة. ولكن استؤنفالهجوم الفرنسى مرة اخرى فى مايو عام١٥١١، واضطرالبابا الى التقهقر الى روما امام الفرنسيين ،وأخطأ الفرنسيون عندما توقفوا عن مطاردته الى روما واتخذوا بدلا من ذلك تدبيرا آخر هو دعوة مجلس منالكرادلة فى بيزا ليعلن عزليوليوس الثانى من البابوية .

ووجه الخطأ فى ذلكان هذه الحركة الانفصالية فى الكنيسة ساعدت على تقويةمركز يوليوسبدلامن اضعافه ، وقد استطاع البابا آن يستميل اليهالاعوان ليعقدمحالفة جديدة فى هذه المرة موجهة ضد فرنسا ، وبذلك اذاع البابا فى ٥ آكتوبر عام ١٥١١ نبأ تكوين ما اطلق عليه اسم الحلف المقدس The Holy Leagueوتكون من فرديناند الكاثوليكى ملكاسبانيا وهنرىالثامن ملك انجلترا وجمهورية البندقية والقواتالسويسرية المرتزقة ثم انضم الى الحلف

بعد قليل الامبراطور مكسمليان الاول .

وتلخصت اهداف هذا الحلف فى المحافظة على سيادة الكنيسة والقضاء على الحركة الانفصالية التى اوجدها مجلس الكرادلة فى بيزا واستيلاء البابا على الاقاليم والمدن التى تطمع فرنسا فى امتلاكها او فى استرجاعها (مثل بولونا وفرارا) واستيلاء ملك اسبانيا على اقليم نافار حتى تستكمل اسبانيا حدودها الطبيعية من ناحية جبال البيرانيز، ثم طرد الفرنسيين من شبه جزيرة ايطاليا كلها الى ما وراء جبال الالب تطبيقا لمبدأ التوازن الدولى . ونص فى قرار انشاء الحلف ضد فرنسا على الاجراءات التنفيذية التالية :

اولا - يقوم ملك اسبانيا بمهاجمة فرنسا فى جبهتين : فى شمال ايطاليا وفى اقليم نافار فى اقصى الحدود الجنوبية الغربية لفرنسا ، وبذلك يضطر لويس الثانى عشر ملك فرنسا الى تشتيت قواته المسلحة .

ثانيا - يتكون جيش الحلف المقدس من ٣٦ ألف مقاتل .

ثالثا : يدفع البابا ودوج البندقية كل شهر عشرين ألف قطعة من العملة الذهبية المسماة دوقا Ducats لمساندة المجهود الحربى .

رابعا - تقدم جمهورية البندقية اربع عشرة سفينة وتقدم اسبانيا اثنتى عشر قطعة من اسطولها البحرى .

خامسا - يتولى القيادة العامة لقوات الحلف المقدس نائب ملك اسبانيا فى نابولى واسمه Raymond de Cardona.

ونجح الحلف المقدس فى تحقيق اغراضه ،فأخلى الفرنسيون ميلان (ماعدا قلعتها) وتساقطت املاك فرنسا فى شمال ايطاليا وعبرت فلول

الجيش الفرنسى جبال الالب فى طريق عودتها الى فرنسا . واستولى الاسبان على نافار (١٥١٢) . واذا كان يوليوس الثانى قد نجح فى طرد القوات الفرنسية من شمال ايطاليا فقد ظل فى شبه الجزيرة الايطالية جنود سويسريون واسبان وجنود المان تابعون للامبراطور . ولقد لفت احد الكرادلة نظر البابا الى اكتظاظ ايطاليا بالجنود الاجانب ، فثارت ثائرته على هذه الملاحظة وقال انه سوف يطرد الاسبان من نابولى ولعله كان يفكر فى عقد احلاف جديدة وتفجير حروب جديدة ، ولكن كان الموت أقرب اليه من هذه المشروعات فتوفى فى ٢١ فبراير عام ١٥١٣ .

وكانت المشكلة التى واجهها البابا الجديد ليو العاشر Leo X (١٥١٣ - ١٥٢١) هى تحديد موقفه من فرنسا واسبانيا . وكان التزام الحياد بين هذين المعسكرين أمرا متعذرا : فالاسبان وطدوا أقدامهم فى جنوب ايطاليا وشمالها ، وكانت فرنسا ترنو بأبصارها نحو دوقية ميلان تريد استرجاعها لنفسها . وعلى اية حال ، كانت تصرفات لويس الثانى عشر ملك فرنسا هى التى حددت للبابا الجديد الخط الذى يسير فيه . فقد عقد ملك فرنسا فى مارس عام ١٥١٣ حلف بلوى League of Bloix مع جمهورية البندقية تقرر فيه قيام تحالف عسكرى يستهدف التوسع الاقليمى للدولتين معا فى شبه الجزيرة الايطالية : فتسترد فرنسا سهل لمبارديا وتستعيد البندقية ممتلكاتها القديمة التى كانت لها فى القارة الاوروبية . ورد البابا على هذا الحلف بحلف مضاد عقده فى نفس السنة وهو حلف مالين Malines وتكون من الولايات البابوية ومكسمليان الاول وفرديناند ملك اسبانيا وهنرى الثامن ملك انجلترا . وكان هذا الحلف موجها ضد فرنسا وسرعان ما اشتعلت الحرب فى مايو عام ١٥١٣ .

زحفت قوات فرنسا والبندقية على شمال ايطاليا متجهة نحو ميلان ولكن لقى الجيش الفرنسى فى يونيو ١٥١٣ هزيمة منكرة على مقربة من مدينة نوفار Novare على يد جيش من الجنود السويسريون وانسحب الجيش الفرنسى عائدا على فرنسا. أما جيش البندقية فقد تقهقر الى المدينة بادوا وظلت البندقية تكافح سنة كاملة قوات الامبراطور . وفى نفس الوقت كانت فرنسا تلقى هزائم اخرى على ارضها على يد الانجليز فى اقليم نورماندى فى شمال فرنسا . ولكن عندما فشل الفرنسيون فى استرجاع ميلان ، عقد لويس الثانى عشر الصلح مع البابا الجديد ليو العاشر، ثم مع اسبانيا والامبراطور، واخيرا مع ملك انجلترا فى اغسطس ١٥١٤. وقد تقرر فى هذا الصلح الاخير أن يتزوج لويس الثانى عشر الاميرة مارى الاخت الصغرى لملك انجلترا لتغدو ملكة على فرنسا. ولم ينعم لويس بهذا الزواج اكثر من ثلاثة أشهر اذ توفى فى ١ يناير عام ١٥١٥.

وبوفاة لويس الثانى عشر ينتهى الدور الاول فى الحروب الايطالية ويمكن تحديد نتائجه على النحو التالى :

اولا - اخفقت فرنسا فى سياسة التوسع الاقليمى فى ايطاليا ،فهى لم تفشل فى بسط سيطرتها على ايطاليا فحسب ، بل خرجت هى نفسها من شبه الجزيرة الايطالية .

ثانيا - نالت اسبانيا اقاليم ذات مواقع استراتيجية هى نابولى واقتسمت ميلان مع السويسريين، كما انها اغارت على نافار الواقعة على حدودها الشمالية .

ثالثا - امتلكت البابوية اقليم رومانا ولم تلبث ان حققت نصرا سياسيا حين عادت اسرة ميدتشى مرة اخرى الى الحكم فى فلورنسة وكان البابا ليو العاشر ينتمى الى هذه الاسرة ،فظفر بالسيطرة على فلورنسة التى قطعت

علاقاتها مع فرنسا .

الدور الثانى من الصراع بين فرنسا واسبانيا

(١٥١٥ - ١٥٥٩)

استغرق الدور الثانى من أدوار الحرب اربعة وأربعين عامـا ، ولذلك سنقسمه الى أربع مراحل حتى يمكن تتبع احداثها .

المرحلة الاولى :

وتبدأ بارتقاء فرنسوا الاول عرش فرنسا عام ١٥١٥ الى انتخاب شارل الاول ملك اسبانيا امبراطورا للدولة الرومانية المقدسة باسم شارل الخامس عام ١٥١٩. اعتلى فرنسوا الاول (١٤٩٤-١٥٤٧) عرش فرنسا فى عام ١٥١٥ بعد وفاة لويس الثانى عشر، وكان من آسرة فالوا - أورليان، أى الفرع الاصغر لأسرة فالوا، وتذرع بحقوق له موروثة فى دوقية ميلان، ولم يجد له فى هذه المغامرة الايطالية من حليف سوى جمهورية البندقية ، بينما تحالفت ضده الامبراطورية الرومانية المقدسة واسبانيا والبابوية . واستخدم هؤلاء الحلفاء الجنود السويسريون المرتزقة. ولكن فرنسوا انتصر على الحلفاء فى موقعة مارينانو Marignano بالقرب من ميلان فى ١٣ سبتمبر عام ١٥١٥، ولقد أسفرت هذه المعركة عن عدة نتائج هامة تتلخص فيما يلى :

١ - اتفاق بولونا Le Concordat de Bologne

عقد فرنسوا الاول مع البابا ليو العاشر اتفاقا فى اغسطس عام ١٥١٦ ، وبمقتضاه تعهدت فرنسا بدفع الاموال الكنسية الى البابا ، اذ كانت فرنسا قد توقفت عن دفعها منذ عام ١٤٣٨ ،كما تقرر فى هـذا الاتفاق تخويل ملوك فرنسا الحق فى تعيين رجال الدين فى المناصب

الكنسية العليا فى فرنسا . وقد عادهذا الاتفاق بالنفع على الجانبين فقد حصلت البابوية علىموردمالى ضخم كانت محرومة منه طيلة قرن من الزمان تقريبا ، وفى نفس الوقت ازداد نفوذ الملكية الفرنسية وظل الاتفاقعمولا به الى نهاية القرن الثامن عشر (أى الى قيام الثورة الفرنسية) .

٢ - اعجب السويسريون بشجاعة فرنسوا وعقدوا معه معاهدتين فى عام١٥١٥ وعام١٥١٦ تعهدفيهما السويسريون بألا يشتركوا فى أى حرب ضد ملك فرنسا فى مملكته او فى ميلان او فى اقليمآخر تابع له .ودفع لهم ملك فرنسا النفقات التىتكبدها الجنود السويسريون فىهذه الحرب.

٣ - حقق فرنسوا الاول لفرنساتفوقا ونفوذا فى شمال ايطاليا ،فقد عقد فىاغسطس عام١٥١٦ معاهدات مع الامبراطور مكسمليان الأول ومع البندقية كفلت له الاحتفاظ بميلانوجنوه ،وأصبحت له سيطرة تامة فى اقليم لمبارديا فى شمال ايطاليا . وفىاعقاب هذه الاتفاقات آبرم فى ١٣أغسطس ١٥١٦ معاهدة نويون (Noyon) مع شارل آرشيدوق النمسا ووارثعرش اسبانيا منذ وفاة مليكها فرديناند الكاثوليكى. وقد جدد فيها وعده بأن يتزوج أميرةفرنسية وان يكونصداق هذا الزواج الجزء الخاص من مملكةنابولى الذى يدعيه لنفسه فرنسوا الأول .

ولكن لم تمض سنوات علىهذا الهدوء الذى ساد العلاقات بين فرنسا واسبانيا بعد موقعة مارينانو حتىوقع حادث هام آدى الى تصعيد الصراع بين هاتين الدولتين، اذ شغر منصب امبراطورالدولة الرومانية المقدسة بوفاة الامبراطور مكسمليان الاول فى ١٢ ينايرعام ١٥١٩. وكان هذا المنصب يشغلبطريق الانتخاب لا الوراثة ،وكانت عملية انتخابالامبراطور مقصورة على سبعةمن حكامالمقاطعات الالمانيةالهامة

أطلق عليهم "اسم الناخبون" (Elctors) وجرى العرف على أن يكون الامبراطور الذى يشغل هذا المنصب من اصل جرمانى اصيل ولكن ظهر اتجاه جديد يقول انه لايوجد اساس قانونى او دستورى يجعل هذا المنصب مقصورا على الجنس الجرمانى بحيث تستبعد من الترشيح لهذا المنصب الخطير العناصر الاخرى . وتمشيا مع هذا الاتجاه رشح فرنسوا الاول نفسه لمنصب امبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ونافسه فى هذا الترشيح شارل الاول ملك اسبانيا وكان قد تولى عرشها عام ١٥١٦. كما زج هنرى الثامن بنفسه فى معركة الانتخابات ،ولكنه آثر بعد قليل الانسحاب منها ،وأصبحت المنافسة محصورة بين شارل الأول ملك اسبانيا وبين فرنسوا الاول ملك فرنسا .

وبذل الملكان المتنافسان الوعود للناخبين السبعة ،وتأرجح موقف بعضهم بين ملك فرنسا وملك اسبانيا ازاء اغراء المال والمطامع السياسية . وعلى أية حال اجتمع المجلس الامبراطورى او الدايت(Diet) فى فرانكفورت فى يونيو عام ١٥١٩ وتغلبت الوطنية الالمانية على الناخبين السبعة ، فانتخبوا بالاجماع فى ٢٨ يونيو من نفس العام كبير أسرة الهابسبرج النمساوية وهو شارل الاول ملك اسبانيا امبراطورا للدولة الرومانية المقدسة ،واطلق على نفسه اسم الامبراطور شارل الخامس

المرحلة الثانية :

يأخذ الصراع فى هذه المرحلة (١٥١٩-١٥٢٩) مظهر النضال بين اسرة الهابسبرج ممثلة فى امبراطور الدولة الرومانية وبين فرنسا . ورأت فرنسا ان انتخاب شارل ملك اسبانيا امبراطورا للدولة الرومانية المقدسة قد أتاح لاسبانيا سيادة عابرة فى العالم فى اوائل العصر الحديث ،كما انها اعتبرت ذلك اخلالا خطيرا بمبدأ التوازن الدولى اذ

اصبح شارل الخامس يحكم اكثر من نصف اوروبا الغربية عدا الممتلكات الشاسعة فى العالم الجديد، وغدا قوة رهيبة تتهدد فرنسا ،لأن أملاك الامبراطور اصبحت تحيط بفرنسا من كل جانب ، فضلا عن تنافس هذين العاهلين على املاك برجنديا (وهى دوقية تقع فى شرق فرنسا وعاصمتها ديجون Dijon) وتسابقهما على دوقية ميلان.

ونتيجة لذلك تحولت انظار العاهلين الى هنرى الثامن ملك انجلترا وأخذ كل منهما يسعى لضمه الى جانبه فى الصراع المرتقب . وانتهز الامبراطور شارل الخامس فرصة سفره بحرا من اسبانيا الى الاراضى المنخفضة ليتسلم التاج الامبراطورى فى مدينة أكس لاشابل ، فتوقف فى ميناء دوفر حيث اجرى مفاوضات مع الملك هنرى الثامن، وتمكن الامبراطور من استمالته الى جانبه نظير بعض العروض الاقليمية المغرية . فعرض الامبراطور على ملك انجلترا الانضمام اليه فى مقابل استيلائه على نورماندیا وبیکاردیا فى شمال فرنسا. كما سارع ملك فرنسا من ناحية اخرى الى اجراء اتصالات تمهيدية مع ملك انجلترا لضمه الى صفه ، ولكن رفض ملك انجلترا ان يرتبط بوعد صريح بقيام تعاون عسكرى بين البلدين فى ذلك الوقت .

وعلى ذلك بدأت الحرب بين شارل الخامس وفرنسوا الاول فى عام ١٥٢١ ودفعت فرنسا بجيشها الى شمال ايطاليا وكان يضم جنودا مرتزقة سويسريين، ولكن اضطر هذا الجيش الى اخلاء ميلان نتيجة لعنف هجوم القوات الامبراطورية وآبيد الجيش الفرنسى على مقربة من ميلان فى ٢٧ ابريل عام ١٥٢٢. وبعد هذه الهزيمة اعلنت انجلترا فى ٢٩ مايو ١٥٢٢ انضمامها الى جانب الامبراطور. وفى تلك الفترة ايضا عقد الامبراطور اتفاقا مع الكونستابل شارل دوق بربون ،قائد عام الجيش

الفرنسى وأحد النبلاء الاقطاعيين الثائرين على الملك فرنسوا الاول. وقد نص الاتفاق على ان يقوم الكونستابل بتحريك ثورة فى فرنسا للاطاحة بحكم فرنسوا الاول فى الوقت الذى يهاجم فيه شارل الخامس وهنرى الثامن ملك انجلترا الاراضى الفرنسية . ونص الاتفاق ايضا على أن يستولى هنرى الثامن ملك انجلترا على مقاطعات معينة فى فرنسا ثم يتوج فى باريس ، كما يسترد الكونستابل الاراضى التى انتزعت منه ، ويضيف اليها اراض جديدة تكون هذه وتلك نواة لانشاء مملكة مستقلة فى جنوب فرنسا تشمل بصفة مبدئية مقاطعتى بروفانس Provence ودوفينيه Dauphine .

وأعد فرنسوا خطة لمهاجمة ايطاليا والزحف على ميلان ولكنه تلقى هزيمة كبيرة فى بافيا فى ٢٤ فبراير عام ١٥٢٥ والتى تعتبر أشهر معركة فى تاريخ اوروبا فى القرن السادس عشر . كما ان نتائج المعركة كانت بمثابة كارثة قومية نزلت بفرنسا ، اذ وقع الملك فرنسوا فى الاسر وأرسل الى اسبانيا حيث ارغم هناك على توقيع معاهدة مدريد فى ١٤ يناير ١٥٢٦. وقد جاءت الصياغة القانونية للمعاهدة فى خمسين مادة ولكننا سنشير فقط الى اهم ما جاء فيها على النحو التالى :

اولا : يتنازل فرنسوا الاول عن اراض فرنسية واسعة فى شرق فرنسا هى دوقية برجنديا (وهى غير مقاطعة كومتيه برجنديا أو فرانش كومتيه) .

ثانيا : يتنازل فرنسوا الاول عن كل ادعاءاته على ميلان وجنوه ونابولى وفلندرا وارتوا .

ثالثا : يتعهد فرنسوا الاول بعدم مساعدة نافار .

رابعا : يسترد الكونستابل شارل دوق بوربون جميع الاراضى التى صادرها منه ملك فرنسا .

خامسا: يقدم فرنسوا الاول ولديه وهما ولى عهده والابن الثانى هنرى ـ كى يقيما فى اسبانيا كرهينة او كضمان لتنفيذ أحكام المعاهدة تنفيذا سلميا .

سادسا: يتعهد فرنسوا الاول فى حالة عدم تنفيذ المعاهدة بأن يسلم نفسه فورا للسلطات الامبراطورية تمهيدا لاعادته للأسر .

سابعا: يتزوج فرنسوا الاول شقيقة شارل الكبرى اليانور .

ثامنا: يتم تنفيذ المعاهدة فى خلال ستة اسابيع وبذلك اطلق سراح الملك فعاد الى فرنسا فى مارس ١٥٢٦ .

وهكذا اعطت معركة بافيا ومعاهدة مدريد للامبراطور تفوقا سياسيا واسعا لم تشهد له اوروبا مثيلا منذ ايام الامبراطورية الرومانية المقدسة . وقد قضى ذلك الموقف على مبدأ التوازن الدولى فى أوروبا وجعل حلفاء الامبراطور يعيدون النظر فى موقفهم من الامبراطور نفسه . ومن ناحية اخرى وضع حكام الامارات الايطالية من الاجراءات الاستبدادية التى كان يلجأ اليها قادة الجيش الامبراطورى ، كما ثار السكان فى كل انحاء شبه الجزيرة الايطالية بسبب الجرائم المنكرة التى كان يرتكبها فى وضح النهار جنود الامبراطور . وعمل ايضا على زيادة هذا السخط البابا كلمنت السابع (Clement V11) (١٥٢٣-١٥٣٤) وكان شديد الرغبة فى دعم قبضته على الولايات الايطالية وفى تطهير شبه الجزيرة واعادة التوازن الدولى فى غرب اوروبا ولهذا وقع حكام الامارات الايطالية فى ٢٢ مايو عام ١٥٢٦ حلف كونياك League of Congnac لتخليص ايطاليا من نفوذ الامبراطورى ووقفت الى جانب البابا البندقية وفلورنسة واسرة سفورزا فى ميلان وسائر الامارات الايطالية الاخرى . وقد انضمت فرنسا وانجلترا الى هذا الحلف . وتجدد الصدام المسلح ، ولكن اثناء ذلك ثار جنود شارل بسبب تأخر مرتباتهم

فنهبوا روما فى مايو ١٥٢٧،وحاصروا البابا فى حصن سان انجلو. ومع ان فرنسوا الاول أحرز بعض الانتصارات وامكنه تخليص البابا من الاسر الا انه اتهرم فى النهاية فى موقعة لاندريانو Landriane شمالى فرنسا فى ٢١ يونيو ١٥٢٩،واضطر الى عقد الصلح مع الامبراطور شارل الخامس فى كمبراى فى ٣ آغسطس ١٥٢٩،ولقد اطلق على هذه المعاهدة ايضا سلم السيدات لأن المفاوضات التى دارت فى مدينة كمبراى تولتها عن الجانب الفرنسى الملكة الوالدة لويز Louise وعن الجانب الامبراطورى مارجريت النمسوية عمة الامبراطور شارل الخامس وحاكمة الاراضى المنخفضة. ولقد اطاحت هذه المعاهدة بمبادىء هامة جاءت فى معاهدة مدريد وكان من اهم ماجاء فيها :

١ – يتخلى الامبراطور شارل الخامس عن ادعاءاته فى برجنديا وتحتفظ فرنسا لنفسها بهذا الاقليم مما يعتبر نقضا صارخا لمعاهدة مدريد

٢ – يتخلى الملك فرنسوا الاول عن ادعاءاته فى ايطاليا وعن حقوقه الاقطاعية فى ارتوا وفلندرا،وان تكف فرنسا عن التفكير فى اية محاولة لاسترداد مدينتى ليل ودوويه (Douai)

٣ – يطلق الامبراطور سراح الاميرين الفرنسيين من الاعتقال فى مقابل فدية كبيرة بلغت مليونى قطعة ذهبية من فئة الكورونا .

٤ – يتزوج الملك فرنسوا الاول اليونور ارملة ملك البرتغال وشقيقة الامبراطور .

وعلى أية حال كان صلح كمبراى كسبا سياسيا للامبراطور شارل الخامس فقد حقق اهدافه فى غرب الراين وجنوب الالب ،واصبحت له السيطرة على ايطاليا. كما سادت العلاقات الودية بين الامبراطور شارل الخامس والبابا كلمنت الذى قام بتتويج الامبراطور شارل الخامس فى مدينة بولونا فى شمال ايطاليا. وتفرغ الامبراطور ايضا لتدبير شئون آسرته

فرشح اخاه فرديناند خلفا له على عرش الامبراطورية ،كما عين ابنه فيليب خلفا له على عرش اسبانيا ومستعمراتها في العالم الجديد.

المرحلة الثالثة :

وتشمل الصراع بين اسرتى الفالوا والهابسبرج خلال السنوات الاخيرة من حكم فرنسوا الاول (١٥٣٠-١٥٤٧).

كان من أهم المظاهر التى طرأت على السياسة الدولية بعد صلح كمبراى ظهور الامبراطور شارل الخامس على مسرح السياسة الاوروبية بمظهر الامبراطور فقط،فقد ترك جانبا وبصفة مؤقتة المنافسات القديمة التى كانت بين اسبانيا وفرنسا ،وصرف جهوده لاعادة الوحدة الدينية الى اجزاء الامبراطورية بالقضاء على المذاهب الدينية المخالفة للمذهب الكاثوليكى والمحافظة على حقوق ونفوذ ومصالح اسرة الهابسبرج فى كل من المانيا وايطاليا. وقد تمثلت المشاكل الداخلية والخارجية التى واجهها الامبراطور فى تفاقم حركة الاصلاح الدينى التى تزعمها مارتن لوثر فى المانيا ،وفى ازدياد خطر الاتراك العثمانيين سواء فى القارة الاوروبية او فى حوض البحر المتوسط،وفى اغارة سكان شمال افريقيا الذين جمعوا صفوفهم تحت امرة خير الدين بربروسة - على شواطئ اسبانيا ونابولى .

ومن ناحية اخرى لم يؤد صلح كمبراى الى ايجاد تسوية سياسية دائمة للعلاقات بين الامبراطورية الرومانية المقدسة وبين فرنسا .فلم يقبل فرنسوا الاول ان يتنازل عن كل ادعاءاته فى ايطاليا بوجه عام وفى دوقية ميلان بوجه خاص ،بل انه عقد قران ابنه الامير هنرى فى عام ١٥٣٣ على كاترين دى ميدتشى وهى ايطالية ولها اطماع سياسية بعيدة واعتبرت هذه الزيجة بمثابة ضربة سياسية موجهة الى شارل الخامس فى ايطاليا لانها تؤدى الى تدعيم النفوذ الفرنسى فى ايطاليا ،وبخاصة

ان العروس كانت من اسرة البابا كلمنت السابع . ومما ادى الى تصعيد الموقف بين الامبراطور وملك فرنسا ان الاخير فقد ابنه الاكبر وولي عهده عام ١٥٣٦، فانتقلت ولاية العهد الى الابن الثاني الامير هنري زوج كاترين دي ميدتشي . ولذلك كانت معاهدة كمبراي اقرب ما تكون الى هدنة مؤقتة . فتجدد الصراع بين الامبراطور شارل الخامس والملك فرنسوا الاول على اثر وفاة فرنشيسكو سفورزا دوق ميلان فى نوفمبر عام ١٥٣٥ وادعى كل منهما ان له الحق في هذه الدوقية . وقامت بينهما الحرب ولكن عقد الطرفان فى ١٨ يونيو عام ١٥٣٨ هدنة فى نيس Nice لمدة عشر سنوات ولكن لم يمر اربع سنوات فقط على هذه الهدنة حتى استؤنف القتال من اجل دوقية ميلان ايضا وذلك عندما أعطى شارل الخامس هذه الدوقية لابنه فيليب فى عام ١٥٤٢.

ومع ان الفرنسيين احرزوا في بادئ الامر بعض الانتصارات العسكرية مثل معركة سيريزول Cerisoles فى بيدمونت فى شمال ايطاليا فى ١٤ ابريل عام ١٥٤٤، فقد تقدمت جيوش الامبراطور وحليفه هنري الثامن ملك انجلترا فى لكسمبورج على حدود فرنسا الشرقية وهي من ممتلكات شارل الخامس ،وزحفت على الاراضي الفرنسية حتى اقتربت من باريس . ولكن رأى شارل الخامس ان يعقد الصلح مع فرنسوا لانه لم يكن مطمئنا لحليفه هنري الثامن بسبب مشاغله الدينية فى المانيا كذلك. وفى ١٨ سبتمبر عام ١٥٤٤ اسفرت مفاوضات الصلح عن عقد معاهدة كرسبي Crespy واشتملت المعاهدة على ما يلي :

١ - تترك فرنسا بيدمونت وسافوى .

٢ - يتنازل الامبراطور شارل الخامس عن كل ادعاءاته فى برجنديا .

٣ - حل المشكلة الشائكة التى طالما ادت الى اشعال الحرب بين الدولتين ونعني بها مشكلة ميلان. ويقوم هذا الحل على تدبير

زواج سياسي بين الابن الاصغر لملك فرنسا - وهو الدوق اورليان وبين ابنة الامبراطور او ابنة اخته ، وتكون الاراضي المنخفضة هي الصداق الذي تقدمه العروس في الحالة الاولى ودوقية ميلان في الحالة الثانية ،وبذلك تحقق فرنسا آمالها في ميلان أو في التوسع الاقليمي في اتجاه الشمال الشرقي • ولكن لم يقدر لهذه الترتيبات النجاح اذ توفي الدوق اورليان في العام التالي لتوقيع المعاهدة •وفي مارس عام ١٥٤٧ توفي فرنسوا الاول وخلفه على عرش فرنسا ابنه هنري الثاني (١٥١٩ - ١٥٥٩)•

المرحلة الرابعة :

وتبدأ من اعتلاء هنري الثامن عرش فرنسا في عام ١٥٤٧ الى توقيع معاهدة كاتوكمبريسيس عام ١٥٥٩•

اعتلى هنري الثاني (١٥١٩- ١٥٥٩) عرش فرنسا عند وفاة والده فرنسوا الاول وكان قد تزوج في عام ١٥٣٣ من كاترين دي ميدتشي (١٥١٩- ١٥٨٩) وهي من فلورنسة وتنتمي الى اسرة ميدتشي التي حكمت فلورنسة • وكان هنري في داخل فرنسا كاثوليكيا متعصبا لمذهبه يتعقب الخارجين على هذا المذهب وينكل بهم ،ولكنه كان في سياسته الخارجية نصيرا للبروتستانت في المانيا نكاية في شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة •

وكانت اول مشكلة خارجية واجهته بعد اعتلائه العرش هي مواجهة نتائج الانتصار العسكري الذي احرزه الامبراطور شارل الخامس في معركة مهلبرج(Mahlberg) في ٢٤ ابريل عام ١٥٤٧ على الامراء الالمان البروتستنت • وبدا الآن ان المانيا بل اوروبا اصبحت في قبضة الامبراطور الامر الذي اوجد حالة خطيرة في الموقف الدولي• وساد

الاعتقاد فى ذلك الوقت بأن الانقسام الدينى الذى كان يهدد المانيا اصبح فى طريق الزوال وستعود المانيا الى الوحدة الدينية فالسياسية وقد اثار ذلك مخاوف ملك فرنسا الذى لم يكن يتصور قيام دولة المانية موحدة على الحدود الشمالية الشرقية لفرنسا وتكون مصدر خطر على فرنسا . ولذلك كان الخوف من قيام الوحدة السياسية فى المانيا من ناحية ،والرغبة فى المحافظة على التوازن الدولى فى القارة من ناحية اخرى من اهم المسائل التى دفعت ملك فرنسا الى صدام عسكرى مع الامبراطور شارل الخامس .

وفى نفس الوقت تدهورت العلاقات بين الامبراطور شارل الخامس وبين البابا بول الثالث (١٥٣٤ - ١٥٤٩) اذ ازعج انتصار الامبراطور فى معركة مهلبرج البابا لانه خشى ان يؤدى هذا الانتصار الى توطيد نفوذ الامبراطور فى أرجاء شبه الجزيرة الايطالية واخضاع الكنيسة والولايات البابوية لسلطة الامبراطور .

وفى العام التالى تفاقم الخلاف بينهما وبلغ الذروة عندما اصدر الامبراطور فى ١٣ مايو عام ١٥٤٨ نظام العقيدة الموقتة (Interim) لانهاء النزاع الدينى فى المانيا . وكان هذا النظام يهدف الى التقريب بين البروتستانت والكاثوليك ،ولذلك اشتمل على بعض التساهل المحدود ارضاء للبروتستانت . فغضب البابا وأراد قبل كل شىء تحديد وتعريف العقيدة الكاثوليكية ذاتها . ودخل البابا فى مفاوضات مع هنرى الثانى للقيام بحرب ضد الامبراطور فى ايطاليا بعد ان كان البابا من اول الساعين لوقف الصراع بين الدولتين . ووافق ملك فرنسا على ان يعمل على طرد قوات الامبراطور من بارما وبياكنزا اللتين اغتيل حاكمهما وكان ابنا غير شرعى للبابا بول ،وتنصيب أحد

افراد اسرة البابا محله .

ولكن هنرى الثانى كان مشغولا فى ذلك الوقت فى الحرب مع انجلترا وقامت تلك الحرب لان البلاط الاسكتلندى الكاثوليكى - الخاضع لنفوذ مارى لورين ملكة اسكتلنده وهى فرنسية الاصل - امتنع عن تنفيذ خطوبة مارى استيوارت (ابنة جيمس الخامس ملك اسكتلنده ومارى لورين) الى ادوارد السادس ملك انجلترا - الدولة البروتستنتية . وردت انجلترا على ذلك بارسال حملة عسكرية اوقعت الهزيمة بالاسكتلنديين فى موقعة بينكى (Piankie) فى سبتمبر ١٥٤٧ . وتطلعت اسكتلنده الى مساعدة فرنسا بسبب الروابط العائلية التى كانت تربط بينهما . وعقدت الملكة مارى لورين خطوبة ابنتها التى كانت تبلغ من العمر ثمان سنوات على ولى عهد فرنسا فى اغسطس عام ١٥٤٨ وبعثت بها اليه . وقاومت انجلترا هذا التقارب خوفا من ان ينضم التاج الاسكتلندى الى التاج الفرنسى فقامت الحرب بين فرنسا وانجلترا واستمرت حتى مارس عام ١٥٥٠ . وخسرت انجلترا فى هذه الحرب ثغر بولونى فى شمال فرنسا ، فى مقابل حصولها على مبلغ من المال من فرنسا . وكان لهذا الانتصار اثر كبير فى تشجيع هنرى الثانى بعد ذلك على القيام بعمل حاسم ضد الامبراطور شارل الخامس .

عمل هنرى الثانى اذن على اثارة المتاعب فى وجه الامبراطور ورفض ان يتعاون معه لانجاح المجمع المسكونى العام المنعقد فى مدينة ترنت لتسوية الخلاف الدينى بين الكاثوليك والبروتستانت ، كما شجع الامراء الالمان البروتستانت على مقاومة الامبراطور . واختار هنرى الثانى ميدانا جديدا للحرب غير شبه الجزيرة الايطالية هو حوض نهر الراين ونهر موزيل Moselle احد فروع نهر الراين . وكان هذا الاختيار من جانب هنرى الثانى ، لانه يكفل له الحصول فى يسر على عون الجماهير الالمانية البروتستانتية ومساعدة الامراء الالمان . وعقد

هنرى الثانى مع الامراء الالمان محالفة فى شامبورد (Chambord)
فى يناير ١٥٥٢. ثم رقع موريس ناخب سكسونيا المعاهدة نهائيا مع
فرنسا فى فريدوالد (Friadwald) فى عام ١٤ فبراير عام ١٥٥٢. وترجع
اهمية هذه المعاهدة الى انها اول اختبار حقيقى لسياسة المحافظة على
توازن القوى فى اوروبا . وقد ظهرت هذه السياسة خلال المائة سنة التالية
وكان من اهم نتائجها انقاذ فرنسا من خطر الهابسبرج فى النهاية
وتحطيم قوة هذه الاسرة . اما الاهمية الثانية لهذه المعاهدة فهى قد
نصت على ان يستولى ملك فرنسا بكل سرعة ممكنة على المدن التى كانت
فى املاك الامبراطور دائما وفى كل وقت ،وبالرغم من ان اللغة الالمانية
لم تكن اللغة المألوفة بها وهى كمبراى وتول ومتز وفردان. وقد علق
احد المؤرخين الفرنسيين على تلك المادة التى نصت على ان يحتفظ ملك
فرنسا بهذه المدن بصفته نائبا او وكيلا للامبراطورية بقوله أنها
بمثابة الميثاق الذى يسجل لفرنسا حقوقها الطبيعية والتى لا تسقط
بالتقادم اى بمضى المدة على جميع ارجاء اقليم اللورين الفرنسى.
وهكذا كانت تلك المعاهدة صفقة رابحة فى تاريخ فرنسا القومى،لأنها
مدت نفوذ فرنسا الى الالزاس Alsace واللورين وجعلت ضم هذين
الاقليمين الى فرنسا مطلبا قوميا لا يحيد عنه ساسة فرنسا منذ ذلك
الوقت حتى الوقت الحاضر .

وفى ١٢ فبراير عام ١٥٥٢ اعلن هنرى الثانى الحرب على
الامبراطور شارل الخامس واستولى الجيش الفرنسى بسهولة على تول
ومتز وفردان، واستولى موريس ناخب سكسونيا على آوجزبرج ،وصار يطارد
الامبراطور فى التيرول، فالتجأ الامبراطور شارل الخامس الى حماية
اخيه فرديناند الذى كان يحكم فى المانيا ونال منذ عام ١٥٣١ لقب ملك
الرومان King of the Romans تمهيدا لانتخابه امبراطورا للدولة

الرومانية المقدسة بعدوفاة اخيه شارل الخامس . وقد توسط فرديناند بين الامبراطور والامراء الالمان الذين ادركوا مغبة تغلغل فرنسا فى الاراضى الالمانية وتدهور نفوذ الامبراطور فيها ،وتقطيع اوصال الامبراطورية الرومانية . وانتهت هذه الوساطة بعقد معاهدة بساو (Passau) فى اغسطس عام ١٥٥٢ بين الامبراطور والامراء الالمان على اساس منح هؤلاء الامراء استقلالا فى المسائل الدينية والسياسية

فشل الامبراطور بمساعدة الامراء الالمان فى استرداد مدينة متز، وسارت الحرب عموما مع فرنسا ضد مصلحة الامبراطور حتى اضطر شارل الى عقد هدنة فى فوسيل(Vaucelles) مع الفرنسيين فى ٥ فبراير ١٥٥٦ لمدة خمس سنوات ووافق بمقتضاها الامبراطور على ان يترك فى يد الفرنسيين جميع فتوحاتهم من متز الى كورسيكا . وبذلك واجه الامبراطور "الوجود" الفرنسى فى منطقة كان يعتبرها اقليما المانيا خالصا ،وعجز عن ازالة هذا الوجود ،وكان اخفاقه الحربى امام اسوار متز آخر معركة فى حياته فقد قرر التنحى عن الحكم والتنازل عن العرش وقضاء البقية الباقية من حياته فى عزلة دينية فى احد الاديرة .وفى اكتوبر عام ١٥٥٦ تنازل عن الحكم نهائيا على ان يخلفه ابنه فيليب الثانى فى حكم اسبانيا وايطاليا والاراضى المنخفضة والممتلكات التى جاءت بها الكشوف الجغرافية ،فى العالم الجديد . كما تنازل الامبراطور لاخيه فرديناند عن تاج الامبراطورية وترك له حكم المانيا والنمسا .

حمل فيليب الثانى الذى تولى عرش اسبانيا عام ١٥٥٦ عبء الصراع ضد فرنسا . وبجانب هذا الصراع خلف له والده ملكا شاسعا فى اسبانيا ، والاراضى المنخفضة وهى بلجيكا وهولندا ،ونابولى وميلان فى شبه الجزيرة الايطالية ،ومستعمرات اسبانيا فى جزر الهند الغربية وامريكا الوسطى وامريكا الجنوبية .

وعلى آية حال لم يستمر السلام طويلا لأن البابا الجديد بول الرابع Paul IV الذى ارتقى كرسى البابوية فى عام ١٥٥٥ - كان يكره الاسبان عموما والامبراطور خصوصا ويريد ان يطهر ايطاليا من كل سيطرة اجنبية ، وان يجعل من اللغة الايطالية اللغة الوحيدة المستعملة فى ارجاء شبه الجزيرة الايطالية . ولذلك طلب البابا بول الرابع مساعدة فرنسا له فى محاربة الاسبان ولقى هذا الطلب استجابة فورية وحارة من هنرى الثانى ملك فرنسا على الرغم من ان هدنة فوسيل التى كانت قد عقدت بين هنرى الثانى وبين الامبراطور فى ٥ فبراير ١٥٥٦ لم يكن قد انقضى اجلها . وزحف الجيش الفرنسى على مملكة نابولى، وبدأت العمليات العسكرية فى سبتمبر عام ١٥٥٦ وبذلك كانت فرنسا هى الدولة البادئة بنقض هدنة فوسيل. وتحرك القائد الاسبانى الدوق الفا Alva من مملكة نابولى نحو روما ،ولكن نزعته الدينية القوية واحترامه العميق للبابا حالت دون اقدامه على تدمير مدينة روما وعرض شروط وقف القتال وابرام الصلح وقبلها البابا وكان اهمها :

١ - يقبل البابا بول الرابع وضع ايطاليا تحت الحماية الاسبانية .
٢ - انهاء المحالفة المعقودة بين البابا وفرنسا .
٣ - يقبل البابا استقبال فيليب الثانى ملك اسبانيا كابن بار مطيع من ابناء الكنيسة .

وبذلك تدعم نفوذ فيليب الثانى فى انحاء شبه الجزيرة الايطالية

أما النصر الثانى الذى حققته اسبانيا على فرنسا فكان على الارض الفرنسية نفسها ،فبادرت فرنسا باعلان الحرب على اسبانيا فى آخر يناير عام ١٥٥٧، وقام فيليب الثانى ملك اسبانيا بزيارة انجلترا كى يستميل ملكها وزوجته مارى تيودور الى الوقوف بجانبه فى الحرب واستجابت انجلترا ،واعلنت الحرب على فرنسا فى يونيو ١٥٥٧ وانهزمت

الجيوش الفرنسية هزيمة بالغة بالقرب من سان كانتان San Quentin في ١٠ أغسطس ١٥٥٧ وانفتح الطريق الى باريس نفسها. ولكن ذلك لم يتحقق لعدة عوامل ،كان في مقدمتها: ان فيليب لم يزحف على باريس مباشرة ،بل انصرف لاحكام الحصار حول مدينة سان كانتان والهجوم عليها، وبذلك اضاع وقتا ثمينا واصبح لدى فرنسا من الوقت متسع لاعادة تنظيم قواتها العسكرية .ومن ناحية اخرى انتشر التذمر بين الجنود المرتزقة الذين اشتركوا مع الجيش الاسبانى بسبب تأخر صرف مرتباتهم. وابدت الفرق الانجليزية التى كانت مع الجيش الاسبانى رغبتها في العودة الى انجلترا .

وظفر الفرنسيون بنصر حاسم على الانجليز ، اذ حاصروا ثغر كاليه بعد ان استطال احتلال الانجليز له لمدة قرنين. وسقط الثغر في أيدى الفرنسيين ورفع العلم الفرنسى عليه في ٨ يناير عام ١٥٥٨.وبذلك تمكن الفرنسيون من طرد الانجليز من آخر معاقلهم في الاراضى الفرنسية التى كانت قد تبقت لهم بعد حرب المائة سنة. وعلى الرغم من ذلك فقد هزم الفرنسيون هزيمة بالغة على يد جيش فلمنكى تؤيده مدفعية الاسطول الانجليزى في بحر الشمال وذلك بالقرب من جرافلين Gravelines في يوليو عام ١٥٥٨، وكان بعد هذه الهزيمة ان بدأت مفاوضات الصلح بين الفرنسيين والاسبان .

ومما سهل الاتفاق بين الطرفين ، وفاة الملكة مارى تيودور في نوفمبر عام ١٥٥٨ واعتلت عرش انجلترا الملكة اليزابيث ،ولم تعد هناك حاجة تدعو فيليب الثانى الى التمسك بضرورة ارجاع كاليه الى انجلترا . وادركت الملكة اليزابيث ان اسبانيا ليست متحمسة لمساعدة انجلترا على استرجاع كاليه من الفرنسيين . يضاف الى ذلك وجود عدد كبير من النبلاء الفرنسيين آسرى في ايدى الاسبان بعد استيلائهم

على مدينة سان كانتان . وبذلك تضافرت كل الظروف الدينية والسياسية والعسكرية والاقتصادية على خلق الجو الصحى لاجراء مفاوضات الصلح، وبدأت هذه المفاوضات فى اكتوبر عام ١٥٥٨ بعد هزيمة الفرنسيين فى جرافلين وانتهت بتوقيع معاهدة كاتو كمبريسيس (Cateau - Cambresis) فى ٣ ابريل عام ١٥٥٩. وتعتبر هذه المعاهدة أول تسوية عامة اوروبية فى التاريخ الحديث . ولقد تضمنت هذه المعاهدة بعض المبادىء الهامة سنحللها فيما يلى :

اولا : تنازلت فرنسا عن كل ادعاءاتها فى شبه الجزيرة الايطالية وسلمت بالنظام الذى ارسى قواعده من قبل شارل الخامس للحكم الاسبانى فى ايطاليا فظلت اسبانيا محتفظة بكل من ميلان فى شمالى ايطاليا ونابولى في جنوبيها . وبذلك اخلت فرنسا الطريق امام اسبانيا لاحكام سيطرتها الفعلية على شبه الجزيرة الايطالية . كما وافقت فرنسا على التنازل عن سافوى وبيدمونت الى القائد العسكرى الذى كان يقود الجيش الاسبانى واجتاح به شمال فرنسا فى عام ١٥٥٧ وهو دوق سافوى ويسمى عمانوئيل فيليبرت Emmanuel Philibert . وقد اهتمت المعاهدة بأمر تزويجه ، فنصت على ان يتزوج من اخت ملك فرنسا وان يكون الصداق الذى تقدمه العروس لزوجها هو تنازل فرنسا له عن دوقية سافوى وكانت تشمل اقليمى سافوى وبيدمونت . ويعتبر هذا الدوق هو المؤسس الحقيقى لدولة بيدمونت ،وكانت تسمى ايضا مملكة سردينيا وقد قامت هذه الدويلة الى حد كبير وبمضى الايام كدولة حاجزة بين فرنسا وايطاليا ،وستلعب دورا حاسما فى قيام حركة الوحدة الايطالية فى القرن التاسع عشر .

وكان تنازل فرنسا عن سافوى وبيدمونت خسارة كبيرة لفرنسا لاسيما انهما كانا بمثابة بوابة كبيرة تتسلل منها فرنسا الى شبه

الجزيرة الايطالية . وقد قيل فى تبرير تنازل فرنسا عنهما ان فرنسا كانت فى حاجة ماسة الى السلم لتسترد انفاسها من حروب مضنية استطال امدها ،كما قيل ان الانقسام الدينى فى فرنسا بين الكاثوليك والهوجونوت - وهم بروتستانت فرنسا - كان قد تفاقم خطره وبات يتطلب تركيزا من اهتمام هنرى الثانى لمواجهته .

وتقرر فى المعاهدة ان تحتفظ فرنسا بمدينتى تورين Turin وكاسال Casal وبعض الاماكن لفترة زمنية كضمان لتنفيذ المعاهدة وفى الواقع فان ما قررته بخصوص الوضع السياسى فى شبه الجزيرة الايطالية كان نصرا رائعا لاسبانيا بقدر ما كان اخفاقا بالنسبة لفرنسا

ثانيا : لم يرد ذكر فى المعاهدة للاسقفيات الثلاث : متز وتول وفردان وهى ذات اهمية استراتيجية بالغة . وكان سبب هذا الصمت بالنسبة لهذه الاسقفيات الثلاث هو مسألة قانونية بحتة . فهذه الاسقفيات من الناحية الرسمية تابعة للدولة الرومانية المقدسة ، ولم تكن هذه الدولة طرفا فى المعاهدة .وانما كانت المعاهدة مبرمة بين فيليب الثانى ملك اسبانيا وبين هنرى الثانى ملك فرنسا ، ولا يملك اولهما الحق فى تقرير مصيرها بصفة رسمية . ويلاحظ ايضا ان فرديناند الاول امبراطور الدولة الرومانية المقدسة قد وقف موقفا سلبيا ازاء هذه المسألة الهامة . ولذلك طبق الطرفان سياسة الامر الواقع على هذه الاسقفيات الثلاث، وتنحصر هذه السياسة فى استمرار احتلال فرنسا لها ،ونجم عن ذلك ان استمرت الاسقفيات الثلاث من الناحية الاسمية والقانونية الشكلية تابعة للدولة الرومانية المقدسة ، ومن الناحية الفعلية تابعة لفرنسا . وعلى اية حال كان احتلال فرنسا لهذه المراكز

كسبا عسكريا واقتصاديا كبيرا لفرنسا ، فهو تدعيم للنفوذ الفرنسي بها .

ثالثا : قررت المعاهدة ان تحتفظ فرنسا بثغر كاليه لبضع سنين ثم يعاد النظر في وضع هذا الثغر .

رابعا : قررت المعاهدة عقد زواجين سياسيين استكمالا للتسوية السياسية وضمانا لتنفيذها على اكمل وجه . وكانت العروسان هما ابنة ملك فرنسا واخته فنصت المعاهدة على ان يتزوج فيليب الثاني ملك اسبانيا عروسا جديدة هي اليزابيث ابنة هنري الثاني ملك فرنسا وكاترين دي ميدتشي . ويلاحظ ان فيليب كان قد فقد زوجته ماري تيودور ملكة انجلترا ، ولم يكن قد مضى على وفاتها سوى بضعة شهور . وقد استهدف الزواج الجديد توثيق عرى الصداقة بين فرنسا واسبانيا . ومع ذلك فقد توفيت اليزابيث عام ١٥٦٨ . وتقرر ايضا في المعاهدة زواج دوق سافوي من مرجريت اخت ملك فرنسا . ولكن شرط الزواج الذي وضع ضمانا لتنفيذ المعاهدة كان سببا غير مباشر في مصرع هنري الثاني ملك فرنسا ، اذ مات في يوليو ١٥٥٩ اثناء مباريات المبارزة التي اقيمت بمناسبة عقد القرانين الملكيين . ثم يختطف الموت الملكة اليزابيث زوجة فيليب الثاني ، ولحقت هذه الزوجة الفرنسية بالزوجة الانجليزية ماري تيودور ملكة انجلترا وأصبح فيليب الثاني مرة آخرى ارملا ينشد زواجا ثالثا جديدا .

ولم يؤد صلح كاتوكمبريسيس الى قيام تحالف بين فرنسا واسبانيا كما كان يرتجى ، فظلت العداوة والشكوك بين الدولتين اكثر من قرن ونصف قرن ، ولم تكن هناك وحدة هدف او وحدة مصالح بين الدولتين ، وقد ظلت تلك العداوة العامل المؤثر في السياسة

الاوروبية طوال هذه الفترة .

ويتضح مما سبق ان الحروب الايطالية لم تكن معارك حربية بقدر ماكانت معارك دبلوماسية تمثلت فى سعى المعسكرين المتحاربين سعيا حثيثا لتكوين محالفات سياسية واحلاف عسكرية . وقد نشطت الدبلوماسية الاوروبية نشاطا واسعا امتد الى الدول والدويلات التى انزلقت الى ميادين الصراع الحربى او تلك التى التزمت الحيدة فى بعض مراحل الحروب . واذا كانت الحروب الايطالية تمثل مرحلة هامة فى فن الخطط الحربية (التكتيك الحربى) مثل تطوير استخدام سلاح المشاة وسلاح المدفعية فانها تمثل بدرجة اكبر الدبلوماسية الاوروبية فى القرن السادس عشر وما اقترنت به من ارساء مبادىء فى بعض الاحيان وتقاليد فى احيان اخرى، وعلى سبيل المثال نذكر من المبادىء التوازن الدولى ، ومن التقليد، عقد الزيجات السياسية بين اعضاء الأسرات الحاكمة فى الدول الاوروبية كوسيلة للتقريب بين دولتين اوغلتا فى الخصومة .

الفصل الخامس

حركة الاصلاح الدينى

The Reformation

بعد سنتين من موقعة مارينانو Marignano سنة ١٥١٥ ظهرت فى المانيا حركة كان لها فى اوروبا نتائج اكثر من النتائج التى خلفتها الحروب الايطالية ، ففى سنة ١٥١٧ بدأ الصراع بين مارتن لوثر ضد مزاعم البابوية وقوة الكنيسة الكاثوليكية . على انه تجدر الاشارة هنا الى ان حركة الاصلاح الدينى لم تحدث فى اوروبا فجأة ، اذ تعرضت الكنيسة الكاثوليكية منذ نشأتها الاولى الى اخطار متعددة . لقد تمثل الخطر الاول الذى تعرضت له الكنيسة فى عصورها الاولى فى شكل الجدل الذى اثير حول طبيعة المسيح، وانتشار الاسلام وسقوط القسطنطينية فى ايدى العثمانيين. ولكن لم تضعف هذه الاخطار الكنيسة بل كانت من عوامل تماسكها وقوتها حتى تتمكن من مواجهة الضغط الموجه ضدها من الخارج

وفى القرنين الرابع والخامس عشر الميلاديين وجهت ضربات عنيفة للكثير من النظم التى سادت فى العصور الوسطى . فالامبراطورية البيزنطية التى احتلت المكان الاول فى العصور الوسطى حتى منتصف القرن الحادى عشر فى النواحى السياسية والاقتصادية والفكرية قد اخذت فى الضعف والانحلال الى ان انهارت كلية امام غزوات العثمانيين التى انتهت بالاستيلاء على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣. أما البابوية التى ظلت أمدا طويلا فى العصور الوسطى ولها المنزلة الاولى فى شتى نواحى الحياة دينيا ودنيويا ،وبلغت منتهى قوتها فى عهد البابا جريجورى السابع Gregory VII ثم البابا اينوسنت الثالث Inocent III الذى قال"انه لا اخلاص لانسان فى العالم مالم يخضع

للبابا فانا قيصر والامبراطور الحقيقى صاحب السيادة على جميع امراء الارض " قد انتابتها فى هذه الفترة الاخيرة الكثير من التغيير. حقيقة انها لم تسقط وتطوى صفحتها مثلما كان الحال مع الامبراطورية البيزنطية ، اذ ان بقاؤها قد دام الى زماننا هذا ، الا ان سلطانها قد ضعف ضعفا كبيرا عما كان عليه من قبل ولم يصبح لها من السيادة الكنسية ماكان لها من قبل .

عندما انتقل البابا من روما الى مدينة افينيون Avignion بجنوب فرنسا اثناء صراع البابوية مع الامبراطور، اصبحت البابوية بالتالى تحت نفوذ ملوك فرنسا واستمر الامر بهذا الشكل من عام ١٣٠٥ الى عام ١٣٧٨ وسميت هذه الفترة باسم مدة الاسر البابلى Bebylonic Captivity وقد عرضها هذا الوضع الجديد لكثير من الانتقادات وبالتالى لاضعاف شأنها ونفوذها . ولم يقتصر الامر على ذلك بل جاء ما يعرف باسم The Great Schism (أى الانشقاق الدينى الكبير) ، وقد استمر من عام ١٣٧٨ حتى عام ١٤٤٧ حيث وجد بابا فى افينيون وآخر فى روما ، وانقسم العالم الكاثوليكى الى معسكرين متنازعين الامر الذى ادى الى قيام حركة المجالس الدينية الكبرى Conciliar Movement . وهذه حركة هامة اشترك فى القيام بها جماعة من المخلصين من رجال الكنيسة الكاثوليكية لاصلاح حال الكنيسة الغربية . ولكنها باءت بالفشل فى عدد من الامور التى قامت تلك الحركة من اجل معالجتها . واثناء ذلك وجهت الانتقادات للبابوية كما قامت عدة جماعات من المسيحيين الغربيين بالخروج على سلطانها ونبذ مبادئها الى ان جاء القرن السادس عشر الميلادى وقامت الثورة البروتستانتية التى تسببت فى خروج نسبة كبرى من

سكان اوروبا الكاثوليك على سلطان البابوية وتأسيس كنائس مستقلة عنها وضياع سلطان البابوية نهائيا فى اجزاء كبيرة من اوروبا.

لقد انكمشت البابوية الى مجرد امارة ايطالية ذات مصالح محدودة ومحلية. فاعتبر البابوات انفسهم فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر امراء لروما والولايات البابوية فقط، بعد ان كانت لهم مكانة عالمية. وبذلك لا يكون من المغالاة فى شىء ان نقول بأن فشل حركة المجالس فى تحقيق الاصلاح الكنسى قد عجل بقيام الثورة البروتستانتية فى القرن السادس عشر.

وفى الفترة التالية، اى منذ اعتلاء نيقولا الخامس كرسى البابوية عام ١١٤٧ الى وقت قيام حركة الاصلاح الدينى بزعامة مارتن لوثر اشتدت المطالبة بالاصلاح. وقد اتجهت تلك المطالبة تحاول اصلاح الرأس والاعضاء، اى البابا ورجال الكنيسة لأن فضيحة الانشقاق الدينى الكبير كانت أمرا لا يحتمل، ولأن الناس ضجوا من ضخامة الايرادات التى يتمتع بها رجال الكنيسة، ومن جسامة الاموال التى كانت تؤخذ منهم لتنتقل بعد ذلك الى جيوب رجال الدين. ولقد كانت البابوات فى المدة مابين ١٤٤٧ و ١٥١٨ اى الى الوقت الذى قامت فيه حركة الاصلاح مسئولين الى حد كبير عن اثارة تلك الحركة فى غرب اوروبا، ولا نعنى بذلك ان البابوات جميعا فى هذه الفترة كانوا منغمسين فى الرذيلة، اذ من الثابت ان من بين عشر بابوات اعتلوا كرسى البابوية فيما بين عامى ١٤٤٧و ١٥١٢ كان ثمة اثنان منهم فقط هما اسكندر السادس (١٤٩٢ ـ ١٥٠٣) ويوليوس الثانى (١٥٠٣ـ١٥١٥) يعتبران بحق مسئولين عن معظم الضرر الذى لحق بمركز البابوية قبل قيام حركة الاصلاح الدينى مباشرة، ولو ان جميع البابوات قد آثروا مصلحة الاسرة

الاسرة التى ينتمى اليها كل منهم على مصلحة الكنيسة . ومما اثار غضب الناس من البابوية وجعلهم ينقدونها بشدة هو ان البابوية فقدت تلك الصفة العالمية التى كانت لها من قديم الزمن فى العالم المسيحى

وقد لاحظنا اثناء عرضنا للحروب الايطالية مدى تدخل البابوات فى الشئون السياسية ، مما ترتب عليه وجود احزات متضاربة أساءت الى العلاقات بين الولايات الايطالية المختلفة . فتدخل الكنيسة فى الشئون السياسية قد اضر بمصالح ايطاليا وكذلك الحال بالنسبة لالمانيا . ولقد دفع عنصر النهضة الناس الى التحرر والنقد وطبقوا ذلك ايضا على الدين فناقشوا اقوال الكنيسة وتصرفاتها ، وظهر ذلك فى المانيا بصفة خاصة لاسباب متعددة .

تبلورت مفاسد الكنيسة فى المانيا فى اتجاهها الدينى والاقتصادى فاحتدمت فيها فكرة الاصلاح الدينى ، ومن خلال هذه الظروف الخاصة بالمانيا ، بدت الكنيسة بتعاليمها طغيانا مثيرا ، يشل نمو الحياة والفردية ، وقد تهيأت المانيا اذ ذاك بعوامل خاصة مكنتها من التعبير عن الاتجاه الاصلاحى الدينى ، حتى انتقل على يديها من مجرد الفكرة الى صورة الحركة الثائرة البناءة ، التى تجد فى فرض الاصلاح الدينى والاقتصادى على الكنيسة ، وتمكن المجتمع من التوازن فى مجرى تقدمه الحضارى . وكانت المانيا فى تكوينها السياسى ، محرومة من الحكم المركزى القوى اى من السلطة التى تحميها ضد طغيان الكنيسة واستغلال الدين من اجل الاقتصاد ، بينما كان غيرها من دول غرب اوروبا ينعم بالتقدم الاقتصادى ويتمتع بالحكم المركزى الذى قطع شوطا كبيرا فى الحد من سلطات الكنيسة فيه . فبتطور الدولة ووجود الحكومة المركزية بدأ الانفصال

بينهما وكان يرجع ذلك الى مقدرة الحكام على اخضاع الكنيسة لهم. وبدأ ذلك قبل ظهور مارتن لوثر مثلا فى وجود الكنائس الوطنية فى انجلترا واسبانيا مثلا .

أما المانيا فقد كانت مرتعا لخرافات ولسلطات رجال الدين الاقتصادية ، ولم يكن ثمة ما يحول دون ايقاف ادعاءاتهم ، وقد زادت سيئاتهم حدة فى نظر الناس عندما اخذت حياتهم الاقتصادية فى الانحطاط سيما بعد ارتفاع الاسعار فى القرن السادس عشر ، كنتيجة لتدفق عنصرى الذهب والفضة المستوردين من الخارج نتيجة للتوسع الاوروبى وللكشوف الجغرافية ، فى وقت حرمت فيه المانيا من السلطة المركزية التى تحول دون تمادى رجال الدين ، فى فرض الضرائب ، والاستغلال المالى ، وناءت فيه كواهل المانيا بعبء التدهور الاقتصادى .

حقيقة كان ثمة لون من الوعى القومى المحدود ، ممثل فيما كان للحكام اذ ذاك من سلطات ، فى المقاطعات والمدن الحرة ، اذ كانت لها نفس السلطات التى كان يمارسها الملوك الوطنيون ، ولكنها لم تكن من القوة بشكل يوقف هذا التيار الغاضب من الكنيسة ، ولا كانت من القدرة حتى تحول دون اتخاذ الخرافات الدينية والاستغلال الاقتصادى. لذلك كان انعدام الحكم المركزى فى المانيا ، من الاسباب الرئيسية التى مهدت لقيام الثورة ضد الكنيسة الكاثوليكية لحاجة المانيا لمن يحول دون فساد وادعاءات هذه الكنيسة كما كان للملكيات الناشئة مثلا .

وبينما كانت الكنيسة تتمتع بالثراء وتنقل ايراداتها الى ايطاليا لعبث رجال الدين ، كانت المانيا تعانى من هذا الاضطراب الاقتصادى الكبير الذى نجم عن انتقال السلسلة الفقرية الاقتصادية ، من الشمال الغربى لاوروبا الى غربها. فمنذ ان بدأت تلك السلسلة تنتقل تدريجيا

الى اوروبا الغربية كانت الطبقة المتوسطة التى سلبت منها ثروتها عند بداية هذا الانتقال ،تواجه مشكلة خطيرة هى مشكلة التوفيق بين فقرها الناجم من انتقال مراكز الثروة الى الغرب ،وبين املها فى استعادة المركز الاجتماعى المحترم الذى كان لها فى العصور الوسطى عندما كانت المانيا واوروبا الوسطى لا تزال غنية عموما ،لذلك شمل التذمر هذه الطبقة ،من الاوضاع الجديدة ،هذا فضلا عن ان الفقر الذى اصاب الطبقة المتوسطة ،لم يلبث ان ادرك ايضا طبقة الفرسان فى المانيا التى كانت تتألف اذ ذاك من المقاتلين والمحاربين فى العصور الوسطى وعندما تفككت المانيا فى بداية العصور الحديثة الى امارات محلية تحت سيطرة الامراء فقد الفرسان اهميتهم القديمة ،ونزلت مرتبتهم الى مجرد مقاتلين يعتمدون فى عيشهم على النهب والسلب ، وبذلك امتلأت نفوس الفرسان ايضا بالتذمر ٠اما عن الامراء فكثرت مطالبهم المالية لسد نفقات الادارة وغيرها فى اماراتهم، وقد اشتد تذمرهم عندما وجدوا ان اغلب موارد الارض فى اماراتهم قد اصبحت فى يد كنيسة اجنبية عنهم كانت تحرم الناس من خيرات بلادهم٠ واما طبقة الفلاحين فى المانيا فلم تكن اقل فى تذمرها عن تذمر هذه الطبقات عندما وقع على كاهلهم عبء المطالب المالية بأجمعها لسد حاجات الامراء والفرسان والطبقة المتوسطة ٠ لقد كانت الكنيسة تمتلك ثلث مساحة الارض فى المانيا وجعل ذلك لها سلطانا كبيرا فى تلك البلاد ٠

وكان البحث فى المانيا عن اقناع دينى للاجابة عن سؤال عام وهو How can I be saved (كيف يمكن ان أنقذ) أقوى فى المانيا عنه فى اى مكان آخر ،ولقد وجد ذلك تعبيرا فى شكل النقد

الخطير للكنيسة ورجالها لفشلهم فى تحقيق هذا الاقتناع . كما أستاءت مجموعة كبيرة من العلمانيين المتعلمين من القيود التى فرضتها عليهم، ولقد بدأ الناس يشعرون بأن المساوىء المتصلة بالحكومة البابوية وبالكنيسة قد بدت اذ ذاك على جانب كبير من الخطورة . ولقد استطاع الرجل العلمانى ان يقرأ لنفسه بعد ان اصبح فى مقدوره أن يتعلم الاغريقية بل العبرية ايضا، وبذلك تسنى له ان ينفذ من وراء اللغة اللاتينية وهى اللغة الرسمية للاكليروس الرومانى الى اللغتين الاصليتين اللتين كتب بهما الكتاب المقدس . ومن هنا لم يكن هناك بد من ان تظهر فكرة ان العلمانى المفاضل يستطيع الاتصال بربه مباشرة دون وساطة من الكهان .

لهذا فقد اتجه النشاط الالمانى الى مقاومة التدخل الاجنبى فى صورة البابا، ومحاولة ابعاده او القضاء عليه فظهرت حركة الاصلاح الدينى كأحسن تعبير عن روح المقاومة الالمانية لنفوذ الكنيسة الدخيل. ولم تكن حركة الاصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر فى المانيا هى اولى الحركات التى قامت لاصلاح الكنيسة الكاثوليكية . فلقد دفعت اوضاع الكنيسة قبل ذلك عددا من المسيحيين الاتقياء لاتباع حياة من التقشف والزهد سعيا وراء حياة خيرة ، وأخذ آخرون فى المجاهرة بانتقاد البابوية . وفاقت كلا من هاتين الجماعتين جماعة ثالثة تشككت فى سلطة البابوية وبعض المبادىء التى فرضتها الكنيسة وانتهى بها الامر بالخروج عن الكنيسة والتحول الى جماعات هرطقية بالنسبة لوجهة نظر الكنيسة وذلك مثلما حدث فى حالتى جون ويكلف John Wycliffe وجون هس John Huss . والواقع انه اذا كانت الاحوال السياسية والاقتصادية فى اوربا اكثر ملاءمة لكان من المحتمل

جدا أن يكون Wycliffe أو Huss البوهيمى مؤسسا الثورة البروتستانتية (Protestant Revolt) بدلا من مارتن لوثر ولكن الاحوال الاوروبية لم تكن ملائمة بعد، كما ان المصلحين السالفى الذكر كان فى آرائهما تطرف وبعد عن المبادىء الكنسية المعترف بها بين كاثوليك عصرهما. ثم ان ثورة لوثر التى كانت فى بادىء أمرها ذات طابع محافظ قد صادفت نجاحا فى القرن السادس عشر الميلادى أى فى ذلك الجو الذى انتشر فيه عدم الرضا عن البابوية والكنيسة بسبب انغماسهما فى المتع الدنيوية، وبسبب انتشار المفاسد بين رجالها، أما آراء ويكلف وهس فكانت منذ بادىء أمرها تعد متطرفة بالنسبة لمجتمع القرن الرابع عشر الذى عاشا فيه، ذلك المجتمع الذى كان لا زال يرجو اجراء اصلاحات من داخل الكنيسة على ايدى المشتركين فى المجالس الدينية العامة. وعلى كل حال فقد كانت لآرائهما آثارها فى تكوين آراء المصلحين الذين جاءوا من بعدهما امثال مارتن لوثر وكلفن Calvin . وهكذا انمت الثورة البروتستانتية فى تربة ممهدة مهدها تعاليم وآراء المهرطقين الذين جاءوا فى القرن الرابع عشر الميلادى.

جون ويكلف John Wycliffe : (١٣٣٠-١٣٨٤) كان ويكلف استاذا فى جامعة اكسفورد واحد كبار المشتغلين بعلم اللاهوت وقبل ان يصبح هرطقيا اشتهر امره بانجلترا، وكان يعد احد كبار العلماء والوعاظ فيها. ومن الممكن ان نحدد المراحل المختلفة لتطور آرائه المتطرفة فى علم اللاهوت حتى عام ١٣٧٤. كان موقف ويكلف لا غبار عليه بالنسبة للكنيسة، وكان يشغل منصب استاذ علم اللاهوت فى جامعة اكسفورد، وكان اول دافع دعاه لمعارضة البابوية أمرا سياسيا فى

طابعه _ فلقد عارض الانجليز بشدة ميول بابوات افينيون للملكية الفرنسية التى كانت على عداء مع انجلترا فى ذلك الوقت (كانت مشتركة معها فى حرب المائة عام) وصدر المرسومان Staturtes المشهوران وهما مرسوم برايمونير Prasmunire ومرسوم بروفيزوز Provisors وقد صدرا فى اواخر القرن الرابع عشر، وحرم بمقتضاها على البابوية حق تعيين رجال الكنيسة الانجليزية ،كما حرم على اولئك الالتجاء للبابوية للبت فى القضايا والمنازعات كما جرت عليه العادة من قبل .ومنذ بداية حرب المائة عام، امتنعت انجلترا عن دفع مبلغ السبعمائة مارك التى كانت انجلترا تدفعها للبابوية كجزية سنوية منذ ان اعترف الملك يوحنا بالبابا انوسنت الثالث Inocent III كسيد اقطاعى له . وفى عام ١٣٧٤ وقع الاختيار على ويكلف ليكون احد سفراء الانجليز فى الاجتماع الذى عقد مع ممثلى الحكومة الفرنسية والبابوية للمفاوضة وعقد الصلح بين انجلترا وفرنسا ، وعند عودته من هذه البعثة اصدر أول مؤلفاته التى جعلته هرطيقا بالنسبة للكنيسة وفى هذا المؤلف يقول ويكلف فى نص مشهور عنه " ان حق الملكية الانجلزية فى حكم البلاد يرجع لحق الغزو وان ذلك لم يكن فى اصله منحة من البابوية وان البابوية بعد ان اثبتت فشلها فى الدفاع عن تابعها الاقطاعى ضد اعدائه (الفرنسيين) قد اخلت بالعقد الاقطاعى القائم بينهم . واتهمها ويكلف بأنها عاونت ذلك العدو ضد ملك انجلترا _ وقال بأن البابوية قد اصبحت تدين بالتبعية الاقطاعية لملك فرنسا عن الاراضى التى كانت تملكها فى انجلترا _ كما قال بأن البابا انوسنت الثالث عندما تسلم انجلترا من الملك يوحنا كان بهذا العمل يعتبر كشخص مرتش ،وان عمل

يوحنا لم يكن قانونيا ، اذ لم يكن له الحق فى تسليم البلاد على هذا الشكل بدون موافقة نبلاء البلاد.

واختتم كتابه بقوله "انه لايمكن القول بأن يكون دفع انجلترا مبلغ ٧٠٠ مارك للبابوية عن جزية سنوية ذلك ان هذا المبلغ لايتناسب ابدا لكى يكون جرية سنوية عن بلاد عظيمة كانجلترا. وقال بأن هذه كانت فى اصلها مجرد هبة من انجلترا للبابوية. وصادفت هذه الآراء رواجا كبيرا بين الانجليز الذين كان شعورهم ثائرا ضد الملكية الفرنسية وبالتالى البابوية فى افينيون التى كانت تتعرض من وقت لآخر لنفوذ هذه الملكية ، وهكذا اصبح ويكلف بطلا للقضية القومية.

كانت هذه الآراء التى جاء بها ويكلف تعتبر هرطقة ثابتة بالنسبة للكنيسة الانجليزية القائمة ولقد امر رئيس اساقفة كانتربرى Canterbury بأن يودع ويكلف السجن الى ان تدرس حالته امام البلاط البابوى. وقد درست كلية اللاهوت فى جامعة اكسفورد كتاباته وقررت صحة آرائه وان كان قد خانه التعبير عنها. ويبدو أن مهاجمة البابوية والكنيسة لآرائه قد دفعته الى التطرف فى آرائه وقال بأن الاصل فى الكنيسة هو عبارة عن هيئة من المؤمنين الاتقياء عامة وليس فقط رجال الكنيسة. وذهب الى ابعد من هذا فقال بأنه لا البابا ولا القس يمتلك ان يصدر قرار الحرمان وأن الاله وحده هو الذى يمتلك سلطة الحرمان . كما قال بأن سلطة الغفران ترجع للاله فقط وانه لايمكن لأى رجل من رجال الكنيسة ان يدعى انه يستطيع ان يغفر الخطايا كما انكر شرعية الاعتراف وسبق مارتن لوثر فى القول بأن التوبة الحقيقية فى قلب المؤمن المخطىء تكفى بأن يغفر الله له الذنوب" ، وانه لا يلزم لتحقيق ذلك أن يلجأ المخطىء لرجل الكنيسة

ويعترف له .

ان الكثير من هذه الآراء تتفق مع ما هو معترف به في المبادىء البروتستانتية في عصرنا هذا، لكنها في القرن الرابع عشر كانت تعتبر متطرفة للغاية . وعلى كل فقد صادفت آراء ويكلف قبولا عظيما بين الكثيرين ونظمت جماعة من تلاميذ ويكلف عرفوا باسم The poor Priests واشتهروا باسم اللولارديين Lollards أى المصلحين الانجليز وانتشروا في انجلترا داعين الى اعتناق آرائه ومبادئه – ولقد حاكم رئيس اساقفة كانتربرى ويكلف في عام ١٣٨٢، وأعلن بعض آرائه كهرطقة والبعض الآخر غير صحيح . ولقد ابدى ويكلف في آخر ايام حياته استعداده للذهاب الى روما استجابة الى امر بابوى بارساله الى روما لمحاكمته هناك ،ولكنه لم يستطع القيام بذلك بسبب الشلل الذى نزل به وتوفى اخيرا في عام ١٣٨٤.وبعد موته تعرضت مؤلفاته للمحاكمة وأمر باحراقها في بداية القرن الخامس عشر .

جون هس John Huss (١٣٧٣–١٤١٥) واذا كانت حركة ويكلف قد قضى عليها في انجلترا الا ان مبادؤها قد انتقلت من القارة الاوربية الى بوهيميا ،حيث اصبحت اساسا لتعاليم هس . ووجدت في بوهيميا في الجزء المتأخر من القرن الرابع عشر حركة رد فعل تشيكية ،نتيجة لاعتداءات وتصرفات رجال الكنيسة والتجار ورجال السياسة من الجرمان الذين جاءوا الى البلاد مع حكم الاسرة اللكسمبرجية . وقد امتزجت تعاليم هس مع الشعور القومى التشيكى. ولذا فقد صادف هذا الرجل نجاحا كبيرا هناك وربما كان من الصعب في بادىء الامر فهم الاسباب التى ادت الى انتشار الهرطقة الانجليزية في بوهيميا دون فرنسا او المانيا ولكن لتعليل ذلك نذكر ان Ann of Bohemia وهى اميرة

من البيت الملكى فى بوهيميا قد تزوجت من ريتشارد الثانى Richard II ملك انجلترا، واخذت معها الى انجلترا جماعة من القساوسة البوهيميين. وبعد موتها عادت هذه الجماعة الى بوهيميا واحضرت معها مؤلفات وآراء جون ويكلف.

وقد اهتم اساتذة جامعة براغ Prague بهذه التعاليم والآراء ومن هؤلاء الاساتذة كان جون هس استاذ الفلسفة فى هذه الجامعة وكان واعظا محبوبا، وقد شركت كتابات ويكلف اثرا قويا فى نفس هس الذى ترجم الكثير من آراء المصلح الانجليزى ويكلف الى اللغة التشيكية. ولقد آمر البابا فى عام ١٤٠١ بجمع كل كتابات ويكلف التى وجدت فى بوهيميا وامر كذلك باحراقها واعترض هس، فأصدر البابا ضده قرار الحرمان. لكن هس اصر على موقفه وواصل نشر تعاليمه، ولما حاول رئيس الاساقفة فى بوهيميا قمع حركة هس لم يصادف فى ذلك نجاحا وذلك بفضل مساعدة ملك بوهيميا.

وفى عام ١٤١٢ تطور امر هس عندما اصدر البابا يوحنا الثالث والعشرين صكوك الغفران Indulgences لبيعها، وذلك لكى يجمع الاموال للصرف منها على حروبه ضد نابولى، ولكن هس وان لم يعترض على نظرية صكوك الغفران مثلما فعل مارتن لوثر فى القرن السادس عشر الا انه ندد بالصكوك التى تصدر لغرض كهذا واعترض على استعمالها فى هذا الشأن. وقد كتب كتابا عن الكنيسة ضمنه معظم مبادئه وآرائه وبشكل عام كانت تماثل آراء ومبادىء ويكلف فيما يختص بعدم شرعية الطقوس الدينية التى كان يباشرها رجال الكنيسة. كما قال "بأنه لا يجوز ان يكون للبابوات اى قوة دنيوية ويجب ألا يتدخلوا فى السياسة والا يشنوا الحروب". وقد جاء هس بآراء خاصة حيث قال:

" ان الكنيسة لا تتكون من رجال الدين بل من كل من يختارهم الله لانقاذ ارواح البشر من احياء واموات". كما ادخل هس فى الكنيسة مبدأ القضاء والقدر ذلك المبدأ الذى قد أدانته الكنيسة كهرطقة فى القرن التاسع الميلادى والمبدأ الذى اعترف به كلفن فى القرن السادس عشر.

على ان خصوم هس وجهوا اليه تهمة الهرطقة (الزندقة) وعقد مجلس كنسى خاص هو مجلس كونستانس Council of Constance من ١٤١٤ الى ١٤١٥ فى مدينة كونستانس وقد شمل جدول اعماله ثلاثة امور رئيسية وهى القضاء على الانقسام الدينى والاصلاح الكنيسى والقضاء على الحركات الهرطقية المنتشرة اذ ذاك. ولقد حاكم هذا المجلس جون هس وأمر باعدامه. كما امر المجلس باحراق كل كتبه وسلمه الى امير مدينة كونستانس الذى نفذ فيه حكم الاعدام فى عام ١٤١٥.

وجاء دور مصلحين آخرين فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر، فسلطوا الاضواء على مخازى الكنيسة وفضائحها وابرزوها للرأى العام. وكان اشهر المهاجمين للكنيسة عنفا الراهب سافونا رولا (١٤٥٢ —١٤٩٨) وقد سبق ان اشرنا اليه من قبل، وقد كتب هذا المصلح الدينى يقول ان الفساد يبدأ فى روما ثم يمتد ليشمل رجال الدين على بكرة ابيهم، ويمضى يصف فى اسهاب الانحراف الخلقى الذى تردى فيه افراد هذه الطبقة ويذهب فى هجومه على البابوية الى اتهام البابا اسكندر السادس بأنه غير مسيحى وانه ملحد لا يؤمن بوجود الله.

وهكذا فقدت الكنيسة المكانة العالية التي كانت قد تبوأتها واهتز الاساس الروحى والاخلاقى الذى اقامت عليه نفوذها بل جبروتها فى العصور الوسطى، وبات المسيحيون فى دول غرب اوروبا يتحدثون عن ضرورة اصلاح الكنيسة والقضاء على الانحرافات الخطيرة التى ظهرت بين

رجالها وتطوير نظمها وتنظيم علاقاتها مع ارجاء العالم المسيحى .

وكان هناك اتجاهان لاصلاح الكنيسة : الاتجاه الاول هو ان يقوم رجال الكنيسة انفسهم باصلاح الكنيسة من المفاسد التى لوثتها . ويسمى هذا الاتجاه الاصلاح من الداخل .وكان قوام هذا الاتجاه عقد المجامع الكنسية تباعا وفى فترات متقاربة نوعا ما ،ويطلق عليها " حركة المجامع الكنسية " ولكن فشلت هذه الوسيلة ، وكان على رأس المطالبين باصلاح الكنيسة دون الخروج عليها او الانفصال عنها ديريديريوس ارزمس Desiderius Erasmus (١٤٦٧ — ١٥٣٦) زعيم الدراسات الانسانية بلا منازع . شن حملة عنيفة على مفاسد الكنيسة الكاثوليكية وكان هذا الرجل عالما وداعية وصاحب رسالة يهتم اهتماما زائدا بالسلوك الاخلاقى لدى الفرد قبل اهتمامه بأية صفة اخرى قد تضفى عليه ثراءً أو جاها . ولم يكن فى اوروبا عالم يدانيه فى قوة تأثيره على افراد جيله . وقد اوتى موهبة فى استخدام الاسلوب التهكمى فى كتاباته التى وضعها فى لغة لاتينية سهلة ،وسخر موهبته هذه فى الحديث عن فضائح ومعايب رجال الدين وجعلهم موضوعا للتهكم والسخرية والاحتقار والتسلية وكان لكتاباته سلطانا استهوى افئدة معاصريه ،وكان ارزمس معاصرا لمارتن لوثر وسار معه فى نفس الاتجاه الاصلاحى، ولكن سرعان ما افترقا بعضهما عن بعض : قاد لوثر حركته الدينية وانتهى بالخروج على كنيسة روما ، بينما ظل ارزمس على ولائه لهذه الكنيسة معتقدا انه فى الامكان اصلاح نظمها وقوانينها ورجالها وآلا يفرض عليها الاصلاح من خارج الكنيسة بل يجىء اليها من داخلها اى من رجال الدين انفسهم ،ولم يدر بخلد ارزمس ان يخرج على الكنيسة .ولكن كتاباته اساءت الى الكنيسة لانها كشفت عن نواحى الضعف بل التدهور الذى اصاب رجالها ،وجعل الدعوة الى

الاصلاح والتغيير تجد استجابة سريعة من الرأى العام الاوروبى .

اما الاتجاه الثانى فهو ان يفرض الاصلاح على الكنيسة فرضا على ايدى رجال من خارجها ويسمى هذا الاتجاه الاصلاح من الخارج. وكان على رأس الداعين الى الاخذ بهذا الاتجاه مارتن لوثر فى المانيا وزونجلى فى زيورخ بسويسرا وكلفن فى فرنسا ثم فى جنيف بسويسرا .

وهكذا رأينا انه قد تضافرت عدة عوامل على قيام وانتشار حركة مارتن مثل تدهور الكنيسة الكاثوليكية فى روما، وروح النقد والتحرر من القيود التى فرضتها الكنيسة على حرية البحث والتفكير، وموقف حكام المانيا فى الوحدات السياسية العديدة ، وهو موقف املته رغبتهم فى التخلص من سيطرة كنيسة روما وتدخل البابا من ناحية، وتطلعهم الى الاستئثار بأموال الكنيسة وممتلكاتها الشاسعة من ناحية ثانية ، وصكوك الغفران. وكانت هذه الصكوك هى السبب المباشر فى قيام الحركة الدينية التى حمل لواءها مارتن لوثر وتطورت تطورا سريعا الى حركة دينية ثورية .

مارتن لوثر وحركة الاصلاح البروتستنتى (١٤٨٣ - ١٥٤٦) :

ولد مارتن لوثر فى العاشر من نوفمبر عام ١٤٨٣ فى آيزليبن Eisleben وهى بلدة صغيرة فى مقاطعة سكسونيا بالمانيا وكان والداه فقيرين يشتغلان بفلاحة الارض وقضى طفولته وصباه فى حياة تزاحمت فيها عليه اسباب التعاسة والفقر والبؤس ، ولكن اتيح له حين بلغ اشده ان يلتحق بجامعة ارفورت Erfurt حيث درس القانون. وكانت هذه الجامعة قد ادخلت فى مناهجها الدراسات الانسانية القديمة كما نظمت فى رحابها دراسات دينية متعمقة . وظل لوثر فى هذه الجامعة اربع سنوات وحصل على درجته الجامعية ، ثم بدا له ان يغير طريقه

فجأة ، مدخل فى يونيو عام ١٥٠٥ ديرا يتبع طائفة القديس اوغسطين، واصبح راهبا ينتمى الى هذه الطائفة الدينية ،وكان عمره اذ ذاك اثنين وعشرين عاما ، وتوفر على العبادة من صوم وصلاة ،وآخذ نفسه بأسباب الزهد والتقشف وتعذيب النفس ابتغاء التخلص من خطاياه والظفر برحمة الله وعكف على دراسة الكتب المقدسة دراسة مستفيضة ،وكذلك كتابات القديسين اوغسطين وبرنار.وفى عام ١٥٠٨ تسلطت على نفسه رغبة جامحة فى الالتحاق بجامعة وتنبرج Wittenberg ليستكمل دراساته فى اللاهوت ، وكانت مشاعره الدينية والقومية هى التى اوحت اليه بالاتجاه الى هذه الجامعة : فقد كانت تحت اشراف الطائفة الدينية التى ينتمى اليها وهى طائفة القديس اوجسطين.وكان فردريك ناخب سكسونيا هو الذى أنشأ هذه الجامعة عام ١٥٠٢، وكانت وقتذاك احدث واصغر جامعة فى المانيا ثم هى جامعة نشأت فى المدينة التى ينتمى اليها لوثر. ولكن واجهت هذه الجامعة صعوبة بعد انشائها من قلة عدد طلابها ،فان المدينة التى قامت الجامعة فى رحابها كانت مدينة صغيرة لايتجاوز تعدادها ثلاثة آلاف نسمة ،و لا يستطيع هذا العدد الصغير من السكان أن يمد الجامعة بأعداد كافية من الطلاب ، وقد بلغ عدد طلابها فى احدى السنوات ستة وخمسين طالبا ،ومع ذلك فقد كانت الاقدار تدخر لمدينة وتنبرج وجامعتها مستقبلا زاهرا . اما المدينة فقد قامت بدور قيادى لاحدى حركات الاصلاح الدينى فى العالم. وقد اصبحت جامعة وتنبرج مركز الاشعاع الفكرى فى المانيا للتعاليم اللوثرية ،والمعهد العلمى الاول لهذه الدراسات فى اعلى مستوياتها. وكانت الحركة اللوثرية قد جاءت بمبادىء مستقاة من الانجيل رأسا ونبذت الخرافات والتقاليد التى درجت عليها الكنيسة فى روما عصورا وادهارا.ومما هو جدير

بالذكر ان بعض اعضاءهيئة التدريس فى جامعة كمبردج فىانجلترا قد استهوتهم تلك الآراء والمبادىء والتعاليم التى تجد لها سندا فى نصوص الانجيل. وكان دورهؤلاء الاساتذة من العوامل المساعدة التى ادت الىتحول انجلترا الىالمذهب البروتستنتى .

وآتيحت لمارتن لوثر فرصةزيارة مدينةروما حين اوفد فى عام ١٥١١ فىمهمةرسمية ممثلالطائفة القديس اوغسطين. وعين رئيسالمنطقة ديرية تضم احدعشر ديرا من الاديرة التابعةلهذه الطائفة . وفى اثناء مهمتهفى روما تبرك بزيارة كل الاماكن المقدسة فيها. ولكن هاله انهيار المعايير الاخلاقية لدى رجال الدين ومن بينهم البابوات وقد علق علىما رآه فىروما بجملة معبرة فقال : " ان كل منيذهب الى روما يشعر بآنعقيدته الدينية تترنحتحت الضربات التى تصيبه منجراء ما يرىهناك" وعاد لوثر الىوتنبرجوقلبه مفعم بالسخط على رجال الكنيسة . وفىالسنة التالية (١٥١٢) عين استاذا لكرسى اللاهوت فى جامعةوتنبرج،وجعل رسالته الاولىفىالحياة التدريس والوعظ،وقد اصاب فىكلا الميدانين نجاحا رائعا.وقد هداه تفكيره اثناء قيامهبالتدريس الجامعى الى انالانسان ملىء بنوازع الشر،وليس فىمقدورالانسان ان يكون متصلا بالله الا اذا كانقلبهعامرا بالايمان باللهوان الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوبجميعا اذا تاب الانسانالمؤمن اليه ،وانه لا خلاص للانسان الا بالايمان برحمة الله. وان الغرض من الصلاة وسائر انواع العبادات ليسالتخلص من الذنوب ، ولكناسداء الحمد والشكر للاله الرحيم. وتعرف هذه العقيدة باسم عقيدة التبرير بالايمان Justification by Faith .وقد اخذ لوثر على الكنيسة انها - فى احسن حالاتها وافضلها- تحض الناسعلىالاعمال الصالحة ، ولكنها تهمل ارشادهم الى الايمان الصحيح.

وسنحت الفرصة لاظهار هذه العقيدة بشكل حاسم فى عام ١٥١٧، عندما اخذ الراهب يوحنا تتزل Tetzel ، وهو من اتباع الطائفة الدينية التى تسمى الدومنيكان يبيع صكوك الغفران لحساب البابوات ولحساب بعض الامراء. ولقد امسك تتزل بالصكوك فى يده ولوح بها فى الهواء وقال مخاطبا الفلاحين السذج الذين التفوا حوله انهم اذا ما أسهموا عن طواعية واشتروا صكوك الغفران ، فان كل تلال مدينة انابورج Annaburg — وهى مدينة المانية فى مقاطعة سكسونيا — ستستحيل الى كتلة هائلة من فضة صافية. وبلغت الوقاحة بهذا الراهب مداها حين قال ايضا مخاطبا الجماهير ان الرجل اذا ارتكب الخطيئة مع العذراء المباركة نفسها فهذه الصكوك كفيلة بأن تمنحه الغفران الكامل. واثارت هذه التصريحات مكامن السخط فى نفس مارتن لوثر، فتحرك لمهاجمة صكوك الغفران وانتهز فرصة اجتماع الاهالى على عادتهم فى كنيسة وتنبرج فى ٣١ اكتوبر ١٥١٧، وهو يوم الاحتفال بعيد الشهداء، وعلق على باب الكنيسة احتجاجا ضافيا ، يتضمن خمسة وتسعين بندا ، ضد صكوك الغفران. واذاع أمر هذه الوثيقة وطبعت بمعرفة صديق له ووزعت فى طول البلاد وعرضها. وفى هذه الوثيقة هاجم لوثر الغفران كعملية دينية تمارسها الكنيسة الكاثوليكية فى صورة تتنافى مع المسيحية الحقة. وهاجم الاركان الثلاثة التى قامت عليها الكنيسة وفكرة الغفران وهى التوبة والندم Repeatence والاعتراف بالذنوب Confession وتكفير الذنب Satisfaction وقرر لوثر فى جرأة مثالية ان البابا لايستطيع غفران الذنوب ، وان الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يغفر الذنوب جميعا. وفى اثناء المناقشة التى تمت بين لوثر وبين الراهب يوحنا تتزل صرح لوثر بأن الكتاب المقدس

وحده هو المصدر وهو القانون الذى يجب الاعتماد عليه فى تفسير جميع المسائل الدينية ، وهكذا لم يطالب لوثر باصلاح نظم الكنيسة ،بل طالب باصلاح العقيدة الكاثوليكية ذاتها ، فكأنه هاجم الكنيسة فى نفوذها ونظمها وشرائها غير المشروع وفى عقيدتها معا • وكان لهجومه على هذه الصكوك صدى بعيد فى نفوس المسيحيين لأن مساوىء رجال الدين كانت قد استشرت وفاحت رائحتها ، بحيث لم يكن فى استطاعة احد الدفاع عنها دفاعا خالصا بريئا من الاغراض النفعية •

وقد بذلت محاولة لالقاء القبض على لوثر وترحيله الى روما •ولكن اخفقت هذه المحاولة بفضل تدخل فردريك، ناخب سكسونيا الذى لم يقبل اطلاقا ان يحاكم احد من رعاياه فى روما •ورأى البابا ، ان يسلك مع لوثر طريق الاقناع • وفعلا ارسل البابا اليه الكاردينال كاجيتان Cajetan وحاول ان يقنعه باخطائه فى مهاجمة الكنيسة ، كما حاول ان يغريه على ان يتعهد بعدم العودة الى ترديد آرائه •واجاب لوثر بأنه على استعداد لتحكيم احدى الجامعات الكبرى فى النزاع الذى شجر بينه وبين البابا • ومضت سنة ١٥١٨ فى محاولات ومفاوضات ومناظرات للتوفيق بين لوثر وبين كنيسة روما ولم تسفر عن نجاح ،واطلق على هذه الحركة اسم "مشادة الرهبان" •وفى السنة التالية ظهر بما لا يدع مجالا للشك ان الانفصال عن كنيسة روما اصبح امرا لا مفر منه ونظمت مناظرة بين لوثر وبين حنا ايك Ech ، وهو احد كبار انصار الكنيسة الكاثوليكية واختيرت مدينة ليبزج مقرا للمناظرة وقد اقيمت فى خلال شهر يوليو ١٥١٩ وجرت المناقشة حول نقطتين اساسيتين : رياسة البابا لكنيسة روما ،والمدى الذى تصل اليه سلطات البابا الروحية والمدنية على العالم المسيحى •وصرح لوثر بأن صكوك الغفران والبابوية كلها بدع

مستحدثة لم تكن معروفة على عهود الرسل الاولين، وقرر ايضا ان المجامع الكنسية وغيرها من المجالس الدينية ليست معصومة من الخطأ .

واتخذ لوثر تباعا عدة خطوات عملية لتنفيذ الاصلاح الديني. فوجه في سنة ١٥١٩ الدعوة الى حكام الولايات الالمانية من الامراء ومن اليهم كي ينتزعموا هذه الحركة الاصلاحية . ومعنى هذه الدعوة ان مارتن لوثر قد صحت عزيمته على ارغام الكنيسة على قبول الاصلاح على ايدى اناس من غير رجالها ، اى اصلاح الكنيسة من الخارج، طالما انها لم تستجب للدعوات المكررة باصلاح نفسها بنفسها .وكان عدد كبير من حكام المقاطعات في المانيا معدا من قبل لتأييد هذه الحركة الاصلاحية بل والترحيب بها قلبا وقالبا نظرا للمكاسب السياسية والمادية التي تعود عليهم من ورائها .

وحدد لوثر عدة مبادىء لحركة الاصلاح الديني التي دعا اليها ،وكان من بين هذه المبادىء :

اولا : اخضاع رجال الدين للسلطة المدنية

ثانيا : ليس للبابا الحق في احتكار تفسير الانجيل .

ثالثا : اباحة الزواج للقسس وقد تزوج لوثر فيما بعد عام ١٥٢٥ باحدى الراهبات واسمها كاترين بورا Bora

رابعا : اباحة الطلاق للمسيحيين .

خامسا : عدم انشاء اديرة جديدة والغاء عدد من الاديرة القائمة ،وتحويل نزلائها الى الحياة المدنية ، ثم اعلن الغاء الديرية والرهبنة وكان زواجه تطبيقا عمليا وتدعيما لهذا الالغاء.

وكان المبدأ الاول ذا اهمية قصوى ،فهو احياء الشعور القومي في المانيا ،لان اخضاع رجال الدين للسلطة المدنية يؤدي الى مزيد من النفوذ

السياسى لحكام المقاطعات الالمانية ومزيد من اموال المؤسسات الدينية - سواء المؤسسات الكنسية او الديرية - فى المانيا يذهب الى خزائن اولئك الحكام ينفقون منها على شئون الحكم والادارة وما الى ذلك بدلا من تحويلها الى كنيسة روما التى اصبحت فى نظر الشعب الالمانى كنيسة اجنبية فقدت طابعها العالمى وتحولت الى كنيسة ايطالية .

ولقد اتخذ لوثر خطوة اخرى اذ اراد ان يحسم الموقف كتابة بدلا من المناظرات فوضع فى عام ١٥٢٠ ثلاث رسائل تسمى" الرسائل الثلاث العظمى فى حركة الاصلاح الدينى". كانت الرسالة الاولى عبارة عن نداء وجهه باللغة الالمانية الى قادة الفكر من غير رجال الدين فى المانيا حثهم فى هذا النداء على الشروع فى اصلاح الكنيسة بأنفسهم دون الاعتماد على رجال الكنيسة ، وهو ما يعبر عنه بالاصلاح من الخارج. وكان عنوان هذه الرسالة " الى هيئة النبلاء المسيحيين من الامة الالمانية بصدد اصلاح العالم المسيحى". وكانت الرسالة الثانية قد وضعها باللاتينية رسالة غريبة عنوانها "حرية الرجل المسيحى". ووجه الرسالة الى البابا ليو العاشر على انها نداء للسلام .وكانت الرسالة الثالثة باللغة اللاتينية ايضا وجهها الى رجال الفقه الدينى،ووضع عنوانا لها "مقدمة عن الاسر البابلى الكنسى " .

وازاء هذا التحدى السافر الذى بدأ من لوثر واصراره على موقفه اصدر البابا ليو العاشر قرار الحرمان Excomunication ضد لوثر

مجلس ورمس Worms (١٥٢١)

طلب البابا الى شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة تنفيذ قرار الحرمان البابوى تأسيسا على ان لوثر يقيم فى اقليم

سكسونيا الداخل فى اراضى هذه الدولة. ورأى الامبراطور ان يعرض الموضوع على المجلس الامبراطورى (الدايت). فوجه الدعوه لاجتماع المجلس فى مدينة ورمس - وهى مدينة المانية تقع على نهر الراين - ودعا لوثر كى يحضر امام المجلس فى ١٧ ابريل ١٥٢١، ومنحه الامبراطور امانا شخصيا يتيح له السفر من مدينة وتنبرج الى مدينة ورمس، والاقامة فى المدينة الاخيرة فى اثناء فترة انعقاد المجلس الامبراطورى، ثم العودة الى بلدته دون ان يلقى القبض عليه او يتعرض له احد بسوء.

واستجاب لوثر لهذه الدعوة، ومع ذلك فقد اقام حفلا كبيرا فى ميدان احد الاسواق العامة فى مدينة وتنبرج وذلك فى ١٠ ديسمبر ١٥٢٠ وأمام الجمع الحافل الذى حضر الحفل احرق لوثر قرار الحرمان البابوى الصادر ضده. كما اعمل النار فى مجلدات عديدة تشمل مجموعات كاملة من المراسيم البابوية والقوانين الكنسية بينما كان الطلبة وسائر الحاضرين يرتلون الاناشيد الدينية شكرا لله. وبهذا الاجراء بلغ التحدى مداه، وانقلبت حركة لوثر الى حركة قومية تقف فى وجه كنيسة اجنبية هى كنيسة روما، وسرعان ما اصبح لوثر زعيما وطنيا.

كانت هناك مسائل اخرى غير مسألة لوثر مدرجة فى جدول اعمال المجلس الامبراطورى فى ورمس، ولكن احتلت مسألة لوثر مكان الصدارة فى اعتبار الجميع ومن جهة اخرى كانت هذه هى اول مرة يحضر فيها الى المانيا شارل الخامس بعد انتخابه وتتويجه امبراطورا للدولة الرومانية المقدسة. وزاد فى حرج موقفه انه لم يكن امامه سبيل للاختيار بين موقفين اما ان يؤيد حركة دينية اتخذت سريعا الطابع القومى الالمانى ويكون الامبراطور فى هذه الحالة زعيما لثورة المانية قومية ضد كنيسة روما، واما ان يتصدى لسحق هذه الحركة على اساس انه سليل اسرة

هابسبرج وملك اسبانيا الكاثوليكية وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة والحق ان تقاليد اسرته وتقاليد منصبه الملكى فى اسبانيا ومنصبه الامبراطورى فى المانيا وتربيته المحافظة وعاطفته الدينية كل اولئك لم يترك له مجالا للاختيار ،بل ان كل الاعتبارات املت عليه خطة العمل وهى ضرورة القضاء على الحركة باعتبارها هرطقة فى نظره ،وتلاقت رغبة الامبراطور فى هذا الصدد مع رغبة معظم اعضاء المجلس .

وكان من حسن حظ لوثر ان الدستور الالمانى كان فى معظم فصوله حبرا على ورق. فقد ظل حكام الوحدات السياسية العديدة فى المانيا يناضلون قرونا متعاقبة من اجل الابقاء على البعثرة السياسية فى المانيا حفاظا على امتيازاتهم واستقلالهم واصبح كل امير حر اتجاه قرارات المجلس الامبراطورى ينفذ مايروقه منها ويتجاهل ماعداها . وعلى ذلك فان زمام الموقف فيما يختص بلوثر كان فى يد فردريك ناخب سكسونيا ،وقد صحت عزيمته على احاطة لوثر بسياج من الحماية فلا تمتد يد بسوء الى شخصه .

كان توجيه الدعوة الى مارتن لوثر للحضور امام المجلس الامبراطورى فى ورمس بمشاورة رجال الدين. وكانت وجهة نظرهم تتلخص فى انه ليس هناك داع لمساءلته من جديد اوسماع اقواله بعد ان ادانه البابا باصدار قرار الحرمان ضده . اما الامبراطور فكان له رأى آخر هو وجوب اعطاء لوثر فرصة اخيرة لعله يذكر او يخشى. وقد ظهر لوثر امام المجلس الامبراطورى مرتين: وجهت اليه فى المرة الاولى ـ وكانت فى ١٧ ابريل ١٥٢١ ـ عدة اسئلة من بينها: هل الكتب الموضوعة على المنصة من تأليفه؟ وهل يرغب فى التراجع عن الآراء الواردة فيها؟ وقد طلب لوثر امهاله فرصة للرد على الاسئلة . وفى اليوم التالى اعلن

انه لا يستطيع التراجع عن اىموضوع تعرض له فى كتاباته . ولم يمض وقت طويل حتىاصدر الامبراطور بيانا مؤرخا ١٩ابريل١٥٢١أعلن فيه سخطه علىالحركة اللوثرية واتهم لوثر بأنه يبغى ان يزعزع ايمان المسيحيين بدينهم وهو ايمان تمسكوا به منذ اكثر من الف سنة .وفى ٢٦مايو١٥٢١ صدر قرار ورمس Edict of Worms بطرد لوثر خارج القانونواهدار دمه باعتباره هرطيقا عنيدا مشاغبا يعرض أمن الدولة الداخلى والخارجى لاخطارفادحة ،كما تضمن قرار ورمس حظرتداول كتب لوثر ومنع قراءة جميع كتاباته .

وتزايدت الاخطار المحدقة بمارتن لوثر بصدور قرار مجلس ورمس ، وعادت الىالاذهان النهاية المفجعة التىانتهت اليهاحياة المصلح الدينى التشيكى هس Huss . فلقد اظهر الامبراطور للسلطات المحلية رغبته فى احترام الامان الممنوح لمارتن لوثر طوال الفترة المحدده له واذن له فىان يبرح آمنا مدينة ورمس ،ولما انقضت مدة الامان طلب الامبراطور من الامراء حكام المقاطعات الالمانية الا يمتنعوا فحسب عن تقديم أية مساعدة للوثر، بل طالبهم بالقاء القبض عليه وتسليمه للسلطات الامبراطورية . وفى هذا الوقت العصيب اعطى فردريك ناخب سكسونيا حمايته لمارتن لوثر فأنزله فىقلعة ورتبرج Wartburg وهى قلعة اقيمت فيها تحصينات محكمة .وقد ظل هذا الناخب حتى وفاته فى عام ١٥٢٥ وفيا لمبدئه مقيما علىعهده ،وهوعدم التضحية بمارتن لوثر فأضفى عليه حماية جعلته بمنأى من بطش البابوية والامبراطورية معا

وقضى لوثر فى مخبئه — قلعة ورتبرج — تسعة اشهر فى تفكير عميق ونشاط ذهنى جم ،فقام بترجمة الانجيل كله الى اللغة الالمانية .وأتاحت هذه الترجمة قراءة الكتاب المقدس فى يسر وسهولة لعامة الشعب

الالمانى ، فتذوقوه دينا ولغة وادبا ،وكان لهذه الترجمة اثر كبير فى احياء الادب الالمانى، وجعلت من لوثر احد الرواد الاعلام فى النهوض باللغة الالمانية وأحد واضعى دعائمها . وفى اثناء عزلة لوثر فى قلعة ورتبرج اتصل به فيلسوف المانى متعمق فى الدراسات الاغريقية وهو فيليب ملانكتون Melancton . توثقت الصلات بينهما حتى اصبح اقرب اخصاء لوثر وقد كان له نعم المساعدة فى وضع فلسفة واضحة للاصلاح اللوثرى ، وقد اطلق عليه لقب اب الكنيسة اللوثرية ولم يكن فى طباعه ذلك العنف الذى عرف عن لوثر .

واذا كانت الظروف السياسية التى احاطت بالمانيا ساعدت على انتشار الحركة اللوثرية فان الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى سادت ارجاء المانيا جعلت الحركة تأخذ من مسارها اتجاهات معينة واوضاعا معينة فيخرج من انصارها طوائف من السكان وتلتصق بها طوائف اخرى.ورأى بعض الالمان فى الحركة اللوثرية الفرصة لتنفيذ آراء خاصة كانوا يؤمنون بها ،ثم جاءت هذه الحركة التحررية الدينية فشجعتهم على المجاهرة بها .ورأى غيرهم - وهم كثرة عددية ساحقة - فى الحركة اللوثرية فرصة مواتية لتحقيق مغانم لهم أو تحسين احوالهم الاقتصادية والاجتماعية . ولجأ هؤلاء وأولئك الى العنف وسيلة لتحقيق مطالبهم ،ووقعت مصادمات انقلبت الى ثورات هادرة اريقت فيها الدماء وانزعج لوثر من هذا التطور الذى لحق بحركته ،وكان حريصا على تحريرها من الاغراض الاخرى : واضطر الى الخروج من مخبئه لكبح جماح الجماهير وكان من اهم حوادث الاضطرابات ثلاث حركات : المطالبون باعادة التعميد ، وحركة الفرسان،وثورة الفلاحين .

١ - المطالبون باعادة التعميد :

طالبت هذه الطائفة بعدم الاكتفاء بتعميد الاطفال ، والتعميد هو تغطيس الطفل فى الماء ثلاث مرات على اسم الثالوث المقدس وهو الاب والابن والروح القدس، وقالت هذه الطائفة ان تعميد الاطفال وهم فى سن مبكرة لا يتمشى مع تعاليم الانجيل . وطالبت فى عام ١٥٢٥ باعادة تعميدهم مرة اخرى حين يبلغون الحلم ، وكانت حجة افراد هذه الطائفة فى اعادة التعميد ان اركان الحياة الدينية الصحيحة لا تتوفر الا فى التعميد المتأخر . وقد اطلق على رجال هذه الطائفة اسم " المطالبون باعادة التعميد " . ونادوا بآراء اخرى غير اعادة التعميد وان ظلت التسمية الاولى عالقة بهم . ومن هذه الآراء : لا يجوز للمسيحى ان يشهر السلاح فى وجه مسيحى ، لا يجوز لمسيحى ان يقاضى اخاه المسيحى ، بل يجب ان تسوى المشكلات بينهما بالتراضى ، تحريم اداء اليمين . وقد بدأت هذه الحركة اول الامر فى جنوبى المانيا ثم اتخذ اصحاب هذه الحركة مدينة مونستر مركزا لنشاطهم ، وانضم اليهم آلاف الفقراء والسذج والبائسين ، وامتدت الحركة الى انحاء شتى من املاك الامبراطورية وتطرف بعض زعماء الحركة فنادى احدهم بالشيوعية وتعدد الزوجات وجعل من نفسه قدوة لانصار الحركة فكانت له ست عشرة زوجة .

وقد تطرفوا فى حركتهم ولجأوا الى اعمال العنف ووقعت اضطرابات دامية عرضت الحركة اللوثرية وانصارها للخطر . وقد تعاونت السلطات المدنية وعلى رأسها الامراء البروتستانت مع الهيئات الدينية فى سحق هذه الحركة وضرب القائمين بها دون شفقة او هوادة . وقد تخلصت مدينة مونستر - قلعة القائمين بهذه الحركة - منهم فى يونيو ١٥٣٥ . ويذهب بعض المؤرخين الفرنسيين الى القول بأن المطالبين باعادة التعميد

كانوا بمثابة اليساريين المتطرفين فى الحركة اللوثرية .

٢ ـ حركة الفرسان Knights

اعتاد الفرسان ان يعيشوا على الحروب وأن يحققوا لأنفسهم عن طريقها مكاسب وامتيازاته ولما فقدت طائفة الفرسان الكثير من هيبتها وقوتها وامتيازاتها بسبب انحلال نظام الاقطاع ، اخذت فى مهاجمة الفلاحين ونهب ثروات التجار حتى امسوا اخطر طبقة فى المانيا تهدد الحياة الاقتصادية وتهدد الامن والسلام فى البلاد . وعندما قامت الحركة اللوثرية وجدوا فيها فرصة لاسترداد نفوذهم وثرائهم ـ واتخذ الفرسان من لوثر ذريعة لمهاجمة الكنيسة والاستيلاء على املاكها من ناحية والتحلل من سيطرة الامراء عليهم من ناحية اخرى . ومن ثم قاموا بحركة ثورية اضفوا عليها الطابع الدينى فاقتحموا الكنائس وحطموا ماكانت تزخر به من تماثيل وصور وزخارف وقد تزعم هذه الثورة فارسان المانيان هما فرانز فون سيكنجن Frenz Von Sickingen والريك فون هوتن Ulrich Von Huten وقد وضع الاثنان خطة حربية للهجوم على مدينة تريف Treves واستنجدا بالمدن المجاورة ولكن لم يجدا استجابة وفشل الهجوم على تريف وامتنع لوثر عن تأييدهم بسبب الشدة والعنف الذى اتصفت به حركتهم . كما ان الامراء (كبار النبلاء) سرعان ما اتحدوا فيما بينهم كى يدفعوا عنهم هذا الخطر بالقوة المسلحة ثم ان حركة الفرسان هذه لم تجد اى عطف عليها من جانب الفلاحين الذين كرهوا الفرسان بسبب ما انزله هؤلاء بهم من ارهاق شديد . وأخيرا فشلت حركتهم عندما قتل سيكنجن وهرب هوتن الى سويسره سنة ١٥٢٣ ومات بها .

٣ - حرب الفلاحين :

كانت ثورة الفلاحين اعنف الحركات الثلاث على الاطلاق، وقد قام بها الفلاحون الالمان، ولم تكن هذه الثورة هى الاولى من نوعها فى المانيا، فقد سبق ان قامت ثورات على شاكلتها قبل ظهور الحركة اللوثرية لدفع المظالم التى انهالت على الفلاحين فى ظل الاوضاع السائدة فى المجتمعات الالمانية وقتذاك. اما الثورة التى نشبت فى سنتى ١٥٢٤ و ١٥٢٥ عقب ظهور حركة مارتن لوثر فقد كانت ترجع الى حالة الفلاحين الالمان الذين كانوا لايزالون يعانون من قيود الاقطاع كرقيق الارض. فكانت اموالهم وجهودهم واعمالهم موزعة بين الامراء ورجال الدين والفرسان يؤدون لهؤلاء وأولئك شتى انواع الضرائب نقدا وعينا وعملا، ويحرم عليهم ممارسة كثير من الحقوق، وعلى سبيل المثال كان يحال بينهم وبين صيد الاسماك فى الانهار والقنوات، وصيد الحيوانات فى الغابات بينما كانت تنتهك اراضيهم وبيوتهم واعراضهم. فلما جاءت الحركة اللوثرية علق عليها الفلاحون اعذب الامال، اذ كانت قد ترامت الى اسماعهم المبادىء والآراء التى كان ينادى بها لوثر مثل الحرية والانسانية والآخاء الجرمانى والمساواة بين جميع الناس فاستهوتهم هذه الآراء كما طابت لهم مهاجمة لوثر لرجال الدين. وكان الفلاحون يشكون منهم مر الشكوى بسبب اسرافهم فى فرض ضريبة العشور وغيرها من ضرائب ورسوم مختلفة الاسماء والفئات والانواع. اعتقد الفلاحيون ان الحركة اللوثرية ستؤدى الى تحريرهم من الرق كخطوة اولى لتغيير احوالهم الاقتصادية والاجتماعية نحو نظام افضل. ويلاحظ ان لوثر فى بدء حركته لم يكن معاديا للفلاحين بل كان يعتمد عليهم، وكان يفاخر بأنه ينحدر من ابوين اشتغلا بفلاحة الارض.

ومن العوامل التي ادت الى استفزاز الفلاحين ارتفاع اسعار حاجيات المعيشة ارتفاعا فاحشا، واستغل الاقطاعيون هذا الغلاء، وأصروا على أن يتقاضوا ضرائبهم عينا اى من نفس المحاصيل الزراعية.

ونتيجة لذلك وضع الفلاحون بيانا صدر فى مارس ١٥٢٥ ضمنوه مطالبهم وتمثلت فى اثنتى عشرة مادة كانت فى مجموعها تستهدف الالغاء الفورى لكثير من الالتزامات الاقطاعية المفروضة عليهم. وعلى الرغم من ان معظم هذه المطالب كانت تتسم بالطابع المادى الا ان الفلاحين كانوا يعتقدون فى قرارة نفوسهم ان اصلاح احوالهم المعيشية لن يتأتى الا اذا تم اصلاح الكنيسة، وعلى غرار ما فعل مارتن لوثر طالب الفلاحون ان تنظر مطالبهم فى ضوء ما ورد فى الكتاب المقدس.

بدأت ثورة الفلاحين فى الجنوب الغربى من الغابة السوداء وأخذت اول الامر الطابع المحلى احتجاجا على اسراف السلطات الحكومية فى فرض نظام السخرة على الفلاحين. ولكن سرعان ما انتشرت الثورة فى نطاق واسع واخذت الطابع العام وبلغت عنفوانها فى الاقاليم الواقعة فى الجنوب الغربى من المانيا وفى الحوض الاعلى لنهر الراين وحوض الدانوب الاعلى، ثم امتدت صوب الشرق فى اقليم التيرول وكارنثيا احدى مقاطعات النمسا - ثم اتجهت صوب الشمال فى الاراضى السكسونية مسقط رأس مارتن لوثر والمقاطعة التى شهدت مولد حركته الدينية التحررية. وبلغت الثورة الذروة من الخطورة حين اندست عناصر اخرى فى صفوف الثوار تزعمتها وحولتها الى ثورة شيوعية جامحة. وكان فى مقدمة هذه العناصر الدخيلة المطالبون باعادة التعميد - وقد سبق ان تكلمنا عنهم - وكان على رأسهم توماس مونزر Munzer حاكم زويكو Zwichau وهى مدينة المانية. وقد نصب نفسه زعيما

لثورة الفلاحين ووضع امكانياته كلها لانجاح الثورة ،وسرعان ما استبان ان تأييده المطلق للثورة كان لتحقيق اهداف اخرى ، فقد اقام في احدى مدن المانيا (مولهاوسن) مجتمعا شيوعيا صارخا يحرم الملكية الفردية ويقوم على المساواة المطلقة بين الافراد، وعلى شيوعية الملكية وغير ذلك من مبادىء لقيت استجابة سريعة من الفلاحين ونادوا الى استخدام القوة الكاسحة على اساس انها الوسيلة الوحيدة لاقامة المجتمع الشيوعي.

أما لوثر فقد انزعج انزعاجا شديدا من هذه الثورة ورأى فيها خطرا يتهدد حركته الاصلاحية الدينية ،فبدأ يقاومها بكل شدة ،لأن المطالب التى ارادوا تحقيقها وهى مطالب مادية واقتصادية واجتماعية ، والمبادىء التى نادوا بها كانت فى نظره مطالب ومبادىء لا تمت بصلة لحركته الاصلاحية الدينية .ومن شأنها ان تعرض هذه الحركة الاصلاحية الى اكبر الاخطار، فوصف لوثر الثوار بأنهم " الفلاحون المخربون الذين يسفكون الدماء" . وكانت هذه الثورة لذلك من اهم الاسباب التى جعلته يخرج من مخبأه. واخذ لوثر يخطب فى الناس ويطلب من الامراء (كبار النبلاء) ان يعملوا للقضاء على هذه الثورة. وسرعان ما اجتمعت قوة كبار النبلاء وصغارهم (الفرسان) ضد ثورة الفلاحين . وأخفقت هذه الثورة تماما عندما انهزم الثوار فى موقعة فرانكنهوزن Frankenhausen فى مايو ١٥٢٥ وأعدم توماس مونزر مع غيره من كبار قادة الثورة .

واذا كان مارتن لوثر قد حقق غرضه باخماد ثورة الفلاحين، فان سحق الثورة لم يقض على العداء الطبقى بين افراد الشعب الالمانى، بل انه ادى الى تعميق الفروق بين طبقات المجتمع . ويهمنا هنا ان نقرر أن

قطع دابر الثورة ترك آثارا عميقة في مستقبل الحركة اللوثرية وفي التشكيل الاجتماعي لانصار هذه الحركة وفي دمغها بطابع العنف والاضطهاد الديني والتنكيل بالخصوم. لقد قام الفلاحون بثورتهم وعلقوا آمالهم على لوثر، ولكنهم لم يجدوا منه عونا او استجابة بل على النقيض مما كانوا يتوقعون، لقوا معارضة وصلت الى حد تحريض الامراء وكبار الحكام على ضرب الفلاحين بكل قسوة وعنف. ومنذ هذا الوقت - سنة ١٥٢٥ - فقدت الحركة اللوثرية هذه السمة التي لازمتها في سنواتها الاولى ونعني بها الشعبية العريضة وفقدت الفرصة كي تكون حركة قومية بالمعنى المعروف. وتهاوى مركز لوثر كزعيم شعبي واضطر ان يسقط من حسابه هذه القوى الشعبية الهائلة وان يعتمد على افراد الطبقة الوسطى وهم سكان المدن وعلى الامراء الذين طالما ندد بمطالبهم وضعفهم، كما اعتمد على الحكومات. اما الفلاحون، اما الكادحون في سبيل لقمة العيش فقد افتقدتهم الحركة اللوثرية التي وصمت نفسها بأنها حركة متعصبة بل مسرفة في تعصبها الديني، فمما لا شك فيه أن حركة الفلاحين كانت ذات طابع سياسي واضح مما جعل بعض المؤرخين يصفون الفلاحين الذين اشتركوا فيها بأنهم ثوار سياسيون. ولكن مما لاشك فيه ايضا ان دوافع لوثر في مهاجمة ثورة الفلاحين كانت دوافع دينية اكثر منها دوافع سياسية.

وعلى الرغم من سحق ثورة الفلاحين فان المشكلة الدينية لم تحرز اى نجاح في سبيل ايجاد تسوية لها، مما دعا شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة الى توجيه الدعوة لعقد المجلس الامبراطوري - الدايت - في مدينة سبير Speire في بفاريا في يونيه ١٥٢٦ لبحث المسألة الدينية والنظر في موضوع تنفيذ القرار الذى اتخذه

المجلس الامبراطورى الذى عقدفى ورمس فى يناير١٥٢١ بطرد لوثر خارج القانون واهدار دمه وتحريم تداول مؤلفاته.واتخذ المجلس قرارين: اولهما وجوب عقد مجلساو جمعية وطنية فى وقت قريب لايجاد حل " للشرور الكثيرة التىلا تتحمل تأخيرا. وكان هذا القرار محاولة لتأجيل بحث المشكلة الدينيةويتمشى مع الشق الاول منالاقتراح الذى ورد فىبيانالامبراطور. اما القرارالثانى فقد انطوى على مفاجأة اذ جاء فيه ان " لكلامير الحقفىان يعيش وان يسلك فى موضوع قرار ورمس المسلك الذى سوف يسألعنه امام الله وامام حضرة صاحب الجلالة الامبراطور. ومعنى هذا القرار ان صار لكلامير الحق فى ان يختار المذهب الدينى الذى يريده فى امارته. وعلى ذلك فقد اصبحلانصار لوثر فىالمانيا بفعل هذا القرار ايضا مركز معترف به. وكان السبب فى صدور هذا القرار انضمام البابا كلمنت السابع الى حلف كونياك عام ١٥٢٦ ضد الامبراطور. والسببالثانى لصدور هذا القرار هو أن الامبراطور كان يريد ايجاد نوع من المهادنة مع اللوثريينحتىتبقى الجبهة الداخلية فى المانيا سليمة فىالوقت الذى كانالاتراك العثمانيين يقرعون بشدة أبواب المجر. وقد تحقق فهم فعلاالنصر المبين فى معركة موهاكس فى ٢٨ اغسطس ١٥٢٦.

ولكن لميلبث ان تغيرالموقف ، اذ تفاقم الموقف فىالمانيا بالنسبة للكاثوليك لان الزمنكانحليفا قويا لاتباع لوثر، ورأى الامبراطور شارل الخامسان يخطوخطوة اخرى لحلالمشكلة الدينية التى باتت تهدد البلاد الالمانية بانقسام دينى مذهبى خطير. فوجه الدعوة لعقد المجلس الامبراطورى مرة اخرى فى سبير فى مارس ١٥٢٩ وهو الذى يطلقعليه دايت سبيرالثانى. وفىهذا المجلس تقرر انتكون قرارات

ورمس الصادرة فى ١٥٢١ نافذة المفعول ، ثم الغيت الحرية التى اعطيت للأمراء فى مجلس سبير الاول لاختيار المذهب الذى يريدونه .

وجاءت قرارات المجلس الامبراطورى الثانى المنعقد فى سبير ضربة اليمة للوثريين، فقد عصفت بالمركز القانونى الذى ظفروا به واطاحت بمكاسبهم وجعلت الغرم عليهم والمغنم للكاثوليك . وقرروا — ايمانا منهم بعدالة قضيتهم وتمسكا بمبادئهم — تحدى الامبراطور فاحتجوا على قرار مجمع سبير الثانى وقالوا اننا نحتج Nous Protestons - We Protest وكان بسبب احتجاجهم هذا ان صاروا يسمون بالمحتجين Protestants حتى الوقت الحاضر.

وفى ذلك الوقت كان الامبراطور شارل الخامس لايزال عند رأيه السابق وهو ضرورة تكوين جمعية وطنية تبحث جذور المشكلة الدينية وايجاد حل نهائى لها يرتضيه جميع الاطراف حفاظا على الوحدة الدينية للبلاد الالمانية .ولكن الظروف الدولية التى احاطت بالامبراطور كانت تحول بينه وبين بذل مزيد من التركيز والاهتمام بهذه المسألة فخطر الاتراك العثمانيين بسبب زحف قواتهم الضاربة فى وسط اوروبا كان لايزال ماثلا، وكان التقارب بين سليمان القانونى وبين فرنسوا الاول ملك فرنسا يتهدد ممتلكات الامبراطورية من الشرق والغرب . ولهذا آثر الامبراطور ان يمضى فى سياسته السلمية تجاه المشكلة الدينية .

وكان قد عقد معاهدة كمبراى او سلم السيدات فى ١٣ اغسطس ١٥٢٩ فوجه شارل الخامس الدعوة لعقد المجلس الامبراطورى — الدايت — فى مدينة اوجزبرج Augsburg وانعقد المجمع فى يونيو ١٥٣٠ للوصول الى حسم الخلافات الدينية . وفى هذا المجلس وضع فيليب ملانكتون مبادئ العقيدة اللوثرية بكل حذر واعتدال فيما يعرف باسم اعتراف

اوجزبرج Confession of Augsbur ولكن الامبراطور الذى كان متأثرا بآراء الذين حوله من رجال الدين الكاثوليكى فى المجلس انحاز الى هؤلاء ، فرفض المجلس اعتراف اوجزبرج وصدرت أوامر الامبراطور بتنفيذ قرارات مجلس ورمس الاول سنة ١٥٢١ والقضاء على البروتستنتية . وفى اواخر عام ١٥٣٠ انفض مجلس اوجزبرج بعد ان أعطى الامبراطور البروتستنت مهلة قصيرة حتى يتخلوا عن آرائهم حقنا للدماء . وعندئذ اجاب الامراء البروتستنت على هذا الانذار بأن الفوا فيما بينهم اتحادا للدفاع عن مصالحهم ولرد القوة بمثلها ، عرف باسم حلف شمالكو Schmalkal ic League فى سنة ١٥٣١ .

وكان تكوين حلف شمالكو تحديا صريحا من المقاطعات الالمانية البروتستانتية لسلطة الامبراطور شارل الخامس . وكان هذا الامبراطور فى موقف لايسمح له بانتهاج خطة حربية لضرب البروتستانت . فقد اخذ خطر الاتراك العثمانيين يزداد بعد فترة قصيرة من الهدوء النسبى ، وكانت الاحوال فى اسبانيا مضطربة ، وكان فرنسوا الاول ملك فرنسا يكيد كيدا للامبراطور لانه لم يرض عن خروج فرنسا من شبه الجزيرة الايطالية والنزول عن كل ادعاءاته عليها وعن اقاليم اخرى تقررت فى معاهدة كمبراى فى اغسطس ١٥٢٩ .

ولذلك سعت الدبلوماسية الفرنسية الى ايجاد تقارب بين فرنسا وبين البروتستانت من ناحية وبين فرنسا والدولة العثمانية من ناحية اخرى . ولهذه الاسباب احجم الامبراطور عن مناوأة البروتستانت ، اتبع حيالهم سياسة اللين والمهادنة رجاء بقاء الجبهة الداخلية سليمة ومتماسكة حتى يجتاز بسلام هذه الاخطار الخارجية التى تتهدده من يمين وشمال .

وفى هذا الوقت العصيب برزت روح دينية مسيحية عالية فى المانيا طالبت بتناسى الاحقاد والخلافات والوقوف صفا واحدا وتوجيه نشاط البلاد كلها لتدعيم المجهود الحربى ضد الاتراك العثمانيين وبدت هذه الروح فى جلسات المجلس الامبراطورى الذى عقد فى مدينة نورمبرج سنة ١٥٣٢ وصدرت عنه وثيقة هامة اطلق عليها سلام نورمبرج، وتمثلت فيها العاطفة الوطنية اروع ماتكون. فوصفت الوثيقة الاتراك العثمانيين بأنهم الخطر الداهم الذى يواجهه المسيحيون على بكرة ابيهم لا فرق بين كاثوليكى وبروتستانتى ، ومضت الوثيقة تقول انه يجب ان تتوقف فورا جميع المشاحنات والحروب الدينية داخل نطاق الامبراطورية وان يتناسى الجميع الماضى بخلافاته وان ينصرف النظر عن الاجراءات القانونية التى اتخذت ضد ناخب سكسونيا واصدقائه. ومعنى هذه العبارة هو الغاء قرار مجمع ورمس باعدام مارتن لوثر والاجراءات التأديبية ضد ناخب سكسونيا الذى تزعم فكرة حلف شمالكلد .

وعلى هذا النحو خلق مجمع نورمبرج جوا صحيحا لنمو وانتشار الحركة البروتستنتية فقد كان من اولى نتائج هذا المجمع ان دخلت تباعا عدة مدن كبرى زاهرة الى حظيرة المذهب البروتستانتى ومنها اوجزبرج وفرانكفورت وهامبرج وهانوفر د ورمسبرج ،وبادن، الامر الذى ادى الى تدعيم المعسكر البروتستانتى تدعيما قويا تجاه المعسكر الكاثوليكى .

وعلى اية حال شهدت السنوات السابقة لعام ١٥٤٦ - وهو العام الذى اندلعت فيه الحرب الاهلية فى المانيا - عديد من المحاولات للتوفيق بين البروتستانت والكاثوليك ولكن عناد الطرفين المتنازعين وقف حجر عثرة فى سبيل ذلك. فقد كان البروتستانت يدركون ان حركتهم

قد اكتسحت معظم الاقاليم الالمانية واصبحوا يرفضون التساهل فى أية مسألة تعرض للبحث ، وكان الكاثوليك اكثر تشددا وتصلبا من خصومهم ويعتمدون على مجد قديم تعيش كنيسة روما على اسمه .

ومن المحاولات التى بذلت فى تلك السنوات نذكر محاولتين: تمثلت الاولى فى المجلس الامبراطورى الذى عقد فى مدينة راتزبون Ratisbon عام ١٥٤١ وحضر الامبراطور بنفسه جلسات هذا الدايت يحدوه أمل قوى فى ان يكون حضوره مما يساعد على الوصول الى تسوية سلمية . ولكن فض المجلس الامبراطورى جلساته دون نتيجة ايجابية تذكر . اما المحاولة الثانية فلاحت حين وجه البابا بول الثالث الدعوة للكاثوليك والبروتستانت لعقد مجمع دينى عام يسمى المجمع المسكونى اى مختص بالعالم المسيحى فى مدينة ترنت Trent فى اقليم التيرول عام ١٥٤٥ ، وقد رفض البروتستانت تلبية الدعوة لانهم رأوا ان الكاثوليك مسيطرون على هذا المجمع المسكونى وعند ذلك قرر الامبراطور انه لامناص من الاشتباك المسلح للقضاء على الانقسام الدينى الذى شطر البلاد الالمانية شطرين . وكان من العوامل المشجعة له على اتخاذ هذا القرار ان الموقف الدولى قد بات هادئا بعد ان عقد صلح كنسى فى سبتمبر عام ١٥٤٤ مع ملك فرنسا وبعد ان قل خطر الاتراك العثمانيين وعندئذ قرر الامبراطور نهائيا ان يستخدم القوة للقضاء على الانقسام الدينى الذى هدد ممتلكاته ، فأخذ يعبئ جيوشه . وبينما كانت الحشود العسكرية تأخذ طريقها الى ساحات القتال مات مارتن لوثر فى ليلة ١٨/١٧ فبراير عام ١٥٤٦ ، واما النزاع بين البروتستانت والكاثوليك فقد استمر فى الاعوام التالية حتى امكن الوصول الى تسوية فى صلح أوجزبرج فى فبراير عام ١٥٥٥ .

وانقسم البروتستنت بعد وفاه لوثر، فانحاز موريس دوق سكسونيا وهو قريب فردريك ناخب سكسونيا الى جانب الامبراطور، لوجود عداء بينه وبين اعضاء حلف شمالكد، فخسرت جيوش البروتستنت بذهابه قائدا مدربا وحلت بها الهزيمة فى موقعة مهلبرج Muhlberg فى ٢٤ ابريل ١٥٤٧ ووقع قواد الجيش البروتستنتى فى الاسر، وباتت المانيا بأسرها تحت رحمة الامبراطور.

كان هذا النصر الساحق فرصة ذهبية امام الامبراطور لانهاء المشكلة على النحو الذى يريده، ولكنه حاول تسوية المشكلة وديا بين الكاثوليك والبروتستنت وكان من اسباب هذا الموقف ما هنالك من جفاء شديد بينه وبين البابا بول الثالث الذى صار من اكبر المتخوفين من الاثار التى سوف تترتب على انتصار الامبراطور فى مهلبرج، ويخشى أن يؤدى هذا الانتصار الى اخضاع الكنيسة لسيطرة الامبراطور من جهة والى توطيد نفوذ الامبراطور فى ايطاليا من جهة اخرى، فأخذ يتفاوض من اجل التفاهم مع هنرى الثانى ملك فرنسا ضد الامبراطور ويمكن أن نضيف بعض اعتبارات اخرى جعلت الامبراطور يجنح نحو السلم فقد كانت هناك قطاعات كبيرة من الرأى العام فى المانيا لا تزال على ولائها للمذهب البروتستنتى، وكان امراء المانيا جد حريصين على الابقاء على استقلالهم وامتيازاتهم وكانوا مستعدين لتأييد الحركة لتبرير اثر الانتصار الذى احرزه الامبراطور فى موقعة مهلبرج، وكانت الدول المتاخمة لالمانيا ما كانت لتقبل انشاء حكومة مركزية قوية فى المانيا تحت حكم اسرة الهابسبرج.

وعلى ذلك فقد دعا الامبراطور (الدايت) للاجتماع فى اوجزبرج فى مايو ١٤٥٨، وعرض فيه النظام الذى اراد ان يفرضه على البروتستنت

والكاثوليك معا والذى اراد ان يسرى العمل به فى المانيا مؤقتا وهو نظام ينطوى فى جوهره على التمسك بالعقيدة الكاثوليكية مع بعض التسامح لارضاء البروتستنت فى مسائل زواج القسس وتناول القربان والتبرير بالايمان. وقد سمى هذا النظام المؤقت Interim ولكن استنكر البابا هذا النظام ورفضته معظم المقاطعات الالمانية سواء البروتستانتية او التى احتفظت بولائها لكنيسة روما. فالمقاطعات الكاثوليكية رفضت رفضا باتا ان تمنح الرعايا البروتستانت المقيمين فى اراضيها التسهيلات التى جاء بها النظام المؤقت ، ومن ناحية اخرى عارضت المقاطعات البروتستانتية معارضة عنيفة ممارسة الطقوس الكاثوليكية فى اى جزء من الاراضى التابعة لها ، واعتقد الفريقان ان التنازل او التساهل فى نقطة من نقط الخلاف معناه التنازل عن كل شىء ، فازداد كل منهما استمساكا بآرائه وتصلبا فى موقفه وتشددا فى مطالبه. وعلى ذلك اخفقت المحاولة السليمة التى بذلها الامبراطور بعد انتصاره فى مهلبرج لانهاء النزاع وديا بين الكاثوليك والبروتستانت بعد ان رفض كل من الفريقين "النظام المؤقت" ودخل الامبراطور تجربة جديدة هى فرض النظام المؤقت بالقوة المسلحة على المقاطعات البروتستانتية واستخدم قوات مسلحة اسبانية لضرب البروتستانت فى جنوبى المانيا ، اما فى شمالى المانيا فقد واجه الامبراطور مقاومة عنيفة من البروتستانت بزعامة مدينة مجدبرج. وهكذا اشتعل الموقف الداخلى وازداد تصدع الجبهة الداخلية فى وقت كان الموقف الخارجى يتدهور من سىء الى أسوأ بالنسبة للامبراطور وكان موريس دوق سكسونيا الذى لم يفد بشىء من انضمامه الى الامبراطور فى مقدمة الذين احتجوا على هذا النظام المؤقت ، ولم يلبث أن عاد

الى صفوف البروتستنت، فكسب هؤلاء بعودته اليهم قوة جديدة .

وسارت الحوادث بعد ذلك فى صالح البروتستانت ، وذلك لعدة اسباب من أهمها : انشغال الامبراطور بمسألة الوراثة فى املاكه ، بين ابنه فيليب واخيه فرديناند ، ثم انضمام الامراء البروتستانت الى هنرى الثانى ملك فرنسا فى معاهدتى شامبور ١٥٥٢ وفريد والد ١٥٥٢ . وقد سبق ان ذكرنا كيف اضطر الامبراطور الى الالتجاء الى اخيه فرديناند الذى توسط فى عقد معاهدة بساو Passau مع موريس فى يوليو ١٥٥٢ ، وقد نص هذا الصلح ضمن شروطه على دعوة المجلس الامبراطورى للانعقاد فى بحر ستة شهور للوصول اذا امكن الى حل وتسوية لجميع المسائل المختلف عليها نهائيا ، ووافق شارل الخامس على عقد هذه المعاهدة . وفى النهاية عهد الامبراطور (شارل) الى اخيه فرديناند الوصول الى تسوية حاسمة مع خصومه ، وفى فبراير عام ١٥٥٥ دعى للانعقاد فى اوجزبرج ذلك المجلس الامبراطورى الذى سبق النص على دعوته فى معاهدة بساو وترأس فرديناند جلساته لتقرير الصلح مع الامراء البروتستنت ، وفى هذا المجلس تم صلح اوجزبرج .

وكان من اهم المبادىء التى قررها هذا الصلح حق كل اقليم فى اختيار عقيدته الدينية ، ويتفرع من هذا المبدأ الامتناع عن كل محاولة لفرض مذهب دينى واحد على جميع المقاطعات الالمانية ، واصبح لكل حاكم الحق فى اختيار المذهب الذى يريده فى اقليمه دون تدخل من جانب الامبراطور او المجلس الامبراطورى . ونص على تحريم استخدام العنف ضد اية ولاية فى الامبراطورية اعتنقت المذهب اللوثرى وكذلك الحال بالنسبة للولايات التى ظلت على ولائها لكنيسة روما معتنقة المذهب الكاثوليكى . وقرر صلح اوجزبرج كذلك ان احكام هذا الصلح

لا تسرى الا على الكاثوليك واللوثريين. كما قرر انكل فرد لايرضى بالمذهب الدينى الذى يقرره حاكم المقاطعة التى يقيم فيها هذا الفرد فعليه ان يهاجر منها الى ولاية اخرى تدين بالمذهب الدينى الذى يعتنقه وله ان يأخذ معه امواله ولا يمنع عن بيع امتعته قبل رحيله ولا يؤذى فى شرفه .

ومن المسائل الدقيقة التى اثارت مزيدا من الاهتمام تحديد مركز الاساقفة ومن اليهم من رجال الدين الذين كانوا يحكمون مقاطعات المانية ثم اعتنقوا المذهب البروتستنتى فانه لما ظهرت الحركة اللوثرية كان هناك اغراء قوى امام هؤلاء الحكام كى يتحولوا عن الكاثوليكية ، لأن اعتناقهم المذهب البروتستنتى كان يتيح لهم عديد الفرص للافادة من الوضع الجديد ، اذ فى ظل النظام البروتستنتى يصبحون حكاما علمانيين يرث ابناؤهم وحفدتهم مناصبهم فى الحكم ، وتصبح الولايات التى يحكمونها ذات نظام وراثى تؤول املاك الكنيسة فى هذه الولايات اليهم وتنقطع صلتهم بكنيسة روما ، وقد استهوى هذا الاغراء المادى عددا كبيرا من هؤلاء الحكام من رجال الدين الكاثوليك وزاد من خطورة هذه الظاهرة كثرة عدد المقاطعات الالمانية التى كان يحكمها رجال الدين الكاثوليك ، وقد تشعب البحث بخصوص هذه المسألة ماذا يكون مصير ممتلكات الكنيسة فى المقاطعات الالمانية التى كان يحكمها حكام اساقفة ثم نبذوا الكاثوليكية واعتنقوا المذهب اللوثرى؟ وعلى اية حال قرر صلح اوجزبرج فى النهاية ان املاك الكنيسة فى المقاطعات التى تحولت الى اللوثرية قبل عام ١٥٥٢ تظل فى حوزة حكامها اللوثريين ، وأما املاك الكنيسة التى اخذت منها بعد عام ١٥٥٢ فهذه تعود الى الكنيسة الكاثوليكية فى روما . وصلح اوجزبرج

اذ يخول للاساقفة الحق فى اختيار المذهب الدينى الذى لا يريدونه الا انه اشترط على كل اسقف يتحول الى المذهب البروتستانتى ان يترك اسقفيته ويفقد وظائفه الدينية وتبقى ممتلكات الكنيسة تابعة لروما وفى هذه الحالة يتم انتخاب اسقف آخر كاثوليكى يباشر سلطات منصبه ويستولى على ايرادات وممتلكات الكنيسة للانفاق منها فى الاوجه المخصصة لها .

والنظرة التحليلية لصلح اوجزبرج تبين انه كان محاولة لتسوية اخطر مشكلة واجهتها المانيا فى مطلع العصر الحديث وهى المشكلة الدينية . وقد اثبتت الاحداث التى تتابعت ان هذه التسوية لم تعمر طويلا فقد نجحت مدة ناهزت ثلاثا وستين سنة فى ايجاد جو من التعايش السلمى بين الكاثوليك والبروتستنت ، ثم قامت الحرب الدينية عنيفة مدمرة اشتركت فيها المانيا والدانمرك والسويد وفرنسا ، وهى الحرب التى يطلق عليها حرب الثلاثين عاما (١٦١٨ - ١٦٤٨) وعلى ذلك يعتبر صلح اوجزبرج نهاية مرحلة من مراحل الصراع الدينى بين الكاثوليكية والبروتستانتية فى اوروبا .

ويضفى بعض المؤرخين والباحثين الاوروبيين على صلح اوجزبرج مبادىء سامية بعيدة عن نصوصه وروحه كل البعد ، فضلا عن انها لم تدر فى اذهان واضعيه ، فهم يقررون - خطأ بلا شك - ان هذا الصلح قد ارسى قواعد التسامح الدينى وانه قرر مبدأ الحرية للفرد . والحق ان الحرية الدينية التى جاء بها صلح اوجزبرج كانت مقصورة على حكام المقاطعات الالمانية ، ولم تمتد هذه الحرية لتشمل الافراد الذين كان عليهم طبقا لنصوص الصلح ان يعتنقوا مذهب الحاكم اذا رغبوا فى البقاء فى موطنهم ، فاذا اختلف مذهبهم عن مذهب الحاكم ولم

يرضوا عن مذهبهم بديلا كان عليهم ان يهاجروا من ولايتهم الى ولاية اخرى وفى الواقع فان هذه الهجرة الاجبارية من اجل العقيدة هى أبعد ما تكون عن الحرية الدينية للفرد ولا يخفف من وطأتها ما يردده بعض المؤرخين من انقسام المانيا الى ما يزيد على ثلاثمائة وخمسين وحدة سياسية جعل امر الهجرة اكثر سهولة واقل متاعب من هجرة تتم فى دولة تنعم بالوحدة مثل فرنسا او اسبانيا . ولقد جاء صلح اوجزبرج متمشيا مع المبدأ القائل: "الناس على دين ملوكهم " .

ويلاحظ ايضا على صلح اوجزبرج انه لم يعترف الا بمذهب واحد خارج على كنيسة روما وهو المذهب اللوثرى ، فأصبح الاختيار امام حكام المقاطعات الالمانية محصورا بين المذهب الكاثوليكى وبين المذهب اللوثرى وتجاهل صلح اوجزبرج انصار المصلحين الدينيين الآخرين مثل زونجلى الذى ظهر فى سويسرا وكذلك كلفن الذى ظهر فى فرنسا وكان له انصار عديدون فى جنوبى المانيا وغربيها وبذلك لم ينشىء صلح اوجزبرج مركزا قانونيا لانصار كلفن فى المانيا .

وتضمن الصلح احكاما كان اعمال النص فيها امرا متعذرا ، ونذكر على سبيل المثال انه لم تكن هناك سلطة تنفيذية جبرية ترد الى الكنيسة املاكها التى انتزعت منها بعد سنة ١٥٥٢ فصلح اوجزبرج لا يعدو ان يكون اتفاقا بين الولايات الالمانية صدر فى صورة قرار من المجلس الامبراطورى . ودل تاريخ هذا المجلس على ان حكام المقاطعات الالمانية كانوا لا يلتزمون التزاما حرفيا بتنفيذ قراراته ، وكانوا ينفذون منها ما يتمشى مع مصالحهم ويهملون ما يتعارض معها . وفى الحالة التى نحن بصددها اهمل تنفيذ هذا النص ومضت على قدم وساق عمليات انتزاع ممتلكات كنيسة روما . وكان هذا التصرف من اهم الاسباب التى

ادت الى اندلاع الحرب الدينية المعروفة باسم حرب الثلاثين سنة .
ولقد دعم هذا الصلح الانقسام الدينى بين الشعب الالمانى وجاء
هزيمة للبابوية ولكنيسة روما ،فقد انسلخ عنها نصف المانيا ،ولذلك
يعتبر صلح اوجزبرج احدمعالم تاريخ اوروبا الحديث .

الفصل السادس

انتشار حركة الاصلاح الدينى فى اوروبا

شقت الحركة اللوثرية طريقها وسط المصاعب والاخطار والمنافسات السياسية بين حكام المقاطعات الالمانية وكوارث الحروب الدينية حتى انتهى بها الامر الى الاستقرار فى شمالى المانيا بوجه عام وعدد من المدن الهامة فى شمالى المانيا وجنوبها ، كما استقر المذهب اللوثرى فى الممالك الاسكندنافية الشمالية (الدانمرك والسويد) واعتنق عدد كبير من المقاطعات السويسرية المذهب البروتستنتى، وحذت هولندا هذا الحذو، كما دخلت حركة الاصلاح الدينى انجلترا واسكتلندا وانفصلت هذه البلاد عن كنيسة روما، اما الكاثوليكية فقد بقيت فى النمسا واقليم الراين وفرنسا واسبانيا وايطاليا وبلجيكا وغيرها . وعلى الرغم من ذلك لم يكن من نصيب اللوثرية الذيوع والانتشار فى كل اوروبا لاسباب منها :

١ ـ صعوبة فهم العقيدة اللوثرية التى عجز كثيرون عن تفسيرها خصوصا فى مسائل تناول القربان، والتبرير بالايمان .

٢ ـ اعتماد لوثر على تعضيد الامراء فقط وامثالهم من اهل الطبقات الوسطى والدنيا فى اول الامر، مما جعل السواد الاعظم من الناس ينفضون من حوله .

٣ ـ عدم اهتمام لوثر بمسألة تحديد وتعريف العقيدة الجديدة .

٤ ـ عدم تفكيره فى نشر هذه العقيدة فى خارج المانيا . وقد ادى ذلك الى وقوع الخلاف فى صفوف اللوثريين انفسهم بعد وفاة لوثر من جهة ، ثم الى صعوبة التغلب على الكاثوليكية المنظمة وبخاصة

عندما امتنع لوثر عن الالتجاء الى القوة والعنف في نشر مذهبه .وقد ظهرت هذه النتيجة بجلاء عندما اخذت الكنيسة الكاثوليكية تنظم شئونها وتصلح مساوئها ، وتستعد للنضال من اجل نشر مذهبها وتعاليمها بكل وسيلة .

ولكن النجاح الذى لقيه الاصلاح الذى نادى به مارتن لوثر بالطرق السلمية لم يلبث ان شجع على ذيوع وانتشار دعوات اخرى للاصلاح في انحاء اوروبا على ايدى مصلحين كانوا يترددون في استخدام العنف والقوة في نشر العقائد والمذاهب الجديدة . وكان في طليعة هؤلاء الريك زونجلى الذى انتشر مذهبه في سويسرة والمانيا الجنوبية ،وجون كلفن الذى انتشر مذهبه في الجزء الباقي من اوروبا الوسطى والغربية ، وخصوصا في فرنسا والاراضى المنخفضة واسكندناوة الى جانب سويسرة ايضا .

زونجلى Ulrichzoingli (١٤٨٤-١٥٣١) وانتشار الزونجلية Zwinglianism

تدين حركة الاصلاح التى ظهرت في سويسرة لرجل سويسرى يسمى الريك زونجلى اتخذ من مدينة زيوريخ في سويسرة مركزا لدعوته . وتختلف نشأته عن نشأة مارتن لوثر اذ كان والد زونجلى عمدة المقاطعة ،وعمل احد اعمامه رئيسا لاحد الاديرة ،واشتغل عم له آخر قسيسا في احدى المدن. واتيح لزونجلى ان يتلقى تعليمه في مدارس وجامعات برن وفينا وبال وتأثر بالمعاصرين له من رجال الدراسات الانسانية وبخاصة ارزمس ، وكانت تربطه به علاقة شخصية وثيقة .وتحت تأثير عميه انخرط في سلك رجال الاكليروس ،وترامت شهرته في الخطابة الى مدينة زيورخ فاستدعى اليها واسند اليه في ديسمبر ١٥١٨ منصب واعظ الكنيسة الكبرى في مقاطعة زيورخ ،وبرز اسمه منذ ذلك التاريخ

بروزا واضحا قويا فى الاوساط الدينية والسياسية والاجتماعية فى المقاطعة وتبوأ مكانا عليا .

وكانت مدينة زيورخ فى مقدمة المدن السويسرية ثراء وازدهارا نافست مدينة بال فى نشاطها التجارى وفى علاقاتها الاقتصادية مع المانيا ثم وكان معظم السفراء والامراء الاجانب والسياح الاثرياء يفدون الى مدينة زيورخ ويقضون اوقاتا ممتعة على ضفاف بحيرة زيورخ وينفقون بسخاء على ملذاتهم ولهوهم . وقد لمس زونجلى - بسبب اقامته فى زيورخ وعمله واعظا لكنيستها الكبرى - المتناقضات الموجودة فى المدينة ، واستبدت به الرغبة فى القضاء على المساوىء ، وسرعان ما قاد حركة اصلاح دينى انتهت الى نتيجة هامة لاتزال قائمة الى اليوم ، وهى انشقاق مقاطعات بأسرها من مقاطعات الاتحاد السويسرى على كنيسة روما وانقسام سويسرا الى فريقين: فريق بروتستنتى من انصار زونجلى ، وفريق كاثوليكى ، ويهمنا هنا ان نشير الى حقيقتين : اولاهما ان الحركة البروتستنتية فى سويسرة لا تدين فى نشأتها لمارتن لوثر بل كانت فى حقيقة أمرها حركة سويسرية تزعمها زونجلى ، وقامت مقاطعة زيورخ بدور بارز فى قيادة هذه الحركة سنوات طوالا . ولا ريب ان حركة الاصلاح الدينى فى سويسرة قد تأثرت بالاحداث الكبرى التى وقعت فى المانيا ولكنها احتفظت لنفسها بطابع خاص . اما الحقيقة الثانية فان الحركة الاصلاحية التى قادها زونجلى كان لها الى جانب صبغتها الدينية اهتمام عميق بالمشكلات السياسية وعناية كبيرة بالنواحى الاجتماعية والانتصاف للطبقات الكادحة من الحكام المترفين الذين عاشوا بمعزل عن الشعب وعلى ذلك فان حركة زونجلى لم تكن مجرد رد فعل لمساوىء الكنيسة بل كانت فى مجموعها حركة دينية سياسية اجتماعية قومية .

وقد وجه زونجلى نشاطه اول الامر لمحاربة الظاهرة التى كانت

فدتفشت بين الشباب السويسرى واستهوت افئدتهم وهى انصرافهم الى العمل جنودا مرتزقة فى صفوف جيوش الدول الاوروبية نظرا للمرتبات العالية التى كانوا يحصلون عليها، واعلن انه من العار ان تهدر دماء السويسريين فى غير مصلحة قومية . ولقد لقيت هذه الآراء التى كان يرددها زونجلى استجابة من سكان زيورخ وعاهدوا انفسهم على ألا يكونوا اتباعا مأجورين لملك فرنسا اولامبراطور الدولة الرومانية المقدسة او للبابا نفسه .

ولقد انتقلت حركة الاصلاح التى قام بها زونجلى الى عدد من مقاطعات الاتحاد السويسرى والى الاقاليم السويسرية التى لم تكن قد انضمت بعد الى الاتحاد، فانضمت الى الحركة الدينية الجديدة برن Bern فى عام ١٥٢٨ وتبعتها فى السنة التالية بازل Base; ، كما انتشرت فى الاودية الايطالية وفى المانيا . وفى الوقت الذى تكونت فيه عصبه شمالكلد The League of Schmalkaldic فى فبراير ١٥٣١، بدأ زونجلى يعتقد بأنه نبى الله الذى اختاره لنشر هذا المذهب وبدأ يستعد لاستخدام الوسائل السياسية من اجل انتشار رغبة الاله فى زيورخ وفى كل انحاء سويسرة . وتمكن من السيطرة على مجلس مدينة زيورخ وادار شئونها الخارجية والداخلية بطريقة اوتوقراطية . ومن اجل نشر هذا المذهب الجديد، كان زونجلى قد قام بعقد عدد من المعاهدات تعرف باسم Burgrechte او Christian Civic Alliances (اى الحلف المسيحى المدنى) مع المقاطعات الاخرى . ففى عام ١٥٢٧ تحالفت زيورخ مع مدينة كونستانس Constance وتلتها محالفة بين كونستانس وبرن . وفى عام ١٥٢٩ انضمت كثير من المدن السويسرية الى الحلف المسيحى المدنى . وكان

رد الفعل فى الدوائر الكاثوليكية سريعا اذ كونت المقاطعات الكاثوليكية فى ابريل ١٥٢٩ ماعرف باسم الاتحاد المسيحى The Christian Union وبدأ زونجلى يجهزخططه للقيام بالحرب وبذلك قامت الحرب الاهلية فى سويسرة ٠ففى يونيو ١٥٢٩ سارت قوات زيورخ البالغ عددها حوالى ٤٠٠٠ جندى الى كابل Kappel هى تقع على حدود زيورخ حيث قابلتها مجموعة من القوات الكاثوليكية ولكن عقدت هدنة بين الطرفين ،وتلى ذلك صلح كابل الاول فى ٢٦ يونيو ١٥٢٩٠ وقد تقرر فى هذا الصلح ان يكون لكل مقاطعة مطلق الحرية فى اختيار مذهبها الدينى، وجعل هذا النص مقصورا على الثلاث عشرة مقاطعة التى تكون الاتحاد السويسرى٠ اما الاقاليم السويسرية التى لم تنضم الى الاتحاد وقامت بعض المقاطعات بغزوها وحكمها بالتناوب فقد تقررت بالنسبة لها عدة مبادئ هامة نذكر منها هذين المبدأين :

١ — لايكره احد على تغيير مذهبه الدينى٠

٢ — يختار سكان كل منطقة او اقليم مذهبهم الدينى ويعتبر المذهب الذى يقع عليه اختيار الاغلبية المذهب الرسمى للاقليم ،وللاقلية فى هذه الحال الخيرة بين ان تخضع لرأى الاغلبية وبين أن تهاجر الى منطقة اخرى تدين بالمذهب الذى ارتضته الاقلية ٠

ولكن هذا الصلح لم يضع حدا لهذا الانقسام ، فقامت الحرب من جديد فى اكتوبر عام ١٥٣١ ،وقتل زونجلى فى معركة كابل التى انتصر فيها الكاثوليك وكان من نتائج هذه المعركة ان فقدت مقاطعة زيورخ بمصرع زونجلى زعامتها للحركة الاصلاحية فى سويسرة ،واصبحت المقاطعة مهددة بالغزو من جيش المقاطعات الكاثوليكية ،ولكن تغلبت على الجميع روح الحكمة وعقد صلح كابل فى ٢٠ نوفبمر ١٥٣١، ويعرف هذا الصلح باسم صلح كابل الثانى٠ وقد تم عقد هذا الصلح بين زيورخ ومقاطعات الغابات

الخمس The Five Forest Cantons (اى الولايات التى كانيتألف منها الاتحاد المسيحى وهى اورى Uri ، وشفيتس Schwys ، وانتر فالدن Unter Valdin وزوج Zug ولوسرن Lucerne واتفق على مايلى:

١ — سمح للولايات الخمس بالابقاء على عقيدتها المسيحية ، كما سمح لمدنية زيورخ بالابقاء على المذهب البروتستانتى .

٢ — تعهد الطرفان بالتخلى عن المعاهدات التى وقعاها مع الدول الاجنبية .

٣ — اجبرت الولايات البروتستنتية على الغاء التحالفات المسيحية المدنية ودفع نفقات الحرب وتعويضاتها .

وقد قام هذا الصلح على المبدأ القائل بحق كل اقليم أومقاطعة فى اختيار مذهبها الدينى ، ولذلك يعتبر هذا الصلح مثالا احتذته الامبراطورية الرومانية المقدسة بعد ربع قرن من الزمن حين عقدت صلح اوجزبرج عام ١٥٥٥ لتسوية المشكلة الدينية التى كانت تتفاقم يوما بعد يوم بين الولايات البروتستانتية والولايات الكاثوليكية فى المانيا .

وبوفاة زونجلى وبعقد معاهدة كابل الثانية فقدت الحركة البروتستنتية السويسرية الروح العسكرية التى اعتمدت عليها . وتحت زعامة انريك بولينجر Heinrich Bullinger (١٥٠٤—١٥٧٥) — وهو روج ابنه زونجلى وخليفته — لم تعد زيورخ مركز التجمع البروتستنت السويسريين ، بل أخذت برن وجنيف تظهران بالتدريج كالمراكز الرئيسية للحركة البروتستنتية .

جون كلفن John Calvin (١٥٠٩ — ١٥٦٤) وانتشار الكلفينية فى فرنسا وجنيف :

بينما انتشرت اللوثرية بدرجة كبيرة على المانيا والدول الاسكندنافية حيث ضعفت قوتها المحركة — اصبحت الكلفينية ، التى تطورت فى سويسرا

الانسانية التى انتشرت فى باريس بتشجيع من الملك فرنسيس الاول واستمر فى دراسة اللغتين اليونانية والعبرية ونشر على نفقته الخاصة تعليقه على رسالة سينكا الفيلسوف وكان بعنوان:

Commontary on Senecas Treatise on Clemency(1532)

(وسينكا هو احد الفلاسفة ورجال الدولة المشهورين فى عهد الامبراطور نيرو Nero) ولايوجد فى التعليق الذى نشره اى دليل عن اتجاهاته لبروتستنتية ، وعلى ذلك يمكننا القول بأن كلفن لم يظهر اى تعاطف نحو البروتستنتية قبل عام ١٥٣٣ ففى هذه السنة ارتبط ارتباطا وثيقا Gerard Roussel الذى سمح له فرنسيس الاول بعرض آرائه الخاصة عن الانجيل على جمهور فى اللوفر Louvre واتصل ايضا بجماعة الانسانية امثال Micholas Cop . ومنما طلب القبض على كوب بسبب هجومه على علماء السوربون الدينيين هرب الى بازل وكان الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت ان كلفن كان له اتصال بكتاب كوب (Cop) ولما طلب القبض عليه هرب هو الآخر الى سانتون Saintonge حيث زار جاك لوفيفر Jacques le Fevre احد المصلحين الانسانيين المسنين فى نيكار Necar عاصمة نافار الفرنسية ولكنه عاد بعد ذلك الى نويون .

وفى عام ١٥٣٤ عندما قامت حركة اضطهاد البروتستنت الفرنسيين هرب كلفن الى استرازبورج Strassburg عن طريق ميتز Metz واستقر نهائيا فى بازل . وفى هذه المدينة التى اصبحت مدينة بروتستنتية منذ عام ١٥٢٩ اتصل كلفن ببعض الشخصيات البروتستنتية المهمة من امثال Nalfgeng Capito احد الاساتذة الانسانيين، وانريك بولينجر خليفة زونجلى . وفى بازل عكف على دراسة اللغة العبرية وقام بنشر

وجنيف قوة عدوانية تغلغلت فى اجزاء كثيرة من غرب اوروبا والمانيا. وبدأ نمو هذه الحركة خلال الحقبة الاخيرة من حياة لوثر، واستمر نموها بقوة خلال الجزء الاخير من القرن السادس عشر، كما فعلت اللوثرية خلال النصف الاول من هذا القرن.

ولد جون كلفن فى ١٠ يوليو ١٥٠٩ فى نويون Noyon فى بيكاردى Picardy وهى تبعد ٦٠ ميلا فى الشمال الشرقى من مدينة باريس. وتولى والده GErard Calvin مناصب هامة فى نويون، وارسل ابناءه ومن بينهم جون الى المدرسة فى المدينة حيث ظهر اهتمام جون بالدراسات الدينية. وفى عام ١٥٢٣ عندما بلغ جون الرابعة عشرة من عمره ارسله والده الى جامعة باريس، وبعد اتمام دراسته ذهب الى السوربون Sorbonne حيث بدأ اهتمامه بالانجيل وبالدراسات الدينية. وبناء على رغبة والده ـ ونتيجة لظروفه المالية ـ ذهب جون فى عام ١٥٢٨ الى اورليانس Orleans حيث تحول الى دراسة القانون. وفى اورليانز بدأ جون يهتم بالحركة الانسانية. وفى ١٥٢٩ ذهب الى بورج Bourges لكى يحضر محاضرات احد اساتذة القانون الذى استخدم الطرق الانسانية فى تعليمه وكان لاقامته فى هذه المدينة اهمية بالغة اذ تعرف على العالم اليونانى الالمانى Melchior Wolmar الذى كانت له ميول لوثرية.

وفى عام ١٥٣١ عاد كلفن الى باريس، واثناء وجوده هناك علم بمرض والده الخطير، فذهب الى نويون ولكن مات والده بعد ذلك بقليل. وكان لقرار الحرمان الذى صدر ضد والده من الكنيسة بسبب الاضطرابات فى حسابات الكنيسة التى اشرف عليها والده ـ اثر كبير فى نفسه. وبعد وفاة والده لم يستمر كلفن فى دراسة القانون وبدأ يهتم بالدراسات

الطبعة الاولى من كتابه " تعاليم الدين المسيحى " Institutes of the Christian Religion فى مارس ١٥٣٦ . وهذا يتضمن احوال العقيدة الكلفينية ، واصول النظام الذى اراد كلفن انشاء الكنيسة الجديدة على اساسه .

ويبدو ان النصف الثانى من كتابه يعتمد الى حد ما على كتاب لوثر الاسر البابلى " The Babylonian Captivity . وفى الفصلين الاخيرين من الكتاب قام بهجوم شديد على الكاثوليكية . وطبع هذا الكتاب مرة ثانية ، وزيدت فصوله الى ١٧ فصلا ونشر باللغة اللاتينية فى استراسبورج فى عام ١٥٣٩ . وقام كلفن بأول ترجمة فرنسية لهذا الكتاب فى عام ١٥٤١ . وكان لنشر هذا الكتاب اثر هام وواضح ، اذ بدأ البروتستانت الفرنسيون يشعرون بوجود زعيم لهم قادر على ان يتحدث باسمهم .

واخيرا استقر به المقام فى جنيف حيث عمل على توطيد دعائم مذهبه الجديد ، وظل مقيما بها حتى توفى فى عام ١٥٦٤ . ويتلخص مذهب كلفن فى المبادىء الآتية :

١ — الكتاب المقدس وحده دون سواه هو المرجع الذى يعتمد عليه فى جميع المسائل الدينية .

٢ — السيد المسيح وحده هو الذى يشفع للناس لدى الله .

٣ — التبرير يكون بالايمان وليس بالاعمال .

وقد اتفق مذهب كلفن مع مذهب لوثر فى هذه المبادىء الثلاثة .

٤ — الايمان بقضاء الله وقدره ، فالله سبحانه وتعالى قد كتب جميع الاعمال التى تصدر عن كل انسان من مولده حتى وفاته فلا سبيل الى تغييرها ويسمى هذا المبدأ القدرية .

٥ — الفصل بين الكنيسة والدولة فلا تتدخل الدولة فى شئون الكنيسة .

وكان كلفن يرى ان للكنيسة مهمة روحية ،وهى بذلك تختلف كل الاختلاف عن الحكومة التى لها مهمة علمانية اى غير دينية مباشرة . وتأسيسا على مبدأ الفصل بين الكنيسة والحكومة تكون الكنيسة مستقلة تحكم نفسها بنفسها وهى التى تقرر نظامها وقانونها وطقوسها ولاتكون الكنيسة فى ظل هذا النظام الكلفنى مؤسسة خاصة برجال الدين دون سواهم، بل هى مؤسسة الجميع انها الجمهورية المسيحية ،يشترك العلمانيون مع رجال الدين فى ادارة شئون الكنيسة . والشعب هو الذى يختار القسس وقد قسم كلفن مهام الكنيسة ورجال حكومتها بحيث ضمنت العلمانيين ورجال الدين معا على النحو الاتى :

أ - الوعظ والارشاد ويقوم به القسس .

ب - تفسير الكتاب المقدس ويعهد به الى كبار العلماء من رجال الدين واطلق عليهم الدكاترة .

ج - مراقبة الجوانب الخلقية فى حياة الافراد ويقوم بها علمانيون .

د - رعاية الفقراء ،يقوم بها علمانيون ايضا .

٦- ان وجود الحكومة العلمانية امر لا مناص منه فى المجتمع المسيحى للذود عن تعاليم الدين الصحيح .ولم يكن كلفن يهتم كثيرا بالشكل الدستورى الذى تأخذه الحكومة العلمانية ، فسواء عنده اذا كانت هذه الحكومة جمهورية اوملكية ،ديمقراطية او استبدادية طالما كانت تحقق الاهداف التى من اجلها قامت . وفى مقدمة هذه الاهداف الاهتمام بالدين وغرس مبادئه فى نفوس الافراد . وقرر كلفن انه واجب المسيحى هو الخضوع التام للحكومة الزمنية طالما كانت هذه الحكومة ملتزمة بحدود الدين. وكان معنى هذا الشرط انه اذا حادت الحكومة العلمانية عن الحق وخرجت على اوامر الدين كان من حق رعاياها ان يثوروا عليها

وهذا ما حدث فعلا عندما نظم اتباع كلفن مقاومة عنيفة فى فرنسا وفى الاراضى المنخفضة ضد الحكومة فى كل من هذين الاقليمين .

ولقد اتيحت الفرصة لان توضع تعاليم كلفن موضع التنفيذ لاول مرة فى جنيف ، وذلك عندما طلب وليم فارل Farel وهو احد دعاة الاصلاح بهذه المدينة من كلفن ان يعاونه فى تنظيم الكنيسة بها ، فاستقر كلفن بجنيف فى اواخر عام ١٥٣٦ ، ولكن سرعان ما صار الناس ينفرون من كلفن وفارل وينفضون من حولهما بسبب شدة او صرامة نظام الكنيسة التى اراد كلفن تأسيسها ، وعنف التعاليم التى اراد تطبيقها . فاضطر كل من كلفن وفارل الى مغادرة جنيف عام ١٥٣٨ ، ولكن لم يلبث ان عاد كلفن الى جنيف عام ١٥٤١ بسبب استدعاء شعبها له ، فبقى بها حتى مات كما ذكرنا قبل ذلك .

والسنوات الاخيرة من حياة كلفن لا تتصل اتصالا وثيقا بمدينة جنيف ، فقد امتد نشاطه ليشمل حركة الاصلاح الدينى فى اتساعها وشمولها شتى انحاء اوروبا . واصبح كلفن هو القوة الموجهة لحركة الاصلاح الدينى فى فرنسا والاراضى المنخفضة وانجلترا واسكتلندا وبولندا . وفى خلال السنوات الاخيرة التحق به رجل يصغره بعشر سنوات هو تيودور دى بز de Beze كان قد نزح الى جنيف عام ١٥٤٨ واصبح الساعد الايمن لكلفن ، وكان اول رئيس للاكاديمية التى نجح كلفن فى انشائها عام ١٥٥٩ وسيقوم هذا الرجل بدور بارز فى صفوف بروتستانت فرنسا (١٥١٩-١٦٠٥)

وكانت الكلفينية بسبب شدة وصرامة تعاليمها ، وبسبب كفاحها ضد مخالفيها وبفضل النظام الدقيق الذى وضعه كلفن لكنيستها ، منبع القوة الدينية التى استطاعت ان تصمد فى النضال الطويل ضد الكاثوليكية بعد ان انتعشت كنيسة روما . وقد حقق اتباع كلفن النصر فى حرب

الهوجونوت فى انحاء شتى من الاقاليم الفرنسية ،وهم الذين أنشـأوا الكنيسة البروتستنتية فى فرنسا ،وهم الذين انترعوا بكفاحهم المرير استقلال هولندا من اسبانيا وامتداثرهم الى انجلترا واسكتلندا ، واخذت المقاطعات البروتستنتية فى سويسرة الشرقية بالحركة الكلفينية وجاب اتباع المذهب الكلفينى البحار والمحيطات فقاموا برحلات الى شمالى امريكا وجنوبى افريقيا حيث آسسوا المستعمرات ،وبرز أثرهم فى الاقاليم الشرقية الساحلية فى امريكا الشمالية منذ قامت السفينة ماى فلور My Flower برحلتها المشهورة عام ١٦٢٠ حاملة المضطهدين من البيوريتان على عهد جيمس الاول ملك انجلترا (١٦٠٣ — ١٦٢٥) واسسوا الاقليم الذى عرف باسم انجلترا الجديدة New England وكانت الحركة الكلفينية ايضا مصدرا استقى منه الفقه البروتستنتى مبادىء واضحة محددة تحديدا دقيقا .

الفصل السابع

حركة الاصلاح الكاثوليكى او الاصلاح الدينى المضاد
The Counter-Reformation (La Contre-Reforme)

حققت البروتستنتية مكاسب كبرى واكتسحت امامها الكاثوليكية ،فان ثلاثة ارباع المانيا قد نبذت ولاءها لكنيسة روما ،وقطعت انجلترا علاقاتها التى كانت تربطها بروما ،واعتنقت الدانمرك والسويد والنرويج الحركة اللوثرية وانتقلت حركة الاصلاح الدينى الى فرنسا وهولندا ، واجتذبت الآراء الجديدة جموعا غفيرة من سكان بولندا وبوهيميا ،ولم يقف الامر عند هذا الحد ، فان شبه الجزيرة الايطالية لم تخل من انصار يؤيدون البروتستانتية قلبا وقالبا . وفى خلال عشرين سنة كان نصف العالم المسيحى فى اوروبا الغربية قد خرج على كنيسة روما ونبذ ولاءه للبابا .

ولما استفاق الكاثوليك على الحقيقة التى كانت مروعة بالنسبة لهم ، وهى انتشار البروتستنتية فى اوروبا طولا وعرضا ، ادركوا انه لم يعد فى الامكان تأجيل اصلاح الكنيسة الكاثوليكية الذى طالما تنادى اليه المصلحون قبل ظهور مارتن لوثر ومن بعده واتخذت البابوية منذ حوالى منتصف القرن السادس عشر اجراءات عملية لاصلاح الكنيسة ،وكان هذا الاصلاح هو رد فعل لحركة الاصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر وغيره من المصلحين، ولذلك يطلق على حركة الاصلاح الكاثوليكى عبارة الاصلاح الدينى المضاد ، اوالثورة الدينية المضادة فى القرن السادس عشر وتطلق عليها المراجع الانجليزية (Roman Catholic Reaction)

كان الاصلاح الدينى المضاد يختلف اختلافا تاما من الاصلاح الدينى الذى بدأ فى المانيا على يد لوثر ثم انتشر الى اصقاع اخرى فى اوروبا

لقد كان الاصلاح الاخير حركة ثورية تناولت اساس العقيدة ونظم الكنيسة وطقوسها . اما الاصلاح الدينى المضاد فكان يهدف الى تطهير الكنيسة الكاثوليكية مما لحق بها من ضروب الفساد فى انظمتها وسلوك رجالها على ان يمتد الاصلاح فيشمل البابا ومن دونه من جميع فئات رجال الدين او حسب التعبير الذى تردد على السنة دعاة الاصلاح فى ذلك العصر الرأس والاعضاء . وكان هناك اجماع فى الاوساط الكاثوليكية على ان المجتمع الكنسى ينضح بهذه الصورة المعتمة من الانحلال والفساد ، وكانت هذه الاوساط ترى اصلاح الكنيسة عن طريق القضاء على هذه المساوئ ابتغاء الابقاء على وحدة الكنيسة واسترداد مواقعها التى فقدتها واستعادة المكانة السامية التى تبوأتها البابوية فى العصور الوسطى ، ولكنها كانت حريصة على الا يؤدى الاصلاح المنشود الى اضعاف سلطة الكنيسة أو المساس بشخص البابا ، فهو نائب المسيح على الارض وخليفة القديس بطرس فلم يكن هدف حركة الاصلاح الدينى المضاد هدفا ثوريا هو الاطاحة بالكنيسة والبابوية ، اذ كانت حركة اتسمت بالطابع المحافظ الذى يحرص على ابقاء القديم على قدمه مع الاهتمام باصلاح النظم الكنسية وتجنب ادخال تغييرات اساسية فى العقيدة . وهكذا كانت نظرة الكاثوليك الى اصلاح كنيستهم : العمل على ايجاد ادارة امينة مخلصة على درجة عالية من الكفاية والنزاهة والالتصاق بالدين .

لجأت البابوية فى سبيل انهاض الكنيسة الى وسائل مشروعة ووسائل غير مشروعة ، فمن الوسائل المشروعة عقد المجمع المسكونى لتحديد وتعريف العقيدة الكاثوليكية وتطوير نظم الكنيسة للقضاء على المساوئ والمفاسد التى لوثت سمعتها وكانت الوسيلة الثانية اصلاح المنظمات الدينية بعد ان لحقها التدهور وانشاء هيئات دينية جديدة لدعم

نفوذ البابوية والتمكين للمذهب الكاثوليكي بالوعظ والارشاد والتعليم وكان على رأس هذه المؤسسات جماعة اليسوعيين او الجزويت . أما الوسائل غير المشروعة فكان من بينها الفهرس وهو عبارة عن سجل يحوي اسماء الكتب والرسائل والمنشورات التي تعتبرها البابوية خروجا على المذهب الكاثوليكي، ولم تقنع البابوية خروجا على المذهب الكاثوليكي ولم تقنع البابوية بتحريم تداولها بين الجماهير بل عملت على احراقها ويعتبر هذا الاجراء بشقيه حجرا على حرية الرأي والنشر والنقد. ولجأت البابوية ايضا الى محاكم التفتيش التي كانت اداة تقتيل وسوط وتنكيل بالخارجين على كنيسة روما .

١ - مجمع ترنت :

كان من مظاهر سياسة التراضي التي اتبعتها البابوية اول الامر ازالة الحركة اللوثرية ان البابا كلمنت السابع (١٥٢٣-١٥٣٤)- وهو من اسرة ميدتشي - هادن الحركة اللوثرية بسبب العداوة الشديدة التي اضطرمت بينه وبين الامبراطور شارل الخامس . ولما توفي هذا البابا في عام ١٥٣٤ انتخب مكانه اسكندر فارنيس Farnese واتخذ لنفسه اسم البابا بول الثالث (١٥٣٤-١٥٤٩) وكان دبلوماسيا ذا دهاء وله دراية واسعة بادارة الكنائس واعمال الديوان البابوي مدة ناهزت الاربعين عاما .

وباعتلائه كرسي البابوية ينتهي عهد بابوات النهضة ويبدأ عهد آخر تعاقب فيه عدد من البابوات عكف معظمهم على اصلاح الكنيسة والدفاع عن الكاثوليكية ومهاجمة البروتستنتية والكفاح ضد الاتراك العثمانيين بحيث لم ينته القرن السادس عشر حتى كان المد البروتستنتي قد توقف واستطاع معظم اولئك البابوات بما توفر لديهم من ادوات ووسائل ان ينقلوا نشاطهم الى ارض البروتستانت وان يستعيدوا للكنيسة الكاثوليكية بعض

مواقع كانت قد فقدتها .

وقد نبذ بول الثالث سياسة اسلافه باباوات النهضة وكرس وقته لاصلاح الكنيسة وعين عددا من الكرادلة الجدد عرف من ماضيهم بأنهم دعاة الاصلاح المخلصين ، وشكل لجنة ضمت صفوف من اعلام رجال الدين لاقتراح الاصلاحات المطلوبة ، واوفد في عام ١٥٣٥ الى المانيا مبعوثا ليعرض على الامبراطور شارل الخامس عقد مجمع مسكوني يدعى اليه ممثلون للبروتستانت فضلا عن الكاثوليك . وقد واجه البابا عدة صعاب في عقد هذا المجمع المسكوني ، كان في مقدمتها موقف كل من فرنسوا الاول ملك فرنسا وبروتستانت المانيا من هذا المجمع المقترح عقده ، ثم اختيار المدينة التي يعقد فيها المجمع جلساته . وفي عام ١٥٤٢ وقع الاختيار اخيرا على مدينة ترنت Trent ومع ذلك فان العداء الشديد بين الامبراطور شارل الخامس والملك فرنسوا الاول قد اخر اجتماع المجلس ، فلم يعقد جلسته الافتتاحية الا في ١٣ ديسمبر عام ١٥٤٥ ، واجتمع المجمع تحت رعاية البابا والامبراطور . ولم يحضر البابا جلسات المؤتمر على الرغم من تصريحاته المكررة بعزمه على الاشتراك فيه شخصيا ، وقد حضره نيابة عنه ثلاثة كرادلة ترأسوا جلساته .

وقد تعرض المجمع المسكوني لازمات عنيفة ، وتوقفت اعماله عدة مرات بلغت في احداها عشر سنوات واهتز مركزه اهتزازا شديدا وكادت تتبدد الآمال التي علقها عليه انصار البابوية ، مما جعل هذا المجمع من المجامع الفريدة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية فقد استمر ثمانية عشر عاما (١٣ ديسمبر ١٥٤٥ — ٤ ديسمبر ١٥٦٣) وعاصر خمسة باباوات تعاقبوا على كرسي البابوية في هذه الفترة .

وتنقسم قرارات المجمع الى مجموعتين : مجموعة تتعلق باصلاح نظام

الكنيسة ،ومجموعة تختص بتحديد العقيدة الكاثوليكية . وتتصل قرارات المجموعة الاولى بالبابا والكرادلة والاساقفة والقسس والرهبان ومن اليهم من طوائف السلم الكهنوتي وتنظيم حياتهم وتزويدهم بثقافات متخصصة . قرر المجمع ان سلطة البابا مستمدة من المسيح ،وتأسيسا على ذلك، يكون للبابا السلطة العليا في الكنيسة الكاثوليكية وقرر المجمع ان يكون الحد الادنى لسن الاسقف ثلاثين عاما ولسن القسيس خمسة وعشرين عاما ، وحرم زواج القسس وحتم على القسس والرهبان ان يتحلوا بالصلاح والتقوى وان يكونوا قدوة طيبة في اقوالهم وتصرفاتهم واسلوبهم في الحياة ، وجعل للاساقفة الحق في مراقبة سلوك القسس وتوقيع العقوبات عليهم اذا ارتكبوا ما يخل بقوانين الكنيسة او ما يتنافى مع الاداب العامة ، وحتم المجمع على الاساقفة ان يقيم كل منهم في مقر اسقفيته . وطبق هذا المبدأ على كافة رجال الدين على اختلاف درجاتهم وحرم الجمع بين عدد من الابرشيات ،في يد شخص واحد، وقرر استخدام اللغة اللاتينية في الصلاة وانشاء مدارس كانت بمثابة معاهد تدريب دينية يتلقى فيها رجال الدين ثقافة دينية واسعة ليكونوا على علم عميق بواجباتهم رفعا لمستواهم العلمي والخلقي .

اما قرارات المجموعة الثانية فانصبت على تحديد المذهب الكاثوليكي وتمييزه عن المذهب البروتستنتي تمييزا تاما . رفض المجمع عقيدة التبرير بالايمان التي نادى بها لوثر، كما رفض المجمع مذهب القدرية الذي اخذ به كلفن . ورفض ايضا ماكان يدعو اليه اتباع لوثر وكلفن من حيث الاعتماد على الكتاب المقدس وحده في تفسير العقيدة وغيرها من مسائل الفقه الديني. وقرر المجمع ان عقائد الكنيسة تستند اساسا الى الكتاب المقدس ثم الى التقاليد الكنسية القديمة ،وقرر ان النسخة

اللاتينية من الكتاب المقدس والتي تعرف باسم Vulgate هي النسخة الوحيدة المعتمدة . كما تعرض المجمع الى طائفة من المسائل تتصل بصميم العقيدة الكاثوليكية .

خرجت البابوية منتصرة من مجمع ترنت ، فقد جدد هذا المجمع تعاليمها ووطد نظامها وقضى على عدد من المساوئ التي استشرت في مجتمع الكنيسة الكاثوليكية ، وانهى المناقشات الفقهية الدينية التي كانت تثار من وقت الى آخر في اوساط الكاثوليك وتثير بينهم الضغائن واستعادوا ثقتهم بأنفسهم ودبت منذ ذلك الوقت روح من الحماس الدافق في اوساط الكاثوليك سواء رجال الدين او العلمانيين وعقدوا العزم على الكفاح في شتى صوره واشكاله ضد البروتستانت . وقد قضى المجمع على كل محاولة لحسم الخلاف المذهبي بين الكاثوليك والبروتستنت او التقريب بينهم اذ فصل المجمع فصلا حادا بين المذهبين ووضع حدا لمحاولات التوفيق واعادة الوحدة الى كنيسة روما . وتبعا لذلك فقد تعذر على المجمع اعادة البروتستانت الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، والواقع ان النيات لم تكن خالصة ، وكان كل من انصار المذهبين متمسكا بآرائه لا يبغي عنها حولا ، وقد كانت للبابوية اغلبية عددية في المجمع وكان مندوبو البابا هم الذين يرأسون جلساته ونسقوا خططهم داخل اروقة المجمع وخارجه ولم يصدر قرارا الا بموافقتهم . وكثيرا ما احبطت مشروعات قرارات كانت تتعارض مع وجهات نظر البابا . والحق ان هذا المجمع قد اسدى خدمة جليلة لقضية الكاثوليك ولقد اعتمدت الكنيسة الكاثوليكية في نشر العقيدة الكاثوليكية الصريحة ومقاومة العقائد المصلحة الاخرى ، ومحاولة بسط سيطرة الكنيسة الكاثوليكية على اوروبا من جديد على الادوات الآتية :

جماعة الجزويت ، والفهرس ،ومحاكم التفتيش .

٢ — الجزويت (Jesuits) اواليسوعيون

كان من دلائل انتعاش الكاثوليكية نشاط الطوائف ، او الجماعات الدينية القديمة مثل الفرنسسكان، والدومنيكان، ثم ظهور غير هذه من الطوائف والاحزاب الدينية الجديدة ،وكان الجزويت او اليسوعيون اهم هذه الجماعات الجديدة ذات الاثر البعيد فى المحافظة على كيان الكنيسة .ولقد نشأت حركة الجزويت فى اسبانيا ، وهى بلاد عرفت بأنها بلاد الرهبان. ومن بين الشعب الاسبانى المتعصب لكاثوليكيته ظهر رجل تكمن فى نفسه روح صليبية عارمة انشأ جماعة اليسوعيين او الجزويت ويسمى دون انيجو لوبيز دى ركالدى Don Inigo Lopez de Recalde وقد اشتهر فى التاريخ باسم اجناتيوس ليولا Ignatius Loyola (١٤٩١–١٥٥٦).

ولد ليولا من اسرة شريفة اسبانية ، واشتغل فى مطلع حياته فى بلاط الملك فرديناند الكاثوليكى صاحب اجرونه ، ثم التحق بخدمة الجيش الاسبانى على عهد الامبراطور شارل الخامس ،وجرح فى احدى المعارك فى عام ١٥٢١، فأجبره هذا الجرح الذى قضى عليه بالعرج طول حياته على الاعتكاف مدة قرأ خلالها كتب حياة او سيرة القديسين حتى اذا شفى من جرحه فى السنة التالية (١٥٢٢) عزم على ان يكرس حياته لخدمة السيد المسيح والسيدة مريم العذراء. ثم حج الى بيت المقدس عام ١٥٢٤ وتوفر فى السنوات التالية على التزود من العلم والثقافة. فدرس فى جامعات برشلونة والكالا ثم التحق فى عام ١٥٢٨ بجامعة باريس ،وقضى فيها سبع سنوات درس خلالها الفلسفة وعلم اللاهوت وحصل على درجة الدكتوراه فى عام ١٥٢٤. وكان ليولا قد بدأ يفكر فى تأسيس جماعته المعروفة منذ ان

اعتزم الحج الى بيت المقدس وكان غرضه الظاهر استخدام هذه الجماعة في انتزاع بيت المقدس من ايدي المسلمين . وفي باريس جمع ليولا الاعوان حوله . وفي اغسطس ١٥٢٤ تألفت نهائيا الجماعة الجديدة وكان عدد اعضاؤها وقت تأسيسها سبعة فقط ، اما مبادؤهم فكانت الطهر والعفاف ، ونبذ الثروة والعيش في فقر . وتعهد الاعضاء بمجرد الفراغ من دراستهم بأن يرحلوا الى بيت المقدس في خدمة السيد المسيح ، فاذا تعذر ذلك عليهم قدموا انفسهم لخدمة البابا على اساس الطاعة التامة لجميع اوامره ونواهيه . وعلى ذلك فانه عندما تعذر على الجماعة ان تحج الى بيت المقدس بسبب الحرب الدائرة مع العثمانيين ، عرض ليولا خدماته وخدمات جماعته على البابا على اعتبار ان المسيحية مهددة بسبب انتشار المذاهب البروتستنتية الجديدة باخطار اقرب في اثارها المباشرة على الكنيسة من خطر العثمانيين . وكان مجيء ليولا الى روما في اكتوبر ١٥٢٩ وذلك في وقت كانت مشروعات البابا بول الثالث الاصلاحية تنبيء بتغيير ظاهر في موقف الكنيسة التي صارت تريد الآن الاصلاح جديا مادام هذا الاصلاح لا ينال شيئا من نفوذ وسلطان البابوات انفسهم . وعلى ذلك فقد رحب البابا به وباخوانه ، واجاز لهم الخطابة والوعظ والدعوة للارشاد في روما وفي ٢٧ ستمبر ١٥٤٠ اصدر البابا بول الثالث مرسوما بابويا بالموافقة على جماعة الجزويت وعلى نظامها . وكان من خصائص هذا النظام الطاعة والولاء للبابا وتكريس حياة افراد الجماعة لخدمة الكنيسة وفي آي مكان يطلب منهم ذلك ، ثم الطاعة والولاء كذلك لقائدهم الاعلى ، والخضوع لنظام الحزب . وعلى ذلك صار لقائد الجزويت الاعلى حسب هذا النظام السلطة التامة على بقية الاعضاء ، وعلى ان يستمع في المسائل الهامة الى رأى مجلس يتألف من اكبر عدد مستطاع من الاعضاء قبل الفصل فيها ، وفي ابريل عام

١٥٤١ انتخب اجناتيوس ليولا رئيسا للجماعة ،ولقد بقى ليولا فى قيادة الجماعة حتى وفاته فى ٣١ يوليو ١٥٥٦.

ولقد تنوعت طرق الجزويت فى محاربة البروتستنتية . كان بعضهم يشتغل بالسياسة لخدمة البابوية ،فكان منهم مستشارون ووزراء ذوو نفوذ. على ان اكبر ميدان اصابوا فيه نجاحا رائعا كان ميدان التربية والتعليم. رأى اجناتيوس ليولا ان البروتستنت اعتمدوا فى مهاجمة كنيسة روما على دعامتين كبيرتين هما جهل رجال الدين الكاثوليك وفسادهم. ولهذا وضع خطته على اساس معالجة هذين الداءين بالتعليم السليم المتزن بين اعضاء الجزويت ،ثم رأى ان يمد جهوده التعليمية خارج هذا النطاق المحدود رغبة اعداد اجيال من الشباب الكاثوليكى يجمعون الى الثقافة الدينية كفاية عملية تأكيدا للصلة بين الدين والحياة وربطا بين العقيدة والسلوك. وقد جاءت خطط التعليم ومناهج الدراسة التى وضعها الجزويت بحيث تحقق للطالب ثقافة دينية عميقة وواعية الى جانب ثقافة مهنية تؤهله للمشاركة فى انواع النشاط والزيادة والقدوة الطيبة. ولذلك كانت مدارس الجزويت من انجح المدارس التى شهدتها اوروبا ، اذ امتازت بادارتها الحازمة ونظمها التعليمية ،وقد تفانى مدرسوها فى مهنة التدريس حتى فاقوا علماء النهضة الذين كانوا وقتئذ يحتكرون العلم.

وكان من اثر جهودهم ان انتعشت الكنيسة الكاثوليكية وثبتت سيادتها فى اوروبا وانتشر المذهب الكاثوليكى فى انحاء نائية من العالم مثل بعض جهات فى امريكا والشرق الاقصى ، كما نجحوا فى وقف تيار البروتستنتية بدرجة كبيرة فى كل من فرنسا وبولندا واملاك الهابسبرج ، ونجحوا كذلك فى القضاء على البروتستنتية عموما فى ايطاليا واسبانيا ،فبقيت كل منهما خاضعة للكنيسة الكاثوليكية .

٣ - الكتالوج او الفهرس (Index) :

كان منع تسرب الافكار الدينية الحديثة الى الكاثوليك من أولى الوسائل غير المشروعة التى اتخذتها البابوية لدعم كنيسة روما. وقد اثيرت هذه المسألة امام المجمع المسكونى العام المنعقد فى مدينة ترنت وقد اتخذت مناقشات الاعضاء اتجاها معينا هو بحث التدابير التى تؤدى الى منع تداول الكتب التى تتعارض مع المذهب الكاثوليكى او التى ترمى الى تغيير القوانين الكنسية او التشكك فيها. وقد اطلق عليها اسم الكتب المهرطقة ومعناها الكتب التى تحمل بين طياتها كفرا وزندقة. ولم يتخذ المجمع المسكونى قرارا محددا فى هذا الموضوع، بل احاله الى البابا يتصرف فيه بما يتمشى مع المبادىء الكاثوليكية التى اقرها المجمع. ولكن افصح المجمع فى نفس الوقت عن رغبته فى وضع كتالوج او فهرس يضم اسماء جميع الكتب التى تحرم قراءتها على جميع الكاثوليك.

ولم تغب هذه المسألة عن اذهان رجال الكنيسة فى روما فقد كان الباباوات فى اواخر القرن الخامس عشر يفرضون العقوبات على المؤلفين واصحاب دور الطباعة والنشر وكل من يضبط حائزا لكتاب من هذا القبيل. ومنذ عام ١٥١٥ فرضت البابوية رقابة كاملة على جميع المطبوعات المتداولة فى روما والولايات البابوية، ثم تكلفت بهذه الرقابة محاكم التفتيش منذ عام ١٥٤٢، واصبحت الرقابة صارمة بكل ما تحمل هذه اللفظة من معان. كما ضمت ايضا مؤلفات ميكيافيللى وارزمس وكان المعنى المستفاد من اندراج الكتب فى الفهرس او الكتالوج هو وجوب احراق هذه الكتب.

وفى اثناء الفترة التى توقفت فيها جلسات مجمع ترنت وامتدت عشر

سنوات (١٥٥٢-١٥٦٢) وضع البابا بول الرابع سنة ١٥٥٩ كتالوجا اوفهرسا اسمه Index Libroium Prohibitiun اى فهرس الكتب المحرمة ، ضم اسماء الكتب التى تحرم قراءتها او تداولها بين جميع الكاثوليك وانذار البابا كل فرد يضبط لديه كتاب منها بقرار الحرمان يصدر ضده تأسيسا على انه ارتكب خطيئة كبيرة ،وكان من ضمن الكتب التى ادرجت فى هذا الكتالوج رسائل مارتن لوثر وزونجلى وكلفن وغيرهم من قادة حركة الاصلاح الدينى. ولقد نقد مجلس ترنت هذا الفهرس لقصوره بنقص محتوياته وعلى ذلك فقد اعد فهرس جديد فى عام ١٥٦٤ ثم تكررت مراجعة هذا الفهرس مرات متعددة حتى عام ١٥٩٦ واستمر معمولا بهذا الفهرس الاخير مع بعض اضافات عليه من وقت لآخر الى اواسط القرن الثامن عشر .

وكان لنشر هذه الفهارس آثار ظهرت على وجه الخصوص بين الامم الكاثوليكية قوية - فى اسبانيا والبرتغال ، وبافاريا ، وايطاليا وبلجيكا وحالت من الاطلاع على ثقافة وعلم الامم الشمالية البروتستنتية الامر الذى قد عطل تقدم الحضارة ، لأن العمل بهذه الفهارس كان حائلا خطيرا دون انتشار العلم والمعرفة . وكان الفهرس من بين الوسائل التى اعتمدت عليها ادارة الكنيسة والاخرى هى محاكم التفتيش فى تعقب الخارجين على الكاثوليك واضطهادهم .

٤ - محاكم التفتيش Inqusition

كانت الوسيلة الاخرى غير المشروعة التى لجأت اليها كنيسة روما فى حركة الاصلاح الدينى المضاد هى محاكم التفتيش وتخويلها سلطات واسعة فى تعقب المخالفين للمذهب الكاثوليكى والتنكيل بهم بعد تعريضهم لاقصى انواع التعذيب واهدار آدميتهم اعتقادا منها ان هذا التنكيل سوف يؤدى الى القضاء قضاء تاما على المذاهب الدينية الخارجة عليها .

ولم تكن محاكم التفتيش بدعة استحدثتها البابوية في القرن السادس عشر في كفاحها ضد البروتستنت وغيرهم ،فهي نظام قديم استعانت به في العصور الوسطى للقضاء على الحركات الدينية التي خرجت على تعاليم كنيسة روما. واستخدمها البابا انوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) كوسيلة من الوسائل التي اعتمد عليها في سحق حركة الالبيجانس (نسبة الى مدينة البي Albi بفرنسا) في جنوبي فرنسا في مطلع القرن الثالث عشر. وفي بداية العصور الحديثة شهدت اسبانيا بعث محاكم التفتيش للقضاء اولا على اليهود ، اذ كان الاسبانيون يمقتونهم مقتا شديدا ،وكانوا يقومون من وقت الى آخر بمذابح جماعية لليهود. كما لقي المسلمون اقسى صنوف الاضطهاد في اسبانيا ، فبعد سقوط غرناطة في ١٤٩٢، تعرضت البقية الباقية من المسلمين الذين ظلوا في البلاد لاقسى صنوف الاضطهاد ،ثم صدرت الاوامر باحالتهم الى محاكم التفتيش لحسم مشكلتهم. وبعد ان عقد زواج فرديناند حاكم اراجونه على ايزابيلا حاكمة قشتالة عام ١٤٦٩ وتم توحيد التاجين طلبا من البابا في ذلك الوقت الاذن لهما في ادخال نظام محاكم التفتيش في بلادهما لمكافحة المسلمين واليهود في شبه جزيرة ايبيريا ولقد لقي هذا الطلب استجابة فورية من البابا في نوفمبر ١٤٧٧.

وفي القرن السادس عشر حين استفحل امر الحركات الدينية الانفصالية عن كنيسة روما رأى البابا بول الثالث ان يتخذ من محاكم التفتيش سلاحا فتاكا لوأد هذه الحركات فأصدر في عام ١٥٤٢ مرسوما بانشاء محاكم التفتيش. وكان المرسوم البابوي يقول ان اعمال المجمع المسكوني تتعثر بينما تزداد موجة الهرطقة يوما بعد يوم ، ويستفحل خطرها ولذلك بات الموقف يتطلب اجراءات معينة وكان من بين هذه الاجراءات تعيين ستة من الكرادلة خولهم المرسوم سلطات واسعة بصفتهم وكلاء أو مندوبين للبابا في جميع انحاء اوروبا الكاثوليكية بما فيها شبه الجزيرة

الايطالية نفسها وما وراءجبال الالب وجعل المرسوم منهم ايضا اعضاء في محاكم التفتيش لهم الحق في محاكمة المتهمين بالهرطقة وكذلك الافراد الذين يساندونهم . ولهم الحق في ايداعهم السجون قبل محاكمتهم ، واذ ثبتت التهمة عليهم صدرت بحقهم الاحكام بتوقيع العقوبات المقررة في القانون الكنسي ومصادرة ممتلكاتهم .

ولقد لقيت محاكم التفتيش دفعة قوية على عهد البابا بول الرابع ونظر اليها على انها وسيلة فعالة يجتث بها بذور الديانات والمذاهب التي تتعارض مع المذهب الكاثوليكي . وكانت هذه المحاكم ذات طابع ديني بحيث تستمد سلطانها من البابا مباشرة وكان قضاتها من الكرادلة المعروفين بتعصبهم الشديد للمذهب الكاثوليكي ،ولم يكن للحكومات دخل في اعمال المحاكم الا في قيامها بتنفيذ الاحكام الصادرة عنها .

وكان نجاح محاكم التفتيش نجاحا هزيلا ، فهي لم تنجح نجاحا تاما في القضاء على المذاهب المخالفة للكاثوليكية الا في ايطاليا واسبانيا وكان هذان الاقليمان اقل البلاد تقبلا للمذاهب الجديدة ولذلك كان اتباع هذه المذاهب من قلة العدد بحيث كان تأثيرهم ضعيفا جدا في المجتمعات الايطالية والاسبانية ، وفيما عدا ذلك فقد اثارت محاكم التفتيش باجراءاتها الشاذة واحكامها القاسية مزيدا من الضغائن والعداوة في نفوس البروتستانت في شمالي اوربا وفي غربيها وجعلتهم يصرون على الابتعاد عن كنيسة روما ومقاومة المحاولات التي كانت تبذل لارجاعهم الى حظيرة الكاثوليكية . ولذلك يقرر معظم المؤرخين ان جهود جمعية الجزويت وقرارات مجمع ترنت هي التي اسهمت الى حد كبير في النجاح الذي حققته حركة دعم الكنيسة الكاثوليكية في نهاية القرن السادس عشر . اما محاكم التفتيش فلم يكن لها ادنى

اثر فى هذا النجاح وفضلا عن ذلك فقد استخدمت محاكم التفتيش اداة سياسية لتأييد مصالح الملكية كما حدث فى اسبانيا، وفى هذا خروج على اهدافها التى من اجلها انشئت • كما ان النشاط الزائد الذى بذلته فى الاراضى المنخفضة ادى الى انفجار الثورة وضياع هولندا من يد اسبانيا • واخيرا فقد أساءت محاكم التفتيش الى الكنيسة الكاثوليكية التى استخدمت هذه المحاكم حينا، وحينا آخر استجابت لرغبات الملوك فى الاذن لهم باستخدامها كأداة للعسف والظلم والقمع والاخذ بوسائل التعذيب مجانبة للعدالة •

الفصل الثامن

عهد الصراع الديني في اوروبا

أوجد ظهور المصلحين الذينما كانوا يحجمون عن المقاومة ويدافعون بكل الطرق عن عقائدهم، ويعملون على نشرها، قوتين ظاهرتين كانتا على اكمل مايكون من ضروب التنظيم والاستعداد للدخول في كفاح طويل من اجل العقيدة. كانت احدى هاتين القوتين بروتستنتية كلفينية ومقرها في جنيف، والاخرى كاثوليكية ومقرها روما، وسرعان ما ادى ظهور هاتين القوتين المنظمتين الى الزج بأوروبا في حروب دينية عنيفة استمرت من اواسط القرن السادس عشر الى الثلث الاول من القرن السابع عشر تقريبا. ولقد زاد من شدة هذا النضال ونشوبه ان الدولة الوطنية الحديثة كانت تخشى من ان تؤدي الاختلافات الدينية الى انقسامات داخلية سياسية، فتتعرض وحدتها الى الزوال.

ولم تشتبك الكاثوليكية والكلفينية في هذا العهد في نضال صريح بين كنيستين متخاصمتين، احداهما منتعشة وهي الكاثوليكية، والاخرى مهاجمة وعنيفة وهي الكلفينية بل ان هذا النضال كان يقع تحت ستار رغبة الدولة الوطنية الحديثة، في ان تجتمع لديها اسباب السلطة الكاملة، او انه كان يقع تحت ستار رغبة هذه الدولة ذاتها في تحقيق اغراضها الوطنية، او محاولة المحافظة على التوازن الدولي في اوروبا ولذلك فقد اندمج النضال الديني بالنضال السياسي في هذه الفترة واستمر الحال على ذلك الى ان استطاع ان يتحرر هذا الصراع تدريجيا، اثناء حروب الثلاثين سنة في الثلث الاول من القرن السابع عشر من الاعتبارات الدينية وعندئذ اصبح صراعا سياسيا توجهه اغراض الدول، من وطنية وقومية في الداخل والخارج على السواء.

١ - الحروب الدينية فى فرنسا :

لم تكن فرنسا فى معزل عن حركة الاصلاح الدينى ففى عهد فرنسوا الاول (١٥١٥-١٥٤٧) بدأت المذاهب الدينية الجديدة وخصوصا اللوثرية تنتشر فى فرنسا ومع ان فرنسوا شجع هذه الحركة فى بادىء الامر فانه بعد عام ١٥٢٨ صار يضطهد البروتستنت فى فرنسا اضطهادا شديدا ولكن البروتستنتية سرعان ما تحولت الى حركة منظمة ذات عقيدة وبرنامج واضحين منذ عام ١٥٣٥ تقريبا ، أى منذ الوقت الذى رفع فيه جون كلفن رسالته المشهورة الى الملك فرنسوا الاول ، ونشر كتابه عن (تعاليم الدين المسيحى) ، فقد لقيت كتابات هذا الفرنسى آذانا صاغية من مواطنيه الفرنسيين • وانضم الى البروتستنتية عدد من الاشراف ومن الطبقات المتوسطة الغنية ومن ذلك الحين بدأ عهد جديد فى تاريخ البروتستنت الكلفينية فى فرنسا •

وفى عهد هنرى الثانى (١٥٤٧-١٥٥٩) تأسست اول كنيسة كلفينية فى مارس عام ١٥٥٥ ثم تلى ذلك تأسيس غيرها من الكنائس • وفى عام ١٥٥٨ بلغ عدد الاماكن المخصصة لعبادة البروتستنت ٢٠٠ تقريبا وعدد المتعبدين بها حوالى ٤٠٠٫٠٠٠ نسمة وكان اهم زعمائهم انطوان بربون ملك نافار ثم اخوه الاصغر امير كونديه Conde وهما يمتان بصلة قرابة للاسرة المالكة اسرة فالوا • ومن الاسر العريقة كان الاميرال جاسبار دى كولينى Gouspard de Coligny • ولكن الخوف من حدوث الثورات الدينية الداخلية نتيجة لحدوث الانقسام الدينى ، ثم الخوف من النجاح الذى احرزته اللوثرية فى المانيا ، لم يلبث هذا كله ان ادى الى اتفاق سرى بين فرنسا واسبانيا للقضاء على الهرطقة • وعندما توفى هنرى الثانى فى عام ١٥٥٩ وخلفه ابنه فرنسوا الثانى (١٥٥٩-١٥٦٠)

بدأ الانقسام الذى كان يخشاه الملك المتوفى .

وقبل ان نتتبع الصراع الدينى العنيف الذى استمر خلال النصف الثانى من القرن السادس عشر، يجدربنا ان نعرف شيئا عن بعض الشخصيات والاحزاب التى ظهرت فى هذه الفترة وأثرت بدرجة كبيرة فى هذا الصراع وتنحصر هذه الشخصيات والاحزاب فيما يلى :

أ ـ كاترين دى ميدتشى Catherine de Medici ،زوجة هنرى الثانى وأم أبنائه الثلاثة الذين تولوا العرش بعده بالتعاقب وكان ابناؤها الثلاثة العوبة فى يدها (كاترين) التى مارست بعد وفاة زوجها نفوذا كبيرا فى فرنسا عن طريق هؤلاء الابناء .وكانت تحاول تحقيق اغراضها وسياستها بكل وسيلة مهما كانت صورتها .

ب ـ آل جيز Guise ، من الاسر العريقة الكاثوليكية فى فرنسا وكانوا يمتون بصلة القربى لملكة اسكتلنده مارى استيوارت زوجة فرنسيس الثانى. ومن ابرز شخصيات اسرة جيز فرانسيس وكان قائدا حربيا شقيقه شارل كاردينال اللورين، وكانوا من المتعصبين للمذهب الكاثوليكى ،وكانوا يهدفون الى تنصيب مارى استيوارت الكاثوليكية ملكة على انجلترا بدلا من اليزابيث البروتستنتية والتى كانوا يعتبرونها ملكة غير شرعية .

ج ـ النبلاء الفرنسيون: وقف النبلاء الفرنسيون فى وجه آل جيز ، وكان على رأسهم عائلة البربون Bourbons ، لانهم كانوا يكرهون تلك الاسرة . ولقد دفع هذا الموقف الكثيرين من النبلاء الفرنسيين الى احضان الهوجونوت ،(اى البروتستنت)وهو الاسم الذى كان يطلق على الكلفينيين رمزا للاحتقار . ونتيجة لذلك اكتسبت حركة الهوجونوت صفة ارستقراطية سياسية لاسيما بعد ان تحول انتونى

بربون Antony Bourbon كلفينيا بتأثير زوجته ،وكان زعيم البربون فى ذلك الوقت واقرب وريث للتاج الفرنسى بعد ابناء هنرى الثانى وعندما تولى فرنسيس الثانى العرش كان صغيرا ووقع تحت تأثير اسرة جيز ،وقبلت الملكة الواردة هذه السيطرة الامر الذى اغضب الاسرة البروتستنتية النبيلة .

تولى الملك شارل التاسع (١٥٦٠-١٥٧٤) العرش ولكنه كان قاصرا فتولت امه شئون الدولة ،واتبعت سياسة التوازن بين الاحزاب حتى تضمن بقاء السلطة النهائية فى يدها .وفى عهد شارل التاسع اشتد اضطهاد الكاثوليك للهوجونوت . وفى اول عهده حدث نزاع بين اعضاء مجلس طبقات الامة States General فوقف النبلاء وممثلو الشعب يشكون من الكنيسة ويطالبون باصلاح حقيقى ،بينما طالب رجال الدين باضطهاد الهوجونوت وبدأت كاترين ميدتشى تعمل للتوفيق بين البروتستنت والكاثوليك فمنعت من اقامة شعائرهم الدينية بطريقة علنية ومنعت فى الوقت نفسه تعطيل عبادتهم اذا هم اقاموها فى داخل منازلهم ،وجمعت الفريقين فى مؤتمر انعقد فى بواسى Poissy فى سبتمبر ١٥٦١ للتوفيق بينهما ولكن دون جدوى وعندئذ اصدرت مرسوما فى يناير ١٥٦٢ ، سمح باقامة طقوس الهوجونوت بين عائلات النبلاء فى الريف وفى المدن التى بدون اسوار . ولكن هذا المرسوم اغضب الكاثوليك والبروتستنت على السواء البروتستنت لتسامحه المحدود والكاثوليك بسبب هذا التسامح نفسه .

ولكن حدث هذا بعد ان اضطرمت النفوس وحطمت الصور الدينية وشوهدت الكنائس وهوجم الاكليروس والمبشرون ،ثم ذبحت قوات آل جيز عددا من الهوجونوت (١٥٦٢) وهم يتعبدون فى مدينة فاسى Vassy فانفجرت الحرب الاهلية انفجارا عنيفا مفاجئا بعد ان امكن تجنبها هذا الوقت الطويل. وقد اتسم هذا النزاع ليس فقط بأنه كان يعتمد على المرتزقة

من الاجانب الى حد كبير، بل انه تميز ايضا بأنه كلما قامت الحرب اعقبها السلام بعد وقت قصير. وليس سبب ذلك توقيع الطرفين تسوية يقبلانها حقا، ولكنه يرجع الى عوامل اخرى كفراغ ايدى المتحاربين من المال أو مقتل قائد او حدوث تخاذل او ضعف مفاجئ فى الشعور الذى كان لايزال كامنا بوحدة فرنسا باعتبارها كنزا لا يجوز تبديده بسهولة، وهو الشعور الذى كانت تخالطه الاحقاد الدينية او الشخصية العنيفة لذلك العصر. ولم يتورع كلا الطرفين عن الالتجاء الى المعونة الاجنبية ولى الكاثوليك وجوههم شطر اسبانيا، على حين ولى الهوجونوت وجوههم شطر انجلترا، بل لقد ذهبوا فى الحرب الاولى الى حد وضع الهافر فى يد الانجليز ووعدوهم بكاليه، ومع ذلك فانهم لم يعقدوا قط حلفا مع دولة بروتستانتية. وعندما قامت هذه الاضطرابات اصدرت كاترين مديتشى مرسوما فى يوليو ١٥٦٢ اعلن عصيان الهوجونوت وطردهم خارج القانون وعلى هذا النحو قامت الحروب الدينية فى فرنسا.

استمرت الحروب الدينية من عام ١٥٦٢ الى عام ١٥٩٣ وتنقسم الى دورين: الاول وينتهى فى عام ١٥٧٢ والثانى وينتهى فى عام ١٥٩٣. وكان عدد هذه الحروب ثمانية. وتولى قيادة الكاثوليك جيز ومونتمورنس ويقود الهوجونوت كولينى وكونديه.

وفى الحرب الاولى انتصر الكاثوليك فى بداية النضال، ولكن كاترين ميدتشى خشيت من زيادة نفوذهم، فاستطاعت الاتفاق مع كونديه فاصدرت مرسوم امبواز Edict of Amboise فى مارس عام ١٥٦٣ وبه صار مسموحا للهوجونوت العبادة فى منازل النبلاء وعلية القوم وفى املاكهم وفى ضاحية واحدة فى كل اقليم. ولكن كولينى والهوجونوت عموما لم يرضوا بهذا المرسوم وعارضوه بشدة واتهموا كوندية بخيانة

عهد الله . ومع ذلك فقد تبع اصدار هذا المرسوم ان سادت فترة سلام لمدة خمس سنوات . ولكن استحكمت الازمة بين الهوجونوت والكاثوليك فى فرنسا عندما عقد اجتماع فى بايون Bayonne (مايو ١٥٦٥) بين كاترين واختها ايزابيلا ملكة اسبانيا التى كان يصحبها دوق الفا . وكان من الواضح ان غرض كاترين الاساسى هو السعى لتزويج ابنتها مارجريت بدون كارلوس Don Carlos ابن فيليب الثانى ملك اسبانيا ولكن نوقشت ايضا فى هذا الاجتماع مسائل اخرى ،وبخاصة تعاون فرنسا واسبانيا ضد الاراضى المنخفضة . وفى ذلك مايكفى لاثارة مخاوف كولينى انشط محركى حزب الهوجونوت وحين علم ان الفا Alva يزحف صوب الاراضى المنخفضة على طول حدود فرنسا الشرقية على رأس جيش اسبانى ممتاز تصحبه فرقة استطلاع فرنسية ، شعر الاميرال ان الوقت قد حان لتحرير البلاط من المؤامرات الاسبانية . ووضعت خطة لاختطاف شارل التاسع ، وكان فشلها معجلا بنشوب القتال من جديد .

وقد يكون من الممكن اعتبار الحربين التاليتين سلسلة واحدة من العمليات اذ لم يفصل بينهما سوى صلح لونجيمو Lonjumea القصير الامد ١٥٦٨ . ولهاتين الحربين اهميتهما لعوامل ثلاثة : ففى هذه الفترة بالذات تبرزت لاروشل La Rochelle لاول مرة باعتبارها حصنا بحريا بروتستانتيا عظيما قادرا على ان يصمد للحصار وفى هذه الفترة ايضا برز هنرى نافار ابن الملك انطوان ،وهو الذى قدر له فيما بعد ان يصبح هنرى الرابع ملك فرنسا - باعتباره قائدا بروتستانتيا ، ولكن أهم ما يلفت النظر فى خصائص هذه الفترة ان النصر النهائى كان من نصيب كولينى ،وذلك رغم سلسلة متلاحقة من الانتصارات الكاثوليكية واسر كونديه ومقتله فى جرناك Jarnac ، وتغطية ساحة مونكنتور

Moncontour فى اكتوبر عام ١٥٦٩ الملطخة بالدماء بحوالى ستة الاف جثة من الهوجونوت . ولقد قام هذا القائد المحنك بتقهقر رائع من اللوار صوب الجنوب ، ثم كون جيشا جديدا ، زحف به على باريس حيث وجد البلاط خلوا من كل قوة ، فأرهب اعداءه وسيطر على الملك وانتزع لنفسه السيطرة على سياسة فرنسا . وكان شارل التاسع ، الذى قامت على تنشئته مربية بروتستانتية على استعداد للتفاهم ، فاعترف صلح سانجرمان St. Germain (٨ أغسطس ١٥٧٠) _ اكثر من اى وقت مضى _ بأهمية حزب الهوجونوت كهيئة ذات مصالح خاصة لها كيانها فى فرنسا وسمح لكبار النبلاء _ كما كان الحال من قبل _ بأن يقيموا الصلوات _ طبقا لمذهب الهوجونوت _ فى قلاعهم لكل من يرغب فى حضورها ونص على بقاء شعائر العبادة البروتستانتية فى كل المدن التى تمارس فيها فعلا ، وفى مدينتين فى كل مقاطعة ادارية فى فرنسا ، ووضعت ضمانات لمنع المظالم التى تتخذ شكل القانون ، كما وضعت فى يد الحزب _ لمدة سنتين _ اربعة اماكن لها اهمية حربية عظمية ، وذلك ضمانا لتنفيذ المعاهدة . وهذه الاماكن هى لاروشل ومنتوبان Montauban وكونياك Conganc ولاشاريتيه La Charite .

وهكذا انفسح المجال امام الهوجونوت . فحتى ذلك الوقت كانت الملكية الفرنسية فى دفاعها عن القضية الكاثوليكية ، وبفضل نفوذ آل جيز الى حد كبير ، على استعداد للالتجاء الى اسبانيا طبقا للمعونة فقام كولينى الآن يمهد الطريق لانقلاب سياسى كامل ، وكانت خطته تتمثل فى اشعال حرب قومية ضد اسبانيا فى الاراضى المنخفضة . ولتحقيق هذا الهدف عمل على تكوين حلف عظيم تتزعمه فرنسا وتسنده كل من انجلترا وهولندا وتسكانيا والبندقية وربما الاتراك ، الهدف منه اقرار السلام

فى البلاد وضم الفلاندر وآرتوا الى املاك التاج الفرنسى . وكانت المعاهدة الدفاعية التى وقعها كولينى مع انجلترا فى بلوا Blois فى ١٩ ابريل ١٥٧٢ الحجر الاولفى البناء الدبلوماسى الجديد .

وبين التدابير التى اتخذتفى هذه الفترة التى ارتفع فيهانفوذ الهوجونوت مشروع قدر له ان يؤثر تأثيرا قويا فىالموقف الداخلى فىفرنسا ،فقد تمت المباحثاتفى امر زواج ابرم بالفعل فى١٨أغسطس ١٥٧٢ بين مرجريت فالوا ، اخت الملك وهنرى نافار. فقداستدرج هذا الابن الريفى لفارس من البرانس وأم هوجونوتية متعصبة من مقاطعته البعيدة وزوج باحدى اميراتالاسرة الفرنسية المالكية الكاثوليكية . وكان هذا الزواج المختلط الاول مننوعه . ولقد استبانت كاترين ما طرأ على الموقف السياسى من تغيير.فقد كانت تعلم ان الاغلبية العظمى من الشعب الفرنسى لايزال مخلصا للعقيدة القديمة رغم انما يقرب من ثلث النبلاء اصبحوا من الهوجونوت . كانت كاترين تخشى الحرب وسطوة اسبانيا ونفوذ كولينى علىابنها ،كما كانت تخشى ان يوجه آل جيز ضربتهم اذا ما بقيتساكنة ،ومنثم ينتزعون لأنفسهم السيطرة علىفرنسا . لكل هذا استقر رأيها على تدبير مقتل كولينى . ولكنالهجوم على الامير فشل ومن ثم اصبح مركز الملكة الوالدةدقيقا ،وكانت باريس مزدحمة بالسادة الهوجونوتالذين أتوا الىالعاصمة لشهود حفلات الزواج الملكى،وقد استشاطوا غضباللاعتداء الآثم على زعيمهم وموضع حبهم وتقديرهم العميقين. وحتى لا يتطورالامر من سئ الى أسوأ صممت الملكة على اعادة الكرة ، ليس ضدكولينى وحده فى هذه المرة ،ولكن ضد كل الزعماء البروتستنت ،وانخدع الملكالضعيف بقصة مؤامرة يدبرها الهوجونوت ،وأمكناقناعه بالموافقة .

واستطاع المتآمرون انيدبروا مذبحة سان بارثلميو التى وقعت فى عيد هذا القديس يوم الاحد ٢٤ اغسطس ١٥٧٢ ولم تقتصر المذبحة الوحشية على باريس حيث قتلحوالى ثلاثة او اربعة آلاف من الهوجونوت ،بل لقد تعدتها الى الاقاليم ايضا ،وقدفاقت بكثير اقصى ماكان يقدره رجال البلاط - وحين سرت اخبار التخلصمن مثل هذا العدد الكبير من المهرطقين، امر البابا بنقش ميدالية تخليدا لهذا العمل ورأس فيليب الثانى ملك اسبانيا صلاة شكر. فلم يكن احدهم يحلم بمثل هذا النصر الكاثوليكى العظيم. فلقد مات كالينى ووقع كونديه وهنرى نافار فى يد الملك واكدت الآلاف من جثث الهوجونوت ثبات فرنسا على العقيدة الكاثوليكية .

وبدلا من ان تقضى مذبحة سان بارثلميو على الهوجونوت ،كانت مقدمة لحرب رابعة . فقدتحدى الهوجونوت القوات الملكية وهدد وحدة فرنسا منعاصمتهم الغربية لاروشليويدهم عدد كبير من السياسيين Les Politiques وهممن الكاثوليك المعتدلين الذين لمينحازوا الىانصار العقيدتين المتنازعتين ،ولكنهم اصروا على منح الحرية الدينية وكان منهم - لفترة من الوقت - الاخ الاصغر للملك. ولكن الكاثوليك - وخاصة جماهيرباريسالديمقراطية - لم يغتفروا للهوجونوت هذا العناد العنيف المستمرالذى كان يؤثر تأثيرا سيئا على حركة المعاملات والذى كان يتنافىمع الوطنية (اذ كان الهوجونت علىاتصال بانجلترا) وكان المتعصبون يريدونالسير بالحرب الى النهاية ،ولكنهم رأوا ان الملك والملكة الوالدةلايزالان يتابعان سياستهما المألوفة : عرض سلام أوهدنة علىالعصاة فيكل مناسبة ،وانهما لايزالان تسيطرعليهما فكرة امكان ايجاد مكان لتعبدالهوجونوت احرارا فى غير خفاء فى

دولة كاثوليكية . وبدا لهم أن المعاهدة التى وقعت فى عام ١٥٧٦ وهى معاهدة بوليو Beallieu تكاد ان تكون تسليما . ولهذا تكون اتحاد كاثوليكى - عرف عادة باسم "العصبة" يرعاه البابا وملك اسبانيا هدفه تثبيت دعائم العقيدة الكاثوليكية فى فرنسا .

وفى عام ١٥٨٤ توفى الاخ الاصغر للملك ، وكان اصغر ابناء كاترين والاخ الوحيد لهنرى على قيد الحياة . ولما كان الملك لم ينجب نسلا ، فلا مناص من ان يكون هنرى نافار الوريث التالى للعرش . واصبح مبدأ أعضاء العصبة الباريسيين ان " الجمهورية خير من تولى ملك من الهوجونوت" وأصبح هنرى الثالث (١٥٧٤-١٥٨٩) لسنوات طويلة لا حول له ولا قوة أمام آل جيز . فاحنى الملك رأسه ، بينما انتزعت العصبة السلطة الحقيقية على فرنسا الكاثوليكية ، وظهر مدى ضعف الملك فى يوم المتاريس (١٢ مايو ١٥٨٨) حين رفضت باريس فى ولائها لهنرى دوق جيز - ان تسمح لقوات الملك بالدخول الى المدينة ، كما ظهر هذا الضعف مرة أخرى حين اصدر مجلس طبقات الامة - فى اجتماعة فى بلوا Blois تحت نفوذ اليسوعيين - سلسلة من القوانين التى كان من شأنها - لو نفذت - ان تؤدى الى افلاس الخزانة وحرمان الحكومة من آخر مقومات سلطتها ولقد حاول الملك ان يتخلص من هذه المهانات فلجأ الى الاغتيال: فقتل دوق جيز واخوه كاردينال اللورين فى قلعة بلوا قرابة عيد ميلاد عام ١٥٨٨ على يد بعض اتباع الملك . وهكذا اعتقد الملك بأنه قد تخلص بذلك من اخطر منافس له .

ولكن مقتل دوق جيز كان خطأ جسيما . فقد تزايد الهياج فى باريس ضد الملك واعلنت الكنائس سخطها عليه . واصدر البابا قرار الحرمان ضده ، واعلنت جامعة السربون ان الشعب فى حل من نبذ ولائه للعرش ، وتشكلت حكومة مؤقتة ، وتزعم ماين Mayenne شقيق دوق جيز

الاتحاد الكاثوليكى، وعندما توفيت كاترين ميدتشى فى يناير عام ١٥٨٩ فقد الملك اكبر نصير له فارتمى فى احضان الهوجونوت وهنرى نافار . وكان هذا الامير قد كشف عن صفات حربية باهرة: فقد اثبت فى موقعة كوترا Coutras (١٥٨٧) ان باستطاعة جيش من الهوجونوت حسن القيادة ان يهزم قوات التاج من الكاثوليك فى معركة نظامية . كما ان اعمال الفروسية العديدة التى شاعت عنه، وحرصه الريفى وروحه المرحة - كل ذلك كان مما قربه الى رجل الشعب . واشترك الهوجونوت مع انصار الملك فى الزحف على باريس حتى بلغوا آسوارها فى جيش مؤلف من حوالى اربعين الفا فى يوليو ١٥٨٩ وشرعوا فى حصارها . وعندئذ استطاع رجل من الجزويت وهو جاك كلمنت Jacques Clement الوصول الى معسكر الملك فى سان كلو وقتله فى اول اغسطس عام ١٥٨٩. ولكن الملك قبل وفاته كان قد اعترف بأن هنرى نافار هو الوريث الشرعى له، وطلب منه ان يعتنق الكاثوليكية . وبوفاة هنرى الثالث انتهى حكم اسرة الفالوا الطويل فى فرنسا، وانفتح باب الصراع المباشر بين هنرى نافار و"العصبة" .

وحكمت باريس باسم العصبة لجنة من ستة عشر باشراف دوق مايين Mayenne الاخ الاصغر لهنرى جيز . وقد فرضت نظاما من الارهاب يشبه حكم لجنة الامن العام فى عام ١٧٩٤. وكان من آثار حكمها العنيف المكروه رجوع فرنسا آخر الامر الى الاعتقاد بأن اعادة الملكية الوراثية من شأنه ان يقلل من فرص الانقسام . ولما كانت فرنسا لا تقبل حكم اميرة اسبانية ولا حكم نبيل فرنسى ينتخبه مجلس طبقات الامة، فان الكتلة الرئيسية الارستقراطية الفرنسية قد التفت حول الامير البوربونى . ولكن التعصب كان لايزال حادا بلغ من حدته ان هنرى - حتى بعد تخليه عن عقيدته البروتستنتية فى كنيسة سان دنيس (٢٥ يوليو ١٥٩٣)

اضطر الملك الانتظار مدة ثمانية شهور خارج اسوار باريس قبل ان يتمكن من التغلب على مقاومة المدينة •

وفى ٢٢ مارس ١٥٩٤ سلمت باريس وفتحت ابوابها للملك الكاثوليكى وتلى ذلك تسليم بقية المدن والمعاقل ،وسلك هنرى الرابع (١٥٨٩-١٦١٠) طريقا حكيما مع النبلاء الكاثوليك ، فاستمال اليه عددا من أعضاء الاتحاد الكاثوليكى • ثم تأيد مركزه عندما رفع عنه البابا كلمنت الثامن حرمان الكنيسة فى سبتمبر ١٥٩٥ واعترف به ملكا على فرنسا •
ولكن كان على هنرى قبل ان يتمكن من قمع الفوضى وتحسين الزراعة ترويج التجارة واعادة السلام الى فرنسا أن يواجه مشكلتين ملحتين الاسبان والهوجونوت ، وقد استطاع ببعض العون من الملكة اليزابيث ان يطرد جيشا اسبانيا من اميان واجبر اسبانيا - طبقا لمعاهدة فرفان Vervine الموقعة فى ٢ مايو ١٥٩٨ على اساس معاهدة كاتو كمبريسيس - على التخلى عن كاليه وبلافيه Blavet فى بريتانى، وهما القاعدتان الفرنسيتان اللتان كانت اسبانيا قد وضعت يدها عليهما بصفتها حليفة للعصبة الكاثوليكية • اما الهوجونوت فقد كانوا يثيرون صعوبة اخطر من ذلك بكثير• كانوا رجالا اقوياء تحدوا التاج الفرنسى اكثر من ثلاثين عاما ،وكان بوسعهم فى اى وقت ان ينزلوا الى الميدان جيشا من خمسة وعشرين الف رجل لهذا لم يكن من اليسير اخضاعهم ،بل كانوا فى مركز يمكنهم من الوقوف من الملك موقف الند للند •ولم تكن التسوية المشهورة المعروفة بمرسوم نانت Edict of Nantes (الذى صدر فى ١٣ ابريل ١٥٩٨) مرسوما ملكيا بالعفو تفضل به الملك كما انها لم تكن اعلانا فلسفيا للتسامح • انما هى معاهدة لم يكن الوصول اليها الا بعد مفاوضات مضنية استلزمت وقتا طويلا ،ثم قبلت بعد

تردد كضرورة فرضتها ظروف كريهة لايمكن تجنبها. ولقد سمحت هذه التسوية للهوجونوت اقامة شعائرهم الدينية فى المدن التى سبق النص عليها فى معاهدة برجراك Bergrac فى سبتمبر ١٥٧٧ (بين الكاثوليك والهوجونوت) وعددها خمس وعشرون ومنها لاروشل وجرينوبل ومونبلييه ويم وغيرها، وصار كذلك للهوجونوت الحق فى تولى المناصب العامة العسكرية والمدنية على قدم المساواة مع الكاثوليك. ثم انشئت لهم محكمة قضائية خاصة ضمن برلمان باريس ومحاكم شبيهة لها فى المقاطعات. وزيادة على ذلك صار لهم الحق فى عقد مجلس تمثيل عام ينعقد مرة كل ثلاث سنوات للبحث فى شئونهم وتقديم التقارير اللازمة عن أحوالهم وعن مطالبهم. وفى الواقع سمح مرسوم نانت لدولة هوجونوتية صغيرة بجيشها وقلاعها وحكومتها المدنية ان تقوم وتعمل فى قلب فرنسا.

ولمرسوم نانت مكان ملحوظ فى تاريخ الحضارة باعتباره أول اعتراف عام بأنه من الممكن ان تقوم اكثر من طائفة دينية واحدة فى نفس الدولة، فقد جعلت هذه التسوية الشهيرة التسامح الدينى جزءا من القانون الدستورى لفرنسا قبل الاعتراف به فى انجلترا والمانيا لوقت طويل. وهكذا انتزع الهوجونوت قوة واقتدارا من خصومهم الكاثوليك امتيازات ماكان الكاثوليك ليسمحوا بجعلها موضع نقاش. ومنذ ذلك الوقت وضعت الاسس لازهى فترة فى تاريخ فرنسا انتعشت فيها الملكية وسما قدرها واتسع نطاق الصناعة والتجارة فيها بشكل ملحوظ ودبت الحياة فى الكنيسة الكاثوليكية وآثرت حياتها بفضل تحدى عقيدة الهوجونوت لها ووجودها معها جنبا الى جنب. ولكن كتب لهذه المزايا ان تتبدد امام التعصب الاعمى والجشع القاتل. كان هنرى سمح النفس فى المسائل الدينية، وقد ورثكا ترين ميدتشى فى خطة التسامح، ولكنه استدعى اليسوعيين الذين قدر لنفوذهم فى البلاد ولتأثيرهم فى التعليم

الفرنسى - وهو التأثير المطبوع بروح التعصب - ان يؤديا الى طرد الهوجونوت ونقض مرسوم نانت الذى كان اعظم ما قام به هنرى .

ولكن فى عهد الملك لوى الثالث عشر (١٦١٠ - ١٦٤٣) اثيرت خواطر الهوجونوت بسبب حوادث الخصام والنزاع بين الملك واعوانه والملكة الوالدة مارى ميدتشى الايطالية واعوانها، ثم ازدادت هواجسهم بسبب قيام حروب الثلاثين سنة واحتدام المناقشات الدينية التى برهنت على ان الشعور الدينى فى فرنسا لايزال قويا بالرغم من السكون الظاهرى الذى يسود البلاد منذ اصدار مرسوم نانت . وتحت تأثير هذين العاملين ، قرر الهوجونوت الاقدام على عمل كان من شأنه اصابتهم بالخسارة الكبيرة فى النهاية ، فقد شرع الهوجونوت فى هذه الآونة يعملون بكل همة ونشاط فى تحصين مدنهم المسورة ، وينشأون بها حكومات من طراز حكومة جنيف الكلفينية الجمهورية ، ثم آلفوا بين هذه المدن التى كانت بمثابة حكومات محلية ، وآنشأوا منها اتحادا قويا ، فأصبح الهوجونوت عبارة عن دولة فى داخل الدولة . ولم تلق هذه الاتجاهات الانفصالية اية معارضة جدية من جانب الحكومة المركزية لأن هذه كانت مشغولة ببعض المسائل . ولكن بمجرد ان تم الاتفاق بين مارى ميدتشى ولويس الثالث عشر ، استطاع الملك ان يتفرغ لمسألة الهوجونوت . وبعد نضال استمر حتى عام ١٦٢٢ عقد الملك الصلح مع الهوجونوت فى اكتوبر من نفس العام وهو المعروف بمعاهدة مونبلييه (Montpellier) على اساس ان يمتنع على المصلحين - أى الهوجونوت - عقد المجالس ، وعلى ان يتم الاستيلاء على مدنهم الحصينة ماعدا مونتبان ولاروشل . ومع ان مرسوم نانت تأيد مرة ثانية بمقتضى هذا الصلح ، فقد كان واضحا ان الهوجونوت قد بدأوا يفقدون جانبا كبيرا من قوتهم القديمة .

ولم يرض الهوجونوت عن صلح مونبلييه الذى اعتبروا انه يهدد مصالحهم فانتهزوا فرصة تغير العلاقات بين فرنسا واسبانيا ،وتحصنوا فى لاروشل واستؤنف النضال بينهم وبين الحكومة . وآزرهم الانجليز بأسطول كبير عند لاروشل . ولكن ريشلييه (١٦٢٤-١٦٤٣) وزير فرنسا الحق بهم الهزيمة وظلت قواته على حصار لاروشل مدة ١٥ شهرا حتى سلمت للملك فى اول نوفمبر ١٦٢٨ ،ثم تلى ذلك سقوط مونتبان آخر معاقل الهوجونوت ،وفى ٢٧ يونيه ١٦٢٩ تم عقد الصلح فى آليه الذى انحل الهوجونوت بمقتضاه كجماعة او حزب سياسى ،وفقدوا امتيازاتهم السياسية ، بينما ابقيت لهم حرية العقيدة ، ثم المساواة التامة مع الكاثوليك . وأكد ريشلييه من جديد مرسوم نانت وضمن للهوجونوت حرية الضمير وحرية العبادة وحماية القانون . ثم استمر تعيين الهوجونوت فى وظائف الدولة وفى الجيش وفى القضاء . واظهر ريشلييه فى هذا العمل كياسة وفطنة لأن الهوجونوت الذين اطمأنوا الى الحكم الجديد اندمجوا فى صفوف مواطنى الدولة وساهموا فى انعاشها .

٢ ـ انجلترا ونظام الكنيسة الانجليكانى :

انتهت حروب الوردتين (١٤٥٥ ـ ١٤٨٥) بتولى اسرة تيودور عرش انجلترا ،وتوج هنرى تيودور دوق ريتشمند ملكا على انجلترا باسم هنرى السابع (١٤٨٥-١٥٠٩) ولما اعتلى هنرى السابع العرش وجه عنايته الى المملكة التى كانت قد اضعفتها الحرب الاهلية وتمرد فيها الاشراف وانتشرت الفوضى،وقد رأى ان خير وسيلة لاستتباب الامن والعدل فى البلاد ، هى كسر شوكة من بقى من الاشراف وتشجيع الطبقة الوسطى وتقليدها المراكز العمومية المهمة فعين منهم وكلاء الملك فى الاقاليم ثم كبح جماح الاشراف فحرم عليهم جمع وتسليح اتباعهم والباسهم شارات خاصة . والقى هنرى نظرة على القانون فرأى ان الغنى والقوى يمكنه أن ينال

اغراضه بترغيب المحلفين اوتهديدهم فأنشا " محكمة غرفة النجم " عام ١٤٨٧ Star Chamber من اعضاء يعينهم الملك مباشرة للحكم على كل من يتدخل فى سير القضاء ومن اصلاحاته القضائية انه حتم على رجال الدين ان يحاكموا - فى القضايا الجنائية - امام المحاكم الاهلية بعد ان كانوا يحاكمون امام محاكم الكنيسة . ومات هنرى عام ١٥٠٩ بعد ان نظم المملكة داخليا واحيا الصناعة والتجارة فيها وجعل لها منزلة سياسية فى الخارج وساعد على تقوية الملكية واضعاف الاشراف والتقليل من عقد البرلمان .

وسار ابنه هنرى الثامن (١٥٠٩ - ١٥٤٧) على نهج ابيه من ناحية اضعاف الاشراف ،وعدم دعوة البرلمان للانعقاد الا نادرا والاعتماد على الطبقة الوسطى فى حفظ النظام الداخلى . وما ان اعتلى هنرى العرش حتى تزوج كاترين الارجونية وهى سيدة جادة دمثة الاخلاق تكبره بست سنوات كانت ارملة لاخيه الاكبر آرثر الذى توفى فجأة بعد زواج دام اربعة اشهر (وكانت كاترين ابنه لفرديناند وايزابيلا) وكان البابا يوليوس الثانى قد اصدر فى عام ١٥٠٣ فتوى اقرت الزواج من ارملة آخ متوف . وقد اهتم الملك الشاب بأمره . فكان مغرما بالبحر . واشرف بكل دقة واهتمام على بناء اسطول ملكى ووسع اساس قوة انجلترا فى البحر . وكان اول ملك انجليزى له اسطول بمعنى الكلمة على احدث طراز . اما الامر الثانى الذى اهتم به الملك فهو المسائل الدينية التى كانت قد اصبحت - كما اصبح الاقتصاد فى ايامنا - اساسا لدراسة السياسة . فكتب بحثا نشر فى عام ١٥٢١ ردا على لوثر كان من نتيجته ان انعم عليه البابا ليو العاشر بلقب حامى العقيدة . وكلما تقدمت به السن ازداد اهتمامه بنفسه ونما شعوره بالثقة فى عقيدته . اما الشعب الانجليزى فكان على عكس ملكه ،وعلى عكس الشعب الاسكتلندى - غير مبال بالبحوث الدينية .

وعلى آية حال لم يستمر حسن التفاهم بين البابا والملك هنري الثامن. فلقد اراد هنري ان يطلق كاترين عندما تغيرت العلاقات بينه وبين الامبراطور شارل الخامس (وكانت كاترين عمة الامبراطور) خلال الحروب الايطالية، ولانها ايضا لم تنجب ولدا يرث العرش من بعده. كما انهنري كان قدوقع من مدة في حب احدى سيدات البلاط وهى آن بولين Anne Boleyn وعزم على ان يحقق رغبة هذه الشابة الجميلة المتقلبة فيتخذها زوجة شرعية له في عام ١٥٢٧. واستند الملك في طلب" الطلاق" من كاترين الى عدم ارتياح ضميره لمعاشرة كاترين بسبب صلة الرحم الدقيقة بينهما، ولانه يريد ولدا ذكرا يرث العرش من بعده، ولم يكن لكاترين سوى ابنة واحدة هى ماري.

وكانت اسبانيا هى العقبة التى تعترض تحقيق هذه الامنية. ولو لم يكن البابا اميرا ايطاليا ضعيفا تهيمن عليه اسبانيا، لربما تم الغاء زواج كاترين دون ان تترتب عليه نتائج ما. ولكن البابا كلمنت كان مسلوب الارادة، فزعم انوزير الملك الكاردينال ولزى Wolsey وكان اخر الساسة العظام من رجال الدين الذين حكموا انجلترا - حذر البابا من ان ولاء انجلترا لكنيسة روما قد اضحى بأسره في الميزان فانه خشى اغضاب الامبراطور. وهكذا لم يستطع هنري ان يظفر من البابا بشيء وتعقدت المسألة تعقيدا بالغا، وشاعت اخبارها بأرجاء اوروبا. ولقد غضب الملك على الكاردينال ولزى وعزله وصادر املاكه واتهمه بالخيانة لانه كان صاحب الرأى في الاتفاق مع روما لاستصدار قرار الالغاء وشغل جانبا من المكان الذى شغر بسقوط ولزى رجل علماني هو توماس كرمويل Cromwell الذى [illegible]ن فيخدمة ولزى. ولقد نظر كرمويل الى العالم بعين مغامر صلب كان قد حارب في ايطاليا وقرأ "أمير" ميكيافيللى وشعر بأن تيار الاحداث يتجه نحو تجريد السياسة

من الطابع الديني . واستطاع كرمويل ان يقنع الملك في مقابله معه باتباع الخطة التي اسفرت في آخر الامر عن فصل الكنيسة في انجلترا عن كنيسة روما ووضعها تحت سيادة الملك. فأشار على الملك آن يحذو حذو الامراء الالمان الذين تخلصوا من سلطان البابوية ونبذوا سياسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وآسسوا كنيسة أهلية فيسعى الملك بمساعدة البرلمان لانشاء كنيسة اهلية وطنية يكون الملك رئيسها ، وعندئذ تستطيع هذه الكنيسة المنفصلة تحقيق رغباته في مسألة الطلاق من كاترين. فقرر هنري العمل بهذه الخطة . ومن ذلك يلاحظ ان الاصلاح الدين في انجلترا سار في كل خطواته بحسب توحيد الدولة وهذا ما جعله يتخذ شكلا خاصا به ، وينطبع على الاقل بالصورة التي رسمت له وهي صورة متفقة مع التكوين السياسي والاجتماعي بانجلترا . وأول ذلك ان الاصلاح الديني تم على يد الملك وبمشورة البرلمان ، اذ عمل هنري الثامن على مشاركة الدوائر السياسية الكبرى في المسئولية معه ، ورآت تلك الدوائر ممثلة في اعضاء مجلس اللوردات ونواب مجلس العموم ان تكون له معينا وظهيرا . ولذا كان البرلمان الانجليزي هو الذي قام على وضع التشريعات اللازمة وصوغها والموافقة عليها .

دعا هنري البرلمان في عام ١٥٢٩ للمساندته في نضاله مع الكرسي البابوي ، واستبقى دورة انعقاده سبع سنوات واصدر عن طريق اللوردات والعموم اللوائح التي اقتضاها استقلال الكنيسة الانجليزية عن روما واخضاعها للتاج . ففي عام ١٥٣١ أصدر البرلمان قانونا باخضاع رجال الدين في انجلترا لسلطة الملك واعطى لقب خاص للكنيسة ورجال الدين والرئيس الاعلى وحده للكنيسة ولرجال الدين في انجلترا . بالدرجة التي تسمح بها قوانين المسيحية . وفي عام ١٥٣٢ اشتدت الحملة لاخضاع رجال الكنيسة لسلطة الملكية . فأصدر البرلمان قوانين لمنع ارسال الاموال الى روما ، ولمنع الكنيسة في انجلترا من استصدار آية قوانين

أو اوامر أوتنظيمات متعلقة بالكنيسة من غير موافقة الملك . وفى عام ١٥٣٣ عين هنرى توماس كرانمر (Cranmer) - من تلامذة كمبردج المتبحرين فى اللاهوت - رئيسا لاساقفة كانتربرى على الرغم من امتناع البابا كلمنت السابع عن الموافقة على ذلك. ولما كان هنرى الثامن قد تزوج من آن بولين سرا منذ يناير ١٥٣٣، ومن المنتظر ان يوافق كرانمر على هذا الزواج، ويريد الملك ان يمنع زوجته القديمة كاترين الارجونية من ارسال قضيتها الى روما للفصل فيها، فقد اصدر البرلمان قانونا لمنع استئناف القضايا Appeals Act فى روما، وفى ٢٣ مايو ١٥٣٣ اعلن كرانمر الغاء زواج هنرى الثامن من كاترين وبعد ذلك بخمسة ايام قرر كرانمر مشروعية زواج الملك من آن بولين. وقد توجت هذه ملكة على انجلترا، وفى يوليو من نفس العام أصدر البابا قرار الحرمان ضد هنرى الثامن واعلن فى مارس ١٥٣٤ ان زواج هنرى الثامن من كاترين لايزال قائما.

ولقد اجاب هنرى على ذلك بأن استصدر اولا من البرلمان فى سبتمبر ١٥٣٣ قانونا يجعل الوراثة من بعده لاليزابيث، ابنته من آن بولين والغى بذلك حق ابنته مارى من زوجته الاولى كاترين الارجونية. وفى نوفمبر فى العام التالى استصدر من البرلمان ايضا قانون السيادة The Act of Supremacy الذى يعلن ان الملك "عدلا وشرعا هو وكما يجب ان يكون، الرئيس الاعلى للكنيسة فى انجلترا". وقد اعطى هذا القانون الى الملك كل السلطات القانونية والسياسية التى كان البابوات يتمتعان بها سابقا بانجلترا. ومع ان هنرى الثامن لم يتطلع بفضل هذا القانون الى ممارسة حق تغيير العقيدة ذاتها، فقد كان من ناحية اخرى يرى من حقه اصلاح القانون الكنسى والسيطرة على التشريع فى الكنيسة

والاستشار بملاحظة النظام والهيمنة على شئون الكنيسة . وقد تدعم هذا القانون بقانون آخر يعتبر من الخيانة مناقشة هذه السلطات أى معارضتها ويعاقب فى صراحة كل من ينقد بشىء شخص الملك والملكة .

ثم تلا تلك الخطوة حل الاديرة بأنحاء انجلترا وصودرت الكنيسة فى اراضيها ، واغلبية ما دون ذلك من املاك كثيرة وثروة طائلة . وليس من المغالاة ان يوصف ما حدث وقتذاك بأنه كان ثورة اقتصادية ، اذ استولى التاج على ما يقرب من خمس الاراضى الزراعية بالبلاد ، فضلا عن مقادير هائلة من الثروة المنقولة ، وأنشأت الحكومة ديوانا خاصة بضبط ذلك كله وادارته فجاء عملها دليلا على الكفاية الادارية للدولة القومية الجديدة . وقد هيمن توماس كرمويل ، كما اشرنا ، على تلك الخطوات الاولى من حركة الاصلاح الدينى بانجلترا فدبر كل خطوة منها تدبيرا ، واشرف على تنفيذها فى دقة وتفصيل ولا غرو فانه كان رأسا سياسيا متوقدا ، بصيرا بأعقاب الامور ، لا يرضى لرأيه نقضا ولا تبديلا ، مع القدرة على ادارة شئون الدولة فى جرأة واقدام .

على ان النتائج الاقتصادية التى ترتبت على حل الاديرة أحدثت بالبلاد انقلابا جوهريا ، بعيد الاثر ، واول ذلك انها ادت الى ازدياد قوة الملكية . ثم ان الدولة صرفت ما استولت عليه من اموال الكنيسة على تهيئة ما حاجها من مظاهر المنعة والهيبة ، فبنى هنرى الثامن اسطولا قويا وحصن الشواطىء بل استطاع ان يقوم بحرب ضد فرنسا (١٥٤٣-١٥٤٦) لتضم الى سلسلة الحروب التى كلفت انجلترا كثيرا فى غير جدوى . على أن كثرة النفقات اللازمة لشئون الحكم ، وتضخمها بسبب ارتفاع الاسعار فى انحاء العالم نتيجة لتدفق الفضة الامريكية على أوربا عن طريق اسبانيا والبرتغال ، ادى الى بيع اراضى الكنيسة تدريجيا الى طبقات

الملاك والمزارعين . واستمرت تلك العملية خلال القرن السادس عشر الميلادى والقرن التالى له ،حتى استقرت اغلبية الاراضى الزراعية بانجلترا نهائيا فى ايدى اعيان الاقاليم ، فعكف هؤلاء على استغلالها ، وزادوا فى خصبها وانتاجها بفضل تفتح الابواب لتثمير الاموال. ومعنى ذلك ان طبقة الملاك والمزارعين صارت على جانب عظيم من الثروة وقوة النفوذ ،مما حدا بافرادها الى التطاول على السلطة السياسية بالبلاد ، بل تعداه الى مهاجمة الملكية نفسها ،بعدئذ بقرن من الزمان، وقد كان من اثر ذلك ايضا ان ازدادت قوة الانتاج فى كل ناحية من نواحى الحياة الاقتصادية بالبلاد ، فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة ، ونمت الثروة العامة ، وتضاعف النشاط الذى منه نبعت الاعمال العظيمة التى تمت فى عهد الملكة اليزابيث .

ومن الطبيعى ان تلك التطورات التى هزت اوربا ، وجلجلت فى ارجائها بأمثال الثورة الخطيرة التى قام بها الفلاحون فى المانيا سنة ١٥٢٥–١٥٢٦ ، لم تخل من اصداء واحداث مشابهة لها فى انجلترا ،حيث تأخر حل الاديرة الكبرى بسبب الثورة التى عرفت باسم حج الغفران (Pilgrimage of Grace) عام ١٥٣٦–١٥٣٧– وهى الثورة الكبرى التى نشبت فى الشمال ردا على حل الاديرة– وشلت يد الحكومة لعدة شهور . على ان الملك هنرى الثامن هب لانقاذ الموقف ، اذ تذرع بعدة وسائل من الاغراء والمكر السياسى والتهديد باستخدام القوة حتى قضى على تلك الثورة الكاثوليكية بشمال انجلترا ،بأقل ما يمكن من خسارة فى الارواح هذا وقد ساعد هنرى على المضى قدما فى سياسته العامة ما لقيه من معاضده مدينة لندن والاقاليم الجنوبية الشرقية ، والمزارعين وأهل الطبقة الوسطى بمختلف المدن، فاستطاع لذلك ان يأخذ العناصر المحافظة التى عمدت الى مقاومة السياسة الجديدة بأنواع الشدة والصرامة ،سواء

آكانوا من الاعيان ام من رجال الدين ام من الفلاحين، وذهب كثير من ابناء الاسر الاقطاعية العتيدة الى خشبة الاعدام، كما ذهب اليها امثالهم من بعدهم طوال عهد التيودوريين دون ان يرتفع صوت بالشكوى او الاحتجاج الا قليلا. وقد ذهب السير توماس مور فى ذلك العصر مع الذاهبين شهيدا فى سبيل المبدأ الدينى ، وهو انبل الشخصيات الانجليزية التى تصدت للدفاع عن فكرة الكنيسة العالمية .

ولقد ترك هنرى الثامن صورة لا تمحى من عقول رعيته، اذ عبر بشخصيته الصاخبة عما تكنه الامة الفتية من زائد الثقة بنفسها ومستقبلها، ونادى بأن السلطة الملكية لا تتجزأ، وسار فى حكمه على هذا المبدأ. وادركته المنية وهو فى وسط مشاريعه لضم استكلندا الى التاج الانجليزى، حيث كانت سياسته قد تعثرت بمعارضة زعماء الحزب الاسكتلندى الكاره لفكرة الضم، اعتمادا منهم على مؤازرة فرنسا لاسكتلندا وقت ذلك .

وفى عهد ادوارد السادس(١٥٤٧-١٥٥٣) ابن هنرى الثامن تطورت حركة الاصلاح الدينى فى انجلترا الى سرعة ملحوظة وانطلاق مشهود، اذ مضت فئة البروتستنتيين المحيطة بالملك الصغير فى مصادرة املاك الكنيسة وادخال المذهب البروتستنتى فى آن واحد، ومن ذلك اصدار كتاب الصلوات العامة

The Engish Book of Common Prayers of 1549

باللغة الانجليزية ، وهو الكتاب الذى طبع الكنيسة البروتستنتية نهائيا بطابع قومى ، وجعل الصلوات الجديدة جامعة للناس انفسهم فيها اكثر مما للقسيس المكلف بأمور الدين . ومما يلاحظ دائما ان جميع التغييرات والتطورات وجميع الخطوط الجريئة التى تمت وقتداك

كانت كلها من عمل الدولة نفسها ، اذ تولت الحكومة شأنها واشرفت عليها واستطاعت ان تصل بذلك الى اقصى غاية من الانسجام القومى، وأن تحافظ على الوحدة القومية بعكس ما تمخض عنه الاصلاح الدينى فى مختلف البلاد الاوروبية من عوامل التفرقة حتى صار الكثير منها الى التفكك والانحلال، ولاسيما فى المانيا . اما انجلترا فقد اجتازت تلك المرحلة دون ان يحدث بوحدتها العامة شئ وذلك بفضل ما للدولة بها من قوة وسلطان .

ومع هذا فلم يخل الامر من بضع حوادث محلية باطراف البلاد، ومنها قيام الثورة بين الفلاحين الكاثوليك بالاقاليم الغربية على الكتاب الجديد للصلوات العامة ،سنة ١٥٤٩، غير انه مما يدعو الى الانتباه ان موانئ تلك الاقاليم بدت من قبل ذلك شديدة العطف على البروتستنتية والمضى فى طريق التجديد ،وان هذه الموانى هى التى ساهمت فى عصر الملكة اليزابيث بنصيب كبير . وفى تلك السنة نفسها هبت ثورة اخرى باقليم ايست انجليا وبعض جهات الاقاليم الوسطى بسبب اضطراب ميزان الحياة الزراعية تحت جملة العوامل الاقتصادية ، كارتفاع الاسعار بالقارة الاوروبية ، وغش النقود فى انجلترا منذ ايام هنرى الثامن ،وانتقال ملكية الاراضى من الكنيسة والاديرة الى الدولة وغيرها من الملاك، وتحول المساحات الزراعية الكبرى الى حقول مسورة لتربية الاغنام ،وما يتبع ذلك من استغلال الاراضى استغلالا جيدا ،وفى عام ١٥٦٠ وقعت الثورة الاخيرة من تلك الثورات الاقطاعية الكبرى بالاقاليم الشمالية ، وتزعمها الاعيان الاقليميون من اللوردات الذين بقوا على المذهب الكاثوليكى وتعصبوا للملكة مارى الاسكتلندية ضد الملكة اليزابيث . غير انه مما يسترعى النظر فى جميع تلك الثورات ،وغيرها من ثورات البروتستانتيين ضد مارى التيودورية ملكة انجلترا بعد

ادوارد السادس ، ان واحدة منها لم تستطع ان تظفر بنصر على الحكومة مع خلو البلاد من جيش نظامي ثابت والسر فى ذلك ان الحكومة فى انجلترا اضحت ثابتة الدعائم، وان الدولة صارت الى قوة لا تستطيع معها فورة من الفوضى المحلية ان تظل طويلا او قصيرا ، وهذا ما جعل انجلترا تختلف وقتذاك كل الاختلاف عن فرنسا التى مزقتها الحروب الدينية ،مما ضيع على الفرنسيين فرصة المشاركة فى معركة السبق الى العالم الجديد.

على أن اخطر اوقات الرجعية التى هددت حركة الاصلاح الدينى فى انجلترا زمن التيودوريين هو حكم الملكة مارى (١٥٥٢–١٥٥٨) ابنة هنرى الثامن من زوجته الاولى كاترين الارجونية ،وذلك لما اتصفت به مارى نفسها من شدة التدين والتمسك بالكاثوليكية ،ولارتباط انجلترا بسلسلة المحالفات والمصالح الاسبانية ،بسبب زواج الملكة من قريبها فيليب الثانى ملك اسبانيا ،على حين رنت البلاد الى الاستقلال بشئونها ومصالحها الخاصة. ولقد اعلنت الملكة مارى وزوجها فيليب وابن عمها الكاردينال بول عودة انجلترا رسميا الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ،فلم يعد ذلك ان يكون فوزا عميقا ،لان السلطات المدنية ظلت محتفظة بأراضى الكنيسة وثروتها. ثم ان انكباب الملكة مارى علي صنوف الاضطهاد التى انزلتها بالبروتستانتيين لم تؤد الشىء سوى انها زادتهم عددا بكثرة الداخلين فى المذهب البروتستنتى ، بل انها باحراقها الاسقف كرانمر Cranmer قد امدتهم بشهيد مضارع للسير توماس مور، شهيد الكاثوليكية العظيم. والخلاصة ان الاضطهاد الذى لجأت اليه الملكة مارى كان غلطة سياسية قضت على حكمها وطريقتها فى الحكم قبل ان تقضى هى نحبها ،لانه لم يكن باستطاعتها التغلب على القوى الفتية التى انتشرت وقتئذ بأنحاء البلاد ،ولأن حزبها لم يضم الافئدة من الطاعنين فى السن البعيدين عن روح

العصر الجديد، وهذا بالاضافة الى ان مارى نفسها امرأة عاقر .

ولكن خليفة مارى على عرش انجلترا - هى اختها اليزابيث (١٥٥٨-١٦٠٣) جمعت فى شخصها كل المؤهلات الكفيلة بالتعبير عن تلك القوى الفتية الجديدة والسير بها الى النصر فى ظروف محفوفة بأنواع الحرج والخطر وكانت اليزابيث شخصية سياسية من الطراز الاول ،هذا بالاضافة الى ما اجتمع لديها من موهبة ونبوغ ،كالمعرفة باللغات والعلم وحب الموسيقى والرقص ،وهى فى الواقع احدى عباقرة السياسة ، وقد دلت الايام، على أن عهدها اسعد العهود وامجدها فى التاريخ الانجليزى ،يكفى برهانا على ذلك ان تاريخ انجلترا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى يطلق عليه " عصر اليصابات " (اليزابيث) .

وقد عملت هذه الملكة منذ بداية حكمها على ان تجمع اليها رجال العصر الجديد وان تربط بينها وبينهم برباط وثيق ، وفى طليعة هؤلاء وليم سيسل Cecil الذى ظل الى جانبها متوليا رياسة الحكومة الى ما قبل خمس سنوات من وفاتها .وقد خلفه من بعده ابنه روبرت، فجرى على سياسة ابيه حتى عام ١٦١٢ .وقد جرت اليصابات (اليزابيث) فى سياستها الدينية على نحو ما جرى فى عهد ادوارد السادس بأن عادت الى استعمال كتاب الصلوات البروتستانتية ،وفصلت الكنيسة الانجليزية فصلا تاما عن روما واعلنت قيام الكنيسة القومية المستقلة مرة أخرى بالبلاد. غير انها مشت فيما عدا ذلك على سياسة المحافظة على القديم ومسايرة الظروف ،وقصدت بتلك الطريقة صون الوحدة القومية بقدر الامكان. ولذا قل الاضطهاد الدينى فى السنوات العشر الاولى من حكمها ،وظل النظام الداخلى للكنيسة على ماهو عليه منذ العصور الوسطى يترأسه اساقفة معينون من قبل الدولة وبقى الميدان متسعا لصنوف المذاهب المختلفة من كاثوليكية ولوثرية وكلفينية .

وهكذا استطاعت اليصابات ان تجعل من انجلترا بلدا بروتستانتيا فى النهاية بفضل الموقف الوسط الذى وقفته بين متطرفى البروتستنت والكاثوليك على السواء، واستطاعت فى النهاية اقامة صرح للكنيسة المعروفة باسم النظام الانجليكانى اونظام اليزابيث الكنيسى

The Anglican or Elisabethan Church System

وكان اهم القوانين التى قام عليها هذا النظام قانونان : قانون السيادة العليا، وقانون المذهب الواحد وكلاهما صدر فى عام ١٥٥٩. وكان من اوضح صفات نظام الكنيسة الانجليكانى انه كاثوليكى المظهر، بروتستنتى العقيدة. وبوفاة اليصابات انتهى عهد التيودور فى انجلترا وبدأ عهد اسرة جديدة هى اسرة ستيورات، وفى عهد هذه الاسرة الجديدة بقيت المسألة الدينية تشغل الاذهان فى انجلترا ولو ان النضال الداخلى فى عهد هذه الاسرة الجديدة كان نضالا دستوريا فى جوهره، من اجل تقييد سلطة الملكية واقرار حق الشعب الممثل فى البرلمان .

٣ - ثورة الاراضى المنخفضة :

حجزت جبال البرانس اسبانيا عن بقية اجزاء اوروبا ، وساعد هذا الحاجز الطبيعى اسبانيا على ان تعنى بشئونها الداخلية وتمكن ملوكها الكاثوليك من تأسيس الملكية ذات الحكومة الموحدة القومية وفى نهاية القرن الخامس عشر تخلصت اسبانيا من عزلتها القديمة، وادعت لنفسها حقوقا فى صقلية ونابولى وربطت مصيرها بمصير الاراضى المنخفضة (هولندا وبلجيكا) عندما تزوجت جوانا Joanna الاسبانية فيليب ابن مارى البرجندية ومكسمليان النمسوى . وبذلك سيطرت اسبانيا على امبراطورية واسعة وتحقق طموحها ، ولكن المسئوليات الواسعة التى تحملتها فى ذلك الوقت تعتبر من اهم العوامل الرئيسية التى ادت الى

انهيارها فيما بعد .

ولكن يجب الا نضع فى اعتبارنا عند تلك المرحلة المبكرة انهيار اسبانيا وضعفها ففى خلال القرن السادس عشر والجزء الاكبر من القرن السابع عشر، كانت اسبانيا دولة قوية مزدهرة ، واعتبر جنودها لمدة قرن من الزمان احسن جنود اوروبا ، وقامت سفنها باكتشاف العالم الجديد وبالتالى اتيحت الفرصة لاسبانيا بأن تقوم بنشاط تجاري واسع ، ولكن التجربة اظهرت فيما بعد وجود خلل فى كل هذه المميزات اذ استلزمت ممتلكاتها الامريكية نفقات باهظة ، كما اعطى حماس الشعب الدينى محاكم التفتيش مجالا واسعا للحركة بحيث قضت على حرية الفكر ، وأبعدت اسبانيا عن الحركة الفكرية الحرة التى سادت بقية اوروبا . اما الامبراطورية الواسعة التى كونتها اسبانيا فقد دفعتها الى خوض غمار حروب لا طائل لها ، شلت مواردها الاقتصادية بدرجة كان لايمكن التغلب عليها .

وكان حكم شارل الخامس فاشلا فى المانيا ، ولكنه كان حكما مجيدا ، بالنسبة لاسبانيا . ولقد تدعم نفوذ الملكية بالتغلب على جميع القوى المنافسة ، وتم وضع نظام لادارة المستعمرات الامريكية ، وتزايدت قوة اسبانيا بدرجة كبيرة فى ايطاليا . كما تميز حكمه بالنجاح والشعبية فى الاراضى المنخفضة . وعندما عزل شارل الخامس الملك فى عام ١٥٥٦ كان من نصيب ابنه فيليب الثانى (١٥٥٦–١٥٩٨) الحكم فى اسبانيا وفى املاكها الاخرى التى ورثها عن ابيه فى الاراضى المنخفضة ونابولى ، وميلان وصقلية الى جانب امبراطورية اسبانيا الاستعمارية .

وغالبا مايقال بأن حكم فيليب الثاني قد فشل فشلا ذريعا ، وكان فيليب يبدو دائما بأنه على وشك تحقيق عمل عظيم ، وحانت لحظات ظهر فيها

بأنه فى امكانه ضم انجلترا وفرنسا الى ممتلكاته ،ولكن جهوده لم تتوج بالنجاح . غير ان انفصال جزء كبير من الاراضى المنخفضة وتحولها الى دولة بروتستانتية مستقلة كان من آسوأ الضربات جميعا التى وجهت الى حكمه . وعلى الرغم من ذلك لم يخل حكم فيليب الثانى من تحقيق بعض الانتصارات . ففى عام ١٥٧١ قاد دون جون النمساوى وهو اخ غير شرعى للملك قوة بحرية كبرى من الدول الكاثوليكية واوقع بالاسطول العثمانى هزيمة فادحة عند ليبانتو Lepanto فى خليج كورنث ولم يسترد العثمانيون بعد تلك الهزيمة قوتهم البحرية . كما كان اعظم انتصار حققه فيليب فى عام ١٥٨٠ عندما ادعى بنجاح احقيته فى عرش البرتغال بعد وفاة ملكها ، وهكذا لم يحكم كل شبه جزيرة ايبيريا فحسب بل ضم الى ممتلكاته ايضا الممتلكات البرتغالية الشاسعة فى آمريكا و الهند

ولكن الثورة التى قامت فى الاراضى المنخفضة تعتبر من آعنف الضربات التى وجهت الى اسبانيا فى عهد فيليب الثانى ،فلم تؤد هذه الثورة الى اضعاف اسبانيا فحسب ولكنها ادت كذلك الى ظهور دولة بروتستانتية جديدة وحرة فى اوروبا .وكانت الاراضى المنخفضة تتكون من سبع عشرة مقاطعة منفصلة انتقلت ملكيتها الى فيليب الثانى كجزء مما ورثه عن شارل حاكم برجنديا وكان لكل مقاطعة من هذه المقاطعات دستورها الخاص بها ،ولكنها لم تكون وحدة بأى شكل من الاشكال على الرغم من ان شارل الخامس قد حاول -دون ان يفشل تماما- وضع نظام ادارى مشترك وكونت هذه المقاطعات من الناحية الاسمية جزءا من الامبراطورية .ولكن الارتباط بينها كان ضعيفا كما كان الحال فى الاتحاد السويسرى. وكانت المقاطعات عبارة عن خلية مزدحمة بالنشاط التجارى والصناعى ،واعطت مدنها وموانيها الكبرى ،ومن اهمها انتورب وجنت وبروكسل وامستردام ملك اسبانيا دخلا كبيرا اكثر مما حصل عليه من الهند . ولم يكن من

السهل حكم هذه المقاطعات ،وواجهت شارل الخامس بعض المصاعب الخطيرة ولكنها فى معظم الاحيان ايدته باخلاص .

امافيليب الثانى :فلم يتمتع بخبرة والده وميوله العالمية ،فقضى معظم حياته تقريبا فى اسبانيا وادار شئون امبراطوريته الواسعة من مدريد عن طريق المراسلات الكثيرة .وكان فيليب الثانى مجتهدا ،صبورا ، يشعر بالواجب الملقى عليه ،وكان مخلصا اخلاصا حقيقيا وعظيما للديانة المسيحية ولكن من النادر ان جاء حاكم فى تاريخ اوروبا كرهه معاصروه وخلفاؤه ، لانه اصطدم مع كل ما يمثل الحرية والتقدم ،واجتهد فى القضاء عليهما بعنف واستهتار .

وكانت سياسته ازاء الاراضى المنخفضة تتمشى فى نواح كثيرة مع الاتجاه العام السائد فى ذلك العصر .واراد فيليب ان يمنح المقاطعات السبعة عشر فى الاراضى المنخفضة وحدة حقيقية تحت التاج الاسبانى ،كما اراد ان يطمس الكثير من حريتهم المحلية والمنفصلة ، وان يحكم الاراضى المنخفضة بنفس السلطة المطلقة التى حكم بها اسبانيا ،وحكمت بها كل من اليزابيث وهنرى الرابع انجلترا وفرنسا . وبالاضافة الى ذلك اعتقد فيليب - كما اعتقد الكثيرون غيره فى ذلك العصر ، ان الوحدة السياسية من الصعب تحقيقها بدون وجود وحدة دينية .وعقد العزم نتيجة للدوافع السياسية والدينية على القضاء على الحركة البروتستانتية التى انتشرت من قبل وعلى وجه الخصوص فى المقاطعات الشمالية . وكانت الاراضى المنخفضة قد تأثرت بحركة الاصلاح الدينى فى المانيا ، فعرفت مذهب لوثر ومذهب كلفن بحرية العقيدة .

وبدأ الصراع مع تلك المقاطعات تقريبا عقب تولى فيليب الثانى العرش . وقد تمنى سكان الاراضى المنخفضة ان يعين فيليب آحد كبار

نبلائهم نائبا عنه فى حكم بلادهم واقترح الرأى العام اسم كونت اجمونت Egmont او وليم William of Orange (الملقب بوليم الصامت)* . وكان الاخير من اصل المانى ، على الرغم من انه حصل على لقبه نسبة الى مقاطعة اورنج الصغيرة فى فرنسا ، وكانت له ممتلكات كثيرة فى الاراضى المنخفضة ، وارتبط بسكانها ارتباطا وثيقا . ولكن فيليب تخطى اجمونت ووليم ، وعين على حكم البلاد اخته غير الشرعية مارجريت بارما فى عام ١٥٥٩ ، وقد اعتمدت بدرجة كبيرة على اعوانها ومستشاريها من الاسبان . وحدث الاحتكاك بعد ذلك بسبب المسائل الدينية ، اذ اراد فيليب ان يقيم اسقفيات جديدة وان يسحق البروتستانتية عن طريق تنفيذ اجراءات استثنائية . واعلنت المقاطعات ان هذا يعتبر تعديا على امتيازاتهم ، ودارت مفاوضات كثيرة بهذا الشأن ، ولكن لم يمكن التوصل الى نتيجة . وصمم فيليب على ان يحسم الامر فأرسل فى عام ١٥٦٧ الدوق الفا Alva اعنف قواده على رأس جيش اسبانى كبير من المرتزقة الايطاليين والاسبان لسحق المعارضة وتنفيذ الاجراءات بالقوة . وبمجرد وصوله بدأ يضرب بعنف وشدة ، فأعدم اجمونت فى عام ١٥٦٨ اما وليم اورنج فأنقذ نفسه بالهرب . وكون الفا مجلسا اطلق عليه سكان الاراضى المنخفضة اسم مجلس الدم لمحاكمة جرائم الخيانة والهرطقة . وتم التغلب على كل المحاولات التى بذلت للقيام بالثورة . وفى عام ١٥٦٩ اصبحت البلاد فى قبضة الفا ، ولكن رغم ذلك حدثت ثورة عنيفة بعد ثلاث سنوات لم تتمكن اسبانيا من اخمادها .

كان الجهل والعنف الذى اتسمت به سياسة الفا المالية هما السبب الرئيسى لقيام الحركة الجديدة . ففرض فى عام ١٥٦٩ ضرائب هددت التجارة بالخراب وعارضه فى ذلك الوقت حتى اولئك الناس شديدى التعلق باسبانيا . وتأجل دفع الضرائب بعض الوقت ، ولكن كان لابد من جمعها فى

* لقب بذلك لانه اعتصم بالصمت .

عام ١٥٧٢ ولقد شجعت المساعدات الخارجية او مجرد وجود امل في الحصول عليها ، شجعت السكان المضطهدين على المخاطرة بكل شيء من اجل القيام بالثورة . وكانت الملكة اليزابيث صديقة لهم ، وحقدت فرنسا على اسبانيا بسبب الانتصارات التي احرزتها على حدودها الشمالية وفي ابريل عام ١٥٧٢ استولى الشحاذون من رجال البحر Sea Beggars * الهولنديين الذين تركوا البلاد بسبب سياسة الفا ، وكانوا قد أغاروا قبل ذلك على ثغري بريل Brill وفلاشنج Flushing في ساحل زيلند Zeeland واستولوا عليهما ، واعلنت مقاطعتا هولندا وزيلند الحرب على الفا ، وقامتا باستدعاء وليم اورانج لتولي الحكم . وهكذا بدأت حرب الاستقلال الحقيقية التي استمرت لمدة اربعين عاما واثبتت هذه الحرب بأنها خليج لانهاية له القت فيه اسبانيا بجيوشها واساطيلها وثروتها . ولم يقف على اسبانيا سوى المجهود الطويل المضني الذي بذلته لاخضاع الاراضي المنخفضة .

اتخذ اورانج مقره في بريدا Breda ، وانضمت اليه المقاطعات الشمالية (هولندا واوترخت وزيلند وفريسلند) واعترفت به حاكما عليها مع الاحتفاظ في نفس الوقت بولائها لملك اسبانيا . ثم انضمت اليها المقاطعات الثلاث الشمالية الشرقية وهي جلدرلاند وجرونجن واوفريسل ، ومن هذه المقاطعات السبع التي تكونت هولندا الحديثة . واستمرت المقاطعات الشمالية في كفاحها حتى توجت مجهوداتها بالنصر . وكان صراعا مدهشا ويمكننا ان نتلمس اسباب فشل اسبانيا . فلقد تشتت جهودها بسبب المشاريع العديدة ، وعانت من نقص رؤوس الاموال ، الامر الذي انتهى الى حدوث الافلاس التام . ولم تقم اسبانيا بالاضافة الى ذلك ، بأي مجهود فعلي للقضاء على قوتها او اضعافها .

* كانوا قد اضطروا الى ترك البلاد والاغارة على السفن الاسبانية

ولم يكن سكان الاراضى المنخفضة ندا للاسبان فى المعارك البرية ولكنهم استماتوا فى الحرب خلف حوائط مدنهم. وقاموا فى الاوقات الحرجة بقطع السدود امام مياه البحر لطرد العدو. ويجب ان تذكر الخدمات الجليلة التى قدمها وليم الصامت. ولم يكن وليم جنديا عظيما، ولكنه بث شجاعته فى قلوب مواطنيه، ونجحت دبلوماسيته الضعيفة فى الابقاء على نوع من التحالف بين العناصر الكثيرة المزعزعة فى الثورة، ولا تدين دولة بالفضل الى اى حاكم مثلما تدين هولندا الى " **وليم الصامت** ".

واستدعى الفا، وغادر الاراضى المنخفضة فى عام ١٥٧٣، وخلفه دون لويس Don Louis الذى احرز عدة انتصارات. ولكن لم تظهر اى بوادر لانهاء هذا الصراع. وادت وفاة دون لويس فى عام ١٥٧٦ دون ان يحرز نجاحا حاسما الى نتائج على قدر كبير من الاهمية فى تاريخ الحركة القومية فى الاراضى المنخفضة. فبعد وفاة الحاكم مباشرة قام الجنود الاسبان بالثورة بسبب تأخر مرتباتهم، ونهبوا مدينة انتورب وتلك هى الحادثة المعروفة باسم الغضبة الاسبانية Spanish Fury (١٥٧٦) ولقد سهلت هذه الاحداث على وليم اورانج مهمة توحيد المقاطعات الشمالية والجنوبية، واختفت بذلك الى حين هذه الناحية الدينية، وتناسى سكان الشمال والجنوب الاختلافات الدينية *، وطغت قضية الوحدة الكبرى على ما عداها من قضايا، وجمع اورانج الشمال والجنوب فى اتحاد اطلق عليه اسم سلام جنت The Pacification of Ghent فى نوفمبر عام ١٥٧٦ على اساس الاعتراف بسلطان فيليب الثانى فى مقابل طرد الجنود الاسبان

---

* كانت المقاطعات الشمالية بروتستانتية وتتحدث اللهجة الالمانية. وكانت المقاطعات الجنوبية تتحدث الفرنسية. ومن ذلك الوقت كانت المقاطعات الشمالية هى التى قامت وحدها بمقاومة الاسبان.

من البلاد ونشر التسامح الدينىوتأليف مجلس من المقاطعات يقـــوم بأعباء الحكومة .

وعين دون جون Don Jhon خلفا لدون لويس فى حكم الاراضــى المنخفضة وسلم بالمطالب التى اجمعت عليها البلاد وامتثل لوحــدة الشمال والجنوب ، فأكدتسوية جنت ووعد بسحب القوات الاسبانية .ولكــن الاتحاد بين الشمال والجنوببدأ يتصدع ، ولم يتمكن وليم اورانج مــن الاحتفاظ بالنصر الذى كسبه . فالخلافات الدينية عادت الى الظهور بيـن الشمالو الجنوب ،وروابط الاتحاد التى تمت كانت من الضعف بحيث لــم تقوعلى الصمود امام اولمحنة .ورغم محبة الشعب لوليم اورانج ، فقد كان نبلاء الجنوب ينظرون اليه بعين الحسد . وهكذا تجدد النزاع بيــن الشمال والجنوب ، وفيه استعان نبلاء الجنوب بالنمساويين ،واشترك دون جون فى ذلكالنزاع ، وتمكن منالانتصار فى معركة جمبلو Gembloux فىعام ١٥٧٨ . وهذهمعركة مهمة فىتاريخ الاراضى المنخفضة ،فبعدها استقر لكل منهولندا وبلجيكا وجودهما السياسى المنفصل .

وفى عام١٥٧٨ توفى دونجون وخلفه دوق بارما (ابن مرجريت بارما) وقد سار بارماعلى سياسة سلفهمحدثا الفرقة بين الشمال والجنوب . واسف وليم اورانج لذلك واقتصر التأييد الذىحصل عليه على المقاطعات الشمالية البروتستانتية . وفى عام ١٥٧٩ كونت تلكالمقاطعات الشمالية السبع اتحادا يعرف باسم اتحاداوترخت The Union fo Utrecht الذى جمع هذه المقاطعات فى شكل حكومة فيدرالية مفككة وواصلــت الحرب ضد اسبانيا . وبفضل سياسة الدوق بارما تكون اتحـــاد اراش Union of Arrass من المقاطعات الجنوبية للدفاع عـــن الكاثوليكية . هكذا انقسمت المقاطعات الى قسمين منفصلين لم يمكن

التوفيق بتاتا بين مصالحهما بعد ذلك.

استمر اتحاد اوترخت يعترف بالسلطة الرسمية لفيليب ،ولكن فيليب قام بطرد اورانج خارج القانون واهدر دمه .وعندئذ قررت المقاطعات الشمالية الانفصال عن اسبانيا فى لاهاى عام ١٥٨١. ولما كانت تلك المقاطعات حتى هذا الوقت لاتفكر فى الاستقلال الكامل وتخشى من انتقام اسبانيا فقد حاول اورانج ان يستميل الى مساعدته فرنسا . ونجحت مساعيه عندما قبل الدوق انجوشقيق ملك فرنسا هنرى الثالث ان يحكم فى المقاطعات الشمالية فى عام ١٥٨٢. ولكن هذه التجربة باءت بالفشل لأن انجو اراد انشاء حكومة مستقلة لنفسه ،فاحتل جنوده فجأة عددا من المدن،وأوقعوا بالاهالى الذين قاوموهم فى انتورب - مقر وليم اورانج - مقتلة عظيمة حتى صارت تعرف هذه الفظائع باسم الغضب الفرنسى The French Fury على غرار الغضب الاسبانى - وذلك فى يناير عام ١٥٨٣. وامام مقاومة البلاد اضطر انجو الى مغادرة الاراضى المنخفضة - ومات فى فرنسا عام ١٥٨٤، اما انجلترا فكانت صديقة للمقاطعات وعمل الانجليز كمتطوعين فى القوات الهولندية ،ولكن انجلترا لم تقدم الى المقاطعات مساعدة صريحة اثناء حياة وليم اورانج .

ولقد حرمت المقاطعات من مساعدة وليم اورانج الفعالة ،بعد ان اهدر الملك دمه مباشرة. اذ شجعت المكافأة المالية التى قدمها فيليب كثيرا من السفاحين بالتربص لاغتياله ،وفعلا تم اغتياله فى عام ١٥٨٤ وبدا كما لو ان اغتيال وليم اورانج سيقضى على هدف الاراضى المنخفضة . فأخذ بارما انتورب ،وقدمت الملكة اليزابيث بعض المساعدات فأرسلت جيشا بقيادة الايرل ليستر. ولكن التغير الذى حدث فى الموقف الاوروبى قد احدث نتائج هامة . فلقد أثرت هزيمة الارمادا

الاسبانية على ايدى الانجليز فى عام ١٥٨٨ على قوة اسبانيا وعظمتها وبعد ذلك تولى العرش فى فرنسا هنرى نافار البروتستانتى وعدو اسبانيا اللدود . وهكذا تحالفت انجلترا وهولندا وفرنسا ضد اسبانيا وتبدد الامل بالنسبة لاسبانيا فى الحصول على النصر . وتولى موريس بن وليم الصامت قيادة الجيوش الهولندية ، واظهر مهارة حربية كبيرة تفوق مهارة والده . واخيرا هزم الجيش الهولندى الجيوش الاسبانية عند ترنهوت Turnhout فى عام ١٥٩٧ . واستمرت الحرب لعدة سنوات ومع ان اسبانيا ظلت تناضل فترة الا ان قوتها لم تلبث ان تضعضعت بسبب هذا الكفاح الطويل ، وافلست خزائنها وتحملت خسارة كبيرة وخصوصا عندما حطم الهولنديون اسطولها فى البحر المتوسط فى عام ١٦٠٧ . ولذلك اضطرت اسبانيا الى قبول الهدنة فى عام ١٦٠٩ على اساس الاعتراف بهولندا واغلاق نهر الشلدت لتعطيل تجارة الجزء الجنوبى ، ولتعطيل منافسة انتورب . ثم تركت اسبانيا للهولنديين حرية التجارة مع املاكها فى الهند الغربية ، وامتنعت منذ ذلك الحين عن التدخل لنجدة الكاثوليكية فى هولندا . وفى معاهدة وستفاليا صار الاعتراف رسميا باستقلال هولندا فى عام ١٦٤٨ .

الفصل التاسع

حرب الثلاثين عاما

١٦١٨ - ١٦٤٨

بدأ الصراع الديني في القرن السادس عشر بعد ظهور حركة الاصلاح الديني بين الكاثوليكية والبروتستانتية ولما انقسمت البروتستانتية الى مذاهب زادت حدة الصراع بينها وبين الكاثوليكية . وما ان انتهى القرن السادس عشر حتى كان كل مذهب قد استقر فيما انتشر فيه من ساحة اوروبا ، ولكن ذلك لم يكن يعني دعم الثقة بين الكاثوليك والبروتستانت اذا كانت نيران الحقد والقلق لاتزال كامنة بين الطرفين ويتهيأ لتلاحم جديد عند سنوح الفرصة .

وهكذا بدأ القرن السابع عشر وفي طياته نظرة كان من شأنها انهاء هذا الصراع وانهاء اعتبار الدين عاملا ذا اهمية في تشكيل او توجيه سياسة الدول الخارجية بفضل عودة الاستقرار والتوازن في داخل الدولة ذاتها عندما اختفت الانقسامات الدينية الداخلية . حتى اصبح في استطاعتها العمل على تحقيق اغراضها من غيران تبينها على دعوى العقيدة والمذاهب . وبذلك كان عمرما ورثه هذا القرن من سابقه من اتجاه نحو استتباع الصراع الديني قصيرا بوجود نقيضه الجديد القائم على الرغبة في انهاء هذا الصراع والقضاء على كل انقسام ، يصيب كيان الدولة السياسي .

ولذلك فما كاد طرفا هذه الثنائية يلتحما في مطلع القرن السابع عشر في صورة صراع ديني حتى انقلب الصراع من حرب دينية الى حرب سياسية لخدمة المصالح القومية ، ومن ثم قضى نهائيا على هذا اللون من الصراع . ولقد اخذت اصول الصراع الديني تنمو وتنتشري بعد عقد

صلح اوجزبرج فى عام ١٥٥٥ الذى حاول التوفيق بين مطالب الكاثوليك والبروتستانت على السواء. ولكن صلح اوجزبرج لم يكن من القدرة على حسم النزاع الدينى بين المذاهب الجديدة من ناحية، وبين الكاثوليكية من ناحية وكان من اهم اسباب اخفاق صلح اوجزبرج ما جاء فيه بشأن المحافظة على املاك الكنيسة الكاثوليكية فى المانيا، ومنع السلطة الزمنية والعلمانية عموما من الاستيلاء عليها وحرمان الكنيسة منها. ذلك أن املاك الكنيسة الكاثوليكية سرعان ما صارت بعد هذا الصلح موضع اطماع البروتستانتية المنتصرة. وكان هذا الاعتداء من جانب البروتستانت على املاك الكنيسة الكاثوليكية من اسباب التذمر وغضب اتباع البابوية المستمر فى المانيا.

وبالاضافة الى ذلك، لم يتح صلح اوجزبرج الفرصة للكلفينية التى انتشرت فى اوروبا وفى المانيا، فلم يعترف بهذه العقيدة الجديدة او بمبدأ التسامح الدينى عموما. وعلى ذلك استمرت الكلفينية فى المانيا تفتقر الى سند قانونى تستند اليه. وبالتالى اصبحت معرضة للاخطار التى هددتها فى وجودها نفسها.

ورغم هذا القصور والضعف فى صلح اوجزبرج، نعمت المانيا بفترة سلام طويلة، وربما يرجع السبب الى حسد الجماعات الثلاث: الكاثوليك واللوثريين والكلفينيين بعضهم لبعض والخوف من ان يؤدى الاصطدام بينهم الى اوخم العواقب. وقد كانت هذه الهدنة الطويلة بعد صلح اوجزبرج فى صالح البروتستانت، حيث استطاع اللوثريين والكلفينيين العمل على نشر مذهبهم دون مواجهة معارضة حقيقية حتى جاء الوقت الذى اصبحت فيه المانيا الشمالية بروتستانتية، بينما تسربت العقائد الى الجنوب، الى النمسا وبفاريا وكانتا تعتبران معاقل منيعة للكاثوليكية

غير ان البروتستانت لم يستطيعوا الاتفاق فيما بينهم ،بل وعجزوا عن تنظيم صفوفهم. اما الكاثوليك فلم يكن منتظرا ان يظلوا مستكينين مدة طويلة سيما بعد انتعاش كنيستهم. بل كان نجاح مجلس ترنت محددا بداية الرغبة ، التى ظهرت جديا من جانب الكاثوليك بزعامة الجزويت اليسوعيين ، لارجاع المانيا بأسرها الى احضان الكاثوليكية . وتمكنت حركة الجزويت من استرداد الكثيرين من انصارها ممن تحولوا الى المذهب البروتستنتى . وهكذا اصبحت حركة الجزويت فى نظر البروتستانت حركة خطيرة هدفها القضاء على المذهب الجديد.

وكان نشاط الجزويت اهم ما تميز به عهد الامبراطور رودلف الثانى Rudolph II (١٥٧٦ ـ ١٦١٢) . وكان رودلف قد تربى فى بلاط فيليب الثانى وتشبع بالافكار الاسبانية فى الدين والسياسة ،فصار يهتم كثيرا بعظمته الشخصية ولا يكن اى احترام لمعتقدات رعاياه الدينية او لمصالحهم السياسية . وقام رودولف بطرد المبشرين البروتستانت من فينا واستطاع الجزويت فى عهده ان ينفذوا الى كل بيت من بيوت الاسر الكاثوليكية . وجعلوا امركز نشاطهم الرئيسى فى فينا وميونخ يوسعون منه دائرة نشاطهم تدريجيا ،فى مثابرة ونشاط. فأسسوا المدارس وبعثوا بمبشريهم الى كل مكان، ونشطوا فى تدعيم الكاثوليكية . وفعلا امكن اعادة الكثيرين الى حظيرة الكاثوليكية بعد ان نبذوا البروتستانتية .

وكان نجاح الجزويت فى بداية القرن السابع عشر كبيرا لدرجة ان وجد البروتستانت انه من الضرورى درء هذ الخطر فأسسوا فى عام ١٦٠٨ الاتحاد البروتستانتى The Protestant Union من الامراء البروتستانت وبعض المدن للدفاع عن مصالحهم المشتركة . ورغم ان ذلك

الاتحاد لم يضم كل اللوثريين الالمان، فقد اسرع الكاثوليك فى العام التالى بتكوين عصبة كاثوليكية The Catholic League حصلت على تأييد الامبراطور ومنذ ذلك الوقت انقسمت المانيا الى معسكرين كبيرين، وسعى كل فريق الى تنظيم قواته الحربية وموارده المالية وتكوين حلفاء من الخارج يؤيدونه .وسهل مهمة الكاثوليك انقسام البروتستانت الى معسكرين متنافرين (كلفينيين ولوثريين) ، ولم يعضد البروتستانت تعضيدا كاملا رئيس الاتحاد البروتستانتى وهو فريدريك الخامس ناخب (كونت) البلاتاين Palatine وكان كلفينيا. اما الكاثوليك فكانوا اقوى تنظيما برئاسة دوق بفاريا ،وكان صاحب مقدرة وكفاءة .

وفى بوهيميا بدأت حرب الثلاثين عاما ،وكانت امتدادا للثورة التى قامت فى بوهيميا ضد الامبراطور رودولف الثانى عندما أراد تأسيس حكومة مركزية قوية فى المانيا .وكانت وسيلته هى القضاء على الانقسام الدينى حتى يمكن القضاء على الانقسام السياسى وانهاء الخلافات الدينية. وقدحاول رودولف ان يفعل ذلك فى بوهيميا التى كانت من املاك الهابسبرج. فأدى ذلك الى الاصطدام مع العناصر الدينية ومن ثم انبعث النذير الاول لحرب اوروبية شاملة وكان اهل بوهيميا من السلاف والتشيك والجرمان ،وكانت البروتستانتية اللوثرية قد انتشرت فيها. واتجه الامبراطور ينفذ خطته فأساء ذلك من بعد اخوه الامبراطور ماتياس (١٦١٢-١٦١٩) معاملتهم ،واتخذت الوسائل الكفيلة للقضاء عليهم ، على اعتبار ان القضاء على كل اختلاف دينى من شأنه ان يدعم سلطان الامبراطورية . فلما ضاقت السبل ازاء ذلك بالبروتستانت ،قاموا بالثورة عام ١٦١٨ فهاجموا مقر الحكومة فى قلعة براج ،وانقضوا على الاعضاء الكاثوليك وانصار الامبراطور والقوا بهم من النافذة ثم شكلوا حكومة جديدة من اعوانهم وفى يوم ٢٦ اغسطس عام ١٦١٩ وهو اليوم

الذى انتخب فيه فرديناند الثانى امبراطورا (١٦١٩-١٦٣٨) بعدوفاة ماتياس اعلن اهل بوهيميا خلعه من حكمهم، واقاموا مكانه ملكا على بوهيميا، رئيس الاتحاد البروتستنتى فريدريك الخامس، وبهذا انتقلت المقاومة من النضال المحدود الى ثورة اهلية، ومن ثم اخذ مجراها ينحو نحو حرب اوروبية شاملة .

وبدأت حرب الثلاثين عاما، اذا على شكل نضال محلى، ثم اخذ يتسع نطاقها حتى شملت اوروبا كلها، فقد امتدت من بوهيميا الى المانيا الجنوبية ثم الى المانيا الشمالية فجذبت اليها ايضا الدول المجاورة البروتستانتية . ثم اخذت دولة بعد اخرى تخوض غمار الحرب، حتى غدت هذه الحرب فى النهاية حربا غير المانية . وبهذا اتخذ الامر فى بادئه مظهر نضال بين البروتستانتية والكاثوليكية ثم انتهى اخيرا الى نزاع بين الاسرتين الكبيرتين الهابسبرج الالمانية والبربون الفرنسية من اجل السيطرة الاوروبية . ويمكننا ان نقسم الادوار التى مرت بها الحرب الى اربع ادوار نجملها فيمايلى:

١ — الدور البوهيمى (١٦١٨ — ١٦٢٣)

فى اوائل الدور الاول من ادوار الحرب قاد البوهيميين الكونت ثورن Thurn والكونت مانسفيلد Mansfeld واحرز الثوار بعض الانتصارات على قوات الامبراطور ماتياس وبعد انتخاب فرديناند الثانى امبراطورا فى عام ١٦١٩ وكان كاثوليكيا متعصبا، عمل على اخضاع بوهيميا . ونشطت العصبة الكاثوليكية وعلى رأسها مكمليان، ناخب بفاريا لنصرة قضية الهابسبرج .

وانهزم البروتستانت فى موقعة التل الابيض فى نوفمبر عام ١٦٢٠، امام قائد المعسكر الكاثوليكى تيلى Tilly وفتحت بلاد فردريك ملك بوهيميا

واضطر الى الفرار وكادت الحرب تنتهي عند هذا الحد، ولكن الامبراطور انزل انواع الاضطهاد باهل بوهيميا، واعلن خلع فردريك ثم جرده من املاكه ليأخذها مكسمليان. وتحولت بوهيميا من منطقة بروتستانتية الى كاثوليكية وازداد نفوذ الكاثوليك في المانيا .

ولقد افزع البروتستانت في اوروبا هزيمة بروتستانت المانيا وخصوصا بعد تجريد فردريك الخامس (رئيس الاتحاد البروتستانتي) من املاكه وكان في مقدمة المتعاطفين مع فردريك جيمس الاول ملك انجلترا . وهو الذي كان قد زوج ابنته اليزابيث من فردريك الخامس ناخب البلاتاين. لكن جيمس لم يرد التدخل في الحرب حتى لا يغضب اسبانيا الكاثوليكية وكان حريصا على اقامة تفاهم بين اكبر دولة بروتستانتية وهي انجلترا واكبر دولة كاثوليكية وهي اسبانيا من اجل تحقيق السلام في اوروبا ولذلك فضل جيمس حل المسألة سلميا وبالمفاوضات . واخذ يرجو اسبانيا بالتدخل لانهاء هذا النزاع في المانيا لصالح صهره ، ولكن لم تنجح هذه المساعي ومن ناحية اخرى ادى الخطر المحدق بالبروتستانت واقتراب الجيوش الكاثوليكية من الشمال البروتستانتي الى انضمام ملك الدانمرك كرستيان الرابع . وهنا يبدأ الدور الثاني من ادوار الحرب .

٢ - الدور الدانمركي (١٦٢٥ - ١٦٢٩) :

وجد الملك كرستيان الرابع نفسه مهتما اكثر من غيره بهذه الاحداث من وجهة النظر الدينية والسياسية معا . فضلا عن كونه ملك الدانمرك فقد كان دوقا لهولشتين Holestein ايضا، وهذا يعني انه كان اميرا من امراء الامبراطورية . واستصار الكاثوليكية كان تهديدا ايضا لمصالح عائلته . وكان من الممكن ان يتحالف ملكا السويد والنرويج لدرء الخطر المشترك، ولكن انشغال جوستاف ، ملك السويد ، في بولندا ، بالاضافة

الى عوامل الحسد بينهما حالت دون ذلك. وفي عام ١٦٢٦ كان كريستيان مستعدا للتدخل في المانيا تساعده اموال انجليزية ويخدم في جيشه بعض الانجليز .

وبدت المصاعب امام الامبراطور في اول الامر. فكانت هناك جيوش الملك الدانمركي ومانسفيلد وامير برنسويك Brunswich وجابور Gabor. وامام هؤلاء لم يكن هناك سوى جيش العصبة الكاثوليكية بقيادة تيلي، كما كانت خزانة الامبراطور خاوية . ولكن ظهر في الجانب الكاثوليكي قائد اعظم من تيلي هو فلنشتين Wallenstein وهو من اصل بروتستانتي وبوهيمي من النبلاء. غير فلنشتين مذهبه وانضم الى الامبراطور، فكان اظهر قائد ظهر في الامبراطورية . وكان جيشه مكونا من الجنود المرتزقة ، وعمل على حفظ جيشه ببذل العطايا ، وانزل العقاب بالمقصرين. ولذا انهزمت امام قواته جيوش الدانمرك البروتستانت بفضل سمعة فلنشتين الكبيرة وقدرته وكفاءته والتفاف الجنود حوله وتفانيهم في خدمته .

ولقد انضم فلنشتين الى المعسكر الكاثوليكي لتحقيق اهداف معينة ليس اهمها مساعدة الامبراطور، وانما كان يسعى الى القضاء على سلطة الحكومات المحلية في الامارات الالمانية المبعثرة وتوحيدها ، توطئة لاقامة الدولة الالمانية القوية الموحدة ، على راسها الامبراطور من الناحية الاسمية ، بينما تخضع لسلطانه الحقيقي من الناحية الفعلية . وهذا الهدف اكثر من غيره ، دفعه الى خوض المعارك بكل قوة وعنف ، لا لتحقيق النصر للكاثوليكية بقدر ما كان لتنفيذ مآربه الشخصية .

انتصر الكاثوليك على البروتستانت في موقعتين الاولى انتصر فيها القائد الكاثوليكي تيلي على جيش ملك الدانمرك في موقعة لوتر Lutter (اغسطس ١٦٢٦) والثانية وهي الاهم التي احرزتها قوات الامبراطور بقيادة

فلنشتين على الجيش الدانمركي في موقعة كوزل Cosel واحتلت على اثرها مكلنبرج، وخربت كل من اقليمي شلزفيج وهولشتين. ولم يكن ينقص الامبراطور سوى اسطول لاتمام احتلال الدانمرك. وفي النهاية اضطر كرستيان الرابع الى عقد صلح لوبيك Luebeck عام ١٦٢٩، وبه استرجع كرستيان اراضيه المحتلة ، ولكنه في مقابل ذلك تخلى عن اطماعه ووعد بأن يكف يده عن التدخل في الشئون الالمانية.

وبهذا تنتصر الكاثوليكية في المانيا، ويصبح الامبراطور فرديننند الثاني سيد المانيا الى حد كبير. وبات متوقعا ان يستغل الامبراطور هذا النجاح لصالح الكاثوليك. وفعلا اصدر في مارس عام ١٦٢٩ مرسوما اطلق عليه اسم مرسوم استرجاع املاك الكنيسة Edict of Restirution ويقضي هذا المرسوم بأن يتنازل البروتستانت عن املاك الكنيسة الكاثوليكية التي اخذوها من قبل بمقتضى معاهدة بساو Passau عام ١٥٥٢ وصلح اوجزبرج عام ١٥٥٥. وقد احدث هذا المرسوم ضجة كبيرة الى الحد الذي جعل الخلاف يدب بين الكاثوليك ومكسمليان وفلنشتين ، وبين الاخير والامبراطور الذي كان يخاف من تفوق فلنشتين. وكان المرسوم يتعارض تماما مع خطة فلنشتين الذي اراد دائما ان يخضع المسائل الدينية لهدفه الاعظم، وهو توطيد السيطرة الامبراطورية، بينما اثار المرسوم النزعات الدينية من جديد . ومما لاشك فيه ان انقسام المعسكر الكاثوليكي على نفسه سيكون من صالح البروتستانت ، الذين سيعملون جاهدين على الاستفادة من هذه الظروف ولاسيما جوستاف ادولف ملك السويد.

واتجهت الامور في غير صالح فلنشتين فتذمر النبلاء الالمان منه ، وتخوف الامبراطور من نفوذه وقيام الجيش الذي تحت قيادته والمكلف

باسترجاع املاك الكنيسة باعمال السلب والنهب التي اغضبت الالمان من الامبراطور، وفوق هذا سعى فرنسا الدائب لاثارة كل الاطراف الساخطة على فلنشتين ضده. كل هذه العوامل قربت من نهايته. وفى يوليو عام ١٦٣٠ طلب الحلف الكاثوليكى برئاسة مكسمليان دوق بافاريا فى المجلس الامبراطورى (الدايت Diet) فى راتزبون Ratisbon عزل فلنشتين من قيادة الجيش وقد ارسل ريشيلييه وزير لويس الثالث عشر الفرنسى ممثله بيير جوزيف الذى آخذ يلعب دورا خطيرا فى السياسة الالمانية. ورغم ان ريشيلييه كان كاثوليكيا وكاردينالا، فهو لم يتردد فى تأييد قضية البروتستانت حتى يمنع القوة الاسبانية والنمساوية من النمو ويحل قوة الملكية الفرنسية بدلا منها. ولقد اخذ هذا المبعوث يثير الخلاف ضد فلنشتين، وبناء عليه طلب الامراء من الامبراطور عزله وتم لهم ما ارادوا. وفى الوقت الذى فقد فيه الامبراطور اكبر نصير له واكبر قائد عنده، عمل ريشيلييه على اقحام جوستافوس ادولف ملك السويد، فى النزاع ضد الامبراطورية وعلى تأليب امراء جنوب المانيا ضد الامبراطور نفسه. فحث ريشيلييه ملك السويد على تبنى قضية البروتستانت

٣ - الدور السويدى (١٦٣٠ - ١٦٣٥):

كان جوستاف متحمسا للبروتستانتية ، واستجاب لدعوة البروتستانتية الالمانية عندما دعته. ولكى هناك اسباب اخرى سياسية كانت مهمة جدا فلقد كانت السويد ترمى الى السيطرة على بحر البلطيق. وكذلك المسألة الاقتصادية كان لها اعتبار فى سياسة جوستافوس. ولكن لا ريب ان الدافع الديني لم يكن اهم الدوافع فهو من اهمها ،والسويد كانت دولة صغيرة وكان جيرانها مثل الروسيا والنرويج وبولندا اعداء لها ،ومواردها محدودة ،ولكن فى عهد جوستاف وصلت الى مصاف الدول القوية واصبح لها

جيش قوى منظم. ومع ذلك فسوف لايكون لهذه الدولة قيمة اذا نجح الكاثوليك فى ارجاع سيطرتهم على كل المانيا وعبروا البلطيق وغزوا السويد. ولذا يسرع الى غزو المانيا قبل ان تقوم هى بغزو السويد .

نزلت القوات السويدية الى سواحل بوميرانيا فى عام ١٦٣٠. وفى العام التالى استولى تيلى على مجدبرج Magdebury وتقوم قوات العصبة الكاثوليكية بعمليات الذبح والنهب ، مما اثار البروتستانت الذين كانوا قد تخلفوا عن نصرة اخوانهم. وتحالف امير ساكسونى مع السويد وعبرت قواته نهر الب Elbe . وبذلك قوى الجانب البروتستانتى وانتصر جوستاف ، فى معركة ليبزج Leipzig فى سبتمبر عام ١٦٣١ ويدخل الساكسون بوهيميا ويحتلون براج. ولذا يضطر الامبراطور الى الاستعانة بفلنشتين، ويعطيه سلطة مطلقة وحرية تامة فى العمل. واستطاع فلنشتين استعادة براج وطرد الساكسون من بوهيميا . ولكن جوستافوس استطاع رغم ذلك اكتساح وسط اوروبا حتى الدانوب والراين . وفى معركة لوتزن Lutzen (نوفمبر ١٦٣٢) ينسحب فلنشتين ، ولكن يفقد السويديون ملكهم فى تلك المعركة ، وبذلك لم يستفيدوا تماما من انتصارهم .

ولم تنته الحرب بموت جوستافوس ، ولو عاش لربما جعل من شمال اوروبا اتحادا بروتستانتيا يضم شمال المانيا والدانمرك واسكنديناوه وموت جستافوس لم يجعل الامبراطور فى حاجة الى فلنشتين الذى ازدادزهوا وغرورا بنفسه ، وربما فكر فلنشتين فى ان يلجأ الامبراطور الى الاغتيال للتخلص من خصمه ، ويذهب فلنشتين ضحية على يد بعض الضباط الاسكتلنديين والايرلنديين المستأجرين فى عام ١٦٣٤.

وبذا اصبح جيش فلنشتين هو جيش الامبراطور على ان قوة السويد

الحربية قد تضعضعت بموت جوستافوس، ولذا لم تجد قوات الامبراطورية صعوبة فى الانتصار على قوات البروتستانت فى نوردلنجن Nordlingen فى ٦ سبتمبر ١٦٣٤. وعلى ذلك انقذت الكاثوليكية والامبراطورية بصفة نهائية .

٤ - الدور السويدى - الفرنسى (١٦٣٥ - ١٦٤٨)

لم يكن انتصار الكاثوليك فى المانيا فى صالح فرنسا بأى حال فاذا كان ريشيلييه الوزير الفرنسى بيده كل شىء، والذى اتبع اولا الطرق الدبلوماسية للوصول الى اغراضه، ثم اتبع طريقة تعضيد اعداء الكاثوليكية بالمال، بل وامداد الجنود البروتستانت بالمال، قد اتبع كل هذا فى ايام جوستافوس ملك السويد فانه قد ايقن بأن تلك الوسائل لم تعد مجدية، وان التدخل الحربى هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على الكاثوليك وبالتالى على اسرة الهابسبرج. فأعلن الحرب على اسبانيا عام ١٦٣٥ حليفة الامبراطور وبذلك دخلت فرنسا الحرب ضد الامبراطور. وهكذا تدخل الحرب دورها الرابع والاخير ومنذ ذلك الحين لم تعد الحرب مشكلة المانية بل صارت مجرد نزاع بين فرنسا والسويد من جانب، ضد النمسا واسبانيا من جانب آخر، ولكن على ارض المانية .

القى العبء فى هذا الدور على كاهل فرنسا التى وجد فيها البروتستانت الالمان بديلا عن السويد وملكها جوستافوس. على ان الامراء الالمان كانوا يخشون من تدخل كل من السويد وفرنسا على السواء، فلم يكن تدخلها مرضيا عنه من قبلهم. فكلا الدولتين قد اتخذت من المسألة الدينية ستارا لتحقيق اطماعها السياسية والاقتصادية على حساب المانيا ولهذا وجد جون جورج ناخب سكسونيا ان افضل السبل للقضاء على تدخل الدول الاوروبية هو الدخول فى مفاوضات مع الامبراطور فردنند الثانى

للوصول الى اتفاق يرضي الطرفين الكاثوليكى والبروتستانتى بخصوص تنفيذ مرسوم استرجاع املاك الكنيسة الكاثوليكية .

وبالفعل تم الصلح بين الطرفين فى براج فى مايو ١٦٣٥. ونص الصلح على تحديد عام ١٦٢٧ تاريخا لاسترجاع الاملاك الكنسية التى اخذت بعد هذه السنة وليس عام ١٥٥٢ كما حدده المرسوم المشار اليه . ومعنى ذلك ان الاراضى التى استولى عليها البروتستانت وتكون فى حوزتهم فى يوم ١٢ نوفمبر عام ١٦٢٧ تبقى فى حوزتهم مدة اربعين عاما ، سواء أكان استيلاؤهم عليها قبل صلح اوجزبرج عام ١٥٥٥، او بعده . وفى خلال مدة الاربعين سنة يتم الاتفاق بشأنها بين الطرفين بالطرق الودية . وحذت الامارات البروتستانتية الاخرى حذو سكسونيا وانضمت الى صلح براج ، فيما عدا امارات بادن وهسكاسل وفرتمبرج التى بقيت الى جانب السويد .

وكان من الممكن ان تستقر الامور فى المانيا بعد ذلك، لولا تدخل فرنسا لاسباب سياسية لتثير الحرب من جديد ، لا لأهداف دينية ،ولكن لأهداف سياسية بحتة . وفى اول الامر لم تكن الحرب فى صالح الفرنسيين ،واضطرت قواتها الى الارتداد داخل الاراضى الفرنسية امام ضغط قوات الامبراطور ولكن موجة الانتصار هذه لم تلبث ان تلاشت بفضل القادة الفرنسيين العظام مثل تورين Turenne وكوندى Conde وفى اثناء الحرب مات ريشيلييه وخلفه مازاران Nasarin واستمرت الحرب فترة فى عهده ،ولكن مفاوضات الصلح كانت مستمرة اثناء الحرب . فقد كان الامبراطور يتفاوض فى اوسابروك O sabruck مع السويد ومع الامارات البروتستنتية ،بينما يتفاوض من جانب آخر فى مونستر Munster مع الفرنسيين والكاثوليك من اجل الوصول الى الصلح . وفى النهاية تم توقيع

صلح فستفاليا Westphalia في ٢٤ اكتوبر عام ١٦٤٨،وهو صلح حملت معالمه الاساسية اقرار الاوضاع فى الامبراطورية حتى حلها عام ١٨٠٦.

صلح فستفاليا (١٦٤٨)

ولصلح فستفاليا اهمية خاصة فى تاريخ اوروبا الحديث ،فاصبح من الناحية العملية الاساس الذى تستند عليه الدول فى اوروبا فى علاقاتها القانونية من وقت توقيعه حتى قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩،وقد وضع هذا الصلح حدا للصراع الدامى الذى اجتاح اوروبا ثلاثين عاما. وقد تناول الصلح المسائل الدينية المختلف عليها،وكذلك تحقيق اطماع كل من فرنسا والسويد فى بعض الاراضى الاوروبية. هذا فضلا عن التعديلات السياسية التى تمت فى المانيا. وفيما يلى بيان كل ناحية من هذه النواحى :

اولا – التسوية الدينية :

١ – اعترف صلح فستفاليا بماورد من قبل فى صلح بساو عام ١٥٥٢ وصلح اوجزبرج عام ١٥٥٥ بشأن منح كل امير الحق فى اختيار المذهب الدينى الذى يريده ، اى ان حرية الاعتقاد قد منحت للامير وليس للافراد .

٢– اعترف صلح فستفاليا رسميا بمذهب كلفن،وبذلك تمتع انصار كلفن بالتسامح الدينى الذى منح لانصار مارتن لوثر من قبل . وبذلك تساوى البروتستانت من اللوثريين الكلفينيين من التمتع بمبدأ التسامح الدينى .

٣ – انهاء النزاع بشأن استرجاع املاك الكنيسة الكاثوليكية ،فاتفق الطرفان الكاثوليكى والبروتستانتى على تحديد يوم اول يناير عام ١٦٤٢ كاساس للفصل فى الاملاك التى تؤول الى كل من البروتستانت والكاثوليك ، والاملاك الموجودة بين يدى كل الطرفين حتى ذلك

التاريخ تعتبر ملكا له .وبذلك الغيت سنة ١٦٢٧ كأساس للتسوية لماجاء فى صلح براج فى مايو عام ١٦٣٥. وترتب على التسوية الجديدة انتركزت الاملاك البروتستانتية فى الشمال ، والاملاك الكاثوليكية فى الجنوب .

٤ - صارت الولايات البروتستانتية على قدم المساواة مع الولايات الكاثوليكية فى كل شؤون الامبراطورية ،وصار المجلس الامبراطورى Reichskammergericht الذى استمر ليكون بمثابة مجلس لفض المنازعات، يتكون من اعضاء من الكاثوليك وآخرين مساوين لهم فى العدد من البروتستانت.

ثانيا - التسوية السياسية :

تحكمت السويد فى اجزاء واسعة من شمال المانيا ،ولاسيما مصبات انهار الاودر والالب والوزر. وحصلت على الاسقفيات البروتستانتية فى بريمن Bremen وفردين Verden ، واحتفظت بالجزء الاكبر من بوميرانيا الغربية .وبذلك حققت السويد السيادة فى بحر البلطيق، وهو الهدف الذى كان يسعى اليه الملك جوستافوس .وعلاوة على ذلك اصبحت السويد عضوا فى الدايت الالمانى ولها ثلاث اصوات . وبذلك اصبحت السويد من الدول الاوروبية الكبرى ولكن لفقر مواردها لم تتمكن طويلا من الاحتفاظ بذلك المركز .

اما عن فرنسا فقد استولت على الالزاس النمساوية ماعدا استراسبورج الحرة (عاصمة الالزاس) . كما ضمت بعض المناطق الالمانية ،فامتلكت اسقفيات متز Metz (عاصمة اللورين) وتول Toul وفردون Verdun وفى ايطاليا فقد استولت فرنسا على قلعة بنيرولو Pinerolo فى مملكة بيدمونت .

ثالثا – التعديلات السياسية فى المانيا :

اضعف صلح فستفاليا سلطة الامبراطور نهائيا ،واصبح الامراء الالمان عموما على قدر كبير من القوة والاستقلال، واستقلت الامارات البروتستانتية استقلالا تاما وان ظلت هناك بعض الصلات الرسمية والشكلية بالامبراطورية وهكذا قضى على امل الامبراطور فى ايجاد اتحاد المانى .

وفى نفس الوقت نجد ان التعويضات التى منحت لناخب براندنبرج قد جعلت منه اقوى الامراء على الاطلاق فى المانيا . فاستيلائه على مجدبرج كتعويض عن بوميرانيا الغربية التى اخذتها السويد وكذلك مندن Minden وهلبرشتات Halberstadt بالاضافة الى تمتعه بوراثة حكم بوميرانيا الشرقية ، جعله يسيطر على اجزاء واسعة من المانيا مما جعله دون شك الرجل الثانى فى المانيا بعد الامبراطور . ويمهد هذا لبراندنبرج الى ان تصبح اقوى الملكيات فى المانيا تحت اسم مملكة بروسيا التى ستأخذ على عاتقها ايجاد الوحدة الالمانية التى عجز عن تحقيقها الامبراطور. كذلك اعترف هذا الصلح بانفصال سويسرا عن الامبراطورية ،كما اعترفت اسبانيا باستقلال هولندا .

وعلى هذا النحو يميز صلح فستفاليا نهاية للاحلام التى راودت مكسمليان الاول وشارل الخامس وفرديننند الثاني بخصوص اصلاح وتوحيد الامبراطورية . وبالتالى اصبحت الامبراطورية اتحادا مفككا من ولايات كثيرة العدد،ولم تعد الامبراطورية ، رغم بقائها حتى اوائل القرن التاسع عشر كما اشرنا ، لم تعد زعيمة العالم المسيحى ولو اسميا .

وعلى العموم ، فقد انهى صلح فستفاليا احدى الفترات الحاسمة فى التاريخ الاوروبى الحديث ،وهى فترة الاصلاح الدينى والاصلاح المضاد.ورغم ان الاحداث الدينية استمرت تلعب دورا هاما فى تاريخ اوروبا كثيرا

مثل فرنسا وانجلترا واملاك الهابسبرج، فان دول اوروبا والامارات بها احتفظت بعقيدتها كما صارت عليه فى عام ١٦٤٨. وهكذا نمت فكرة التسامح الدينى وعمت اوروبا. فبعد ان كان هذا المبدأ قاصرا على الامراء والهيئات والطبقات العليا، بدأ يأخذ طريقه الى الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا. وانقسمت اوروبا اذا، الى معسكرين دينيين: معسكر البروتستانتية ومعسكر الكاثوليكية. وقد اثرت تعاليم المعسكرين فى نظام الحكم لدول اوروبا. فالكاثوليكية عملت على نشأة الملكية المطلقة الكلفينية ساعدت على نشأة الدول الديمقراطية بحكم احترامها لحرية الفرد. واللوثرية وقفت من الجانبين موقف الوسط وان كانت اكثر ميلا الى معسكر الملكية المطلقة منها الى معسكر الدول الديمقراطية. وبطبيعة الحال كانت فرنسا الكاثوليكية مثال الملكية الاستبدادية، وانجلترا وهولندا مثلين للنظام الدستورى البرلمانى.

واذا كانت المسائل الدينية قد ادت الى حرب عنيفة عمت اوروبا واصابتها بخسائر فادحة، فان التمسك بهذه المسائل لم يعد له مايبرره، بل ان المصالح التجارية والقومية اصبح لها الاولوية على ماعداها من المسائل. ومن ثم ضعفت سلطة الكنيسة وسيطرتها على دول اوروبا، واصبحت سلطة الملكية تفوق ماعداها من سلطات بما فى ذلك سلطة الكنيسة، وأدى هذا الى نمو الدول فى العصر الحديث.

وفى النهاية يجدر بنا ان نشير الى بعض الملاحظات العامة على حرب الثلاثين عاما وهى:

١ — رغم ان تلك الحرب قد اتخذت المظهر الدينى الا انها كانت فى حقيقتها حرب سياسية، لعبت السياسة والاطماع الشخصية دورا هاما فى توجيه احداثها والسيطرة عليها.

٢ — ان الجنود المرتزقة الذين خاضوا غمار تلك الحرب لم يراعوا فيها

غير مصالحهم الخاصة التىلا تتحقق الا بالسلب والنهب والتدمير.
ولهذا كان لهذه الحرب اعمق الاثر فيما اصاب اوربا من دمار
وتخريب وينبغى ان ندرك ان استخدام الجنود المرتزقة فى الحروب
كان شيئا مألوفا، بل ان اوروبا لم تعرف الجيوش الوطنية الا عند
ظهور الثورة الفرنسية فى اواخر القرن الثامن عشر .

٣ - لعبت السياسة دوراهاما فى تقرير مصير تلك الحرب ،فبالرغم من
ان فرنسا كانت تدين بالمذهب الكاثوليكى ، الا انها وجدت من
مصلحتها الوقوف الى جانب البروتستانت ضد قوات الامبراطورية
الرومانية المقدسة ،تحقيقا لسياستها التقليدية فى معاداة اسر
الهابسبرج الحاكمة ،وللوصول بفرنسا الى حدودها الطبيعية ويمثل
صلح فستفاليا بدء ظهور قوة فرنسا بعد ان انهى تحالف الهابسبرج
الاسبانى واضعف هذه القوة . وفى الواقع لم ينه صلح فستفاليا
الحروب فى اوروبا ، فقد استمرت الحرب بين فرنسا واسبانيا
وقامت الحرب بين السويد وبولندا (١٦٥٥ - ١٦٦٠) وقامت حروب لويس
الرابع عشر التى بدأها فى عام ١٦٧٢ وانتهت بصلح اوترخت عام
١٧١٣ .

الفصل العاشر

الملكية المطلقة فى فرنسا

خرجت فرنسا من الحروب الدينية ، مقطعة الاوصال ،ماديا وسياسيا فالسلطة المطلقة التى تمتع بها ملوك من طراز فرانسوا الاول قد تداعت والروابط التى كانت تربط اجزاء البلاد انحلت ،حتى استقل كثير من الامراء فى مناصبهم يجمعون الجيوش ويفرضون الضرائب لحسابهم الخاص ،كما تداعت مرافق البلاد المادية فى ظل الحروب وتدهورت مواردها ولم يكن لفرنسا من منجاه سوى الحكم المطلق البيروقراطى الذى يرد صدعها فى وحدة منصهرة مستندا على قدرات جديدة وتنظيم ادارى مبتكر. ولقد شهدت فرنسا هذا اللون من الحكم الذى بدأ تكوينه منذ نهاية عهد هنرى الرابع مؤسس ملكية البربون فى فرنسا ،وبلغ اوجه على يد لويس الرابع عشر .

كان لوفاة هنرى الرابع فى عام ١٦١٠ اثر وقتى على السياسة الفرنسية الداخلية والخارجية .فوضعت الوصاية فى يد مارى دى ميديتشى من عام ١٦٢٠ الى ١٦٢٤، لان لويس الثالث عشر (١٦١٠-١٦٤٣) كان لا يزال قاصرا وكانت آراؤها وسياستها مخالفة لسياسة زوجها هنرى الرابع .فهجرت حلفاء فرنسا من البروتستانت وعقدت تحالفا مع اسبانيا عدوة فرنسا لفترة طويلة من الزمن. وزوجت ابنها لويس الثالث عشر من الاميرة آن النمساوية ابنة فيليب الثانى ملك اسبانيا. ورفعت احد مواطنيها من الايطاليين الذين احضرتهم معها من بلدها وهو كونسينى Concini فرفعته الى مرتبة مارشال فرنسا .

على ان تصرفات مارى اثارت نبلاء فرنسا الذين كانوا يطمعون فى

استرداد استقلالهم ونفوذهم بعد وفاة هنرى الرابع . وقامت سلسلة من الثورات من جانب استيلاء الفرنسيين والبروتستانت ، ولكنها استطاعت شراء النبلاء بمنحهم الالقاب والاقطاعيات. ورغم ذلك نجح النبلاء فى اثارة خواطر الهوجونوت الذين عملوا بكل همة ونشاط فى تحصين مدنهم المسورة ، وانشاء حكومات بها من طراز حكومة جنيف الكلفينية الجمهورية . كما الفوا بين هذه المدن التى كانت بمثابة حكومات محلية ، وأنشأوا منها اتحادا قويا . وبذلك كونوا دولة داخل الدولة . ودخلت الملكية الفرنسية فى نضال مع الهوجونوت حتى عام ١٦٢٢ عندما عقد الملك لويس الثالث عشر معهم معاهدة مونبلييه Montpellier على اساس ان يمتنع على الهوجونوت عقد المجالس وعلى ان يتم الاستيلاء على مدنهم الحصينة ماعدا مونتبان Montauban ولاروشيل La Rochelle

وفى عام ١٦٢٤ تولى ريشلييه الوزارة وحتى وفاته فى عام ١٦٤٢ كان ريشلييه هو الحاكم الحقيقى فى فرنسا . فاليه يرجع الفضل فى انقاذ فرنسا من الاخطار والمشاكل فى الداخل . وفى فرض عظمة فرنسا فى الخارج كان ريشلييه يهدف الى تحقيق امرين تقوية سلطة التاج المركزية على اساس ان تغدو الملكية فى فرنسا ملكية مطلقة اسما وحقيقة ، واحراز التفوق السياسى لفرنسا بين الدول الاوروبية . وقد تطلبت هذه السياسة القضاء على سلطة النبلاء والاستقلال الذى تمتع به الهوجونوت داخل فرنسا ، والعودة الى سياسة هنرى الرابع العدائية ضد اسبانيا .

واول شىء اهتم به ريشلييه هو مسألة الهوجونوت . ولم يكن ريشلييه متعصبا من الناحية الدينية ، وما كان يرى ضرورة ان يكون للدولة دين واحد . ولكنه رأى ان وجود البروتستانت كقوة فى الدين معرقل لسيطرة الملكية التى كان يرمى اليها . ولقد وجد ان القوة هى الوسيلة الوحيدة لارغامهم على قبول فكرته وهى الا تكون لهم مدن محصنة . وفعلا هاجم

مدنهم المحصنة ، وحاصر لاروشيل مدة ١٥ شهرا حتى سلمت للملك فى اول نوفمبر عام ١٦٢٨. وفى العام التالى تم اخضاع الهوجونوت وعقد صلحا جديدا هو صلح آليه Alais فى ٢٧ يونيو عام ١٦٢٩. وهكذا تحققت اهداف ريشيليه حيث انحل الهوجونوت بمقتضاه كجماعة او حزب سياسى، وفقدوا امتيازاتهم السياسية ، بينما ابقيت لهم حرية العقيدة ثم المساواة التامة مع الكاثوليك. واكد من جديد مرسوم نانت وضمن للهوجونوت حرية الضمير وحرية العبادة وحماية القانون. واستمر تعيين الهوجونوت فى وظائف الدولة وفى الجيش وفى القضاء .

وبقيت بعد ذلك مسألة النبلاء الذين نافست سلطاتهم سلطة الملك وظل النبلاء طبقة قوية محترمة تحتفظ بملكيات كبيرة من الارض وبنفوذ واسع وبروحهم العسكرية والحربية .ولقد قاموا بسلسلة من المؤامرات والدس لريشيليه ، ووجدوا حلفاءلهم من بين اعضاء القصر الملكى انفسهم .فلقد انقلبت عليه مارى ميدتشى التى ساءها ان يسير ريشيليه فى سياسته الخارجية فى خطة معادية لاسبانيا . ولذلك اضطر ريشيليه الى التخلص ممن يقدر على ابعادهم ،فابعد مارى ميدتشى الى انجلترا ثم بلجيكا . واعدم دوق دى مونتمورنسى Montmorency من اعرق الاسر النبيلة وجاء اعدامه درسا قاسيا للنبلاء. ورغم ان المؤامرات استمرت تتجدد فى السنوات التالية ضد ريشيليه ، فقد انتصر على خصومه تماما عام ١٦٤٢.

وفى خلال هذا الصراع وجه ريشيليه ضربة قاصمة للنبلاء اصابت نفوذهم القديم وقضت عليه . فامر بهدم قصور النبلاء ،وكانت بمثابة حصون منيعة لهم . كما اعاد تنظيم الادارة على اساس دعم سلطان الحكومة المركزية فى الشئون المحلية وأوجد نظام المأمورين او مفتش الملك Intendants للتفتيش على شئون القضاء والمالية والامن والاقاليم

وللاشراف على الحكام المحليين الذين صاروا الان مجرد حكام عسكريين . تم للاشراف على المجالس المحلية والبرلمانات القديمة . وبذلك لم تعد للنبلاء سلطة حقيقية بجانب ممثلى الملك الذين تؤيدهم الحكومة المركزية واصبح لهم سلطان كبير فى الاقاليم ، يرمون الى جعل سلطة الملك غير منافسة .

ولم يكن اهتمام ريشلييه بالسياسة الخارجية اقل من اهتمامه بالسياسة الداخلية . وكانت سياسته الخارجية تهدف الى اضعاف قوة الهابسبرج وقوة اسبانيا والنمسا . ولم تمنع حقيقة ان ريشيلييه كان كاثوليكيا من ان يتفق مع الدول البروتستانتية . وقد ساعد البروتستانت بسياسة ومال فرنسا . كما عقد حلفا مع جوستافوس للدفاع عن البروتستانتية واستأجر الجيش السويسرى . وعندما انهزم البروتسانت فى نورد لنجن كما وضحنا عند الحديث عن حرب الثلاثين عاما طلبوا مساعدة فرنسا الفعلية ولقد امدهم ريشيلييه بالمال وتدخلت فرنسا فى الحرب فى الحدود الشمالية والشرقية لفرنسا ، وعمل على اثارة الثورات داخل الحدود الاسبانية ذاتها ، فثارت البرتغال وكاتالونيا (١٦٤٠) .

توفى ريشيلييه فى عام ١٦٤٢ قبل ان تضع حرب الثلاثين عاما اوزارها وعلى الرغم من ان الملك لويس الثالث عشر لم يأسف عليه كثيرا ، فانه صمم على الاستمرار فى سياسته ولذلك استدعى الى مجلسه الكاردينال مازاران Mazarin الذى كان يمثل وجهات نظر ريشيلييه وكان مازاران ايطالى الاصل ، الحقه ريشيلييه بخدمته وحصل على الكاردينالية فى عام ١٦٤١ . حقيقة ان مازاران لم يكن فى مثل شخصية ريشيلييه الا انه كان يمتلك مواهب دبلوماسية استطاع بفضلها ان يقبض على زمام السلطة حتى وفاته فى عام ١٦٦١ .

وتوفى لويس الثالث عشر بعد وفاة ريشيليه بعام واحد ، وكان وريثه لويس الرابع عشر (١٦٤٣-١٧١٥) طفلا لم يتعد الخامسة من عمره ولذلك استأثرت الملكة الوالدة آن النمساوية بالوصاية على عرش فرنسا وعينت مازاران رئيسا للوزارة ، واخذت الملكة آن على عاتقها تأييد مازاران ، ويعتقد البعض ان الكاردينال كان متزوجا منها سرا ، وعلى اية حال كانت مهمة مازاران المباشرة مواصلة الحرب بنجاح منذ ان تدخلت فرنسا فى حرب الثلاثين عاما فى عهد سلفه . وفى عهده نالت الجيوش الفرنسية ظفرا تاما واحتفظت فرنسا بجميع فتوحاتها بما فى ذلك الالزاس وتدعمت حقوقها فى الاسقفيات الثلاث تول ومتز وفردان وتحققت بذلك الى حد بعيد اهداف ريشيليه .

ورغم هذه الانتصارات لم ينجح مازاران فى ضم الرأى العام الفرنسى الى جانبه . فقد ظهرت بوادر الاستياء بسبب سوء الحالة المالية وبسبب الحرب وسوء الادارة المالية منذ وفاة هنرى الرابع . وكان على رأس حركة الاستياء النبلاء الذين وجدوا الفرصة سانحة للتخلص من مازاران ، والذين كانوا يظنون فيه شخصية اضعف من شخصية ريشيليه . وفى مثل هذه الظروف تبدأ احدى الثورتين المعروفتين فى التاريخ الفرنسى باسم الفروند Fronde* (١٦٤٨-١٦٥٣) . وهذه كانت حربا اهلية موجهة ضد سلطة الملك بسبب سوء الحالة المالية واحتجاج برلمان باريس على نظام الضرائب الموجودة ومطالبته بالاصلاح . كذلك كان النبلاء متمسكين بنفوذهم ، ولم يكن برلمان باريس فى حالة تمكنه من القيام بالاصلاح المنشود . فلقد كان محكمة قضائية قبل كل شىء ، ينال اعضاؤه وظائفهم بالشراء والوراثة . وكانت علاقته بالتشريع ناشئة من انه كان عليه ان يسجل قرارات الملك التى لا تصبح قوانين الا بعد تسجيل البرلمان لها . ولذا رفض البرلمان تسجيل

---

*نسبة الى لعبة Frondes كان الاطفال يلعبونها وهى التراشق بالاحجار من بعيد .

قرارات الملك ،وطلب تخفيض الضرائب ،ومنع السجن دون محاكمة ،وازالة نظام حكام الولايات Intendants ،ترددت الحكومة اول الامر ولكن تشجعت بالانتصارات الخارجية لمقاومة هذه المطالب ،وقبضت على اعضاء البرلمان واخذت تستعد للقضاء على اعضائها ، فجمعت القوات تحت قيادة كوندى وحوصرت باريس ٠ثم عقد اتفاق بين الطرفين ووعدت الحكومة باصلاحات مالية ،و بذلك انتهت معارضة البرلمان ٠

وبذلك انتهت حرب الفروند الاولى٠ ولكن حرب الفروند لم يكن اساسها المطالبة باصلاحات ولم تكن للمدافعة عن حقوق الفرنسيين ولكنها كانت حركة النبلاء المستائين الذين يطمعون فى الوصول الى القوة٠ وكان على رأس المستائين النبلاء من امثال كونتى وبوفور والقواد العظام امثال كوندى وتورين٠وبعد القبض على كوندى وبعض النبلاء ظهرت حركة استياء كبيرة ، وانضمت باريس الى الثائرين الذين طالبوا باطلاق سراح كوندى ونفى مازاران٠ ولقد اجيبت مطالب الثائرين ووافقت الملكة الام مرغمة على نفى مازاران الذى آثر الانسحاب الى امارة كولون الالمانية فى عام ١٦٥١ واستمر فى الاتصال بالملكة وفى الاشراف على الحكومة والاعداد للقضاء على الثائرين ٠

ولما عاد كوندى الى باريس مارس استبداده وقام بالتفاوض مع اسبانيا وقد ادت تلك التصرفات الى فقدان كوندى لنفوذه فى فرنسا وعملت الملكة الام على كسب الفروند الى صفها ،واعلنت بلوغ الملك الصغير السن القانونية للحكم حتى تضعف كل نفوذ سوى نفوذ الملك٠وبذلك صارت اى معارضة للحكومة بمثابة ثورة ضد شخص الملك ودمغ البرلمان كوندى واتباعه بتهمة الخيانة٠وانسحب كوندى الى الجنوب مصمما على استعادة نفوذه بالقوة٠ ولقد تعرضت فرنسا فعلا لخطر قيام حرب اهلية٠ غير ان الملكة الام قامت باستدعاء مازاران الذى اقنع القائد تورين

بالانضمام للملك ووقعت فرنسا في الفوضى بعد ان غادرها … واشتكوا من الذي دخل باريس في عام ١٦٥٢ امرا فامحكومة انسم عهدها القدير بالفوضى والاضطراب غير ان كوندى اكتشف انه لم يعد يستطيع الموقف في باريس فالتجأ الى حماية الاسبان. وبعد ايام عاد لويس الرابع عشر الى عاصمته وقبض ثانية على ملكيته وعاد مازاران الى باريس ايضا في فبراير عام ١٦٥٢. وبذلك انتهى عهد الفروند الثانية وتقضى الملكية في فرنسا على آخر عقبة في سبيل الطغيان المركزي وعلى آخر محاولة قام بها النبلاء لاستعادة اهميتهم السياسية وظل مازاران حتى عام ١٦٦١ يحقق انتصارات دبلوماسية لا تقل اهمية عن انتصاراته في الداخل.

وتفرغ مازاران بعد ذلك لمواصلة الحرب مع اسبانيا وحاول اجتذاب انجلترا الى جانب فرنسا فعقد معها معاهدة تجارية في عام ١٦٥٥ ولم تلبث ان تحولت في عام ١٦٥٧ الى حلف وارسلت انجلترا جيشا لمساعدة فرنسا واضطرت اسبانيا بسبب تعدد هزائمها وارتباك ماليتها الى طلب الصلح وفعلا عقد صلح البرانس في نوفمبر عام ١٦٥٩ وبمقتضاه تتأيد صلح وستفاليا وحصلت فرنسا على الاراضي الاسبانية في ارتوا وجملة مدن واحتفظت باللورين ثم نص الصلح على زواج ماريا تريز ابنة ملك اسبانيا من لويس الرابع عشر على شرط ان تتنازل عن جميع حقوقها في وراثة عرش اسبانيا. وهكذا خرجت فرنسا من هذه الحروب الطويلة بفضل صلحي وستفاليا (١٦٤٨) والبرانس (١٦٥٩) بنتائج هامة ضمنت لها السيطرة في اوروبا الغربية ثم اعطتها ذلك النفوذ الذي تمتعت به الهابسبرج في اوروبا خلال المائة والخمسين سنة الماضية.

عصر لويس الرابع عشر (١٦٦١-١٧١٥) :

في عام ١٦٦١ توفي مازاران بعد ان ترك للملك الصغير مملكة لم يتمتع ملك فرنسي من قبل بمثلها من حيث العظمة والاتساع والاستقرار في الداخل

وقد ورث لويس الرابع عشر كل شئ مكنه من ان يصير عظيما ، ولكنه لم يترك شيئا عظيما بعده _ وتولى لويس العرش وهو فى الخامسة من عمره ، ولكن حكم مازاران جعله يستكمل قوته . وصمم بعد وفاة مازاران (وكان يبلغ فى ذلك الوقت ٢٢ عاما) ان يحكم بنفسه وفعلا انفرد بالسلطة فى فرنسا حتى وفاته فى عام ١٧١٥ وكان طوال المدة حكمة الطويله المسيطر على سياسة فرنسا الداخلية والخارجية . وكانت ملكية لويس الرابع عشر ملكية مستبدة تجمع كل السلطة فى يدها وذلك بفضل اعمال ريشيليه ومازاران . فلقد كان الملك رأس الدولة ومركز السلطة اما النظم النيابية او البرلمانية فقد استغنى عنها او وضعت تحت رقابة الملك .

وعلى اية حال يستحق لوى الرابع عشر لقب الملك العظيم Le Grand Monarque فشخصية لويس عظيمة كملك تتوافر فيه كل الصفات اللازمة للملك العظيم . فلم يفقد فى يوم من الايام احترام اوروبا ولا حب شعبه ، وترك عهده طابعه فى كل اوروبا واصبح لبلاطه اثر يزيد على الاثر الذى تركته جنوده فالعادات الفرنسية والملابس الفرنسية واللغة الفرنسية والفن والادب الفرنسى اصبحت المثل الذى يحتذى فى كل اوروبا . ونجاح لويس يرجع الى حد بعيد الى اهتمامه الشخصى والى هؤلاء الرجال الذين ورثهم من عهد ريشيليه ومازاران . ولقد كان كثيرا ما كتب تعليماته الى وزرائه وممثليه بنفسه وبخطه . وعمل على تشجيع التجارة الداخلية والخارجية واسس شركات للتجارة مع البلطيق والبحر المتوسط والمحيط الهندى وامريكا . كما اهتم بالعناية بكل وسائل المواصلات من طرق وترع وبناء سفن ، ولاسيما بناء بحرية تنافس البحريتين الانجليزية والهولندية . وقد اصبحت فرنسا ثالث دولة بحرية فى الاطلنطى واولها فى البحر المتوسط . اما عن سياسته الدينية ، فلم يكن لويس فى حياته يهتم كثيرا بالمسائل الدينية . ورغم ذلك كان يريد ان تكون له السيطرة على كل الامور الدينية وانتهز فرصة

نزاع مع البابا واعلن حقوق الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا، واعلن فيها ان البابا لا يسيطر الا على المسائل الروحية، وليس له الحق فى عزل الملوك ولقد احتج البابا، ولكن لويس لم يأبه لذلك كثيرا وقام بتنفيذ سياسته ومن ناحية اخرى اهتم لويس الرابع عشر بأن تكون الكثلكة هى المذهب المتفوق الرسمى فى فرنسا. واضطهد طائفة الـ Jansenists * وهى طائفة دينية كاثوليكية .

اما موقفه من البروتستانت، فلم تعد قوة عظيمة تهدد سلطة الملك كذلك انقطعت صلتهم بالارستقراطية ولجأوا الى الدعة وحياة الاهتمام بالتجارة والصناعة وبذا ادوا خدمة جليلة لفرنسا. ولم يحاول لويس فى اوائل عهده التدخل كثيرا فى شئونهم، ولو انه كان هناك ميل للتضييق عليهم. ولكن فى المرحلة الثانية من حكمه لاسيما عندما توفت زوجته ماريا تريزا وتزوج دى مانتنون Maintenon وكانت متدينة. وكانت تشرف على تربية اولاد الملك غير الشرعيين، تأثر الملك بتدينها فاصبح دينا يجد فى البروتستانتية الحادا وخروجا على سلطة الملك.

---

* هم اتباع جانسن Jansen (١٥٨٥-١٦٣٨) وكانوا مع تمسكهم بالعقيدة الكاثوليكية وفكرة الكنيسة المسيحية الواحدة والعالمية يعترفون بسيادة المجالس الدينية وتفوقها على سيادة البابا. وكانوا قريبين فى حياتهم الدينية والمدنية من الكلفيين لدرجة انهم صاروا يسمون بالمطهرين الكاثوليك واصبحوا بذلك موضع عداء الجزويت والبابوية والملكية ايضا . وزاد فى عداء الملكية لهم انهم ارتكبوا خطأ جسيما فى الاتصال ببعض زعماء الفروند القدماء فصاروا الآن موضع اضطهاد الملك الشديد .

وبذلك بدأ فى اعادة النظر فى امتيازات البروتستانت والتقليل منها، وكانت كنائسهم تدمر لاتفه الاسباب وفى النهاية سحب مرسوم نانت وادعت الحكومة بأنه لما كان عدد كبير من البروتستانت قد تحول الى الكاثوليكية فلا داعى اذا لان يبقى العمل مستمرا بذلك المرسوم، وبذلك لم يعد للبروتستانت اى حقوق، وحرم على الهوجونوت مغادرة البلاد، ولكن عددا كبيرا منهم تمكن من الهجرة الى انجلترا وهولندا وبروسيا حيث اسسوا الصناعة والنشاط التجارى فى برلين • كما ان عددا منهم تحول عن دينه واعتنق الكثلكة وكان لهجرة الهوجونوت اثر كبير اذ حرمت فرنسا من طائفة ممتازة فى الصناعة والتجارة استفادت منها الدول الاخرى •

وفى الفترة الاولى من حكمه، استعان لويس الرابع عشر بنخبة كبيرة من الرجال العاملين امثال دوليون Lyonne فى الشئون الخارجية، وتيلييه Tellier ثم ابنه لوفوا Louvois وزير الحربية وكولبير Colbert (١٦٦٩-١٦٨٣) رجل المالية الذى وقع عليه العبء الاكبر من الاصلاحات وبمجرد تعيين كولبير لمراقبة الشئون المالية بدأ عهد من الاصلاح المالى والداخلى عموما، فالغى عددا من الوظائف التى لا حاجة للدولة اليها واعاد نظام ريشيليه فى حكم الاقاليم Intendants وفى خلال ست سنوات تمكن من مضاعفة دخل الملك • وبالاضافة الى ذلك بذل كولبير جهدا كبيرا لزيادة وتوسيع نطاق الصناعة الفرنسية • فاستقدم الصناع المهرة من مناطق الشهرة لكل صناعة، كأن يجتذب صانعى الاقمشة الفاخرة مثلا من هولندا • ووضع فى عام ١٦٦٤ تعريفات جمركية جديدة على السلع المستوردة لحماية هذه الصناعات الجديدة من المنافسة الاجنبية • ولم يلبث ان ضاعف هذه التعريفة عام ١٦٦٧ ليحطم الهولنديين، وكانوا اكبر منافسين للاقتصاد الفرنسى • وقابلت هولندا هذه المعاملة بالمثل • وقد انتهت هذه الحرب الجمركية الى كفاح مسلح بين البلدين فى عام ١٦٧٢ •

كما فكر كولبير ايضا فيتكوين امبراطورية بحرية عظيمة وتجارة عالمية تقوم بها شركات فرنسية ،وكان يأمل فى ان تصبح مصر تابعة لفرنسا وفى حفر قناة تصل البحرين الاحمر والمتوسط،وامتلاك سلسلة من القواعد البحرية على الطريق البحرى الى الهند والشرق الاقصى. وسار على نفس سياسة انجلترا وهولندا فأقام شركات مشابهة لشركاتهم ، وأسس فى عام ١٦٦٤ شركة الهند الشرقية الفرنسية Compagnie des Indes Orientales ومنحها حق احتكار التجارة الفرنسية فى الشرق . ولقد ساهم الملك والامراء فى رؤوس اموال تلك الشركات ، ولكن الطبقة المتوسطة وعامة الفرنسيين لم تشارك وزيرهم فى حماسته ،وامتنعوا عن الاسهام فى هذه المشروعات وقد ادى ذلك الى فشل هذا المشروع وسحب كولبير امتياز الاحتكار من شركة الهند الشرقية الفرنسية وترك التجارة مع جزر الهند الشرقية مفتوحة لكل التجار بشرط استخدام سفن الشركة ومحطاتها التجارية .

وشملت اصلاحات كولبير الفنون ايضا. فعمل كولبير على تركيز النشاط الفنى تحت ادارة واحدة وعهد بذلك الى احد الفنانين وهو Charles Lebrun الذى عين مديرا لمصنع Gobelins وتعددت فى هذا المصنع نواحى النشاط الفنى من رسم ونحت ونسيج. كما عنى كولبير ايضا بالاكاديمية الملكية للرسم والنحت ومنح اعضاءها منحا احتكارية ،فأصبحت مهنة الفن وقفا عليهم. وعلاوة على ذلك اسس اكاديميات جديدة مثل : اكاديمية الرقص فى عام ١٦٦١ والعلوم فى عام ١٦٦٦ والموسيقى فى عام ١٦٦٩، والعمارة فى عام ١٦٧١ وارتقت كذلك الدراما والروايات التمثيلية

وهكذا جمع لويس الرابع عشر اسباب السلطة فى يده وجد فى اصلاح شئون الدولة وتنمية مواردها ،واصبح المجال مفتوحا امام فرنسا للتفوق فى اوروبا وفى منتصف القرن السابع عشر كان لا ينازعها فى تفوقها منازع

فقد ظهرت على حساب ضعف جيرانها المحيطين بها وخصوصا هولندا . ولكن قبل وفاة كولبير بعشرة اعوام تقريبا ، كانت فرنسا قد بدأت تسير نحو الضعف والانحلال بسبب الحروب الطويلة التى اندفعت اليها طمعا فى التسلط فأثرت على خزينتها ، وبسبب اخطاء لويس الرابع عشر نفسه فى ادارته الداخلية .

حروب لويس الرابع عشر :

سارت سياسة لويس الرابع عشر الخارجية على نفس المبادىء والاسس التى وجهت نشاط فرنسا الخارجى منذ ايام هنرى الرابع وريشيليه ومازاران . وقد تمثلت تلك الاسس والمبادىء فيما يلى :

١ — الوصول الى الحدود الطبيعية لفرنسا وهى البرانس والالب والراين والقضاء على سيطرة اسرة الهابسبرج بفرعيها وضم الاراضى المنخفضة الاسبانية .

٢ — رغبة فرنسا فى انتزاع السيطرة البحرية من هولندا .

٣ — تطهير البحر المتوسط من القراصنة وتنظيم الامبراطورية الاستعمارية التى اراد ريشيليه من قبل تأسيسها فى البحر المتوسط الشرقى وافريقيا الشرقية والغربية ثم فى امريكا .

تمتعت فرنسا بفضل سياسة كل من ريشليه ومازاران بالاستقرار والقوة واصبح الطريق مهيأ امامها لتحتل مركز السيطرة والتفوق السياسى الذى تمتعت به اسبانيا من قبل . وكان لويس مهتما بضمان تفوق فرنسا فى اوروبا وعمل على تحقيق ذلك عن طريق الحروب والدبلوماسية وكما اصبح لويس سيد فرنسا عول على ان يكون سيد اوروبا .

اولا : حرب الوراثة فى الاراضى المنخفضة الاسبانية (١٦٦٧—١٦٦٨)

كان لويس الرابع عشر يطمع فى ضم الاراضى المنخفضة الاسبانية ، وعرض

على اسبانيا ان يتحد معها لسحق البرتغال نظير اعتراف اسبانيا بحقوق زوجته ماريا تريزا ابنه فيليب الرابع من زوجته الاولى (اليزابيث الفرنسية) فى العرش الاسبانى او التنازل لفرنسا عن جزء كبير من الاراضى المنخفضة الاسبانية. ولكن فيليب الرابع ملك اسبانيا رفض ذلك العرض وعندما توفى فيليب الرابع فى عام ١٦٦٥ طالب لويس بالاراضى المنخفضة الاسبانية طبقا لقانون الاستحقاق بالوراثة* Law of Devolution وبذلك تكون ماريا تريزا ابنة فيليب الرابع وزوجة لويس هى الوريثة لابيها وليس ابنه شارل الثانى من زوجة اخرى.

وقد حالت دون تحقيق ذلك موانع قانونية من اهمها ان ماريا تريزا عند زواجها من لويس الرابع عشر (فى صلح البرانس ١٦٥٩) قد تنازلت عن حقها فى الوراثة، وبعد مفاوضات طويلة قام لويس بالهجوم على فلندرا من غير اعلان الحرب فى عام ١٦٦٧ وبذلك بدأت الحرب المعروفة باسم حرب الاستحقاق The War of Devolution ولم يستطع الاسبانيون المقاومة طويلا، بينما نجح الفرنسيون فى هذه الحرب فى الشمال وفى الشرق مما اثار ذعر الدول الاوروبية وحسدها. فأسرعت اسبانيا بعقد الصلح مع البرتغال، واسرعت هولندا بتسوية خلافاتها مع انجلترا، وتكون تحالف ثلاثى من هولندا وانجلترا والسويد لمنع تقدم الفرنسيين. ونتيجة لذلك اوقف لويس تقدمه واعاد الى اسبانيا معظم الاراضى التى اخذها فى عام ١٦٦٨. ووافق لويس على الصلح فى معاهدة اكس لاشابل Aix la Chapelle فى مايو عام ١٦٦٨. وبمقتضى المعاهدة اعاد لويس فرانش كومتية الى اسبانيا، واحتفظ بفتوحاته فى الاراضى المنخفضة وهى عدة

---

* قانون الاستحقاق بالوراثة هو قانون اقطاعى قديم يقضى بحق اطفال الزواج فقط فى الوراثة واستبعاد النسل الناتج من زيجات اخرى.

مدن منها شارلوا Charleroi وليل Lille وكانت هذه المدن في الحقيقة بمثابة المراكز التي يسهل منها الهجوم والاستيلاء على الاقاليم المجاورة لها . وبذلك لم يكن صلح اكس لاشابل سوى هدنه مؤقتة لابد أن تعقبها الحرب .

ثانيا – الحرب الهولندية (١٦٧٢ – ١٦٧٨)

تفرغ لويس الرابع عشر بعد معاهدة اكس لاشابل لمحاربة هولندا ، وكانت تدفعه الى ذلك عدة اسباب . فلقد اعتقد لويس ان مستشار هولندا دى ويت John de Witt كان المحرك الاول لتكوين التحالف الثلاثي ضد فرنسا فأراد الانتقام من هولندا التي كانت بالاضافة الى ذلك جمهورية كلفينية . ومن ناحية اخرى كانت هولندا ملجأ للهوجونوت المضطهدين في فرنسا وطبعت كتبهم التى هاجموا فيها الحكومة الفرنسية والنظام الدينى فيها . وعلاوة على ذلك كان لويس يحقد على هولندا بسبب المنافسة التجارية الشديدة بين البلدين . فلقد استغلت هولندا غناها وقوة اسطولها فى وقف تقدم جيوش لويس فى اراضيها . ولم يكن لانجلترا وفرنسا مركز هولندا بسبب انشغالها بالمسائل الداخلية والاوروبية ولذلك كانت قوة هولندا مواردها الاقتصادية من العوامل التى ادت الى حقد وحسد انجلترا وفرنسا .

وبينما استعد لويس لغزو هولندا ، عمل على عزلها سياسيا فاتصل بملك انجلترا تشارلز الثانى لاخراجه من التحالف الثلاثى ، وساعدته الظروف على ذلك . فلقد تحول تشارلز الى الكاثوليكية سرا ، ووجد فى بلاطه من نصحه بأهمية التحالف مع فرنسا للتخلص من منافسة هولندا التجارية وتحطيم بحريتها واقتسامها مع فرنسا . ولهذا عقد لويس معاهدة دوفر Dover السرية مع تشارلز الثانى فى يونيو عام ١٦٧٠ وتعهد تشارلز

بمقتضاها ان يعيد الكاثوليكية الىانجلترا ، وان يتحد مع فرنسا ضـد هولندا ، والا يعرقل خطط فرنسا فىاسبانيا • وفى مقابل ذلك تعهد لويس بمنحه مبلغا كبيرا منالمال وامداده بقوات فرنسية عنداللزوم لفـرض الكاثوليكية على انجلترا •كذلك تمكن لويس من رشوة السويد ،وعقدمعاهدة سرية مع الامبراطورية الرومانية المقدسة تقضى بضم اسبانيا اليهاوحصول لويس علىالمقاطعات الاسبانية فىحالة موت ملك اسبانيا ، دون وريـث وكان ذلك أمرا متوقعا بين لحظة واخرى لمرضه •

وهكذا وجدت هولندا نفسهاوحيدة امام القوة الفرنسية الهائلـة التى اخذت تكتسح اراضى هولندا حتىقربت من امستردام •وثارالشعورالوطنى فىالبلاد وقتل الهولنديون جونىدى ويت وسلموا امورهم الى وليم اورنـج (حفيد وليم الصامت) الذى تمكنمن ارغام الفرنسيين على التقهقـر• وبدأ يعملعلى اخراج هولندا من عزلتها السياسية واستمالة الحلفـاء لمساعدتها • ونجح فى تكوين تحالفاوروبى ضد فرنسا • وتكونهذا التحالـف الذى عرف باسمتحالف لاهاىالاعظممن الامبراطور وبراندنبرج وبرنزويـك وهس واتحادالراين والدانمرك واسبانيا • كما عقد تشارلز الثانى صلحا منفردا مع هولندا فى فبراير عام١٦٧٤•

حقيقة ان القوات الفرنسية انتصرت واثبتت تفوقها ووصلت الـى الراين لكن القضاء على هولندا لم يكن امرا سهلا• ونتيجة لذلك عقـد فى عام ١٦٧٨ صلح نيمفيجن ijimwegen· الذى اختتمت به هـذه الحرب•وكان هذا الصلح عبارة عن مجموعة من المعاهدات اعادت السـلام الىاوروبا ، وهى معاهدات بين فرنسا وكل من هولندا واسبانياوالدانمرك والامبراطورية وبمقتضى هذه المعاهدات احتفظت فرنسا بفرانش كومتيـه التى تنازلت عنها اسبانيا ،كما استولى لويس الرابع عشر علىمواضـع هامة لتأمين حدود البلاد الشمالية الشرقية من الاراضى المنخفضـة

الاسبانية فى نظير ارجاع بعض المدن. ويعتبر المؤرخون ان صلح نيمفيجن يعنى الذروة التى بلغها حكم لويس الرابع عشر، فقد واجه وحده اوروبا مجتمعة متحالفة ضده وخرج من النضال ظافرا. وبعد هذا الصلح لقبت باريس لويس الرابع عشر بالملك العظيم " Le Grand Monarch "

ثالثاً ـ حرب حلف اوجزبرج (١٦٨٩ ـ ١٦٩٧)

وبرغم ان صلح نيمفيجن كان فى صالح فرنسا الى حد كبير، فقد اعتبره لويس الرابع عشر اساساً لقائمة جديدة من المواقع ينوى الاستيلاء عليها. لقد كان لويس مصمما على تأمين حدود فرنسا حتى يستحيل غزوها من الخارج ولذلك اشارت فرنسا لصالحها بعض شروط فستفاليا الخاصة بحدودها، وامر لويس بتكوين لجان او محاكم محلية لتقرر مدى حقوق الملك فى اللورين والالزاس وفى فرانش كومتيه وبعض الاماكن الاخرى وعرفت هذه اللجان باسم مجالس الضم Chambres of Reunion وقد فسرت هذه المجالس معاهدات فرنسا مع الدول لصالح فرنسا وحدها، وبذلك منحت فرنسا السيادة التامة على الالزاس وضم مدينة ستراسبورج التى استولى عليها الجيش الفرنسى فى عام ١٦٨١. وواصل اعتداءه على الاملاك الاسبانية واستولى على لكسمبرج فى عام ١٦٨٤. واضطر الامبراطور وملك اسبانيا الى التنازل عن ستراسبورج ولكسمبرج (اللتين حصل عليهما لويس بواسطة مجالس الضم) فى هدنة راتزبون فى اغسطس عام ١٦٨٤ فى هدنة لمدة عشرين عاما .

ولم تقف اطماع لويس عند هذا الحد، فأراد ان يكمل سيطرته على الالزاس بالاستيلاء على الاقاليم المجاورة لها فى حوض الراين الاوسط. فطالب بوراثة البلاتينات لزوجة اخيه الثانية منذ وفاة ناخب البلاتينات فى عام ١٦٨٥، واحتلتها جيوشه عام ١٦٨٧ كما احتل منطقة كولون الانتخابية

ووضع عليها احد اصدقاء فرنسا اسقف ستراسبورج. وكانت فرنسا ترى ضرورة انتخاب رجل صديق لفرنسا فى كولون التى كانت لها اهمية استراتيجية لوقوعها على معبر عند نهر الراين يوصل للاراضى المنخفضة وفى عام ١٦٨٨ قامت الثورة الدستورية فى انجلترا، واقصى جيمس الثانى (١٦٨٥–١٦٨٨) عن العرش وهرب الى فرنسا، واستدعى وليم اورانج، زعيم البروتستانتية فى اوروبا، من هولندا لانقاذ البروتستنتية والبرلمانية الانجليزية بعد المحاولات الطائشة التى قام بها جيمس لفرض الكاثوليكية على الشعب بوسائل دستورية. وبعد تنصيب وليم اورانج – العدو الحقيقى للويس – ملكا على انجلترا باسم وليم الثالث أضيفت دولة قوية الى قائمة اعداء لويس.

واستطاع وليم اورانج ان يكون فى عام ١٦٨٩ تحالفا ضد لويس الرابع عشر من هولندا والامبراطورية واسبانيا والسويد وبفاريا وسوابيا وفرنكفورت وسكسونيا والبلاتينات للمحافظة على معاهدات فستفاليا ونيمفيجن. وكان منشأ هذا التحالف هو عصبة اوجزبرج التى تشكلت فى يوليو عام ١٦٨٦، وانضمت اليها بفاريا وسافوى فى عام ١٦٨٧، ثم البابا سرا، واخيرا انجلترا حتى عرف هذا التحالف باسم المحالفة العظيمة La Grande Ligue فى سبتمبر عام ١٦٨٩، وهكذا تكون هذا التحالف بسبب هجوم الفرنسيين على كولون. وكانت الحرب قاسية واستمرت مدة طويلة، وتعددت ميادينها فى ايرلندا والاراضى المنخفضة واقاليم الراين وايطاليا والمستعمرات وفى البحار. واحرز الفرنسيون انتصارات على الالمان فى معركة Fleurus فى عام ١٦٩٠، واحتلوا معظم سافوى. كما انتصر اسطولهم على الاسطول الانجليزى والهولندى المشترك فى معركة Beachy Head فى نفس العام. ولكن استطاعت البحرية الانجليزية بقيادة رسل Russell من الانتصار فى موقعة Hague فى عام ١٦٩٢، وبذلك زال الخطر الذى كان يهدد انجلترا. ونتيجة لسوء الادارة المالية فى فرنسا عقب وفاة كولبير، كان لزاما على

فرنسا ان تحمل على السلم وبدأت مفاوضات الصلح وانتهت بعقد معاهدة رايزفيك Ryswick في سبتمبر عام ١٦٩٧، وبمقتضى تلك المعاهدة اعترف لويس الرابع عشر بوليم اورانج (الثالث) ملكا على انجلترا، ونزلت فرنسا عن كل ما استولت عليه من ممتلكات منذ صلح نيمفيجن ما عدا ستراسبورج. ومما دفع لويس الى قبول هذا الصلح ان اهتمامه اصبح مركزا في اسبانيا، التى كان ملكها شارل الثانى فى حالة صحية سيئة .

رابعا - حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢ - ١٧١٣) :

اصبح عرش اسبانيا مشكلة دولية ، اذ كان لكل الدول الاوروبية الكبرى مطامع فى اسبانيا وفى ممتلكاتها فى العالم الجديد وفى ايطاليا وحرصت كل دولة على الا يكون للاخرى نفوذ متفوق فى اسبانيا. وعندما بات متوقعا وفاة شارل الثانى ملك اسبانيا فى اية لحظة كان هناك ثلاثة مطالبون بالعرش : لويس الرابع عشر الذى تزوج بأميرة اسبانية والامبراطور ليوبولد الاول الذى كان ابنا لاميرة اسبانية ،وجوزيف فرديننـد ناخب بافاريا الذى كانت تربطه بالعائلة المالكة الاسبانية صلة قرابة.

ولكن انجلترا وهولندا لم يوافقا على استيلاء احد هؤلاء المطالبين بالتاج الاسبانى،لان ذلك كان من شأنه الاخلال بالتوازن الدولى،ولذلك عقدت معاهدتان بين انجلترا وهولندا من جانب ، وفرنسا من جانب آخر (١٦٩٨ - ١٧٠٠) لتقسيم املاك اسبانيا بعد موت ملكها شارل الثانى واتفق الفريقان فى المعاهدة الاولى على ان يكون العرش الاسبانى بمعظم الممتلكات الاسبانية لناخب بافاريا ، وتأخذ فرنسا نابولى وصقلية ،وبذا لا يختل التوازن الاوروبى،وربما كان من السهل ان يتم ذلك لأن ملك اسبانيا قد اوصى بعرشه فعلا لناخب بافاريا. ولكن ناخب بافاريا توفى فى عام ١٦٩٩ وبذلك بدأت المشكلة من جديد، اذ اقتضى الامر اعادة التقسيم مرة اخرى فى مارس عام ١٧٠٠. ومن ثم عقدت المعاهدة الثانية وبمقتضاها يكون العرش الاسبانى

من نصيب الامير النمساوى كارل Prince Karl ثانى ابن الامبراطور وتأخذ فرنسا الممتلكات الاسبانية فى ايطاليا وتضيف اليها اللورين.

ولكن عند وفاة شارل الثانى فى نوفمبر عام ١٧٠٠ وجد انه قد ترك وصية اوصى فيها بأملاكه الى فيليب انجو، حفيد لويس الرابع عشر، على أمل ان ينقذ هذا اسبانيا من خطر التقسيم، وان تقوم فرنسا بالدفاع عنها. وعندئذ اسرع لويس بقبول وصية شارل واعلن حفيده ملكا على اسبانيا باسم فيليب الخامس وكان من الممكن ان تنتهى مشكلة الوراثة عند هذا الحد، لكن ماكاد فيليب يرحل الى اسبانيا حتى اعترف لويس الرابع عشر رسميا بحق فيليب فى وراثة العرش الفرنسى . واعتبر هذا الاجراء تهديدا واضحا لاوروبا التى كانت مصممة على منع اتحاد التاجين الاسبانى والفرنسى. ولذلك تتفق انجلترا وهولندا على وضع حد لاطماع لويس . وفى ٧ سبتمبر عام ١٧٠١ تكون التحالف الاعظم Grand Alliance ضد لويس من هولندا وانجلترا والامبراطورية . ولما كان وليم الثالث (اورانج) ملك انجلترا العامل الاول فى هذا التحالف، كما كان دائما فى التحالفات السابقة، فقد قابل لويس هذا العمل بالاعتراف بابن جيمس الثانى ملكا على انجلترا باسم جيمس الثالث وبعد وفاة وليم الثالث فجأة وسط هذه الازمة فى مارس عام ١٧٠٢ اعلنت الحرب ضد فرنسا .

وكانت هذه الحرب من اطول الحروب اذ استمرت حتى عام ١٧١٣، وكانت ميادينها فى ايطاليا والاراضى المنخفضة وبافاريا واسبانيا والعالم الجديد واندحرت فيها الجيوش الفرنسية على ايدى اعظم قواد الحلفاء مثل الدوق مولبرة Marlborough وكان الدوق مولبرة هذا من اكبر القواد الانجليز الذين ظهروا فى التاريخ قاطبة، ويليه ولنجتون الذى انتصر فى موقعة واترلو عام ١٨١٥. فاندفع مولبرة عام ١٧٠٤ من هولندا عبر اوروبا بجيشه المؤلف من اخلاط من الانجليز والهولنديين والالمان لقطع

الطريق على الفرنسيين الزاحفين صوب فينا . وقد لحقهم مولبرة على مقربة من الحدود البافارية عند بلنهيم Blenheim حيث انتصر عليهم انتصارا عظيما انقذ به النمسا، واستولى على بافاريا، وطعن هيبة فرنسا الحربية طعنة نجلاء. ولم يمض على ذلك عامان حتى استولى مولبرة على الاراضى المنخفضة الاسبانية بعد انتصاره هناك فى راميليس Ramillies عام ١٧٠٦ ومازال حتى اجلى الجيوش الفرنسية عن تلك الاراضى الى ماوراء بلدة اودنارد Oudenarde عام ١٧٠٨ وبانتصاره الرابع عند مالبلاكيه Malplaquet فى ١١سبتمبر عام ١٧٠٩ فتح مولبرة الطريق لمهاجمة الحصون الممتدة على طول الحدود الفرنسية الشرقية، ثم غزو فرنسا نفسها وهنا بلغت احوال لويس الرابع عشر اسوأ ماتستطيع ان تبلغه ، فطلب الصلح بشروط تعد كلها ترضية لمطالب التحالف الاوروبى، وكان من الواجب حينئذ عقد الصلح غير ان اصرار حزب الويجز Whigs فى انجلترا ومعاندة الهولنديين الذين رأوا مواصلة الحرب للحصول على شروط يمكن ان تكون اجود مما عرض لويس الرابع عشر كل ذلك اضاع الفرصة، وظلت الحرب تجر اذيالها الى حين. وقرر لويس الصمود فى القتال، وفى المعارك التالية انهزمت جيوش النمسا هزيمة كبرى فى موقعه Denain فى اكتوبر عام ١٧١١ وقد خففت هذه الهزيمة من غلواء الحلفاء، وامكن ان تبدأ المفاوضات بعد ذلك فى اوترخت . وفى ١١ ابريل عام ١٧١٣ تم توقيع الصلح فى اوترخت بين فرنسا واسبانيا من جانب وبين انجلترا والاراضى المنخفضة الهولندية وبراندنبرج وسافوى من جانب آخر. ثم وقعت البرتغال معاهدة صلح منفردة فى ١٢ ابريل ، واخيرا اضطر الامبراطور الى عقد الصلح فى راشتات Rastadt فى ٧ مارس عام ١٧١٤ ثم لم تلبث ان انضمت الى الصلح دويلات الامبراطورية فى صلح بادن فى ٧ سبتمبر عام ١٧١٤. وبفضل معاهدات اوترخت راشتات وبادن ويطلق عليها جميعا اسم صلح اوترخت عاد السلام الى

اوروبا .

صلح اوترخت (١٧١٣ - ١٧١٤)

وقد نص هذا الصلح على مايلى :

١ - الاعتراف بفيليب (انجو) الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملكا على اسبانيا ومستعمراتها بشرط ان يتنازل عن جميع حقوقه فى عرش فرنسا .

٢ - استولى الامبراطور (شارل السادس منذ عام ١٧١١) على نابولى وسردينيا وميلان و الاراضى المنخفضة الاسبانية (بلجيكا) .

٣ - حصلت انجلترا على نيوفوندلاند وخليج هدسون ونوفاسكوشيا Nova Scotia من فرنسا وعلى مينورقه وجبل طارق من اسبانيا . كما تعهدت فرنسا بعدم مساعدة افراد اسرة استيوارت بالمطالبة بعرش انجلترا وتم الاعتراف بحقوق اسرة هانوفر فى وراثة عرش انجلترا

٤ - استبقت فرنسا الالزاس بمافيها مدينة ستراسبورج وفق معاهدة رايزفيك ، ولكنها سلمت القلاع التى استولت عليها على جانب الراين الايمن .

٥ - اعيد كل من ناخبى كولون وبفاريا الى امارته .

٦ - تم الاعتراف بناخب براندبرج ملكا على بروسيا ، وكانت هذه خطوة مهمة فى ازدياد نفوذ اسرة الهوهنزلرن Hohenzollern

٧ - تم الاعتراف بدولنية سافوى كمملكة و اعطيت جزيرة صقلية .

٨ - تم الاتفاق على هدم تحصينات دنكرك .

وهكذا خرجت انجلترا من حرب الوراثة الاسبانية منتصرة ووضعت اساس سيادتها فى البحار واحرزت التفوق فى اوروبا . بينما خرجت فرنسا مجهدة وحالتها المالية سيئة ، واخفقت فى سياسة الوصول الى الحدود الطبيعية وبصلح اوترخت ينتهى القرن السابع عشر فى اوروبا بفشل فرنسا فى تحقيق

دكتاتورية مسيطرة على اوروبا وبتقدم انجلترا وسيرها حثيثا نحو التقدم التجاري وبانتهاء المنافسة بين البوربون والهابسبرج. وتوفى لويس بعد عامين من توقيع الصلح قضاهما فى التوبة الى الله من الذنوب العديدة التى ارتكبها .

وهكذا بدأت مساوىء الحكم المطلق تبدو جلية فى فرنسا منذ عهد لويس الرابع عشر، الذى كان يقول "الحكومة انا" وقد اقام حكمه المطلق - كما رأينا - على هذه القاعدة : فاستأثر بكل سلطة وقضى على الحرية الدينية والحرية السياسية والحرية الشخصية ،وسخر الشعب ودماءه وامواله فى الحروب جريا وراء مجد كان فى طيه البؤس والشقاء. وقال فوبان مهندس استحكامات لويس الرابع عشر وقد رأى ما حل بالبلاد : "ان الشعوب معرضة لجشع الماليين والضرائب الجائرة والمطالب الفادحة التى تنشأ عنها مضايقات مرهقة ،وقد اصبح الكثيرون بلا مأوى وملئت المستشفيات بالمرضى ،واقفرت البلاد من السكان" . والواقع ان استبداد لويس الرابع عشر وحكومته قد ولد فى النفوس كراهية للحكم المطلق ،وأخذ هذا الشعور يزداد فيها تأصلا بسبب انحطاط الملكية وسقوط هيبتها فى القرن الثامن عشر حقيقة ان فرنسا قد بلغت فى عهد لويس الرابع عشر مركز القمة السياسية والثقافية فى اوروبا ،غير ان حروبه الكثيرة انهكت قوى هذه البلاد فى اواخر عهده فترك فرنسا بعد وفاته دولة مرهقة .

لويس الخامس عشر (١٧١٥ - ١٧٧٤)

خلف لويس الخامس عشر جده العظيم لويس الرابع عشر فى عام ١٧١٥ وكان يبلغ من العمر خمس سنواته وكان لوى الخامس عشر من اضعف ملوك فرنسا قاطبة اذ فقدت الملكية المطلقة فى عهده قوتها وبهاءها وصار النساء والعشيقات فى عهده وفى عهد خلفه لويس السادس عشر، يتحكمن

فى سياسة الدولة ويبذرن اموالها ويكثرن من الفضائح التى ساعدت على اسقاط نفوذ الملكية وجعلها موضع السخط والازدراء . كما تمتع النبلاء فى عهده بنفوذ كبير، واحاطوا به، واوعزوا اليه بنوع السياسة التى يتبعها فى الداخل وفى الخارج. وعلاوة على الامتيازات الكثيرة التى تمتع بها النبلاء سيطروا على مراكز القيادة فى الجيش. ولما كان النبلاء طبقة عسكرية فى الاصل، ولما كانت الحروب هى اسلوب حياتهم، فقد كانوا دائما يحرضون الملكية الفرنسية على اتخاذ الحرب كأسلوب لفض المشاكل الخارجية. وهذا الاتجاه من جانب فرنسا كان واضحا فى حربين اشتبكت فيهما فرنسا قبيل منتصف القرن الثامن عشر مع اسرة الهابسبرج العدو التقليدى لاسرة البربون الحاكمة فى فرنسا. وهكذا كان دخول لويس الخامس عشر فى حروب الوراثة البولندية (١٧٣٣ - ١٧٣٥) وحرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ -١٧٤٨) نتيجة لضغط نبلاء فرنسا على الملك الضعيف .

واذا كانت فرنسا قد حصلت نتيجة اشتراكها فى حروب الوراثة البولندية على دوقية لورين التى كان ضمها خطوة فى سبيل تكامل فرنسا القومى، فانها فشلت فى حرب الوراثة النمساوية من تقسيم النمسا بسبب شجاعة وريثة العرش النمساوى ماريا تريزا . لقد قامت حرب الوراثة النمساوية او الحروب السيليزية عندما تولت ماريا تريزا عرش الامبراطورية خلفا لاخيها الامبراطور شارل السادس فى عام ١٧٤٠. فقام ملك بروسيا فردريك الثانى بمهاجمة سيليزيا، وكان لبروسيا بالذات ادعاءات فيها. وانتهزت الدول الاوروبية المختلفة، سواء من كان لها ادعاء او لم يكن لها ادعاء على الاطلاق فى املاك النمسا بمهاجمة النمسا . وتكون حلف من فرنسا واسبانيا وبفاريا وسكسونيا ضد النمسا وذلك لحرمان ماريا تريزا من املاكها التى ورثتها . وفى عام ١٧٤٠ سقطت

سيليزيا فى يد فردريك واستولى الفرنسيون والبافاريون والسكسونيون على بوهيميا واضطرت ماريا تريزا الى توقيع الصلح مع اخطر هؤلاء الاعداء وهو ملك بروسيا فى برسلاو Breslau فى عام ١٧٤٢، وبمقتضاه استولت بروسيا على سيليزيا وانتهت الحرب التى تعرف باسم الحرب السيليزية الاولى . وثارت ماريا تريزا بعد ذلك ضد بقية اعدائها مما اقلق فردريك فأعلن الحرب على ماريا من جديد فى عام ١٧٤٤، وبدأت بذلك الحرب السيليزية الثانية، واضطرت ماريا ان تعقد الصلح مع فردريك مرة اخرى على اساس الاعتراف بامتلاك بروسيا لسيليزيا . بخروج فردريك من الحرب تمكنت ماريا من ان تحرز انتصارات بمساعدة انجلترا وهولندا، اللتين دخلتا الحرب للحد من اهداف فرنسا الرامية الى غزو بلجيكا وخلع الملك جورج الثانى عن عرش انجلترا وتنصيب اسرة استيوارت الكاثوليكية على عرش انجلترا . وانتهت هذه الحرب على اية حال بعقد صلح اكس لاشابل Aix la Chapelle فى اكتوبر عام ١٧٤٨، ونص على اعادة الاوضاع الى ما كانت عليه قبل الحرب Status quo ante Bellum مع قليل من الاستثناءات . وعلى العموم تأكد امتلاك بروسيا لسيليزيا رغم ان بروسيا لم تكن طرفا فى الصلح . وتعهد لويس الخامس عشر بأبعاد المطالب بعرش انجلترا من فرنسا . ولكن هذا الصلح لم ينه الخلافات، فاستمر الصراع البحرى بين انجلترا وفرنسا كما استمر النزاع حول سيليزيا وهو ما سوف يعرف بالحرب السيليزية الثالثة او حرب السنوات السبع . ومما يهمنا فى هذا المجال ان فرنسا قد خرجت من تلك الحرب منهكة، ولم تجن من سيطرة النبلاء وتحريضهم على خوض الحروب سوى تدهور قوتها .

ولم يقف نفوذ النبلاء عند هذا الحد، اذ رسمت طبقة النبلاء السياسة الفرنسية فى صراعها الاستعمارى مع انجلترا رغم انها لم تفهم حقيقة

هذا الصراع لانها كانت طبقة زراعية ، وبالتالي كانت وجهة نظرها خاطئة في مسألة الصراع الاستعماري، فكانت ترى ان القارة الاوروبية هي المسرح الرئيسي لهذا الصراع بدلا من المستعمرات نفسها ، وان يترك للجيش دون الاسطول تقرير الانتصار في هذا الصراع . ولكن انجلترا اتبعت سياسة مغايرة تماما ، فكانت ترى ان الحرب فيما وراء البحار تتحدد بالقوة البحرية واذا استطاعت البحرية ان تسيطر على مياه هذه المستعمرات فان المستعمرات تسقط من تلقاء نفسها . وطبقا لوجهة النظر الفرنسية بدأت فرنسا تبحث عن حليف في القارة الاوروبية عندما بدأ الصراع وشيك الوقوع بينها وبين انجلترا - ونتيجة لهذه السياسة ستشهد اوروبا انقلابا دبلوماسيا يتمثل في انهاء التنافس الطويل بين الهابسبرج والبربون ، وانهاء التحالف بين النمسا والدول البحرية ، وتكوين توازن جديد لاوروبا من فرنسا والنمسا (العدو التقليدي لفرنسا) في جانب وانجلترا وبروسيا (المنافس الجديد الناشئ للنمسا) في جانب آخر . ولقد جعلت حرب الوراثة النمساوية الطويلة المدى الناس يتساءلون عما كسبته النمسا من تحالفها مع انجلترا ، ولماذا تساعد فرنسا بروسيا ؟ ونتيجة لهذه الشكوك وهذا التبرم حدث الانقلاب السياسي الذي قرب بين فرنسا والنمسا . ومنذ عام ١٧٥١ بدأت ماريا تريزا حاكمة النمسا وانجح حكام القرن الثامن عشر في اوروبا ، تتودد الى مدام بومبادور Pompadour محظية لويس الخامس عشر ، وصاحبة النفوذ الاعظم في فرنسا حينئذ .

وبعد حوالي اربع سنوات نشب القتال بين الفرنسيين والانجليز في شمال امريكا دون اعلان حرب ، وخوفا من قيام فرنسا بالهجوم على هانوفر قام ملك انجلترا وامير هانوفر جورج الثالث بعقد اتفاقية وستمنستر Westminister مع فردريك الثاني (١٧٤٠-١٧٨٦) لضمان حياد بروسيا وتستغل النمسا هذه الفرصة وتعقد مع فرنسا اتفاقيات ثلاث في

فرساى فى مايو عام ١٧٥٦ : الاولى خاصة بالحياد والثانية خاصة بالدفاع تضمن فيها كل دولة املاك الدولة الاخرى ، والثالثة سرية ، الهدف منها تقوية الروابط بين الدولتين المتحالفتين . وقد اطلق على هذا التغير فى العلاقات الدبلوماسية التقليدية بين فرنسا والنمسا فى عام ١٧٥٦ " الثورة الدبلوماسية " وقد تمخضت هذه الثورة عن حرب السنوات السبع أو الحرب السيليزية الثالثة .

حرب السنوات السبع (١٧٥٦ -١٧٦٣)

نشبت حرب السنوات السبع Seven Year´s War بين فرنسا وانجلترا فى مايو عام ١٧٥٦ وبعد عدة شهور دخلت كل من النمسا وبروسيا الحرب ، وبذلك دخلت مشكلة سيليزيا بين النمسا وبروسيا الى جانب مشكلة شمال امريكا والهند . ولم تكن الحرب فى سنتها الاولى فى صالح انجلترا بصفة عامة حتى تولى الوزارة فى عام ١٧٥٧ رجل من ابرز رجال السياسة الانجليزية فى القرن الثامن عشر وهو وليم بت William Pitt وبت هذا لم يأت من الطبقة الارستقراطية ، بل من الطبقة الجديدة اهل المال . كان بت رجلا تطفح نفسه بالعزة والاستبداد بالرأى والعبقرية . وليس من صفته الا ان يكون زعيما مهيبا ، دون ان يكون زميلا لأحد ، وهو بلاشك اعظم الوزراء الذين تولوا شئون الدولة فى ازمنة الحروب طوال التاريخ الانجليزى كله ، وقد قال ذات مرة : " انى اعلم ان فى استطاعتى انقاذ بلادى ، وان ليس فى استطاعة غيرى ان يقوم بذلك " ، وصدق فى قوله . اذ استطاع ان ينسق الحملات الانجليزية البرية والبحرية ، ولم ينس اهمية جبهة البحر والمستعمرات فى صراع انجلترا مع فرنسا . ورغم ذلك لم يهمل الجبهة الاوروبية ، فقدم اقصى ما يمكن من المعونة الى عدو فرنسا فردريك ملك بروسيا .

وأخذ بت فى انفاذ الحملات البرية والبحرية لحصار القواعد الحربية الفرنسية وابادتها فيماوراء البحار، ونتيجة لحصار الشواطئ الفرنسية لم يستطع الفرنسيون ارسال المؤن والتموين اللازم لقواتهم المحاربة لاختراق هذا الحصار البحري، وكانت النتيجة هزيمة الاسطول الفرنسى فى خليج كويبرون Kuiberon وفى لاجوس Lagos وبذلك اصبح الاسطول الانجليزى هو العنصر المحدد لنتيجة الحرب . فعندما قطعت الاتصالات بين فرنسا ومستعمراتها بدأ بت الهجوم الشديد على هذه المستعمرات فأخذت تسقط الواحدة تلو الاخرى، ففى عام ١٧٥٨ استولت احدى تلك الحملات على مدينة لويزبرج ،وهى مفتاح كندا الفرنسية ،وفى السنة التالية تم الاستيلاء على كويبك،واجلى الاسكتلنديون وابناء المستعمرات الامريكية جيوش الفرنسيين من وادى اوهيو Ohio . وهكذا انتهت السيادة الفرنسية بأمريكا الشمالية وأضحى العالم الجديد بمثابة هدية هذا البرلمانى العظيم (بت) الى الشعوب الناطقة بالانجليزية .

وفى الهند لم يكن انتصار الانجليز أقل اهمية من انتصاراتهم فى امريكا ، واستطاع كليف بمهارته السياسية والعسكرية ان يؤسس الامبراطورية البريطانية فى الهند . اذ أخذ يعمل على تشتيت قوى الفرنسيين والهنود حتى لا تتجمع ضد القوى الانجليزية فى الهند وأحرز سلسلة من الانتصارات . بدأت بانتصاره فى بلاسى Plassey فى عام ١٧٥٧ ، واستيلائه على اقليم البنغال وجعله تحت حكمه المباشر ، وبسبب هذا الموقف الحربى الخطير ، اخذت فرنسا تحرض اسبانيا على الدخول فى الحرب فى جانبها ،وساعد على ذلك انه منذ انقراض الفرع الاسبانى فى اسرة الهابسبرج عام ١٧٠٠ كان الفرع الفرنسى البوربونى الحاكم فى اسبانيا دائب التعاون مع فرنسا فى السنوات السابقة على حرب السنوات السبع ، وذلك حسب اتفاق بين فرنسا واسبانيا يعرف باسم اتفاق الاسرة

Family Compact . وفى عام ١٧٦١ تجدد هذا الميثاق، ولكن اسبانيا كان قد افزعها من ناحية اخرى انتصار انجلترا الساحق بحيث بدأت تخشى على املاكها هى الاخرى من تفوق قوة انجلترا فيما وراء البحار.

علم بت بالاتصالات الدائرة بين فرنسا واسبانيا وكان يرى ان تبدأ انجلترا بمهاجمة اسبانيا قبل ان تستعد اسبانيا بالفعل لدخول الحرب ولكن فوجىء بت بمعارضة الملك جورج الثالث، حفيد جورج الثانى الذى توفى عام ١٧٦٠. وكان جورج الثالث جاهلا عنيدا، يريد الحكم لنفسه من غير صلاحية للقيام بذلك . كما كان جورج الثالث قد نشأ فى بيئة حزب التورى فامتلأت نفسه بالكراهية لحزب الهويج الذى كان يسيطر على البرلمان والوزارة. وبنى جورج سياسته على اساس اعادة قوة الملكية، وبدأ كخطوة اساسية لهذا العمل بادخال احد اعضاء حزب التورى فى وزارة الهويج. وتزعم هذا الوزير فريقا يطالب بالصلح، وكان الملك يناصر هذا الفريق مناصرة علنية ولقد حدث هذا التطور فى الوقت الذى حاول فيه بت ان يوسع من شقة الحرب بمهاجمة اسبانيا دون انتظار لاعلان الحرب العلنية. غير ان الملك جورج الثالث رغب الى السلم، واخذ يعمل سرا ضد فردريك ملك بروسيا وحليف وليم بت وسياسته فى اوروبا. فاستقال بت من الوزارة عام ١٧٦١ ودخلت اسبانيا الحرب وتحقق ما تنبأ به هو من اجتماع الدولتين

فى عام ١٦٨٥ ظهر فى انجلترا حزبان هما الهويج Whigs والتورى Tories وهذه الكلمات شتائم وردت على لسان خطباء الفريقين فى حدة الخلاف Tory مشتقة من اللغة الايرلندية وتعنى السارق. Whig مشتقة فى الغالب من Whiggam وهى صرخة ينادى بها الفلاحون الاسكتلنديون ليحثوا جيادهم على السير. والمقصود بذلك الحزب السياسى الجامح. ولقد قدر لهذين الحزبين ان يتنافسا على السلطة فى انجلترا لما يزيد عن قرنين فيما بعد تحت اسم حزبى الاحرار Liberals والمحافظين Conservatives

البربونيتين على العدوان . على ان انجلترا استطاعت - بفضل ما بثه وليم بت فيها من قوة - ان تواصل انتصاراتها على فرنسا فى الاراضى الالمانية وعلى اسبانيا فى جزر الفلبين بالمحيط الهادى وفى جزر الهند الغربية بأمريكا الوسطى .

وهكذا انتهت تلك الحرب المعروفة فى التاريخ الاوروبى باسم حرب السنوات السبع ، وتقرر السلام بصلح باريس فى فبراير عام ١٧٦٣ ، وهو صلح اكثر اعتدالا مما كان منتظرا بالنسبة لما وقع فى اثناء الحرب من فتوح وانتصارات . فاسبانيا لم تخسر شيئا فى هذه الحرب ، اذ بمقتضى هذا الصلح استردت كل من هافانا Havana ومانيلا Manila اما فرنسا فقد اضطرت الى التخلى عن كندا مع كل الجزء الهام من وادى المسيسبى الواقع الى شرق النهر . اما فى الهند فرغم ان فرنسا استردت بوندتشيرى Pondichery وبعض المراكز التجارية الاخرى الا ان انجلترا اضحت منذ ذلك الوقت القوة الوحيدة المتحكمة فى الهند دون منازع وبدأت منذ ذلك الوقت تبسط نفوذها فى شبه الجزيرة على حساب القوى المحلية من الامراء الهنود . على ان ذلك وغيره من شروط الصلح لا يؤثر فى شئ من النتائج الكبرى لتلك الحروب ، وهى انتهاء السيادة الفرنسية على كندا ، و ... الامبراطورية البريطانية فى الهند .

وخلاصة القول ان صلح باريس - وما تمخض عنه من سيادة انجلترا بأمريكا - بلغ بعظمة انجلترا وامبراطوريتها الاولى الى الاوج ، ولاشك ان ما احرزته انجلترا من تلك العظمة لم يكن شيئا قليلا ، فمنذ أن اضحت بفضل تكوينها وموقعها الجغرافى مركزا طبيعيا لكل تحالف ضد الدول التى تجنح الى القوة والسيطرة الحربية فى اوروبا ، بعد ان كانت ترجع فى سلامتها الى ما بها من قصر عن تهديد اية دولة من الدول .

وبعبارة اخرى صارت انجلترا من بعد حرب السنوات السبع دولة ذات سطوة وبأس شديد . ومن الطبيعي ان تعمل الدول الاوروبية - بزعامة فرنسا واسبانيا - على ايجاد الفرصة للتعاون فيما بينها ، لتصحيح التوازن واعادته الى نصابه القديم.

الفصل الحادى عشر

فرنسا من صلح باريس الى قيام الثورة الفرنسية

اوضحنا فى الفصل السابق كيف ان فرنسا فقدت مكانتها العسكرية عندما الحقبها تحالف انجلترا مع بروسيا هزيمة منكرة فى حرب السنوات السبع . كما كان الملك لويس الخامس عشر الذى توفى عام ١٧٧٤ نموذجا كاملا لانحطاط الملكية . فقدكانت الملكية الفرنسية مدينة بزعامتها الايجابية للأمة فى الحروب، ولكنه كان غارقا فى مباذله عاطلا عن اية حمية عسكرية او حماسة دافعة ، فحاقت بالأمة الفرنسية فى عهده هزائم كبرى لم تقو على علاجها من بعده . فخسرت فرنسا مستعمراتها فى الهند وامريكا ، ولم تعد الاستعراضات الحربية تقام لاظهار ما لفرنسا من القوة الحربية ، بل كانت تقام لتسلية الملك ومحظياته أمثال مدام دى بمبادور . وفى الحقيقة افقد انهزام الملكية الفرنسية امام بروسيا فى حرب السنوات السبع حب الشعب الفرنسى لها ، وقال نابليون بونابرت ان موقعة روزباخ Rossback (حدثت فى المانيا فى حرب السنوات السبع عام ١٧٥٧) وهى من اهم اسباب قيام الثورة الفرنسية .

لقد اظهرت حرب السنوات السبع للشعب الفرنسى انهم ضحايا حكم فاسد من جميع وجوهه . وكان ابرز هذه الوجوه الحكم المطلق من ناحية وطبقة النبلاء المميزة التى تعيش عالة على جماهير الشعب الفرنسى من ناحية اخرى . وفى حوالى منتصف القرن الثامن عشر حدث تغير ديناميكى فى حياة الشعب الفرنسى وذلك انه على الرغم من ان الشعب الفرنسى كان منفصلا ليس فقط من طبقة النبلاء بل كذلك من طبقة رجال الدين الا انه لم يكن خاملا . فقسم كبير من عناصر الشعب الفرنسى وهو سكان المدن او البورجوازية اخذ فى النمو بسرعة فائقة ، والى هذا العنصر

يرجع الفضل فى بناء التجارة والصناعة الفرنسية واليه يرجع الفضل فى بناء الامبراطورية الاستعمارية فيما وراء البحار ومن هذه الطبقات ايضا خرجت مجموعة كبيرة من النقاد والكتاب ارتبطت بالحركة الفكرية المعاصرة التى اطلق عليها الاستنارة • فمما لاشك فيه ان من بين الطبقة البورجوارية الفرنسية ظهر قوادهذه الحركة الفكرية التى عمت بقية اوروبا • ولقد بدأت هذه الحركة - التي سنشير اليها بعدذلك بالتفصيل - فى عهد لويس الخامس عشر قبل حرب السنوات السبع فأكملت هذا الانقلاب فى صفوف البورجوازية بحيث اضحت هذه تحمل لواء الاصلاح والتغيير في الوضع الاجتماعى والسياسى •

بعد وفاة لويس الخامس عشر فىعام ١٧٧٤، خلفه حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤-١٧٩٢) وحالف التوفيق رايات البلاد من جديد فى حرب الاستقلال الامريكية • ولكن خزينة فرنسا كانت خاوية الى حد مزعج وكان لابد من اتباع سياسة اصلاحية بهدف تقييد الحكم المطلق ، وتبسيط النظام الادارى ، والقضاء على الامتيازات ولقد كان الملك - كما اشرنا من قبل - مصدر السلطات جميعا ، فكانت له وحده السلطة التنفيذية حق تعيين الموظفين والاشراف على الادارة ، وعقد المحالفات ، واعلان الحرب وقيادة الجيوش • كما كانت له وحده السلطة التشريعية لأن مجرد صدور لائحة ملكية يكفى لتغيير نظام الحكومة او القضاء ، وكانت القوانين الفرنسية مؤلفة من العادات القديمة واللوائح الملكية • وكانت له وحدة السلطة المالية يقرر النفقات والضرائب رجبايتها بغير رقيب • وكان الوزراء والحكام خاضعين لارادته التى تقوم مقام القانون •

وكانت ارادة الامة ممثلة شكلا فى "البرلمان" ومجلس الامة • اما البرلمان فاسم كان يطلق فى العهد القديم على محاكم عليا منشأة فى المدن الرئيسية للفصل نهائيا فى الأحكام المستأنفة • وكان اهمها

واقدمها "برلمان باريس" الذى كان فى بدايته محكمة عليا متنقلة تتبع الملوك اينما ذهبوا لتقضى باسمهم ثم اقرها فيليب الرابع فى باريس (١٣٠٢) وكان برلمان باريس كالبرلمانات الاخرى التى انشئت فيما بعد ينظر فى الدعاوى المستأنفة ، ولكنه كان فوق ذلك يسجل القوانين واللوائح والاوامر الملكية وكانت اختصاصات البرلمان فى البداية قضائية بحتة وما لبث ان انتحل لنفسه سلطة سياسية فكان كثيرا ما يرفض تسجيل القوانين التى يرى انها تتنافى مع العدل او يوجه الى الملك قبل الشروع فى عملية التسجيل انتقادات مرة نفى من اجلها مرارا ، وقد تعب من مقاومته لويس الخامس عشر فالغاه فى عام ١٧٧١ واعاده لويس السادس عشر فى اول حكمه (١٧٧٤) فصار البرلمان فى ايامه على رأس حركة المعارضة التى تقدمت الثورة وكانت العامل الاول فى اضعاف الملكية .

اما مجلس الامة Etate - Generaux فكان يتألف من نواب النبلاء والقساوسة والطبقة الثالثة (الشعب) ، واول جمعية عرفت بهذا الاسم اجتمعت فى عام ١٣٠٢ بناء على دعوة فيليب الرابع للفصل فى النزاع الذى قام بينه وبين البابا بونيفاس الثامن ، وقد ايدته اغلبية المجلس فى وجوب تحميل الاكليروس نصيبا من اعباء البلاد المالية واكدت بذلك استقلال الملكية عن حكومة روما فى سلطتها الزمنية ، ولا ريب ان هذا الاجتماع الخطير يدل على ان الملكية بدأت تستند فى اعمالها الى الرأى العام لان مجلس الامة اول تمثيل صحيح قام على قاعدة انتخابية على ان هذا المجلس كان لا يجتمع بطريقة نظامية وانما يعقده الملوك حسب مشيئتهم لاخذ رأيه فى المسائل الهامة وتقرير الضرائب ، وكان يطالب احيانا بالاصلاحات النافعة واجتمع لآخر مرة عام ١٦١٤ ثم اصبح بعد ذلك نسيا منسيا حتى عام ١٧٨٩ عام قيام الثورة .

وكان الفرنسيون لا يتمتعون بأية حرية فلا وجود للحرية الفردية لأن

مجرد صدور ارادة ملكية Lettre de Cachet يكفى لسجن او نفى اى فرنسى دون اتباع اى اجراء قانونى او الاستناد الى اى حكم قضائى وكانت هذه الارادات تصدر فى صورة خطاب موقع من الملك واحد وزرائه ومغلق بختم الملك، وكان يستعملها الملك ووزراؤه وكبار رجال الدولة للانتقام من اعداء الحكومة السياسيين ثم جرى استعمالها للانتقام من الاعداء الشخصيين ومن ضحايا هذه الارادات لاتود Latude الذى ظل فى سجن الباستيل ٣٥ سنة (١٧٤٩ - ١٧٨٤) بناء على طلب مدام دى بومبادور لأنه بلغها فى سن الرابعة والعشرين من عمره خبر مؤامرة وهمية طمعا فى رضاها ووقايتها. اما الحرية الدينية فلم يكن لها وجود فى فرنسا لأن الدين الكاثوليكى هو دين الدولة الوحيد المعترف به. وكان اجباريا، وقد اعلن لويس السادس عشر عند اعتلائه الحكم انه سيبذل اقصى سلطته فى مطاردة اعداء الكنيسة ، وكان محرما على البروتستانت واليهود الدخول فى المناصب العامة. وعلاوة على ذلك قيدت حرية النشر لأن لجنة الرقابة التى انشئت فى ايام لويس الرابع عشر كانت تفحص جميع المطبوعات قبل ظهورها، واذا صدرت كتب من غير اذن اللجنة صودرت وزج بأصحابها فى الباستيل من غير محاكمة، وقد سجن فولتير فيه مرتين واضطر الى الرحيل عن بلاده ليتمكن من التأليف فى امن .

ومن اهم العوامل التى ادت الى بغض الحكم المطلق فى فرنسا وجود البلاط الملكى الذى اتخذه الملوك منذ عهد فرنسيس الاول اداة حكومية واجتذبوا الى ساحته فى فرساى ، خصوصا فى ايام لويس الرابع عشر النبلاء الذين اخذت سلطتهم تفنى فى السلطة الملكية . وكان يبلغ عدد رجال البلاط ١٨٠٠٠ فى عام ١٧٨٩ تجرى عليهم الارزاق والمرتبات الضخمة دون ان يكون لهم عمل يؤدونه ، وكانت خزانة الدولة تدر على اولئك العاطلين من اصحاب الابهات المولعين بالترف وحب الظهور والملاهى والحفلات الراقصة

مما دعا تيرجو Turgot الى ان يقول للويس السادس عشر على اثر تعيينه وزيرا للمالية : " يجب ان تتسلح يا مولاى ضد احسانك وان تفكر فى مصدر هذا المال الذى تنفقه على بطانتك وان تقارن بين بؤس اولئك الذين ينتزع منهم المال احيانا باساليب قاسية وحالة اولئك الذين ينعمون من فيضك " وبرغم ذلك لم تقلع الملكية عن سياسة الاسراف ، فانفق الملك فى خلال ثلاثة اعوام (١٧٧٨-١٧٨١) مبلغ ٢٦٠٠٠٠ جنيه مرتبات لبعض رجال البلاط الجدد الذين عينوا فى وظائف لم تخل بعد .

وفى الواقع كانت الضرائب موزعة بطريقة جائرة تشكو الطبقة العاملة الفقيرة من فداحتها واساليب جبايتها . فكانت الحكومة تقرر فى كل عام المبلغ الذى تدفعه كل مديرية ثم يقوم الموظفون فى معظم المقاطعات من المدير الى الجابى بتوزيع الضرائب بين السكان لا بنسبة الثروة بل بنسبة المقدرة ، وتلك عادة قديمة ، فكان الجباة احرارا فى تقدير ما يدفعه كل ساكن ومراعاة ذويهم . واهم الضرائب المباشرة الضريبة الملكية التى كانت تقع على الشعب وحده على العمال والتجار والفلاحين الذين ليسوا من طبقة الاشراف ، واول من فرضها فيليب الرابع للقيام بنفقات الحرب . وقد دفعت الحروب لويس الرابع عشر الى فرض ضريبة شخصية فوق العادة (رسم الرأس Capitation) وضريبة عشرونية (١/٢٠ من الدخل) . وكانت هاتان الضريبتان من الوجهة النظرية تشملان جميع الطبقات ، ولكن القساوسة اعفوا منها لقاء التبرع بمبالغ معينة من المال من وقت لآخر . وكان النبلاء يدفعون مبالغ ضئيلة بالنسبة لثروتهم . وهكذا كانت الضرائب المباشرة وحدها تستنفد نصف ايراد الطبقة العاملة .

اما الضرائب غير المباشرة كضريبة المشروبات وضريبة الملح* فكانت

---

* كانت الحكومة تحتكر تجارة الملح Gabelle وترغم كل فرد من الاهالى رجلا كان او امرأة او طفلا على شراء قدر معين منه ، حتى ولو لم يكن لديهم الخبز اللازم لاود الحياة .

وكان للنبلاء وحدهم الحق فى وظائف البلاط ومناصب الجيش الرئيسية اما الشعب فعليه اعباء الضرائب والسخرة والتجنيد

ولاريب ان هذه اللامساواة كان يتألم منها الشعب حتى قال بعض الكتاب ان ظمأ الفرنسيين الى المساواة كان اشد من ظمأهم الى الحرية . والواقع ان النظام الاجتماعى فى القرن الثامن عشر كان اكثر انطباقا على الحالة العمرانية والسياسية فى العصور الوسطى خصوصا وان النبلاء قد اضمحل امرهم واشتغل الكثيرون من افراد الشعب ، وغير النبلاء بالتجارة والصناعة فنالوا ثروة واسعة ورفعة وقوة وتألفت من الشعب " طبقة متوسطة " جديدة متنورة تعتز بحسبها الذى ابتنته لنفسها بكدها وتندد بامتيازات النبلاء التى لا يبررها سوى الاصل والنسب . والى هذه الطبقة ينتمى فولتير الذى روى انه تنازع مرة مع الدوق دى روهان وبينما كان يتناول غذاءه ذات يوم بعث اليه الدوق يدعوه لأمر عاجل فما كاد يخرج من البيت حتى اثخنه ضربا بالعصى وأراد فولتير التشهير بهذا الاعتداء فسجنته الحكومة فى الباستيل ثم اطلقته بعد ان اشارت عليه بالرحيل من البلاد حتى ينسى امره (١٧٢٦) .

وانتسب الى هذه الطبقة كبار الملتزمين والماليين ورؤساء المصارف والشركات وارباب التجارة والصناعات (صارت الحركة التجارية اربعة اضعاف ما كانت عليه فى عام ١٧١٥) والمحامون والاطباء ورجال القانون حتى اصبحت فى الواقع الطبقة الاولى التى عليها مدار الحياة فى الدولة ، وكان من الطبيعى ان ترقى من مركزها الاجتماعى فى ذيل الطبقات وان تكون على رأس الحركة الثورية العاملة على تقويض نظام الحكم والادارة والمجتمع .

وهكذا بدأ السخط يعم البلاد خصوصا طبقة الشعب ، وصار

جبايتها مؤجرة لرهط من كبار الماليين اوالملتزمين الذين لايدخرون وسيلة فيابتزاز المال والحصول علىارباح وفيرة ،وكانت ضريبة الملح ابغض الضرائب الى الفرنسيين ومثل من امثلة الاستبداد والتحكم اذ كان حتما على كل انسان في بعض المقاطعات شراء كمية معينة من الملح، بثمن معين ، ولاستعمال معين (للطبخ مثلا فلايجوز استعماله في تمليح الخنزير) وكان عمال الملتزمين يدخلون المنازل للتفتيش عن الملح المهرب ،ويقبضون على الفين او ثلاثة آلاف مهرب في كل عام يجازونهم بالجلد أو بالاشغال الشاقة . كما كانت طبقات الشعب التي تتألف منها اربعة اخماس السكان تدفع ، عدا هذه الضرائب الملكية الفادحة ، الضريبة العشرية للاكليروس (عشر المحصول تقريبا) والحقوق الاقطاعية للنبلاء ، وكانت هذه الحقوق متنوعة ، منها الرسوم التي يتقاضاها النبيل في مقابل ارغام الفلاحين على استعمال طاحونته ، ومعصرته ،ومنها حق الصيد الذي كان يرغم الفلاحين على ترك الصيد يفتك بمحاصيلهم والصائدين يدهكونها بأقدامهم .

اما من الناحية الاجتماعية ،فقدكانت الامة الفرنسية مقسمة الى طبقات ثلاث : الاكليروس والنبلاء والشعب وكان لطبقة الاكليروس املاك واسعة (تقدر بربع اوخمس اراضي المملكة) معفاة من كل ضريبة ،وكانت تحصل فوق ذلك الضريبة العشورية من الشعب ، وتفصل محاكمها في مسائل الزواج ولكن كان الآلاف من صغار الاكليروس يشكون ضنك العيش بسبب استئثار رؤساء الاكليروس بثروة الكنيسة واموالها . أما النبلاء (كانوا نحو ١٥٠٠٠٠ في عام ١٧٨٩) فكان لطبقتهم في البداية ملكية الاراضي كلها تقريبا والسلطة العامة ، فلما قويت الملكية الفرنسية حلت سلطتها محل سلطة النبلاء ، ثم اخذ الفلاحون من ناحية اخرى يمتلكون تدريجيا الاراضي التي كانوا يزرعونها (ثلث اراضي المملكة تقريبا ولكنهم ظلوا يؤدون الحقوق الاقطاعية للنبيل الذي ما برح يرهقهم بالضرائب والسخرة .

الاكليروس ونبلاء الاقاليم لا البلاط، ويأخذ شكلا محسوسا بفضل الروح الجديدة التى ظهرت فى القرن الثامن عشر وقيام الحركة الفكرية . فلقد ظهر فى فرنسا طائفة من الكتاب الذين قوضوا دعائم النظام القديم Ancien Regime دعائم الحكم المطلق وعدم المساواة فى حياة المجتمع وعدم التسامح فى شئون الدين ونظام الحماية فى عالم الاقتصاد . فأعلن الاقتصاديون الا سبيل لعلاج الكساد المخيم على التجارة والانتاج الا باتباع مبدأ الحرية الاقتصادية Laissez -faire والقضاء على القيود الصناعية والتجارية . كما ذهب السياسيون الى ان نظام الامتياز والحكم المطلق يناقض ضمان مبادىء الاخاء الانسانى والقواعد التى قامت عليها الحكومات وهى ضمان الحرية والمساواة ، وانه لا مناص من اعادة تلك الحقوق الطبيعية للأمة حتى يقوم نظام الحكم فى البلاد على اساس وطيد . وقد كان اكبر هؤلاء الكتاب واعظمهم اثرا مونتسكيو وفولتير ، وروسو .

١ - **مونتسكيو** Montesquieu (١٧٨٩ - ١٧٥٥) :

كان من طائفة النبلاء ، وقد اهتم منذ بداية حياته العملية بوضع مجموعة من المؤلفات القيمة فى موضوعات شتى . ولكن مؤلفه الذى خلد اسمه هو كتاب روح القوانين Esprit des Lois/ The Spirit of the Laws الذى حلل فيه تحليلا دقيقا انظمة الحكومات المختلفة والظروف التى نشأت فيها ، واعتبر النظام الانجليزى اوفى الانظمة وأوقاها لانه نظام يمنع طغيان الحاكم ، وينقل سلطات الحكم الى ثلاث هيئات مستقلة الهيئة التشريعية والهيئة التنفيذية والهيئة القضائية ، قصدا الى تدعيم اصول الحكم وضمان سلامة المحكوم . وقد اثار مونتسكيو مسألة فصل السلطات ضمانا للعدالة والحرية المدنية والسياسية ، ولم يكن معنى الاخيرة

الا شعور المرء بالاطمئنان الى القدرة على فعل الشيء وليس معناها ان يفعل الانسان كل ما تشاء ارادته ،ولصيانة هذه الحرية السياسية من النزوات البشرية رأى وجوب خضوع المرء للقانون وحده ،وهذا لا يتحقق الا بفضل السلطات بتوزيعها لا تكتلها فى يد واحدة ،على ان توضح حدودها .

ودرس مونتسكيو ظاهرة المسئولية والجزاء وحمل على اسراف القوانين الجنائية فى عصره ،كما درس مسائل سياسية اخرى تتعلق بنشأة الدساتير ومبادئها ، وطريقة صياغتها .ولقد أثرت آراؤه فى سياسة اوروبا سيما نظريته فى توازن السلطات وأثرت آراؤه ايضا فى امريكا ، واحترمها رجال الثورة ولا ادل على ذلك من ذكر اسمه فى المسودات الرسمية التى قام على اساسها الدستور الامريكى الاول واحترمتها الثورة الفرنسية فاستمد اعضاء الجمعية التأسيسية الذين وضعوا الدستور ، الكثير من آرائه لاسيما فيما يتعلق بالتوازن بين السلطات ومدى استقلال كل منها عن الاخرى . وهكذا اخذت فرنسا بنظرية مونتسكيو فى فصل السلطات فى كل الدساتير التى تعاقبت عليها من عهد الثورة الى عهد الجمهورية الثالثة .

كان مونتسكيو اذا ، من دعاة الثورة الفكرية ، من المهيئين للقضاء على المجتمع القديم ،وانتظام الحضارة على اساس قومى يمكنها من الازدهار بما اذاعه من آراء عن الحريات وبما قام به من حملات على الحكم المطلق وغيره ،كالنظم السياسية والاجتماعية الفاسدة وعن هذا الطريق نفذ بعمق الى قلب المجتمع الفرنسى فظهرت آثار ذلك بين رجال الجمعية التأسيسية الفرنسية ، الذين قاموا غداة الثورة بتنظيم شئون المجتمع عند وضع الدستور عام ١٧٩١ .

٢ ـ فولتير Voltaire (١٦٩٤ـ١٧٧٨)

كان فولتير مثلا من الامثلة الواضحة للبورجوازية ،بل كان من أسرة

بورجوازية وقد اثرى من مشروعاته الكثير من المال . وكانت ميزته الكبرى فى تفوقه فى فنون النقد . نقد كتاب روح القوانين لمونتسكيو فعاب عليه تعمقه فى الاستقصاء التاريخى عن اصول القوانين، ثم عدم دقة ووضوح الحدود الفاصلة بين الملكية والاستبدادية عنده، لانهما على حد قوله " اخوان يشبه احدهما الاخر، لدرجة يعجز المرء فى التفريق بينهما فى اكثر الحالات ". ثم عرض فولتير فى كتابه " آراء جمهورية " الذى نشر عام ١٧٦٥ بعض الاراء الجريئة فعرف مثلا الحكومة المدنية بأنها "ارادة الكل يقوم بتنفيذها شخص واحد او جملة اشخاص تبعا لقوانين يدين الجميع بالخضوع لها

ولقد سافر فولتير الى انجلترا، بعد سجنه ايام شبابه مرتين، ودرس نظم الحكم فيها وقواعد الحرية التى اعجب بها اعجاب مونتسكيو بها لاعتقاده ان كل الدول التى تقوم على مبادىء مثل هذه لا تتعرض لحدوث اى ثورة بها. وعرض فولتير بعض الاراء السياسية فى رسالة نشرت له عام ١٧٦٥ وشرحت هذه الاراء المذهب الحر والمستنير. وقد لاحظ ان الطبقة الثالثة وهى العامة تمثل الاساس الذى يرتكز عليه تكوين الامة، وقال عن الحرية : بأن حب الناس لها طبيعى لدرجة ان جميع من ظفروا بها يرضون عن الآراء الجمهورية واشاد بفكرة المساواة ومعناها فقال : لا توجد بلدان تستحق السكن بها كالبلدان التى يخضع اهلها للقانون متساوين وفى كل الظروف وكان رأيه فى وظيفة الحكومة تتفق ومعنى الخدمة العامة فالوظيفة هى ان تقوم الحكومة على تنفيذ مايصدر من رغبات تبديها الارادة العامة وبشريطة ان يكون هذا وفقا للقوانين التى يقرها الجميع او تصدر بموافقتهم. وفى الواقع حمل فولتير حملة شعواء على مفاسد الحكم المطلق، ولكنه لم يحاول فى هذا كله ان يضع خطة انشائية، وانما كانت كتاباته تتجه الى الهجوم العنيف والنقد

المر للانظمة القائمة سواء فى الناحية السياسية ام الدينية ،حتى اطاح بما كان لتلك الانظمة والعقائد من هيبة واحترام .

٣ - روسو Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨) :

يعتبر جان جاك روسو من المع مفكرى العالم الاحرار فى القرن الثامن عشر الذين مهدوا بطريقة ايجابية لقيام ثورتى امريكا وفرنسا وكان لروسو نهج غير نهج مونتسكيو وفولتير اللذين اقتصرا على مهاجمة النظم القائمة والمطالبة بتحديد السلطة المطلقة . فاتجه روسو بتأثير الالام التى مر بها فى حياته الى وضع نظام حديث لمجتمع حديث . وكان روسو فرنسيا من اصل سويسرى من مدينة جنيف ، وكان يكره جميع القيود من اى نوع ويجد السعادة الكبرى فى الانطلاق الحر لانفعالاته . ومع ان روسو ينتمى الى عصر الاستنارة الا انه لم يتردد فى تحدى ايمان المستنيرين فى الفكر الانسانى باعتباره المرشد والمحرر للبشرية ،وبدلا من العقل كان روسو يضع العاطفة فى المحل الاول وبهذا اصبح روسو رائد العصر الرومانتيكى الذى تلى عصر الاستنارة . ولا تهمنا الناحية الرومانتكية من آراء روسو وانما يهمنا روسو كفيلسوف سياسى .

وترك روسو كتبا كثيرة كان اهمها العقد الاجتماعى Social Contract الذى يعتبر اكثرها ذيوعا ،حتى قال عنه مؤرخو الفلسفة : بأنه كان انجيل الثورة الفرنسية ودستورها . ويضع روسو فى" العقد الاجتماعى" تصورات وفروضا تبرزما استحدث عن الحياة الفطرية من قيود والتزامات قيدت من حرية الانسان الذى ولد حرا فى نظره ، وهو يذهب الى ان الانسان نشأ وحيدا منعزلا ،لايعرف اهله وذويه ،وكان يحصل بسهولة على حاجياته الضرورية وكانت هذه الحياة اسعد حالة بالنسبة

* نشر هذا الكتاب عام ١٧٦٢.

لفطرته الاولى حيث لا قانون ولا سلطة ولاظلم ولا عدل ،وقد اضطر تحت ضغط الظروف المحيطة به الى ان يتعاون مع غيره ، ثم حدث ان اكتشف الزراعة فتبع ذلك تقسيم الاراضى ، وظهرت الملكية الفردية ، التى ادت الى ازدياد اسباب التفاوت بين الافراد الى قيام النزاع بينهم ، ومن ثم فسدت اخلاقهم ،وانقلبت سعادتهم الى شقاء ، فأرجع بهذا روسو فساد المجتمع والاخلاق الى ظاهرة الملكية لانها تتعارض فى رأيه مع النظام الطبيعى، وقد كانت هذه الصيحة منه نذيرا بيقظة الآراء الاشتراكية بحيث كانت لها اثرها فيما بعد.

وكان روسو يرى ان العمل على اصلاح عيوب المجتمع الانسانى لا يتأتى الا بالتنظيم السياسى واقامة الحكم الصالح. وافضل وسيلة لتحقيق ذلك هو ان يتعاقد الافراد بمقتضى ميثاق اجتماعى ،بحيث ينزل كل فرد عن جزء من حقوقه الشخصية للمجموع ، لا لشخص معين ولا لبضعة اشخاص ، ووظيفة هذا التعاقد هى :قيام دولة مزودة بسلطة سياسية غايتها حماية مصالح المتعاقدين بواسطة القوة الجمعية فتتحقق بذلك المساواة بين الجميع وتصبح ارادة المجموع نافذة ، وكانت هذه الهيئة العامة التى تتكون باتحاد جميع الافراد تسمى فيما مضى مدينة ، اما اليوم فتسمى دولة واعضاؤها يسمون شعبا ومواطنين متى اشتركوا فى المسائل السياسية ، ورعايا ،متى كانوا خاضعين لقانون واحد .وبهذا فالعقد الاجتماعى هو الذى ينشىء الدولة كما ينشىء حق السيادة وتتركز سيادة الدولة فى مجموع افرادها ومتى كانت هذه السيادة هى المعبرة عن ارادة الامة عامة ، وهذه الارادة لايمكن التنازل عنها ، فانه يترتب على ذلك ان حق السيادة من الحقوق التى لايمكن التنازل عنها او التصرف فيها ،وبذلك قرر روسو مبدأ دستوريا هاما وهو مبدأ عدم التنازل عن السيادة او التصرف فيها .

ووضح روسو معالم التمثيل النيابي كما رآه، فقال : انه لما كانت سيادة الامة من الحقوق التي لايمكن التنازل عنها، فان صاحبها لايستطيع اذا ان ينيب عنه ممثلين او نوابا، لان هؤلاء قد يعتبرون انفسهم ممثلين لارادة الامة ويحلون ارادتهم محل ارادتها، مما يعتبر تناقضا مع المبدأ الذي سبق تقريره، لذلك قال : بأن ممثلي الامة هم مجرد تابعين للشعب او وسطاء بينه وبين الهيئة العامة التي اصطلحوا على تكوينها بمقتضى الميثاق، وليس لهم من وظيفة الا العمل وفق مشيئة الناخبين وتنفيذ رغباتهم، وليس لهم الحق في ان يبرموا شيئا بصفة نهائية لان كل قانون لا يصادق عليه الشعب يكون باطلا، ولا يصح تسميته قانونا وفي هذا الصدد يقول روسو: "قد يظن الشعب الانجليزي انه حر حقا، ولكنه في حقيقة الامر ليس كذلك لايكاد يشعر بحريته الا يوم انتخاب مندوبيه". بهذا ايد روسو النظام الديمقراطي المباشر، وهو النظام الذي كان سائدا في المجتمعات الديمقراطية القديمة، وفي سويسرا مسقط رأسه ووطنه الثاني .

ولقد كانت آثار العقد الاجتماعي قوية بين مجتمع يتهيأ في ذلك الوقت للثورة فقد زاده تهيئا لها حتى اشتعلت نيرانها فيما بعد، وقد بدأ آثره في اولى ثمار الثورة الفرنسية عندما اعلنت حقوق الانسان، فقد كان يكرر دائما ان هدف الدولة الاساسي هو حماية حقوق الانسان، لأن من يفرط في حقوقه فقد فرط في اهم مقومات شخصية وتنازل الانسان عن حريته ينطوي على تنازله عن طبيعته كانسان، كما ظهر آثره ايضا في الغاء الامتيازات التي استندت عليها الملكية كحق الفتح او الحق الالهي المقدس وتهدم كل اساس تقوم عليه الملكية المطلقة والاستبدادية عموما، ولقد

بدأ روسو كتابة العقد الاجتماعي بدعوة الى الثورة فيقول ولد الانسان حرا لكنه مقيد بالاغلال في كل مكان، وتبع ذلك ان كان من الضروري على الانسان ان يحطم هذه الاغلال حتى يعيش المجتمع حرا .

ان روسو يعرف عادة في الفكر السياسي بمؤلفه عن العقد الاجتماعي (١) وما اشتمل عليه من نظريات يتخذ منها اهل اليمين واهل اليسار السند فيما يطالبون به احيانا من سلطة واحيانا من حرية، وما يطالبون به من مساواة وعدم مساواة في الوقت نفسه . ولكن مقاله عن " منشأ عدم المساواة " يوضح القصد الحقيقي من مساهمته في النظم السياسية بتأكيد ما أكد في " العقد الاجتماعي " من ان الخير الاعظم للشعب جميعه والذي ينبغي ان يكون الهدف من كل نظام تشريعي يتلخص في امرين رئيسيين وهما الحرية والمساواة - فالحرية امر رئيسي لان اية تبعية فردية ما هي الا انتقاص مماثل من قوة الدولة، والمساواة امر رئيسي لان الحرية لايمكن لها ان تبقى بدونها . وفي الحقيقة كان روسو جديرا باللقب الذي اضفاه عليه فلاسفة الفكر السياسي وهو انه ابو الثورة الفرنسية .

واذا كان مونتسكيو وفولتير وروسو قد حظوا باهتمام بالغ من الاجيال التالية فهناك ايضا جماعة اخرى كان لها تأثير عظيم بين معاصريها وكانت لها صلة هامة بأعمال الثورة، وقد عرفت هذه الجماعة باسم الاقتصاديين او الطبيعيين Physiocrats وقد تأثر هؤلاء الى حد كبير بكتابات الاقتصادي الانجليزي آدم سميث Adam Smith (٢) وممثلو هذه الجماعة الرئيسيون في فرنسا

---

(١) كان يعرف باسم انجيل الثورة .

(٢) مفكر اسكتلندي توفي في عام ١٧٩٠ ونادى في كتابه ثروة الامم Wealth of Nations الذي نشره في عام ١٧٧٦ ازالة كل الحواجز التي تضعها الحكومة على التجار Laissez - passer

هم ميرابو ابو السياسة الذى ذاع صيته فى الثورة ، وساى ،وقبل هؤلاء جميعا كيسناى Quesnay المفكر الحقيقى فى هذه الحركة الذى وصف بعضهم كتابه الغامض المعقد "الجدول الاقتصادى" Tableau Economique بأنه الدواء الناجح لمتاعب فرنسا . ويمكننا ان نستخلص من الكتابات الضخمة لهذه الجماعة المبادىء التالية باعتبارها تعاليم اساسية استخدام العمل فى الارض هو مصدر كل ثروة ، العمال هم فى الحقيقة اكثر الطبقات انتاجا بل وربما كانوا الطبقة المنتجة الوحيدة . تدخل الحكومة يجب ان يقلل الى ادنى حد :الاصلاحان الاساسيان اللذان يلزم تنفيذهما فورا هما اطلاق الحرية الكاملة للتجارة وانشاء نظام عام للتعليم : جميع الضرائب يجب ان تلغى وتتركز فى ضريبة واحدة هى ضريبة الارض وقد بذل تيرجو الذى كان تلميذا حصيفا من تلامذة هذه المدرسة جهودا ضخمة لتطبيق تعاليم كيسناى . وقد كان لهؤلاء الاقتصاديين اثر محسوس فى مجرى الثورة الفرنسية ولكن اهميتهم لا تقرب مطلقا من اهمية اتباع روسو وفولتير .

وعلى اية حال ، كان اعتلاء لويس السادس عشر العرش فى عام ١٧٧٤ .. و بشيرا بعهد افضل . فجميع طبقات الشعب الفرنسى تنفست الصعداء لانتهاء حكم لويس الخامس عشر الذى لم يكفر عن خلاعة بلاطه بتحقيق اية انتصارات خارجية ورغم انه كانت لفرنسا فى الخارج مكانة هائلة بفضل كتابها ، الا ان البلاط والحكومة لم يستفيدا من تلك المكانة لان الفكر الفرنسى كان مناوئا لنظام لويس الخامس عشر . وعلى هذا قوبل مجىء الملك الجديد بالترحيب لانه كان يمثل تغيرا على اية حال . ولقد بدأت فعلا فى فرنسا باعتلاء لويس السادس عشر للعرش جهود متصلة صادقة بزعامة الملكية لتعديل طبيعة الحكومة وهدفها . وقد صادفت تلك الجهود بادىء الامر تأييدا حماسيا من الطبقات الحاكمة والمثقفة . ولكن عجز

الدولة المالى كان هو الباب الذىدخلت منه الثورة فعلا. ذلك أن الاجراءات التى اتخذت لمواجهة تكاليف حروب القرن الثامن عشر الكبرى كانتقد القت بالنظام المالى لفرنسافى حالة من الفوضى ميئوس منها. وكانت الحاجة الرئيسية هى موازنة الدخل والمصروفات ولسوف يتبين ان ذلك أمر صعب المنال مالم تتغير نظم الحكم الفرنسية تغييرا كاملا.

ولقد عهد الملك الى تيرجو (١٧٧٤-١٧٧٦) بشئون فرنسا المالية وكان تيرجو راغبا فى ادخال الامانة والكفاية الى دوائر الخدمة العامة ـ وتلك ثورة بحق ـ وعازما على الحد من سلطة الكنيسة الضخمة الى درجة خطيرة وعلى ايجاد نظام عادل للضرائب وتوفير حرية التجارة داخل وخارج حدود المملكة. وقد انكب تيرجو على اعداد مشروعاته بغيرة وحماسة لافكار العدالة والانسانية، ولكن مقترحاته اثارت انزعاج الطبقات التى اشتمت فيها تهديدا لمصالحها فتآمرت عليه عصبة من افراد البلاط ساهمت فيها مارى انطوانيت زوجة الملك النمساوية بدور. ولم يكن للويس من قوة الشخصية ما يسمح له بمساندة وزيره بعد ان فقد محبة البلاط فأعفاه من منصبه وعين نيكر مراقبا للمالية بدلا منه.

وكان نيكر Necker (١٧٧٦-١٧٨١) مصرفيا بروتستانتيا فأثار تعيينه مراقبا للمالية بعض الصعوبات التى تم التغلب عليها بالرجوع الى حق الملك فى ممارسة اختصاصاته وقد سهل هو بدوره الامر على الملك بتنازله عن المرتب المخصص للوظيفة. وقبل نيكر النظام المالى والادارى فى فرنسا على علاته آملا فى ان تسير شئون الحكم دون احداث تعديل جوهرى وذلك بالتوفير وعقد القروض التى يسرت له خبرته وسمعته المالية الحصول عليها بفائدة اقل من ذى قبل. ولكن دخول فرنسا حرب الاستقلال الامريكية (١٧٧٨-١٧٨٣) افسدت عليه خطته فعمد الى الاستدانة وحاول ان يكسب ثقة البلاد فنشر حسابات الميزانية التى كشفت

الستار عما تغص به المنح والعطايا للخدم والحاشية فلقى ما لقيه ترجو من المقاومة واضطر الى التخلص من مركزه لآخرين ترضى عنهم الحاشية مثل كالون .

ركب كالون Calonne (١٧٨٣-١٧٨٧) متن الشطط والاسراف حتى بلغ ما اقترضه فى ثلاث سنوات ٤٨٧ مليونا . ثم رأى نفسه تحت دين صارخ يزيد على المائة مليون وكان البرلمان يعارض فى عمل سلفه جديدة فلم يبق الا فرض ضريبة على جميع الاملاك بلا استثناء وفكر فى الوقت نفسه فى الاقتداء بسلفه نيكر وانشاء مجالس المديريات والغاء السخرة واحداث اصلاحات متنوعة . واجتمع "مجلس الاعيان" فى اوائل عام ١٧٨٧ وكان مؤلفا من كبار رجال الدولة فعارض فى مشاريع كالون بحجة الرغبة فى الوقوف على سبب العجز الحقيقى . وكان فى الواقع يميل الى رفض اى مشروع يمس الامتيازات فلم يكن من كالون الا ان نشر مذكراته الاصلاحية فى الجمهور وألح فى وجوب مساواة الجميع فى الضرائب .

وقد عزل كالون بناء على امر الملكة فى عام ١٧٨٧ وخلفه الكاردينال دى بريين De واقترح دى بريين اللجوء الى السلطة الملكية لفرض الضرائب على الطبقات صاحبة الامتيازات وعارض البرلمان فى الموافقة على اية ضريبة جديدة وقال ان هذا من اختصاص "مجلس الامة" الذى لم يجتمع منذ عام ١٦١٤ . ولما اشتدت الضائقة المالية بالحكومة حتى اصبحت على شفا الافلاس اعلن الملك فى اغسطس عام ١٧٨٨ عزمه على عقد مجلس طبقات الامة ليكون عونا له على معالجة الازمة . ستقال دى بريين واستدعى الملك نيكر ارضاء للرأى العام وتهدئة للخواطر . وكلفه الملك بوضع نظام الانتخابات القادمة وفى ٢٧ ديسمبر عام ١٧٨٨ وافق مجلس الملك على التقرير المقدم من نيكر فى نفس اليوم

وخصوصا دعوة مجلس الامة الى الاجتماع فى ٥ مايو عام ١٧٨٩ وقد اشتمل التقرير على ما يلى :

١ — رد حق الموافقة على الضرائب الى الامة .

٢ — اجتماع مجلس الامة بطريقة نظامية يحددها المجلس نفسه .

٣ — تحديد النفقات ومرتب جلالة الملك .

٤ — عرض مسألة الارادات الملكية وحرية الصحافة على مجلس الامة .

٥ — انشاء مجالس مديريات فى جميع انحاء المملكة .

٦ — مساواة الجميع فى الضرائب .

٧ — مضاعفة عدد نواب الشعب فى مجلس الامة .

وفى ٥ مايو عام ١٧٨٩ افتتح الملك لويس السادس عشر المجلس فى قصر فرساى بحضور مندوبى النبلاء والكنيسة والعامة . وتعتبر هذه السنة بدء الثورة الفرنسية وعقد المجلس فى حد ذاته ليس ثورة ، ولكن يمكننا ان نعتبره ثورة لان الملك ارغم على عقد المجلس من قبل الشعب . والقى الملك فى المجلس خطبة مبهمة ليس فيها اشارة ما الى الاصلاحات الموعودة مما اثار الشكوك فى خطته . ثم حدث نزاع بين الطبقة الثالثة وطبقة النبلاء وطبقة الاكليروس اللتين تمثلان اصحاب الامتيازات ... طريقة التصويت بالرأس او بالطبقة وكان ممثلو الشعب يريدون ان ... التصويت بالرأس وممثلو النبلاء والاكليروس بالطبقة جريا على التقاليد القديمة حتى تكون لهم الاغلبية بالمجلس ولما رأى نواب الشعب ان لا سبيل الى الاتفاق اعلنوا انفسهم جمعية وطنية فى ١٧ يونيو وشرعوا فى تنظيم سلطاتها وكان ذلك فاتحة القرارات الثورية . فعول الملك على عرقلة هذه الحركة وارسل فى ٢٠ يونيو الجند لاغلاق ابواب غرفة الاجتماع فذهب الاعضاء واجتمعوا فى " ملعب التنس" حيث اقسموا انهم لن ينفضوا وان يجتمعوا فى اى مكان تدعو اليه الظروف حتى يضعوا الدستور ويوطدوه .

وفى ٢٣ يونيو دعيت الطبقات الثلاث الى القاعة العامة والقى الملك خطابا ضمنه الغاء القرار الذى اتخذه نواب العامة، وذكر الاصلاحات التى رأى وجوب بحثها لادخالها على نظم الحكومة، واعلن قراره بوجوب انفصال طبقات المجلس الثلاث عند المناقشة واخذ الاصوات وامر الاعضاء بالانفضاض وغادر القاعة، ولكن بقى نواب الشعب مكانهم حتى جاء رئيس التشريفات ليفضهم فقاوموه وقال ميرابو كلمته المأثورة "اننا هنا بارادة الشعب ولن نبرح مكاننا الا على اسنة الرماح" وفى اليوم التالى انضمت اغلبية القساوسة واقلية من النبلاء الى نواب الشعب فاصدر الملك الامر فى ١٧ يونيو باجتماع الطبقات معا والتصويت بالرأس فصارت الجمعية الوطنية منذ ذلك الوقت تمثل الامة تمثيلا قانونيا صحيحا .

وفى ٩ يوليو اعلنت الجمعية نفسها جمعية دستورية وتفرغت لاعداد الدستور بينما كان الباريسيون فى اضطراب ومظاهرات مستمرة ، ولكن الحزب الرجعى وعلى رأسه الملكة واخوة الملك عول على القضاء على هذه الحركة الدستورية بالقوة واخذ يحشد الجند والعسكر الالمانى والسويسرى فى باريس وفرساى فتوجس الوطنيون خيفة وقلقوا على مصير الجمعية والدستور ثم مالبثوا ان فوجئوا بعزل نيكر نصير الاصلاح ونفيه فى ١١ يوليو عام ١٧٨٩ .وماكاد الشعب فى باريس يعرف بنفى نيكر حتى تحرك للثورة وهجمت الجماهير المسلحة على الباستيل فى ١٤ يوليو واستولت عليه . فكان هذا اليوم فاتحة الثورة ،واخذ الشعب يعتد بقوته لان الباستيل كان حصنا يهيمن على اهم الاحياء الشعبية فى باريس وكان سجنا اكتسب شهرة عالمية بضحايا الظلم والاستبداد فكان اخذه انتصارا للثورة السياسية والحرية ،وكان من جهة اخرى

حدا للثورة السلمية التى ابتدأت فى ٥ مايو عام ١٧٨٩ وانقلب مجلس الامة فى اثنائها الى جمعية وطنية (١٧ يونيو) ثم الى جمعية وطنية دستورية (٩ يوليو) .

ولاشك ان انتصار الشعب جعل القوة المادية فى جانب الجمعية ومنذ ذلك الوقت اخذ النظام القديم الذى كانت قواعده الحكم المطلق والامتيازات يتداعى ويحل محله نظام جديد قائم على العدل والحرية والمساواة . فاعترف الملك بخذلانه واعاد نيكر ثانية ، وتألف فى باريس فى اثناء ثورة الشعب بلدية جديدة وحرس اهلى عهد برياسته الى القائد لافاييته ثم ما لبثت جميع مدن فرنسا ان اقتدت بباريس فى انشاء بلدية وحرس اهلى وتألفت فى العاصمة والمدن مجالس "كومون" وهى جمعيات ثورية قامت الى جانب البلديات فى ادارها ولعبت دورا كبيرا فى الثورة . وفى ليلة ٤ أغسطس قرر بعض النواب النبلاء والقساوسة التنازل عن الامتيازات والحقوق الاقطاعية فوافقت الجمعية بحماسة لا توصف وقام فى تلك الليلة مبدأ المساواة وانتصرت الثورة الاجتماعية وفى ٥ اكتوبر هاجمت جمهرة من الفرنسيين المطالبين بالخبز قصر الملك فى فرساى وطالبوه بالحضور للاقامة فى باريس واستسلم الملك . وفى اليوم التالى غادر لويس السادس عشر فرساى التى اقترن اسمها اقترانا وثيقا بأمجاد الملكية الفرنسية ، قاصدا "التويلرى" الذى كان فيما مضى قصرا لملوك فرنسا فى العصور الوسطى ولكنه لم يعد الآن بالمكان المهيأ لاقامته . وقد كان دخول لويس قصر التويلرى فى باريس اول خطوة فى طريق دخوله السجن فيما بعد ، ومن السجن الى المقصلة .

وتبعت الجمعية الملك الى باريس واستمرت عملية وضع الدستور دون توقف . واستقر الرأى اولا على وضع اعلان لحقوق الانسان يكون اساسا للدستور كله . وقد تمت الموافقة على هذا الاعلان فى اول اغسطس

عام ١٧٨٩ رقد وضعت مبادئ حقوق الانسان على اساس تعاليم روسو، وجاء في هذا الاعلان ما يلي :

ان ممثلي الشعب الفرنسي المجتمعين في شكل جمعية وطنية اذ يؤمنون بأن تجاهل حقوق الانسان واغفالها وازدراءها انما هي الاسباب الوحيدة التي للنكبات العامة وفساد الحكومات قد عقدوا العزم على أن يسجلوا في اعلان جليل حقوق الانسان الطبيعية المقدسة التي لايمكن التنازل عنها، حتى يكون في هذا الاعلان الماثل على الدوام امام جميع اعضاء الهيئة الاجتماعية تذكرة مستمرة لهم بحقوقهم وواجباتهم وحتى تكتسب تصرفات السلطتين التشريعية والتنفيذية التي يمكن على الدوام مضاهاتها بغايات كافة النظم السياسية المزيد من الاحترام لهذا السبب : وحتى تتجه دائما مطالب المواطنين القائمة من الآن فصاعدا على مبادئ بسيطة لا خلاف عليها، الى صيانة الدستور واسعاد الجميع.

ومن ثم فان الجمعية الوطنية تعترف وتعلن في حضرة الكاهن الاعلى وبرعايته الحقوق التالية للانسان والمواطن :

١ ـ يولد الناس احرارا و متساوين في الحقوق ويظلون كذلك والامتيازات الاجتماعية لا تقوم الا لمنفعة عامة.

٢ ـ هدف كل تشكيل سياسي هو المحافظة على حقوق الانسان الطبيعية غير القابلة للبطلان وهذه الحقوق هي حق الحرية والملكية والامن ومقاومة الظلم.

٣ - الامة مصدر السلطة الكاملة ولايجوز لأية جماعة أو فرد ممارسة السلطة مالم تكن مستمدة من الامة .

٤- الحرية تتمثل فى السماح للفرد بأن يفعل كل مالايضر الآخرين

٦ - القانون هو تعبير عن الارادة العامة ولجميع المواطنين حق الاشتراك فى وضعه بأشخاصهم أوعن طريق ممثليهم.

١٠- لايجوز ان يضار اى شخص بسبب آرائه ولوكانت آراء دينية على شريطة ألا ينطوى الاعراب عنها على الاخلال بالنظام العام الذى يقيمه القانون.

١١- حرية تبادل الافكار والاراء هى من اغلى حقوق الانسان .

١٧- لا يجوز حرمان اى فرد من الملكية التى هى مقدس لا يمس الا اذا اقتضت ذلك بجلاء ضرورة عامة نص عليها القانون .

ولقد ظل اعلان حقوق الانسان Beclaration og the Rights of Man طوال ربع قرن شعارا وميثاقا لجميع الثوريين ودعاة الاصلاح فى أوروبا وكانت هذه المبادىء الاساسية التى بنى عليها الدستور هى خلاصة فلسفة القرن الثامن عشر وقاعدة الدساتير الحديثة .

وكانت مهمة الجمعية بعد اعلان الحقوق الاشتغال باعداد الدستور وبناء النظام الجديد من الوجهتين السياسية والاجتماعية وقد قضى الدستور الفرنسى الجديد عام (١٧٩١) على النظم القديمة التى كانت سائدة فى فرنسا مثل نظام الاقطاع والاعفاء من دفع الضرائب ،واعاد تقسيم فرنسا اداريا ودينيا وهذه الناحية الاخيرة تأثرت بآراء المفكرين أمثال مونتسكيو وروسو اللذين لم يكونا يعتقدان فى الديانة المسيحية اعتقادا تاما ونص الدستور على ان تكون السلطة التشريعية فى يد مجلس نيابى

واحد ينتخب لمدة سنتين، بحيثلا يتجدد انتخاب احد الاعضاء مرتين متواليتين ، وجعل الانتخاب على درجتين،كما جعل حقه مقصورا على من يدفعون قدرا معينا من الضرائبوبشرطالايقلسن الناخب عن خمسة وعشرين عاما. وخول الملك سلطة الاعتراض Veto اىحق عدم التصديق على قرارات المجلس ، الا اذا اجازت تلكالقرارات ثلاثة مجالس متتالية ووضع شرط حرم به علىاعضاء المجلس النيابى دخولالوزارة. كما خول الدستور الملك حق تعيين الوزارة ورياسة الجيش ، واعلان الحرب ، وعقد معاهدات الصلح ـبشرط موافقة المجلس ـ والاشراف على القضاء والادارة ، على ان هذا الاشراف كان عديم القيمة ، اذجعلت تلك الوظائف قائمة على اساسالانتخاب ،فاصبحت سلطتها مستمدة من الشعب لا من الملك .وهكذا جرد الملك من كل سلطة حقيقية وابقىلهظلها ،وبعد ان كان سيد البلاد اصبح خادمها الاول ،ومعهذا فلم يعطاية فرصة ليكون خادما نافعا. ووقع الملك الدستور واقسم يمين الولاء له وللوطن. وبذلك ظنالعالم ان زمنالثورة والاضطراب فى فرنساقدانقضى ، وان البلاد توشكان يطلع عليها فجر جديد .

حلت الجمعية الوطنية نفسها بعد انوضعت الدستور وتطبيقا لنصوص الدستور اجتمعت الجمعية التشريعية فى اول اكتوبر عام١٧٩١ وانقسمت الجمعيةمنذ البداية الى ثلاثة احزاب وهى : حزب اليسارالذى كان يجمع انصار اليعاقبة Jacobins المتطرفين وجماعة الجيروند Girondins وكانوا منالجمهوريينالمعتدلين وحزب اليمينالذى كان يتألف من الملكيين المعتدلين.وكان اول ما اتجهت اليه انظار الجمعية التشريعية خطر الحربالتىهددتفرنسا. فقداجمعت دولاوروبا علىالدفاع عن حق الملوك الالهى وحقالاسرات اذخشيت تلك الدول انتشار مبادىء الثورة فى بلادها. وتضافرتعدة عواملجعلت الجمعية التشريعية

تعلن الحرب في ٢٠ ابريل عام ١٧٩٢ على امبراطور النمسا ، شقيق الملكة ماري انطوانيت وانضمت بروسيا الى النمسا ، وكان طبيعيا ان تنهزم فرنسا في اول الامر . ولا ريب ان الحرب اصبحت العامل الاساسي في الثورة منذ تلك اللحظة فصارت السياسة الداخلية خاضعة لها ، والحرب هي التي اخرجت الثورة من حدودها الطبيعية ووطأت اكتاف الارهاب والدكتاتورية وفي ١١ يوليو عام ١٧٩٢ اعلنت الجمعية ان الوطن في خطر وكتب هذا الاعلان على رايات يحملها فرسان الحرس الاهلي في الطرق ودقت الطبول فتوافد المتطوعون من كل حدب ، وكان الشعب يزداد حنقا على الخونة واعداء الوطن ويطالب بخلع الملك خصوصا عندما اصدر برنسويك قائد جيش الحلفاء في ٢٥ اغسطس بيانه الذي هدد فيه باريس بسحقها كلها اذا اقتحم قصر التويلري واهين الملك واسرته .

وفي ٣٠ يوليو وصل باريس خمسمائة حرس من مرسيليا من خيرة الجمهوريين وكانوا يهتفون بالنشيد الذي وضعه الضابط روجيه دي ليل وهو المرسلييز الذي صار منذ ذلك الوقت نشيد فرنسا الوطني . وقد اكرم الباريسيون وفادتهم واخذ بعض زعماء الشعب يستندون الى هذه القوة ويطالبون الجمعية بخلع لويس السادس عشر ، ولكن الجمعية وقفت حائرة بين الملك وقوى الثورة المنظمة ولكن في صبيحة ١٠ اغسطس هجم الثوار والحرس على قصر التويلري واقتحموه ومنه ذهبوا الى الجمعية وكان الملك قد لجأ اليها فاعلنت في الحال وقف الملك وانتخاب مؤتمر وطني La Gonvetion Nationale لوضع دستور جديد .

وانتخب المؤتمر بمقتضى قواعد جديدة وضعتها الجمعية التشريعية وعقد اولى جلساته في ٢٠ سبتمبر عام ١٧٩٢ ، فجلس الجيروند على اليمين ولم يكونوا اقل رغبة في الجمهورية من البعاقبة ، وانما جعلوا برنامجهم مكافحة الديكتاتورية ... [illegible] ... على البلاد ، ا...

اليعاقبة المتطرفون فقد جلسوا الى اليسار وكانوا اقل عددا ولكنهم اكثر كفاية واكبر جرأة .وجلس بين الفريقين جماعة عرفوا باسم السهل La laine وكانوا يتبعون رأى الفريق الذى ترجح كفته. وكانت فاتحة اعمال المؤتمر الغاء الملكية فى ٢١ سبتمبر عام ١٧٩٢ واعلان الجمهورية. وقرر المؤتمر تقديم الملك للمحاكمة ،وصدر قرار الادعاء فى ١١ ديسمبر متضمنا اتهام الملك بالتآمر ضد الامة وبامداد القوات التى اعدها المهاجرون فى الخارج بالمال وبمحاولة قلب الدستور. وقد سمح له بممارسة حق الدفاع. ودافع عنه محاميوه دفاعا بليغا جسورا. ثم ادلى اعضاء الجمعية بأصواتهم جهرا الواحد تلو الآخر، فأدين المتهم بالاجماع .وتقرر تطبيق عقوبة الاعدام بأغلبية صوت واحد لا أكثر . وفى ٢١ يناير عام ١٧٩٣ سيق لويس السادس عشر من السجن الى ميدان لويس الخامس عشر (الكونكورد) حيث نصبت المقصلة فصعد اليها بكل شجاعة واعلن على رؤوس الملا" انه برئ وانه يعفو عن اعدائه ويرجو ان ينفع دمه الفرنسيين....." ولكن صفير رئيس الحزب الاهلى قاطعة بدوى الطبل قبل ان يتم كلامه .

وأصبح مصير الجمهورية كله متوقفا على نتيجة الحرب . فبعد اعدام الملك دخلت انجلترا الحرب وانضمت الى التحالف الدولى الاول ضد فرنسا ، ويعتبر هذا اخطر ضربة تلقتها فرنسا فى ذلك الوقت . وقد دفع انجلترا الى اتخاذ هذا الموقف العوامل التالية :

اولا- لم يقابل الانجليز بعين الارتياح الهجوم على الملكية الفرنسية واعدام الملك ، ووجدوا فى ذلك مناقضة لمبادئ الثورة .واستجاب الكثيرون من الشعب الانجليزى لآراء بيرك Burke الذى ندد فى فصاحة رائعة بطبيعة الثورة واهدافها .

* كان اشهر زعماؤهم دانتون وروبسبيير ومارا وديمولان

ثانيا : لم تعد الثورة الفرنسية مسألة داخلية صرفة تهم فرنسا وحدها فالثورة قد خرجت من حدود فرنسا الى بلجيكا ،واستولى الجيش الفرنسى عليها واعلن حرية الملاحة فى مصب نهر شلت Scheldt وكانت انجلترا حريصة على اغلاق مصب ذلك النهر ،حتى لا تنافس تجارته تجارة نهر التيمز ،ولذلك وجدت انجلترا ضرورة التدخل فى الحرب .

ثالثا :لم تعد الثورة الفرنسية محلية صرفة ،فعندما احرز رجال الثورة بعض النجاح فى صدهم لقوات الاعداء عند فالمى ،اعلنوا فى ١٩ نوفمبر عام ١٧٩٢ قرارا بتأييد فرنسا لكل امة تطالب بحريتها اى ان فرنسا مستعدة للتدخل فى شئون الدول الاخرى وهذا مالا تقره الدول الاوروبية .

وهكذا اصبحت فرنسا فى حالة حرب ضد تحالف اوروبى يضم الدول الاوروبية العظمى (بروسيا والنمسا وانجلترا وبولندا وسردينيا واسبانيا) . وهزمت فرنسا امام قوات هذا التحالف فى موقعة نيرفندن Nearwinden فى مارس عام ١٧٩٣ وكانت هزيمة الفرنسيين حيث اعتادوا النصر شيئا سيئا فى حد ذاته ولكن مما زاد الطين بلة ان قائدهم بدأ فى التخابر مع العدو على الفور . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا سيصبح الخوف من خيانة الضباط من بواعث القلق الاولى عند الثوريين .

وبجانب هذا الخطر الخارجى ،تعرضت فرنسا لنشوب قلاقل كبيرة فى الداخل ،اذ قامت ثورة فى اقليم لافنديه Vendes فى الولايات الجنوبية لفرنسا ، قام بها الاشراف ورجال الدين . وكان على رجال المؤتمر ان يفوضوا السلطة للجنة من العناصر المتطرفة فى فرنسا تسمى لجنة الامن العام Committes of Public Safety وقامت السو

جانبها محكمة تسمى محكمة الثورة ، وبفضل هاتين الهيئتين قمعت الثورة بمنتهى الشدة والعنفه وتمكن اليعاقبة وهم المسيطرون على الهيئتين السالفتين من التنكيل بزعماء حزب الجيروند ، فقضوا عليه قضاء يكاد يكون تاما كحزب سياسي. واستعان اليعاقبة على ذلك بتعضيد سكان باريس لان الجيروند كانوا يريدون وضع نظام للحكم لا تكون فيه باريس المسيطرة على الاقاليم الفرنسية . اى ايجاد حكم لا مركزى بعكس اليعاقبة الذين كانوا يعتمدون فى قوتهم على غوغاء باريس ووصل عهد الارهاب Reign of Terror الى غايته فى فرنسا وتضاءل نفوذ المؤتمر وقل عدد اعضائه واصبحوا يخشون تهديد باريس واللجان التى كان فى يدها الحكم .

ويرجع الى دانتون الفضل فى انقاذ فرنسا مرة اخرى من الخطر الداخلى والخارجى وسيخلفه فى لجنة الامن العام روبسبيير ، وهو احد اتباع روسو، ولم يكن حتى ذلك الوقت قد قام بدور هام فى الثورة ، وكان رجلا مثاليا يريد انشاء دولة اساسها الفضيلة والسلام ومن الرجال الذين كان لهم فضل كبير فى انقاذ فرنسا كارنو Carnot الضابط الفرنسى الكبير الذى يكاد التاريخ لايعرف له مثيلا فى قدرته العجيبة على تنظيم الجيوش وتجهيزها بكل معدات القتال، فلم يحل الحول حتى تحولت هزائم فرنسا الى انتصارات . فقد أوقف زحف الحلفاء على فرنسا ، ثم اتخذ الجيش الفرنسى خطة الهجوم فاكتسح الاراضى المنخفضة (بلجيكا وهولندا) مرة ثانية ، واحتل ضفة الراين اليسرى وأجبر الاسبان على التراجع الى ما وراء جبال البرانس وبذلك تحقق ماكانت تحلم به فرنسا من قديم وهو الوصول

الى حدودها الطبيعية . وهكذا فان سياسة فرنسا منذ ذلك الوقت حتى نهاية عصر نابليون ستقوم على الفتح والتوسع على حساب الغير دون أى اعتبار الى ماجاءت به الثورة من مبادىء انسانية رفيعة .

وبعد ان فرغ اليعاقبة من انتصارهم على العدو الخارجي بدأوا ينقسمون على أنفسهم، فريق دانتون وكان يرى الرجوع بفرنسا الى حالتها الطبيعية ونبذ سياسة الارهاب وسفك الدماء، خصوصا بعد ان تخلصت فرنسا من الخطر الخارجي. وفريق هيبير Hebert وشوميت Chaumette ، وكان يرى الاستمرار فى سياسة التطرف وسفك الدماء. وفريق روبسبيير الذى كان لا يتفق مع آراء كلا الفريقين. وقد أخذ شوميت على عاتقه القيام باصلاحات داخلية هامة فى فرنسا ، وهذه الاصلاحات لم تفد فرنسا وحدها ، بل أفادت العالم أجمع ، كادخال النظام العشرى فى المقاييس والموازين وتسمية الشهور والايام بأسماء جديدة ، واحلال عبادة "العدل والحق" محل الدين الكاثوليكى الذى لم تستطع الثورة القضاء عليه ، ثم عدل هذا الدين الجديد الى دين الكائن الاعظم Etre Supreme

ولقد استطاع روبسبيير ان ينفرد بالحكم بعد ان قضى على حزب شوميت بمساعدة دانتون، ثم انقلب بعد ذلك على دانتون. ولقد ارسل اليعاقبة بعضهم البعض الى المقصلة واعتمدوا فى ذلك على غوغاء باريس، ولكن باريس سئمت الارهاب وكذلك اعضاء المؤتمر الوطنى .

وقام رجال المؤتمر بوضع دستور جديد لفرنسا سمى بدستور ١٧٩٥ يضمن لفرنسا الاستقرار الذى لم يتحقق لها فى ظل دستور عام ١٧٩١. ولكن اليعاقبة والملكيين قاموا بثورة ضده عرفت باسم

ثورة فاندميير Vendemiaire (اكتوبر ١٧٨٥) فقضى عليها نابليون. ووضع هذا الدستور السلطة التشريعية فى يد مجلسين مجلس الشيوخ وهو مجلس منتخب ويتكون من ٢٥٠ عضوا ولا يقل سن العضو فيه عن الاربعين. وكانت وظيفة هذا المجلس مراجعة قرارات المجلس الادنى ووقف مالا يتفق منها مع المصلحة العامة ومجلس الخمسمائة، ويتكون من خمسمائة عضو تزيد سنهم عن الثلاثين ويسقط ثلث عددهم فى كل عام، ووظيفته سن القوانين فحسب. وآلت السلطة التنفيذية طبقا للدستور الى مجلس ادارى يسمى بأسم "حكومة الادارة" The Directory وتؤلف من خمسة أعضاء ينتخبهم الشيوخ من عشرة يقترحهم مجلس الخمسمائة، وكان يتعين سقوط عضو بالاقتراع وانتخاب آخر مكانه فى كل عام. وكان اعضاء حكومة الادارة يعينون الوزراء الذين كانوا فى الواقع وزراء اداريين خاضعين لهم، والقواد والسفراء، كما اعلن الدستور الجديد حقوق المواطنين فى الحرية والاخاء والمساواة، ولو انه حدد سنا معينا ونصابا معينا للانتخاب *.

---

* اشترط الا تقل سن الناخب عن ٢١ سنة وان يكون ممن يدفعون قدرا معينا من الضرائب وان يعرف القراءة والكتابة.

وسيساعد هذا الدستور بطبيعته على الحكم الاستبدادى الذى سيظهر فيما بعد وهو حكم نابليون، وسيكون تاريخ فرنسا من عام ١٧٩٥ الى عام ١٨١٥ هو تاريخ نابليون، بل ان تاريخ اوربا من الناحية الخارجية طوال هذه المدة سيكون تاريخا لنابليون ايضا. فنابليون كان ابرز شخصية فى ذلك الوقت، وكان لظروف فرنسا الفضل فى ظهور هذه الشخصية، فأوقات الفوضى فى التاريخ كانت دائما تظهر الشخصيات القوية التى تستأثر بالسلطة. فالفوضى من جراء الارهاب وتدهور الصناعة والتجارة، كل هذه كانت من العوامل التى جعلت الشعب الفرنسى يتوق الى حكم رجل واحد يستطيع ان يمنح فرنسا ما فقدته من نظام وأمن. وكذلك من الناحية الخارجية فكانت الظروف غير موانية لفرنسا. حقيقة ان لجنة الامن العام قد نظمت داخلية فرنسا وضمنت لفرنسا النصر على التحالف الدولى الاول، لكن وجود النمسا وانجلترا لايزال مهددا لفرنسا، وقد استمرت الحرب بينها مدة طويلة ولم تتمكن فرنسا من قهر عدوتيها القديمتين.

ومن ناحية اخرى لم تكن احوال فرنسا الداخلية مستقرة، فدستور ١٧٩٥ لم يكن عاملا على اقرار النظام فى فرنسا والقضاء على اعدائها فى الخارج. فالخلاف بين السلطتين التنفيذية والتشريعية كان كبيرا. ولم تساعد كل هذه الظروف على استقرار الاحوال فى فرنسا وبدأ الشعب الفرنسى يتطلع الى حكومة نشيطة قوية. وهكذا ساعدت هذه الظروف على تعلق الفرنسيين بنابليون. فبهرتهم انتصاراته الحربية فى ايطاليا ومصر. وكان نابليون بلا ريب رجلا خارقا فى حدة ذكائه وقوة شخصيته، ولن يتعذر على من كان مثله ان يشق

طريقه الى أسمى المناصب تحت أي ظروف وفى آى بلد. وكان نابليون يملك بالاضافة الى ذلك موهبة العبقرية التى تستعصى على التحليل وصعود نابليون الى مركز السلطة فى فرنسا اكثر بكثير من مجرد قصة رجل قدير يفوز لنفسه بمكانة سامية فى العالم. ويعكس هذا الحادث كذلك احد القوانين العامة التى نستطيع ان نقتفى آثارها على سطح التاريخ. وبامكاننا ان نشاهد دائما فى التاريخ كيف تنتهى حقب الاضطراب والثورة باقامة حكم قوى غالبا ما يكون حكما فرديا. ومنذ عام ١٧٩٣ لم يكن لارادة الشعب واصوات المواطنين فى فرنسا القرار النهائى فى اية مسألة هامة تقريبا. فقد سقطت الملكية بالعنف وبالعنف قامت الجمهورية وبالعنف انقذته وبالعنف صعد روبسبيير وبه سقط. لذلك اصبح من الطبيعى ان تحكم فرنسا آخرالامربواسطة العنف فى أرقى صورة : لابوساطة غوغاء باريس الصاخبة وانما بوسائط كتائب فرنسا المدربة الظافرة. وهكذا فان ما اوصى به روسوفى "العقد الاجتماعى" عندما قال "ان قلبى يحدثنى بأن هذه الجزيرة الصغيرة (كورسيكا) ستذهل اوربا فى يوم من الايام يكاد يتحقق الان. اذ سينتهى المطاف بتلك الحركة التى بدأت بالرغبة المتوقدة بل الرغبة المغالية فى نيل الحرية الى قيام حكم دكتاتورى عسكرى. وعلى آية حال حاول نابليون ان يؤسس اسرة حاكمة من بعده، ونجح فى وضع بعض التقاليد وبعض الاسس واستفاد منها فى المستقبل ابن اخيه نابليون الثالث (١٨٤٨ - ١٨٧٠) .

القسم الثاني

معالم التاريخ الامريكى الحديث

الفصل الثاني عشر

كشف امريكا

ان تاريخ قارة امريكا الشمالية محاط بالغموض والاسرار يعتقد ان سكانها الاصليين من الهنود هاجروا من شمال آسيا الى لاسكا ومنها اتجهوا جنوبا الى المناطق الاكثر دفئا وحرارة. لعل ول من رأى سواحل امريكا من الاوربيين هم طلائع الاسكندنافيين لمغامرون الذين جابوا البحار بسفنهم التجارية المستديرة ات الشراع الواحد ليصلوا الى جرينلند حوالى عام ٩٨٥ م. وقد انطلقت سفنهم من هذه الجزيرة الكبيرة غربا. وهناك ما يدل على انه حوالى عام ١٠٠٠ وصل ليف ايريكسون Leif Ericson وغيره بالفعل الى ما يسمى الان بالولايات المتحدة.

ولكن هؤلاء الشماليين لم يستطيعوا البقاء فى العالم الجديد او ان ينقلوا اخبارا موثوقة ومعتمدة عن اسفارهم. لذلك فان الفضل فى اكتشاف امريكا وفتحها يعود الى كريستوف كولومبوس الذى جاء ورأى ووصف وساعد على استعمار جزر الهند الغربية فيما بين ١٤٩٠ و ١٥٠٠ وقد كان كولومبوس بحارا ايطاليا ولد فى جنوه عام ١٤٥١، وقام بأول رحلاته البحرية الى ساحل الشام فى عام ١٤٧٤ - ١٤٧٥ وذهب فى عام ١٤٨٤ الى اسبانيا حيث استقر بها وعمل فى خدمة ملك اسبانيا فرديناند والملكة ايزابيلا. وقد كثرت المتناقضات حول الغرض الذى من اجله قام كولومبوس برحلاته. فالبعض يذهب الى القول بان الغرض من هذه الرحلات لم يكن اكتشاف جزر الهند الشرقية

أو جزر التوابل، بل البحث عن بعض الجزر في المحيط الاطلسي.
وآخرون يرددون القصة القائلة بان توسكانيلي (Tescanelli)
وهو عالم ايطالي قد ارسل في عام ١٤٧٤ الى كولومبس خطابا يرد
فيه على خطاب الاخير الذى ارسله اليه من قبل بشأن آخذ رأيه في
مشروع وصوله الى قارة آسيا عن طريق الاتجاه ناحية الغرب ويقول
فيه انه من الممكن تحقيق ذلك المشروع وان كثيرا من الفوائد
السياسية والتجارية سوف تعود من وراء نجاحه . على اى حال فان
كولومبس يذكر لنا في يومياته ان ملك اسبانيا قد امره بالذهاب
الى الهند عن طريق الغرب والابتعاد عن الطريق البرى المعروف الذى
يتجه ناحية الشرق .

ولقد كان اكتشاف امريكا مصادفة بحتة، وكانت الدولة العثمانية
هي المتسببة في هذا الاكتشاف. ولما كانت بلاد اوربا الغربية
تخشى قوة الاتراك فقد صممت على الوصول الى اسيا بطريق آخر
لايسيطر عليه الاتراك. واذا كان العالم كرويا كما يدعى معظم
الجغرافيين فلماذا لايمكن الابحار من اسبانيا الى الغرب حتى
الوصول الى اليابسة التى لابد وان تكون آسيا . لكن كولومبس
ومعاصريه لم يعرفوا ان امريكا الشمالية والجنوبية تقف في طريق
الابحار غربا الى آسيا . وهكذا عبر كولومبوس والمكتشفون الذين
تبعوه المحيط الاطلسي ووصلوا جزر بهاما (Bahamas) وبناما
وامريكا الجنوبية، واعتقدوا انهم وصلوا الى هدفهم. ولم يمتد
بكولومبوس الاجل ليعرف انه وصل الى جزر الهند الغربية وليس الهند
الشرقية. ولم يكتشف الخطأ الا بين عامى ١٥١٩ - ١٥٢٢ عندما
مرت حملة فرديناند ماجلان الاسبانى حول الطرف الجنوبى لامريكا

الجنوبية ومنها عبر المحيط الهادى الى آسيا. ولقد قتل سكان الفلبين ماجلان، لكن رجاله تابعوا تقدمهم، فابحروا حول افريقيا عائدين الى اسبانيا، وبذلك لم يبرهنوا على ان الارض كروية فحسب بل ان مساحتها فاقت تصور الجغرافيين.

واخذت امريكا اسمها من اميرجو فسبوتشي Amerigo Vespucci وهوفلورنسي اكتشف ساحل البرازيل عام ١٥٠١، وكان اميرجو هو الشخصية الثانية بعد كولومبوس التى لعبت دورا كبيرا فى اكتشاف العالم الجديد، اذ ذكر بعض الباحثين انه قام بأربع رحلات متتالية الى هناك فى عام ١٤٩٧، ١٥٠١، ١٥٠٣، ولقد كتب كتابة غزيرة ومفصلة عن رحلاته عند عودته حتى ان شهرته فاقت شهرة كولومبوس. وهكذا عندما كان واضعوا الخرائط يبحثون عن اسم يطلقونه على العالم الجديد. فقد شاءوا ان يكرموا فسبوتشى وأطلق اسم امريكا على العالم الجديد فى عام ١٥٠٧.

سبقت اسبانيا غيرها من الامم الصغرى فى سنوات الفتح الاولى فقد قاد هرناندو كورتيز (Hernando Cortez) حملة مسلحة ضد المكسيك واحتلتها فى ١٥٢١ وجعلتها مستعمرة اسبانية وفى اثناء توغل الاسبان فى غابات امريكا الاستوائية، اتجه بعضهم شمالا وتاهوا فيما يعرف الان بالولايات المتحدة، ووصل بونس دوليون Ponce de Leon الى فلوريدا ولكنه فشل فى محاولة تأسيس مستعمرة فى تامبا عام ١٥٢١. وقد تحطمت سفينة كابيزا دوفاكا Cabeza de Vaca فى خليج المكسيك وتاه فى انحاء تكساس حتى وصل الى كاليفورنيا بصحبة الهنود المعجبون به والذين

اعتبروه الهاء. واكتشف هرناندو دوسوتو Hernando de Soto في عام ١٥٤١ نهر المسيسيبي العظيم الذى يمر فى قلب امريكا الشمالية وكان كورونادو Coronado المغامر يبحث عن الذهب فيما يعرف بكنساس الان. وحدث اول استيطان دائم فى الولايات المتحدة فى سانت اوجسطين فى فلوريدا عام ١٥٦٥، فقد بنى الاسبان قلعة كبيرة لحماية القرية من الهنود الغزاة وغيرهم من القوى الاجنبية.

وبدأ اهتمام فرنسا وانجلترا وهولندا والسويد والبرتغال يزداد بالعالم الجديد. فعبر جون كابوت (John Cabot) وهو رجل ايطالى يقود سفينة انجليزية المحيط الاطلسى وتوغل باتجاه الشمال مستكشفا لبرادور ونيوفوندلاند فى عام ١٤٩٧، وقد اصبحت رحلة الاساس الذى بنت عليه انجلترا حقها فى قارة امريكا الشمالية. فأدعى التاج البريطانى ملكيته لمساحات شاسعة عن العالم الجديد بعدئذ. وقام الانجليز بتأسيس اول مستعمرة من المستعمرات التى عرفت فيما بعد باسم الولايات المتحدة الامريكية (جيمستون عام ١٦٠٧ (James Town) وقد اكتشف فرازانو Verrazano تحت لواء العلم الفرنسى ساحل الاطلسى الشمالى من منطقة كارولينا الشمالية والجنوبية الى نيوفوندلاند عام ١٥٢٤، وشق جاك كارتييه Jacques Cartier لصالح فرنسا طريقا فى نهر سانت لورنس حتى مونتريال فى كندا عام ١٥٣٥.

اما احداث اوربا فى ذلك الوقت فقد اتخذت اتجاها من شأنه ان يساعد على البت فى تقسيم الممتلكات فى العالم الجديد، وكانت انجلترا تراقب السفن الاسبانية وهى عائدة من منطقة الكاريبى

محملة بالذهب بضيق متزايد. ويضاف الى هذه العوامل كره انجلترا لاسبانيا، لان انجلترا اصبحت دولة بروتستانتية نتيجة لحركة الاصلاح الدينى فى اوربا، بينما اعتبرت اسبانيا نفسها حامية للمذهب الكاثوليكى. وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر فى عهد الملكة اليزابيث جاب البحارة الانجليز امثال هوكينز Hawkins وكافندش Cavandish وسير فرانسيس دريك Drake بحثا عن سفن اسبانية لكى ينهبوا ما فيها من ذهب. وقد وافقت الملكة اليزابيث على المغامرات التى قام بها هؤلاء القراصنة.

وغضب فيليب ملك اسبانيا من هذه الهجمات التى كانت تؤثر كثيرا فى تجارته، وقرر فى عام ١٥٨٨ ان يضع حدا لهذه الهجمات بأن يغزو انجلترا باسطوله الارمادا. ولكن السفن الانجليزية قامت بتحطيم الارمادا عند دخولها القناة الانجليزية. وقد تبع ذلك عاصفة كان من شأنها تدمير الارمادا تدميرا كاملا. ونتيجة هذه الهزيمة تحطمت قوة اسبانيا البحرية، ولم تعد تستطيع منافسة الانجليز فى السيطرة على الساحل الامريكى الشمالى حيث كانت حركة الاستيطان تمر بمرحلة جديدة.

وبدأت انجلترا فى تأسيس امبراطورية المستعمرات عام ١٥٧٨ عندما منحت الملكة اليزابيث المجارب القديم هيمفرى جيلبرت Gilbert امتيازا بأن يسكن ويمتلك جميع الاراضى البعيدة والوثنية التى لايملكها امير مسيحى، فقاد جلبرت حملة الى نيوفوندلاند، الا انها فشلت بسبب الطقس البارد، وفقد جيلبرت فى البحر فى طريق العودة. وبعد ست سنوات اختارت اليزابيث القطعة الساحلية الممتدة بين نهر سانت لورانس فى الشمال وفلوريدا فى الجنوب ليستوطن فيها

الانجليز وسمتها فرجينيا Virginia وهذه البقعة تكاد تكون كل الساحل الشرقي لامريكا الشمالية . وقد عهدت الى احد افراد البلاد المقربين اليها وهو السير والتر رالى Raleigh بان يجد مكانا ينزل فيه فى هذه المنطقة . وارسلت عدة حملات الى جزيرة رونوك Roanoke التى تبعد عن ساحل كارولينا الشمالية وذلك بين ١٥٨٥و ١٥٨٧، وقد عادت اول حملة بعد ان وجدت عداء الهنود واحوال المعيشة بصورة عامة غير محتملة ، وأسوا من ذلك ان الامدادات الضرورية لم تصلهم . اما الحملة الاخيرة فقد اكتنفها الغموض اذ اختفى المستوطنون ومن بينهم أول طفلة تولد من ابوين انجليزيين فى امريكا ولم يسمع احد عنهم شيئا . غير ان هذه المصاعب لم تقلل من عزيمة الشعب الانجليزى، وذلك بفضل قيادة الملكة اليزابيث وانتصار الانجليز على الارمادا العظيمة . ولقد تمثلت طاقة الشعب الانجليزى وعزيمته فى التغييرات التى طرأت على نمط معيشة الامة ، فى الطوائف الجديدة المتعددة من بروتستانتية وبيوريتانية حيث كان افراد هذه الطوائف يستطيعون مخالفة دين الدولة الرسمى، واختيار طرقهم الخاصة للعبادة ، وقد تجلت ايضا فى ظهور رجل الاعمال من الطبقة الوسطى الذى جمع من المال ما يكفيه فى عمله الخاص وبقى معه قليل يستثمره فيما وراء البحار.

وعلى ذلك اخذ رجال الاعمال الانجليز يؤسسون الشركات لتشجيع حركة الاستيطان فى امريكا . وكانوا لا يلاقون صعوبة كبيرة فى جمع الناس الذين يرغبون فى الهجرة ، ذلك ان البلاد كانت تجتاز ازمات اقتصادية حادة ازداد فيها عدد العاطلين عن العمل، وطرد كثير من المزارعين من اعمالهم نتيجة لانهيار النظام الاقطاعى

القديم ، وفى مثل هذه الظروف كان العالم الجديد يجذب اليه كل من يبغى فرصة ليبدأ حياته من جديد ويبنى بيته الخاص وقد كان البعض الاخر الذين كانوا على خلاف مع الكنيسة الرسمية يتطلعون الى قفار امريكا الشمالية كملجأ لحرية العبادة .

ففى عام ١٦٠٦ منح الملك جيمس الاول امتيازات لشركتى لندن وبليموث تخول لها حق تأسيس مستعمرة فى فرجينيا ، وحق سك العملة هناك ، وفرض الضرائب وسن القوانين ، مع الاحتفاظ بسلطات واسعة للملك . ولم تهتم شركة لندن باحتجاجات الاسبان الذين طالبوا بكل امريكا الشمالية ، وارسلت ثلاث سفن صغيرة بقيادة القبطان كريستوفر نيوبورت الى خليج تشيزابيك فى فرجينيا ، ونزلوا فى شبه جزيرة صغيرة سموها جيمس تاون تكريما للملك . وكان هذا أول استيطان انجليزى دائم فى الولايات المتحدة . ولم تصمد هذه المستعمرة الا بالجهود التى بذلها القبطان جون سميث John Smith وهو الجندى المغامر والجغرافى والكاتب فنجح فى اقناع الهنود بامداد رجال المستعمرات بالقمح لانقاذهم من الجوع الذى كان يهدد حياتهم ، وعندما بدأت جيمس تاون تبنى أكواخها وقلاعها ظهرت الحاجة الى الايدى العاملة ، ولذلك فقد احضرت شحنة من الزنوج العبيد عام ١٦١٩ الى المستعمرة ، وبذلك بدأ نظام قدر له ان يقسم امريكا الى حرب اهلية فيما بعد ، وان يصبح فى الواقع مشكلة متشعبة لايزال الامريكيون حتى اليوم يتصارعون من اجلها . وقد تأسست الحكومة الديمقراطية فى جيمس تاون فى نفس العام الذى وصل فيه الرقيق . وفى عام ١٦٢٥ كان يقطن فرجينيا ما يزيد عن الالف مستوطن .

اما المستعمرة الانجليزية الثانية ، فقد تأسست فى بليموث

Plymouth وكونتها جماعة عرفت باسم البيوريتان Puritans اى المتطهرون الذين جاءوا الى شواطىء ماساتشوستس Massachusetts فى عام ١٦٢٠ على السفينة الصغيرة ماى فلور Mayflower وعرفهم التاريخ منذ ذلك الوقت باسم المهاجرين او الحجاج. وكان هؤلاء البيوريتان او المتطهرون قد رحلوا قبل ذلك من انجلترا الى امستردام، ومنها الى ليدن Leyden هربا من اضطهاد الملك جيمس الاول (١٦٠٣ - ١٦٢٥)، عندما حاول ارغام المعارضين للكنيسة القومية على تأييدها. وفى هولندا فكر هؤلاء الحجاج فى السفر الى فرجينيا ولكن العواصف وبعض التغييرات التى طرأت على خططهم جعلتهم يبتعدون الى الشمال. وايقن الحجاج بأنهم قدموا الى ارض ليس لاحد عليها سلطان ، فقاموا بتكوين مستعمرة جديدة هناك، ووضعوا ميثاقا لحكومتها فيما بينهم قبل نزولهم الى الشاطىء وهو اتفاق ماى فلور Mayflower Campact . ووقع ذلك الميثاق كل البالغون من الرجال من المهاجرين، ثم انتخبوا جون كارفر Carver من بينهم ليكون اول حاكم للمستعمرة. واكد المهاجرون فى هذا الميثاق انهم رعايا مخلصون للملك الانجليزى، وانهم قد جاءوا للعمل على تقدم العقيدة المسيحية، وانشاء اول مستعمرة شمالى فرجينيا. كما تعهدوا باقامة حكومة فى المستعمرة للاهتمام بامورهم جميعا، وتحقيق الاهداف التى صابروا من اجلها، وتعهدوا بالولاء لهذه الحكومة وطاعتها، واستطاع هؤلاء المهاجرون مصادقة الهنود الذين علموهم طريقة زراعة القمح وكيفية التغلب على الظروف الطبيعية القاسية .

وقد توطدت الامور فى الرقعة الضيقة على ساحل ماساتشوستس بشكل قوى فى السنوات التالية. وانهكت المنازعات الدينية انجلترا من

جديد، فقد اعترض البيوريتان على الكنيسة الانجليزية وحذرتهم الحكومة بوجوب دعم الدين الوطنى او بترك البلاد ولقد اخذ لود Laud ، رئيس الاساقفة يلاحق المنشقين ويخرجهم من البلاد وهكذا اخذوا يندفعون نحو البحر باعداد متزايدة وقد حصلوا على امتيازات من التاج بأن يستوطنوا فى مناطق مختلفة من الساحل الاطلسى الشمالى. وفوض الملك شارل الاول شركة خليج ماساتشوستس ان ترسل جماعة من البيوريتان الى المنطقة المحيطة ببوسطن حيث يمكنهم ان يحكموا انفسهم ضمن حدود القانون الانجليزى. كما كان تدفق المهاجرين فى اسفل الساحل شديدا ايضا. فقد استعمر الانجليز الكاثوليك الذين تضايقوا من وجودهم فى محيط بروتستنتى مقاطعة مارى لاند عام ١٦٣٤، واتجه الكويكرز Quakers الى بنسلفانيا عام ١٦٨٢. وفى الواقع لم ينقطع سيل المهاجرين الاوروبيين الى امريكا والذى بدأ منذ مطلع القرن السابع عشر. وفى بداية القرن الثامن عشر تقريبا، اقام الهولنديون مستعمرة فى امستردام الجديدة التى اصبحت نيويورك الان. ولكن فى حقيقة الامر نزل الانكليز فى كل مكان،وكانوا يكونون السواد الاعظم من سكان المستعمرات الانجليزية والتى بلغ عددها ثلاث عشرة ولاية اتحدت فيما بعد لتكون الولايات المتحدة الامريكية.

ولقد اهتمت فرنسا ايضا بحركة الاستيطان والاستعمار فى العالم الجديد، فقد اسس صامويل شامبلين Champlain وكان جنديا وبحارا سابقا، مدينة كويبك Quebec فى كندا عام ١٦٠٨ وكانت هذه اول مستعمرة فى فرنسا الجديدة. وجاء الفرنسيون بعد ذلك فى جماعات الى كندا، واكتشفوا بحيرة متشجان عام ١٦٣٤ ولقد قام

الجزويت بدور هام فى عمليات الاستعمار هذه . وتوغل المبشرون الفرنسيون المتحمسون من كويبك فى المسيسبى الى قلب الغرب الاوسط يحملون الصلوات والطقوس الى الهنود طالبين الاراضى الشاسعة لملك فرنسا . غير ان الفرنسيين كانوا صيادين ومبشرين وتجارا اكثر منهم مستعمرين . فقد كانوا قليلى العدد ، وكان بناء الامبراطورية التى اقاموها فى كندا حتى وادى المسيسيبى مستندا على العلاقات التجارية والنفوذ بين القبائل الهندية اكثر من استنادها على المستعمرات التى يسكنها العدد الوفير من السكان البيض . ولكن وجهت فرنسا بعد ذلك عناية خاصة لميدان الاستعمار بفضل سياسة الوزير الفرنسى كولبير الذى كان اول من ادرك قيمة البحرية والتجارة الخارجية والمستعمرات . ولذلك تدين فرنسا بما كانت تملكه من المستعمرات فى امريكا الشمالية الى نشاط الوزير كولبير . وقامت الشركات الفرنسية للتجارة مع جميع انحاء العالم ومنها شركة فرنسا الجديدة التى ساهمت فى استعمار امريكا . ونتيجة لذلك سيطر الفرنسيون على المنطقة الممتدة من كندا الى نيو اورليانز على خليج المكسيك محيطين بالمستعمرات الانجليزية من ناحية الشمال والغرب بطريقة تمنع توسعهم . وبذلك قام الصراع المباشر بين الفرنسيين والانجليز فى امريكا . ولقد تفوق الانكليز على الفرنسيين فى العدد ، غير ان نظام الحكم فى المستعمرات الفرنسية لم يساعد على نموها لانها خضعت للحكم الفرنسى المباشر ، ولم تتبع مبادىء الحرية التى سارت عليها المستعمرات الانجليزية .

اما بالنسبة لنظام المستعمرات الانجليزية ، فقد تعاقب عدد من الحكام الانجليز على رئاسة المستعمرات الانجليزية المتكاثرة

باستمرار، فقد جاء اول الامر ملوك اسرة ستيوارت البروتستانت ومنهم جيمس الاول وشارل الاول، ثم جاء اوليفر كرومويل، وبعد سنتين من وفاته عام ١٦٥٨ عاد ملوك اسرة ستيوارت، ولكنهم خلعوا نهائيا فى ثورة ١٦٨٨ المجيدة . أما فى عهد وليم ومارى اوف اورنج فقد منح الشعب الانجليزى مزيدا من الممثلين فى الحكومة .

ولقد ادرك جميع هؤلاء الحكام الاهمية المتزايدة لامريكا فحاولوا القبض على امور المستعمرات بحزم، ولكن الاضطرابات التى كانت تجرى فى ذلك الوقت والمسافات البعيدة حدت من سلطتهم . الا ان ذلك لم يحل دون اتخاذ بعض التدابير الشديدة . فقد كانت المستعمرات بالفعل تحت ادارة رجال الاعمال ررجال البلاد المقربين فمنحوا امتيازات من الملك، وكانت هذه الامتيازات تسمح بكثير من الحكم الذاتى، وكان اصحابها يسمحون للمستوطنين بادارة اعمالهم كما يشاءون طالما كانوا ينتجون ارباحا ويطيعون القانون الانجليزى ويظلون اوفياء للملك . ولكن بمرور الوقت، كانت معظم امتيازات الشركات تلغى وتوضع المستعمرات تحت السيطرة الملكية المباشرة وهذا يعنى تهديدا خطيرا للحكم الذاتى وادارة قاسية من العرش . وقد وصلت الامور الى درجة لاتطاق عندما ضم الملك جيمس الثانى نيو انجلند ونيويورك ونيوجرسى فى مقاطعة ملكية واحدة فى عام ١٦٨٦، وعين السير ادموند اندروز حاكما عليها، ولم يهتم هذا الحاكم الا بجمع المال والثروة للخزينة الملكية . فحل اندروز محاكم المستعمرات ونصب نفسه قاضيا وراقب الصحافة، وفرض الضرائب بالقطعة وعلى العموم اخذ يحكم دون ان يعير ارادة الشعب أدنى اهتمام . وعندما خلع الملك جيمس قام رجال ماساتشوستس بالقبض على اندروز

واعادته الى انجلترا ليحاكمه الملك الجديد. وفى حوالى ١٦٧٥ ، قامت ثورة اخرى فى فرجينيا ضد الحاكم الملكى السير وليم بركلى الذى اهتم بالاتجار فى الفراء مع الهنود اكثر من اهتمامه بشئون المستعمرة. وعلى اية حال، مر قرن آخر قبل ان ينفجر المستعمرون فى ثورة علنية ضد البلد الام، التى لازالت الغالبية العظمى تشعر بالولاء نحوها. وكانت فى معظم هذه المستعمرات تتكون من الحاكم ومجلس يعينه التاج او السلطة التى عينت الحاكم، وكان بمثابة هيئة تشريعية عليا، ثم مجلس تمثيلى ينتخبه سكان المستعمرة. ويشبه هذا النظام بطبيعة الحال نظام الحكم فى انجلترا.

وفى منتصف القرن الثامن عشر جاوز سكان المستعمرات المليون ونصف نسمة، وقد بقى العنصر الانكليزى هو السائد بالرغم من وجود كثير من الهولنديين فى نيويورك ونيوجرسى والهوجونوت الفرنسيين المبعثرين فى مواضع متعددة والالمان فى بنسلفانيا. كما وصل الاسكتلنديون والايرلنديون فى شكل جماعات كبيرة، وتوغلوا فى بنسلفانيا الى المراكز الامامية لحدود فرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية ويضاف الى هؤلاء الاحرار العبيد الزنوج الذين جىء بأجدادهم من افريقيا، وبيع بعضهم فى نيوانجلند كخدم، وذهب عدد لابأس به منهم الى المستعمرات الوسطى، ولكن الاكثرية العظمى ارسلت الى الجنوب ليعملوا فى المزارع، وقد بلغ مجموعهم فى عام ١٧٥٠ حوالى ربع مليون. اما سكان امريكا الاخرون فكانوا يتراجعون ببطء الى الغرب، وكان عددهم عند مجىء الانسان الابيض الى امريكا حوالى ٨٠٠ الفه وقد كان الهنود يثورون من آن لاخر ويرتكبون مجازر مخيفة، وذلك لان اهل المستعمرات كانوا يسيئون معاملتهم

ولكن رجال المستعمرات كانوا يكيلون لهم الصاع صاعين .

وكان بيوريتان ماساتشوستس يتميزون عن بقية المستوطنين الاخرين فى المناطق الاخرى، فكانوا يؤمنون بالتربية ايمانا قويا فأسست جامعة هارفارد عام ١٦٣٦، واصبح التعليم فى المدارس الرسمية الزاميا قبل عام ١٦٥٠، من ناحية اخرى كان البيوريتان الذين استقروا فى نيوانجلند متعصبين لدينهم. وكانت حياة المدن الصغيرة فى نيو انجلند تتمركز حول الكنيسة والمدرسة وحقل القرية وبما ان السكان كانوا اكثر كثافة ، فقد كانوا يشعرون بالتضامن والتعاون اكثر من جيرانهم الذين يبعدون عنهم فى اقصى الساحل. اما فى جنوب نهر البوتوماك Potomac حيث كان مزارعو فرجينيا وكارولينا مبعثرين كثيرا ، فلم يكن سير الحاكم الذاتى الديمقراطى واضحا جدا فقد كان من الصعب جمع الجيران الذين تفصل بينهم عدة اميال لاجتماعات متكررة ، وعلى ذلك اصبحت كل مزرعة تؤلف وحدة تحكم نفسها مثل المزارع الاقطاعية القديمة .

فتطور الجنوب طبقا لذلك، وظهرت فيه فروق بين الاغنياء والفقراء وخلافا لما هو موجود فى نيو انجلند، لم يكن يوجد فى الجنوب طبقة وسطى الا فى المدن الصغيرة . كما يتجلى هذا الفرق ايضا فى هندسة بناء المنطقتين ، ففى الشمال كان معظم الناس يملكون بيوتا خشبية بيضاء ومرتبة ، بينما فى الجنوب كان عدد قليل من اصحاب المزارع يملكون منازل فخمة كبيرة معظمها يقع فى اغنى الاراضى، بينما لم يتوفر لمعظم المزارعين البيض اكثر من اكواخ بدائية فى مزارع التلال. اما سكن الزنوج، فكان فى حالة من البؤس ، اى لم يكن اكثر من غطاء يحميهم. وبرغم ان الذين كان

مهملا فى الجنوب الا انه لم يتميز بصرامة نيو انجلند. اما فى المستعمرات الوسطى فكان يوجد بها ملكيات كبيرة مثلما كانت توجد مزارع متوسطة وصغرى، واصبحت بنسلفانيا مستعمرة هامة استقر بها المزارعون الذين امتلكوا بيوتهم وعاشوا فى سلام مع جيرانهم الهنود. ولقد ازدهرت فيلادلفيا "مدينة المحبة الاخوية" واصبحت اهم مدينة فى امريكا فى القرن الثامن عشر، وقد ساعد على تقدمها بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin (١٧٠٦ - ١٧٩٠).

وينحصر تاريخ امريكا فى عهد المستعمرات فى معرفة كيف ان هذه المناطق المتفرقة فى البلاد اتحدت فى النهاية، ولكن كان لابد ان يعرفوا بعضهم البعض أولا. غير ان السفر قبل الثورة وحتى بعدها بعدة سنين، كان شاقا، اذ ان الطرقات كانت قليلة غير جيدة، وكان الطريق العملى الوحيد للانتقال الى كارولينا الجنوبية او الى جورجيا هو عن طريق البحر على الساحل الاطلسى وبرغم انفصال المستعمرات وتباعدها، فقد كانت تشعر برابطة متزايدة وقد اسست الاتصالات البريدية، واستوردت المطابع، وبالتدريج اخذت الافكار تنتشر عندما اخذت الرسائل والصحف والكراريس تجد طريقها الى ايدى الشعب. وفى البداية وجد شىء مشترك بين المستوطنين الذين اعتدوا على ساحل طوله آلف ميل، فقد كانت الاكثرية انجليزية وتعيش فى ظل تقاليد انجليزية فى الحكم الذاتى يحاكمون من قبل محلفين، ويتمتعون بامتيازات اخرى تعطى للانجليز الاحرار وبمرور الوقت زاد التعامل بين المستعمرات وتصرفت متحدة الرأى فى المسائل التى تتعلق بالمصلحة العامة، وقد حدث اول شىء من هذا النوع، عندما انضمت ماساتشوستس وبليموث وكونكتيكوت Connecticut

ونيو هافن New Haven الى حلف نيو انجلند، "فى صداقة ومودة ثابتين وداشمين فى الهجوم والدفاع والنصح والاسعاف المتبادلين وفى جميع مثل هذه الاحوال من اجل المحافظة على حقيقة وحريات الكتاب المقدس ونشرها من اجل سلامتهم وحياتهم المتبادل". وقد عقد مجلس حلف نيو انجلند اجتماعات لعدة سنوات. واخيرا انضمت ماساتشوستس وبليموث وكونتا مستعمرة واحدة وكونت كونكتيكوت ونيو هافن مستعمرة آخرى.

ومما دفع امريكا البريطانية الى الاتحاد هو الصراع بين القوى الاوروبية لامتلاك القارة. فبدأت انجلترا وفرنسا تتنافسان وتعرضت مستعمراتهم لغارات سريعة على الحدود وهجمات الهنود الذين كانوا فى خدمة الفرنسيين والاسبان، ولذلك لعب هذا الخطر المشترك دورا فى توحيد المستعمرات الانجليزية.

وكانت الامبراطورية الفرنسية عام ١٦٨٩ تضم فى العالم الجديد اقساما واسعة من كندا ووادى نهر المسيسيبى والقسم المتوسط من الولايات المتحدة اليوم. وكانت ممتلكاتها تمتد من جبال الاليجانى Alleghany الى جبال الروكى، ومن كندا الى خليج المكسيك وهذه منطقة اكبر بكثير من الممتلكات الانجليزية المتراكمة على الساحل فى شريط ضيق شرقى جبال الاليجانى وبرغم اتساع الامبراطورية الفرنسية فى العالم الجديد، الا انها لم تحتو على اكثر من ١٨٠٠٠ مستعمرة، يقابلهم ٢٠٠،٠٠٠ من المستعمرات الانجليزية فى الشرق. ولكن مما عوض من قلة عدد الفرنسيين قدرتهم على التحالف مع الهنود فكانوا يعاملونهم كاخوانهم ويتزوجون منهم. وقد بدأ النضال من اجل القارة الامريكية فى عام ١٦٨٩، عندما قامت حرب

الملك وليم ، وهى الحرب التى قامت بين فرنسا الكاثوليكية وانجلترا البروتستنتية وامتدت هذه الحرب الى امريكا وانتشرت فيها ، وكانت بالنسبة للانجليز بمثابة حرب البقاء . واستمر ذلك النضال من اجل القارة ثلاثة ارباع القرن . وكانت مستعمرة نيويورك تمتد الى الغرب عبر فجوة فى جبال الاليجانى حتى البحيرات العظمى ، والى الشمال حتى الحدود الكندية . فاذا امكن للفرنسيين انتزاع هذه المستعمرة من انجلترا ، فان اراضى بريطانيا فى امريكا تنقسم الى قسمين ، وعندئذ يمكن لاعلام فرنسا ان تسير شمالا وجنوبا على طول الساحل الاطلسى حتى تتقلص قبضة انجلترا عن العالم الجديد . وتتحطم الى الابد ، ولكن حرب الملك وليم انتهت دون حدوث نتيجة حاسمة وتبعها فى عام ١٧٠١ حرب الوراثة الاسبانية التى كان لها جانب امريكى يسمى بحرب الملكة آن (١٧٠٢ - ١٧١٣) . ولقد قامت الحرب اساسا بسبب مطالبة لويس الرابع عشر بعرش اسبانيا وتنصيب حفيده عليه ، وكان بعمله هذا يأمل ان يوجد تحالفا بين فرنسا الكاثوليكية واسبانيا ضد انكلترا البروتستانتية . وعندما امتد القتال الى امريكا قام الهنود بهجمات ناجحة ضد كل من كارولينا الشمالية والجنوبية ونيو انجلند ، ولكن فرنسا تنازلت عن نيوفوند لاند واراضى هامة اخرى الى البريطانيين بمقتضى معاهدة اوترخت Utrecht عام ١٧١٣ .

ثم قامت حرب اخرى تعرف باسم حرب الوراثة النمسوية ، وكان لها صداها فى العالم الجديد ايضا . ولكن هذه الحرب قادت فرنسا الى القيام بحرب ضد انجلترا فى العالم الجديد والهند . ولذلك سمى الجانب الامريكى من تلك الحرب باسم حرب الملك جورج (١٧٤٣

١٧٤٨) . وفيها احتلت انكلترا القلعة القومية فى لويزبرج Louisburg وانتهت الحرب بعقد معاهدة اكس لاشابل Aix - la Chappell ونص الصلح على ارجاع الامور فى المستعمرات الى ماكانت عليه قبل الحرب، فاعيدت لويزبرج الى فرنسا . ولم يستطع الصلح او غيره الاسهام فى تسوية المسائل الحيوية بالنسبة للتنافس الاستعمارى بين فرنسا وانجلترا فى امريكا . اذ ستندلع بعد قليل الحرب المعروفة باسم حرب السنين السبع فى اوربا (١٧٥٦ ١٧٦٣) والتى ستتحالف فيها فرنسا مع النمسا ضد بروسيا وانجلترا وقد سمى الجانب الامريكى من هذه الحرب باسم الحرب الفرنسية الهندية (١٧٥٥ - ١٧٦٣) .

ولقد كانت انجلترا تعلم ان هذه الحرب ستستنزف الكثير من مواردها، وان كل مساعدة تستطيع الحصول عليها من الامبراطورية سترجح الكفة ، لذلك خولت المستعمرات الامريكية فى عام ١٧٥٤ حق حشد جميع ما تملك من قوى وتم المطالبة بعقد مؤتمر فى الباني Albany فى نيويورك. وحضر هذا المؤتمر عدد من اكبر مفكرى امريكا من بينهم بنجامين فرانكلين ممثلا من بنسلفانيا ، وستيفن هوبكنز ممثلا عن رود ايلاند ، وتوماس هتشنسون عن ماساتشوستس، واجتمعوا للنظر فى المسائل الكفيلة بدفع خطر الحرب الفرنسية الهندية ، وقادهم البحث الى التفكير فى مستقبل نظام المستعمرات الانجليزى فى امريكا كله . وقد تقدم فرانكلين بخطة هامة للاتحاد بموجبها تختار الجمعيات العامة للمستعمرات مجلسا عاما مؤلفا من ثمانية وأربعين عضوا وتتألف واجبات المجلس من ايجاد جيش للمستعمرات وفرض الضرائب والاشراف على العلاقات مع الهنود الحمر، ومعالجة

الامور الهامة ، ويرأس هذا المجلس رئيس عام يعينه الملك. ولكن حكام المستعمرات رفضوا خطة فرانكلين لانها تدعو الى كثير من المركزية فى السلطة والى التخلى عن الحكم المحلى. وقد خشى الانجليز من هذه الخطة لانها تعطى المستعمرات ككل مزيدا من الاصوات فى مشاكلهم الخاصة بشكل لايتفق ومصالح انجلترا فى تلك الظروف. وبرغم فشل خطة البانى Albany فان اهميتها فى التاريخ الامريكى عظيمة لانها اعطت سكان المستعمرات فكرة الاتحاد التى قدر لها فيما بعد ان تتطور وتصبح الكونكرس القارى : Continental Congress الذى حكم امريكا خلال السنوات الاولى من استقلالها .

وخلال الحرب الفرنسية الهندية استولى الانجليز مرة اخرى على لويزبرج التى كانت تعتبر مفتاح كندا . واخيرا تم الهجوم على كندا نفسها ، او فرنسا الجديدة ، ودارت المعركة الفاصلة فى كويبك عام ١٧٥٩ ، وتلى هذا الانتصار عمليات تطهير فى كندا استغرقت أربع سنوات. وبرغم خبرة الفرنسيين فى كندا. واستعدادهم للحرب فى كندا كانوا مدربين للحرب، فلقد انتصر الانجليز بسبب قوتهم البشرية الهائلة فى مستعمراتهم الثلاث عشرة . وانتهت الحرب بتوقيع معاهدة باريس عام ١٧٦٣ ، وتخلت بمقتضاها انجلترا من كندا كلها ، وعن المنطقة الواسعة شرقى نهر المسيسبى ماعدا نيو اورليانز التى اعطيت الى اسبانيا . وقد تنازل الفرنسيون ايضا للاسبانيين عن ممتلكاتهم غربى المسيسبى وسمح لهم بالاحتفاظ بجزيرتين صغيرتين غير محصنتين بعيدا من ساحل نيوفوندلاند لاسطول الصيد . وعلى ذلك قضت حرب السنوات السبع على فرنسا فى العالم الجديد

وبقيت اسبانيا المنافس الوحيد لانكلترا ، ولكن الاسبان لم تكن لهم مراكز ثابتة فيما يعرف اليوم باسم الولايات المتحدة ، اذ انهم كانوا مهتمين بصورة خاصة بتنمية امبراطوريتهم فى المكسيك وفى امريكا الجنوبية .

الفصل الثالث عشر

الثورة الامريكية وحرب الاستقلال

١٧٧٥ — ١٧٨٣

تحدث الكثيرون عن اسباب الثورة الامريكية وكيف ان الملك جورج الثالث (١٧٦٠ — ١٨٢٠) والبرلمان حرموا المستعمرات من حرياتها وفرضوا عليها الضرائب دون اعطائها حق انتخاب ممثلين عنها فى الحكومة، وانزلوا الجيوش فى بيوت اهل المستعمرات واخيرا دفعوا بها الى الثورة. هذه فى الواقع مظاهر خارجية يوجد خلفها اسباب اساسية لعل اهمها النظريات المتضاربة حول طبيعة الامبراطورية البريطانية وعلاقة المستعمرات بها.

فمن وجهة النظر الامريكية، كانت المستعمرات الثلاث عشرة وحدات تحكم نفسها ضمن الامبراطورية البريطانية ، فسكان المستعمرات انجليز يحق لهم التمتع بجميع حقوق المساواة التى كافح الانجليز من اجلها منذ ايام الماجناكارتا. وقد كان الامريكيون يقبلون وجود الحكام الملكيين الذين ارسلوا ليترأسوا جمعياتهم العامة طالما احسنوا التصرف، واتبعوا رغبات الجمعيات. وكان الحكام يقومون بذلك عادة اذ انهم كانوا يتلقون رواتبهم من المستعمرات ولم يعتمدوا على الملك البعيد والمنهمك فى اعمال الدولة.

اما الحكومة البريطانية ، فكان لها منذ الايام الاولى فى جيمس تاون وجهة نظر اخرى لوضع المستعمرات. فهذه المستعمرة لايحق لها ان تحكم نفسها وسكانها متساوين مع الانجليز الذين يسكنون فى الجزر البريطانية، بل الواجب المفروض على اهل

المستعمرات هو خدمة مصالح انجلترا بان يوفروا اسواقا جديدة للبضائع الانجليزية، ويقدموا لها المواد الخام للصناعة. وقد كان من الصعب تشديد الحكم على المستعمرات واستنفاذ ثرواتها خصوصا خلال الحرب المتعددة والمشاكل التى احاقت بالامة طوال مائة وخمسين سنة. ولكن بعد ان ازيحت فرنسا واسبانيا عن الطريق عام ١٧٦٣ آن للحكومة الملكية ان تشمر عن ساعدها الملكى وتفرض سلطتها وقد جاء الوقت لوضع القوانين البحرية موضع التنفيذ باخضاع مصالح امريكا التجارية لمصالح الوطن الام. وكذلك آن الوقت لفرض ضرائب تملأ الخزينة الانجليزية التى انهكتها الحرب. فقد كانت امريكا تشعر ان الامبراطورية يجب ان تتألف من اتحاد بين المستعمرات الموالية والمستقلة. بينما كانت انجلترا تؤمن بالوحدة فى ظل حكومة قوية. ويظهر قانون السكر كيف كانت انجلترا تنظر الى الامبراطورية على انها خاضعة للتاج البريطانى فلقد اعتمدت نيوانجلند بدرجة كبيرة على تجارة الروم، فكانت تستورد السكر من الهند الغربية الفرنسية وتصنع منه هذا الشراب وتبيعه وقد اهمل سكان نيوانجلند فى تجارتهم هذه الهند الانجليزية التى لم تكن تدفع اسعارا مماثلة لبضائعهم. وبناء على احتجاج مزارعى الهند الغربية من البريطانيين بان تجارتهم تعانى الكثير من الصعوبات، اجبر البرلمان نيو انجلند على التجارة معهم بدلا من الفرنسيين. ولقد صدر ما يعرف باسم قانون العسل الاسود Molasses Act عام ١٧٣٣، وقد حرم استيراد السكر المزروع فى مزارع فرنسية، كما منع استيراد العسل الاسود والروم لخدمة اصحاب المزارع الكبيرة من البريطانيين كما وضحته. ولقد اصاب هذا

القانون معامل التكرير فى نيوانجلند بضربة بالغة، ولولا نشاط حركة التهريب فى المستعمرات لكانت هذه الضريبة فى حد ذاتها كافية لاحداث القطيعة بين انجلترا ومستعمراتها.

وقد واجهت البريطانيون بعد ان استولوا على الاراضى الغربية (وهى المستعمرات الفرنسية التى وقعت فى ايدى الانكليز) مشكلة اخرى جعلتهم يشددون قبضتهم على امريكا. لقد سكن الهنود هذه الاراضى الجديدة قبل الفرنسيين المنهزمين، ولكنهم لم يكونوا يشعرون باية محبة للانجليز، واثارهم الفرنسيون الذين اخبروهم بانهم سوف يطردون عن قريب عن بيوتهم، فهب الهنود وثاروا واحتلوا عددا من القلاع البريطانية.

وفى مثل هذه الظروف لم يكن من الممكن تطبيق نظام الحكم الذاتى فى الغرب كما كان فى الشرق، فقد كانت الحاجة تدعو الى الجيوش والحصون، والى السيطرة الدقيقة على السكان العاديين وراء جبال اليجانى. لهذا فقد تولى جورج الثالث ووزراءه ادارة الغرب وغلقوه فى وجه المستعمرات، وامروا الذين اجتازوا جبال اليجانى واستوطنوا فى الاراضى الجديدة بالعودة الى الشرق. ثم اعلن الملك ان جميع عمليات بيع الاراضى من قبل الهنود يجب ان تتم مباشرة للتاج. وعين موظفين لادارة تجارة الفراء الثمينة لصالح الحكومة البريطانية. ولقد ادى ذلك الى غضب الامريكيين لان الملك كان متعسفا غاية التعسف فى حرمان الامريكيين كليا من الغرب وهكذا اصبحت هذه الثروات ملكا للتاج الانجليزى وليست ملكا للمستعمرات الامريكية، ومما زاد الموقف سوءا بالنسبة للامريكيين ان جيشا يتألف من عدة الاف من الجنود ذى المعاطف الحمراء ارسل لحماية

الغنائم فى العالم الجديد، وكان على المستعمرات ان تدفع جزءا من نفقات هذا الجيش ولم تنته مصائب اهل المستعمرات عند هذا الحد فقد امرتهم انجلترا بأن يسهموا فى ايواء واطعام الجنود وذلك بموجب قانون " ايواء الجنود " Quartering Act.

ومن ناحية اخرى، كان جون جرانفل Granville رئيس وزراء بريطانيا عام ١٧٦٤، لايعرف الا القليل عن امريكا وكان يكره القليل الذى يسمعه عنها، وكان برنامج الحكومة الاستعمارى الذى وضعه امام البرلمان يتلخص فيما يلى :

١ - تنفيذ قوانين الملاحة بكل دقة.

٢ - اقامة جيش دائم يتكون من عشرة آلاف جندى فى المستعمرات للدفاع عنها .

٣ - تدفع الخزانة الانجليزية مرتبات الحكام والقضاة بدلا من تقرير المجالس التشريعية للولايات لهذه المرتبات .

٤ - يفرض البرلمان الانجليزى ضريبة على المستعمرات لدفع هذه المرتبات والانفاق على الجيش الدائم، وذلك بدلا من اللجوء الى مجالس الولايات لاقرار الاعتمادات المطلوبة.

وبعد ان تشدد جرانفل فى تطبيق القوانين البحرية وذلك بارسال موظفى جمارك ودوريات بحرية الى امريكا، اقترح ضريبة التمغة (رسوم طوابع Stamp Act) فى عام ١٧٦٥، وعلى الصحف والكراريس والمستندات القانونية وغيرها، وهذه الضريبة كانت بهدف اعالة الجيوش البريطانية بتقديم الوقود، ومصادر الانارة ومعدات النوم وأوانى الطهى، والمأوى وعندما اقر البرلمان قانون الطوابع حدثت مقاومة قوية فى المستعمرات فقام (باتريك هنرى)،

من فرجينيا فى مجلس المواطنين ليعلن انه ما من احد يحق له ان يفرض الضرائب على اهل فرجينيا غير مجلسها التشريعى، ثم انتزع قرار بأن كل محاولة لاعطاء مثل هذه السلطة الى اى شخص اخر أو اشخاص آخرين، غير شرعية وغير دستورية وغير عادلة وفيها اتجاه ظاهر لخنق الحريات البريطانية والامريكية، وانتقلت صيحة الاحتجاج ضد قانون الطوابع الى ماساتشوستس وزاد من حركة المعارضة جيمس اوتيس James Otis المحامى من بوسطن والذى يعتبر الرائد الاول للثورة الامريكية، وكانت صيحة الامريكيين تتمثل فى القول المشهور

Taxation without representation is tyranny

واخيرا كانت امريكا تربة خصبة لتعاليم ومذاهب ذات طابع جمهورى أو شبه جمهورى. اذ ظل السكان قرنا ونصف قرن يعيشون فى جو ديموقراطى أو "محقق للمساواة" فكانت الفوارق الديمقراطية قليلة وكانت الفرص الاقتصادية مفتوحة للجميع على قدم المساواة، ولم يؤد وجود طبقة ارستقراطية الى تنشيط نمو المبادىء الديموقراطية وكانت شبه طبقة من سكان الساحل، او صفوة متضامنة قليلة العدد، تستحوذ على معظم الثروة ، وتقتصر على بعض الاقاليم ، مثل فرجينيا وكارولينا الجنوبية، وتستأثر بالنفوذ السياسى، وقد واجهت الديموقراطية الناشئة فى داخل البلاد صراعا طويلا ضدها، فكان صغار المزارعين فى جوف البلاد، والمهاجرون الالمان والاسكتلنديون الايرلنديون والعمال والميكانيكيون من اهل المدن، يعززون انفسهم باستمرار ازاء التجار واصحاب المزارع القدامى. وقد فعلوا ذلك طيلة الجيل السابق على الثورة بهمة اذهلت من هم ارقى منهم

وساهمت هذه الروح ذاتها فى تحمسهم الثورى ضد الدولة الام.

اندلعت الثورات فى نيوانجلند ونيويورك وبنسلفانيا وترك موزعو الطوابع اعمالهم امام ضغط الجمهور - وتشكلت جماعات متطرفة مثل "ابناء الحرية" فى كل مكان ليحرضوا على المزيد من العنف وقد اعد المؤتمر الذى دعى لمعالجة الطوابع والذى مثلت فيه تسع مستعمرات احتجاجا مماثلا لاحتجاج فرجينيا اكد ان المجالس التشريعية للمستعمرات هى التى يحق لها فرض الضرائب فقط. وبذلك اظهر الامريكيون اصرارهم على انه لايجب فرض ضرائب على منطقة من قبل الحكومة الا اذا كانت هذه المنطقة ممثلة تمثيلا مباشرا فى الحكومة عن طريق نوابها.

ولقد الغى قانون الطوابع بعد ان استمر مفعوله فترة من الوقت ولكن سرعان ما تبعته قوانين جديدة، فمثلا القوانين التى اصدرها وزير المالية الانجليزى شارل تاونشند Charles townshend فى عام ١٧٦٧ لم تضع الضرائب على الزجاج والرصاص والبويات والورق والشاى المستورد الى المستعمرات فحسب، بل انها نصت على ان تستعمل العائدات لدفع رواتب الحكام الملكيين. وهكذا لم يعد للجمعيات العامة للمستعمرات سلطة على هؤلاء الموظفين واظهر البرلمان نيته فى السيطرة على شئون امريكا اكثر من قبل. فقامت المعارضة مرة اخرى فى انحاء امريكا، فارسل احد زعماء المعارضة فى ماساتشوستس وهو صامويل آدامز Samuel Adams خطابا الى المستعمرات يدعو الى المبادرة فى العمل ضد قوانين تونشند والقوانين البحرية التى كانت تؤذى التجارة الامريكية. ثم قامت حركة لمقاطعة البضائع البريطانية فاستشاطت بريطانيا غضبا وحلت مجلس

ماسوتشوستس وارسلت كتيبتان من الجيوش البريطانية الى بوسطن

وفى مارس ١٧٧٠ عندما عدلت انجلترا فى اعمالها التعسفية ملغية جميع الضرائب ماعدا ضريبة صغيرة على الشاى، اصطدم الجنود البريطانيون بالمواطنين الامريكان فيما سماه المواطنون "مذبحة بوسطن" وبدأ الاضطراب عندما رمى فريق من الشبان بكرات الثلج على احد الجنود الذى بدوره استدعى الحرس المسلح. وقد قتل فى هذه المذبحة خمسة من المواطنين مما ادى الى سحب الجيوش البريطانية من المدينة امام طلب صامويل آدامز.

ومن ذلك يتضح ان السياسيين البريطانيين لم يكونوا متفقين دائما على السياسة الواجب اتباعها فى امريكا ، فكانت هذه السياسة تتأرجح بين التشدد حينا واللين حينا آخر، وفى الجانب الامريكى، كان هناك الكثير من العطف على البريطانيين وخصوصا من قبل الطبقات التى شعرت بان اعمال الشغب والمقاطعة ستؤثر على وضعها المالى وتسىء الى العمل. ولكن شعور الاغلبية من الامريكيين قبل الثورة نحو انجلترا كان شعور غضب وغيظ عند فرض الضرائب وشعور راحة وامتنان عندما تلغى الضرائب. وكان رجل المستعمرات العادى لا يبغى فى الواقع الاستقلال النهائى عن انجلترا بل كان جل مايريده هو ان يترك وشأنه فى مزرعته أو فى عمله ونتيجة لهذه المعارضة القوية التى عمت امريكا ، فشلت السياسة الاستعمارية الانجليزية والقوانين التى حاولت الحكومات البريطانية فرضها مثل قوانين جرانفيل وتاونشند. اما بالنسبة لقوانين تاونشند فقد امر الملك الاحتفاظ بضريبة الشاى، وذلك لمجرد ان يحتفظ بحق

انجلترا فى فرض الضرائب على المستعمرات . ولكن مسألة فرض الضرائب دون تمثيل حقيقى كانت لاتزال من اهم اسباب الخلاف بين المستعمرات والبلد الام. ولقد قام بعض المتهورين الامريكيين بعمل يعد من انجح الاعمال هو "حفلة الشاى الشهيرة" فى بوسطن عام ١٧٧٣. وكانت شركة الهند الشرقية هى التى تقدم الشاى، وكانت قد وقعت مصاعب مالية وادخلت تحت حماية البرلمان، فقرر الملك جورج وعصبة فى البرلمان التخلص من الكميات الفائضة من الشاى ببيعها لامريكا باسعار مخفضة . وبرغم ان رسما قدره ثلاث بنسات كان يستوفى على كل ليبرة من الشاى الا ان الشاى كان لا يزال اقل ثمنا مما يستطيع الامريكيون الحصول عليه من اى مصدر آخر.

ولكن كانت مسألة المبدأ، وهو دفع الضريبة، وليست قضية صفقة رابحة هى التى اثارت انتباه المواطنين الامريكيين. فأخذوا يصيحون قائلين "احتكار" "ولا ضرائب من قبل البرلمان" ورفضوا قبول الشاى عندما وصلت السفن محملة به. وفى بوسطن بعد سلسلة من الاحتجاجات العامة، ارتدى فريق من المواطنين زى الهنود وتسلقوا سفن الشاى والقوا بمحتوياتها فى الماء. وقد اثار هذا العمل الملك جورج الى حد بعيد، وبما انه لم يكن يشعر بعطف نحو المستعمرات فقد قرر ان يعاقب ماساتشوستس وخاصة بوسطن فأقر البرلمان قانون الاحتجاج Intolerable Act فى عام ١٧٧٤، الذى اغلق بموجبه ميناء بوسطن فى وجه التجارة العالمية الى ان تدفع قيمة الشاى، واخضعت اجتماعات المدينة لمراقبة الحاكم ونقل عاصمة الولاية منها، ثم اخضع المستعمرة للطغيان المطلق وهو ما يسمى Regulating Act وانزال قوات فى اى مكان بماساتشوستس

وقد اثارت هذه التطورات السريعة المستعمرات الاخرى، فتجمعت حول ماساتشوستس وارسلت لها تعبيرات العطف وحمولات من الطعام التى كانت تحتاج اليها كثيرا، وعندما ازداد الهياج اقترح مجلس مواطنى فرجينيا عقد اجتماع فى فيلادلفيا لمندوبين من جميع المستعمرات. فاجتمع هذا الكونجرس القارى (المؤتمر الامريكى الاول) فى عام ١٧٧٤. وكان فى هذا المجلس شخصيات هامة مثل جون وصامويل آدامز من ماساتشوستس وجورج واشنطن وباتريك هنرى من فرجينيا، وبعض الشخصيات الاخرى من كارولينا الجنوبية، وقد ساد الحذر والاعتدال فى الكونجرس الذى اجتمع للتشاور فى حالة المستعمرات الخاسرة. وللمداولة فى الترتيبات الحكيمة والمناسبة لاستعادة وتوطيد حقوقهم وحرياتهم العادلة. ولاعادة الوحدة والانسجام بين بريطانيا العظمى والمستعمرات. وقد اعدت وثيقة اعلان الحق وارسلت الى انجلترا وفيها يحتج اهل المستعمرات على التعدى على حرياتهم من قبل البرلمان واعلنوا عن مقاطعتهم للبضائع البريطانية وان هذه المقاطعة ستشرف عليها لجان امن فى كل بلدة ومقاطعة. ومن واجب هذه اللجان ان تخبر عن المخالفين للمقاطعة لكى يعرف الكونجرس صديق القضية الامريكية ومن عدوها.

ولكن المتاعب لم تزول، فقد تطور الامر فى ولاية ماساتشوستس الى الصدام المسلح بين الاهالى والجنود البريطانيين. وكانت ماساتشوستس تدلفح بالعداوة وقد بنى رجال المليشيا فيها (وهم رجال مستعدون للقتال فى اية دقيقة) مستودعا سريا للذخيرة فى كونكرد. وفى ١٩ ابريل ١٧٧٥ ارسل الجنرال الانجليزى Gage فرقة بريطانية للاستيلاء على المخازن وللقبض على خائنين جون هانكوك وصامويل آدمز، ولكن اعد الاهالى فرقا للمقاومة، ورفضوا

تسليم الزعيمين هانكوك وآدامز اللذين اختفيا فى لكسنجتون Lexington وارسل الجنرال الانجليزى قوة مكونة من ثمانمائة جندى للقبض على الزعيمين.

ولقد حدث احتكاك مسلح بين الاهالى والفرق المهاجمة واطلق البريطانيون الرصاص وكانت الطلقة التى سمعت فى انحاء العالم أول طلقة فى الثورة، وقد قتل ثمانية من الامريكيين فى هذه المعركة وتقدم البريطانيون نحو الكونكرد دون مقاومة تذكر ولكن عند عودتهم الى بوسطن، تعرضوا لخسائر افدح من خسائر رجال المليشيا التى تكبدوها فى المعركة الاولى. فقد اخذ المزارعون المختفون خلف اشجار التفاح والحواجز الحجرية على طوال الطريق يأسرون الجنود البريطانيين باعداد كبيرة. واخيرا تراجع البريطانيين ليحتموا فى المدينة، فوجدوا انفسهم محاصرين من قبل ١٦٠٠٠ من جنود المستعمرات. وقد وصلت انباء هذه المعركة بسرعة الى المستعمرات الاخرى التى تلقتها بمشاعر مختلفة، فقد ابتهج بعض الناس لحدوث الحربه بينما استنكر آخرون جيش رجال المليشيا وكانت الاكثرية تأمل ان تنتهى المشكلة بسلام. وفى ١٠ مايو اجتمع الكونجرس القارى الثانى (المؤتمر الثانى) فى فيلادلفيا، فالى جانب اعلان الحرب على انجلترا، طالب المندوبون الملك جورج باعادة السلم. ولكنهم على سبيل الحذر اخذوا فى انشاء جيش وعينوا جورج واشنطن قائدا عاما له. وقد دل تعيين واشنطون، وهو من فرجينيا ليقود الحرب التى اندلعت نيرانها فى ماساتشوستس على ان المستعمرات كانت تسير نحو التعاون والوحدة.

اهملت السلطات البريطانية من جانبها طلبات المستعمرات من اجل السلام، واستعدت لاخماد الثورة بقوة السلاح، وقد زاد الملك جورج جيشه النظامي باستئجار ٢٠٫٠٠٠ جندي الماني، وفي هذه الاثناء كانت القوات الامريكية تتحرك في عدة انحاء من امريكا ففي بوسطن احتل المواطنون تل بانكر Bunker Hill وهو موقع يطل على المدينة، ودافعوا عنه ضد الهجمات البريطانية العنيفة الى ان نفذت ذخيرتهم. ثم حدث في العام نفسه ان ارسلت حملة لغزو كندا الا انها هزمت بعد احتلال مونتريال.

على اية حال، لم يندفع الامريكيون نحو الاستقلال بل ساروا نحوه مترددين، ففي القتال الذى جرى عام ١٧٧٥ كان هدفهم المحافظة على حقوقهم كانجليز وليس كامريكان، وحتى عندما تقلد جورج واشنطن قيادة الجيش في بوسطن صرح بأن فكرة الاستقلال "مريعة" له. ولم تكن الثورة في اى مرحلة من مراحلها حربا شاملة اشتبك فيها كل من كان قادرا على حمل السلاح. فمن اجل ثلاثة ملايين لم يكن لدى واشنطن اكثر من ٢٥٫٠٠٠ مقاتل في وقت واحد. وفي ساعات الشدة لم يكن لديه اكثر من ٣٠٠٠ مقاتل، فقد كان المزارعون الامريكيون ينضمون الى الجيش عندما كان العدو يهدد بيوتهم ويتركونه عندما يمر الخطر.

وكان جماعة من المواطنين الامريكيين امثال صامويل آدامز وباتريك هنرى وراء حركة الحرب الامريكية بين عامي ١٧٧٥ - ١٧٨١ وقد كان هؤلاء يحلمون بأمريكا حرة تخلق مصيرها. وبرغم انهم كانوا يعلمون ولايدركون العقبات التى تكمن في الطريق، الا انهم كانوا مصممين على المحافظة على ايمانهم بهذا الوطن. لذلك فقد دفعوا

المجالس التشريعية الى اتخاذ الخطوات العملية فى الحرب واخمدوا بعنف شعور الموالاة البريطانية وحضوا السكان المترددين على القتال فى سبيل حريتهم .

وكان توماس توم بين Tomas Paine رجلا انكليزيا من اعظم الثوار، وقد هاجر الى فيلادلفيا عام ١٧٧٤ وسرعان ما عرف عنه انه من المنادين بالاستقلال التام عن بريطانيا العظمى. كان بين كاتبا فصيحا "يكره الملكية" الى حد كبير فقد بين فى كتيب له اسمه "الادراك" Common Sense نشر عام ١٧٧٦ للامريكيين التناقض التام فى وضعهم، فهم يقاتلون جيوش الملك من ناحية ويرجون الصلح من ناحية اخرى. فكان ينادى "انجلترا لاوروبا وامريكا لنفسها" . ولقد لقى كتيب "الادراك" رواجا كبيرا واشعل الناس حماسة . ومع ازدياد شعور الحماسة وتفاقم الحرب انقطعت الامال فى السلم ، وازداد الكونجرس جرأة فى موقفه من الانفصال عن بريطانيا . فعين فى يونيو لجنة من خمسة اعضاء تتضمن بنجامين فرانكلين وتوماس جيفرسون وجون آدامز ليحرروا وثيقة اعلان الاستقلال

فكتب جيفرسون مشروع هذه الوثيقة التى طرأ عليها بعض التعديلات على يد الاعضاء الاخرين،ثم اعيد النظر فيها وعدلت من قبل الكونجرس، واخيرا اقرت فى يوليو عام ١٧٧٦، وهو تاريخ مولد استقلال امريكا فحددت وثيقة اعلان الاستقلال ، The Declaration of Independence بلغة ثابتة وواضحة الى العالم عن الاسباب التى دعت المستعمرات الى الانفصال عن البلد الام. وذكرت الخطوط الاساسية والمعتقدات السياسية الامريكية ؛ اننا نؤ من بان هذه

الحقائق بديهية : ان جميع البشر خلقوا متساويين، انهم منحوا من قبل خالقهم حقوقا ثابتة من بينها حق الحياة والحرية والسعى وراء السعادة . ثم قالت الوثيقة بأن الحكومات تنشأ للمحافظة على هذه الحقوق، وهى تستمد سلطتها العادلة من موافقة الحكوميين فعندما تسىء الحكومة استعمال سلطتها لتحقيق هذه الغايات، يحق للشعب ان يبدلها ويلغيها ، ويستبدل بها حكومة اخرى تؤ من هذه المصالح .

وبعد ان قطعت الامة الجديدة رباطها باتجلترا ، واسست الولايات المتحدة الامريكية ، واجهت كفاحا يائسا فى معركة البقاء ولم تكن مهارة جورج واشنطن وبطولته وقيادته التى لا مثيل لها لتكفى للصمود فى هذه الحرب وحاول واشنطن ان يطرد الجنرال هاو (Howe) و ١١٫٠٠٠ من جنوده من بوسطن، ولكن الاوضاع انقلبت عندما تقابل الجيشان فى نيويورك من اجل السيطرة على تلك المدينة الاستراتيجية . فقد حطمت القوات البريطانية والالمانية ، التى جاءتها امدادات قوية ، الامريكيين فى عدة مواقع ودحرتهم نحو الجنوب عبر نيوجرسى، وكانت المساعدات التى قدمها الكونجرس القارى لقواته فى المعركة طفيفة اذ ان المستعمرات الثلاث عشر كانت لاتزال بعيدة عن الوحدة ، وكان مندوبو المستعمرات يخافون من فرض الضرائب خشية ان يثور الشعب عليهم كما فعل ضد البريطانيين. لذلك فقد قلت امدادات الطعام والذخيرة ، وتبعها انهيار الروح المعنوية ،وازداد ، عدد الفارين من الجندية .

تراجع واشنطن الى بنسلفانيا وكان موقفه يزداد حرجا كل ساعة الا انه اظهر مهارة عسكرية فائقة عندما جمع رجاله للقيام بهجوم

مضاد ليلة عيد الميلاد عام ١٧٧٦، فهاجم قوة من الجنود فى تونتون وتبع هذه الضربة انتصار آخر فى برنستون، وعادت نيوجرسى الى الامريكيين مؤ قتا. وشهد عام ١٧٧٧ قتالا عنيفا حاسما، فقد هرعت جنود الجنرال هاو عن طريق البحر من نيويورك الى فيلادلفيا واحتلت العاصمة الامريكية. فتراجع واشنطن وجنوده الى خارج المدينة، ولو ان البريطانيين تابعوا الهجوم لتمكنوا من سحق خصمهم بضربة قاضية ولكن الجنرال هاو لم يكن ديناميكيا، ويعتقد ان اتجاهاته الى السياسة كانت ميالة لقضية الامريكيين.

وبينما كان واشنطن يتعرض لضربات قوية، كانت معركة آخرى تجرى لصالح الوطنيين، هى المعركة الحاسمة فى الحرب تدور على بعد مئات الاميال شمال سراتوجا Saratoga فى نيويورك عام ١٧٧٧، فقد اصبحت القيادة البريطانية غير فعالة ويضاف الى ذلك طول مسافة الامدادات التى تبلغ ثلاثة آلاف من الاميال. كل هذه العوامل أدت الى تنازل البريطانيين فى لحظة حاسمة، فخسروا جيشا كاملا وكانت بريطانيا قد فكرت فى خطة لاخماد كل مقاومة فى ولاية نيويورك وبذلك انقسمت امريكا الى قسمين مثلما حاولت فرنسا ان تفعل قبل عدة سنوات. وكانت الخطة ترمى الى الهجوم على نيويورك من ثلاث جهات، وتجتمع القوى المهاجمة فى البانى التى تبعد مائة وخمسين ميلا الى شمال نيويورك فى وادى نهر الهيسون فيتحرك الجنرال برجوين Burgoyne من كندا، ويرسل الجنرال هاو Howe جنودا الى شمال مدينة نيويورك ويسير جنرال ثالث من الشرق من بحيرة اونتاريو عبر الولاية. ولكن الحملة اصيبت بالفشل، ولم تصل غير قوات برجوين التى حوصرت فى ساراتوجا، واضطرت الى الاستسلام فى اكتوبر عام ١٧٧٧.

ولم تكن خسارة الجيش فى ساراتوجا هى وحدها التى آلمت انجلترا بل ان خسارة مكانتها وسلطتها كانت اشد ايلاما. فقد اصبح عدوتاها القديمتان فرنسا واسبانيا تستجيبان لنداء الامريكيين من اجل المساعدة.

وكان ايجاد صلات مع البلاد الاجنبية على المستوى الدبلوماسى تجربة جديدة فى حياة الامريكيين، الذين كانت بريطانيا تنوب عنهم فى هذه المسائل. وكانت اوربا لفترة من الوقت تساعد امريكا بعض الشيء، وكذلك كان بعض الضباط العسكريين الاوربيين امثال لافايت Lafayette من فرنسا، وبعض الشخصيات الهامة من المانيا، والكونت بولاسكى من بولندا، قد تطوعوا فى الجيش الامريكى وزودوه بما يحتاجه من تدريب وتنظيم. غير ان الحكومات الاوربية كانت تتردد فى تقديم المساعدات على منهاج واسع خشية ان تتورط مع انجلترا فى حرب خاسرة اخرى. ولكن بنجامين فرانكلين تمكن بعد ساراتوجا من اقناع ملك فرنسا بانه يمكن الحاق الهزيمة بانجلترا اذا ما تحالف الفرنسيون والامريكيون وعندما بلغ انجلترا نبأ المفاوضات الجارية حاولت اجراء صلح مع مستعمراتها السابقة بأية شروط تريدها شريطة أن تبقى ضمن الامبراطورية. وقد دخلت فرنسا والولايات المتحدة فى حلف فى فبراير عام ١٧٧٨ تتعهد كل دولة بموجبه ان تتابع الحرب الى ان تصبح الدول الاخرى مستعدة لاجراء الصلح، ثم قدمت اسبانيا وهولندا مساعدة بحرية للقضية الامريكية على امل استعادة بعض الممتلكات التى خسراها فى حربهما مع انجلترا. وهكذا اخذت القروض والامدادات والرجال ترد من فرنسا، ولعل اعظم هذه المساعدات هو الاسطول الفرنسى القوى الذى يأتى بعد الاسطول الانجليزى مباشرة.

وعندما أوشك عام ١٧٧٨ على الانتهاء، انتقلت مساحات الحرب من الشمال، فقد بقى جيش واشنطن قرب نيويورك ليمنع القوات البريطانية الموجودة فى المدينة من التحرك نحو الداخل. فتجمد الموقف فى هذه الناحية، واتجهت الانظار الى الجنوب على طول الحدود الغربية. على ان استيلاء الانجليز على بعض المناطق فى الجنوب بعد ان عجزوا عن اخضاع الولايات الشمالية لم يحسن من مركز الانجليز وخصوصا بعد وصول القوات الفرنسية الى امريكا. كما ان الانجليز لم يستطيعوا سوى اخضاع المدن الساحلية، ولم يتمكنوا من التوغل فى الداخل. وبناء على هذا الموقفه تركزت القيادة الانجليزية بقيادة كورنواليس (Cornwallis) فى فرجينيا وتحصنت فى مدينة يورك تاون حيث ظل كورنواليس منتظرا. وبعد ذلك اجتمعت قوات واشنطن وقوات حلفائه الفرنسيين، وحاصرت قوات واشنطن يورك تاون بينما قام الاسطول الفرنسى بمنع الانجليز من الفرار بطريق البحر ولقد اشترك لافاييت فى هذه العمليات الحربية، وحدثت معركة الثورة الاخيرة اذن فى يورك تاون فى فرجينيا، على بعد بضعة اميال من جيمس تاون، وهى اول مكان استوطن فيه الانجليز، وعندما وجد كورنواليس نفسه محاصرا بعدد لاقبل له به، قام بسلسلة هجمات جريئة، ولكنها فشلت مما دعاه الى الاستسلام فى ١٩ اكتوبر عام ١٧٨١، وكانت هذه الضربة التى نزلت بالانجليز قاسية جدا، وقد عبر الشعب البريطانى الذى سئم القتال عن رغبته فى السلم ماعدا الملك جورج الذى غضب كثيرا لفقدانه ما يسميه "مزارعه الامريكية". وقد تسلمت وزارة جديدة الحكم فى انجلترا، واظهر البريطانيون استعدادهم لاجراء مفاوضات مع الامريكيين.

وقد احتاج هذا الامر الى جمع مهارة فرانكلين وجون آدامز وغيرهم الدبلوماسية لازالة الصعوبات الناشئة عن المصالح المتضاربة والتى كانت تقف فى طريق الصلح السلمى النهائى. وقضت شروط التحالف الفرنسى، الامريكى ان لا يتفاوض اى من البلدين مع انجلترا من اجل الصلح الا بموافقة البلد الاخر. غير ان انجلترا وامريكا كانتا مستعدتين للدخول فى مفاوضات الصلح حسب شروط امريكا بينما استمرت فرنسا وحليفتها اسبانيا فى قتال الانجليز فى البحار وفى البر ايضا فى محاولة فاشلة للاستيلاء على جبل طارق. وفى عام ١٧٨٢ اصبح من الواضح ان الحكومة الفرنسية كانت تفكر فى مصالحها ومصالح اسبانيا اكثر من تفكيرها فى مصالح الامريكيين فقد اقترح فرجين (١) ان تتراجع حدود الجمهورية الامريكية الجديدة مرة اخرى الى جبال الابلاش وان تعود السيطرة على الغرب الى السيطرة الاجنبية وخاصة سيطرة اسبانيا.

وهنا تبرز الدبلوماسية التى تجمع بين الاضداد. فقد كان كل من انجلترا والولايات المتحدة لاتريد رؤ ية امبراطورية فرنسية اسبانية جديدة فى امريكا تقوم على انقاض الامبراطورية القديمة وفى هذا الجو الخطير، دخل رجال امريكا وانجلترا فى مفاوضات سرية واتفقوا على ان تمتد حدود الجمهورية الجديدة من ساحل المحيط الاطلسى الى نهر المسيسيبى ، ومن البحيرات العظمى الى فلوريدا وغضب فرجين عندما سمع بالمفاوضات ولكن لباقة بنجامين فرانكلين

---

(١) شارل جرانييه فرجين ....Charles Granier Vergennes (١٧١٧ - ١٧٨٧) ، شغل منصب وزير خارجية فرنسا فيما بين ١٧٧٤ و ١٧٨٧.

يضاف اليها اخبار عن انتصارات انجليزية فى البحر، اقنعته فى النهاية ان يرضخ للامر الواقع ووقعت معاهدة باريس فى٣ سبتمبر ١٧٨٣ .

كانت المعاهدة بالنسبة لامريكا كريمة جدا مكنتها من الحصول على كل ما تريد . وقد اعطيت بالاضافة الى الاراضى التى طالبت بها حق الملاحة فى نهر المسيسيبى وحقوق الصيد فى سواحل كندا.ومقابل ذلك، وافق الكونجرس الامريكى على ان يفعل كل ما فى وسعه لتلبية رغبة بريطانيا الصادقة فى اهتمامها بعشرات الالاف من الموالين لها الذين دعموها فى الحرب . فقد تعرض هؤلاء الناس الى كثير من المحن فى ظل السيطرة الاجنبية وخسروا اراضيهم وبيوتهم واموالهم فشعرت الحكومة البريطانية انه يجب اعادة حقوق الموالين لها وممتلكاتهم الى ابعد حد ممكن. ووافق الكونجرس ان يوصى الولايات المتحدة باتخاذ مثل هذه التدابير، غير ان هذه التوصية لم تكن ذات فائدة تذكر للموالين المنكوبين .

ففى الواقع ، حتى فى حالة النصر، كانت الولايات المتحدة لاتزال غير متحدة ، وفى نهاية الحرب ارتبطت هذه الولايات فيما بينها برباط غير متين فى اتفاقية اسمها "شروط الاتحاد" Articles of Conderation ولكنهم ظلوا فى الاساس وحدات مستقلة تعمل من اجل مصالحها الخاصة . فقد كان الكونجرس الذى يمثلهم مفلسا منذ عدة سنوات وكان الجيش متذمرا لعدم دفع رواتبه ، وكاد ان يثور لولا مناشدة بطله الجنرال واشنطن للجنود بأن يتفرقوا ويعودوا الى بيوتهم بهدوء . وهكذا جاء الانتصار والاستقلال، ولكن جاءت معها حالة من الفوضى الاهلية . فعندما كانت المستعمرات الامريكية فى

حالة حرب مع انكلترا، استطاعت ان تشكل جبهة قوية موحدة تجـــاه العدو. وكان الكونجرس الذى يمثلهم يطلب الاعتمادات ويحصل عليها لمواصلة الكفاح. وكذلك كان هذا الكونجرس يبرم المعاهـــدات مع الامم الاخرى، غير انه لم يكن هناك قانون مكتوب او دستـــور يخول الكونجرس ان يتصرف باسم الشعب. وقد حاولت شروط الاتحـــاد Articles of Conderation ان تعالج هذا النقص بنصها علـــى اهداف وغايات معينة لحكومة مركزية . وقد جرى اقتراح هذه الامـــور فى عام ١٧٧٧، ولكن لم يصدق عليها الكونجرس حتى مارس ١٧٨١.

وهكذا انتهت كل الولايات الى اقرار الاتحاد الكونفدرالـــى وتحول الكونجرس فى ذلك العام الى حكومة رسمية بعد موافقة الولايات ولقد احتفظت كل ولاية بسيادتها وحريتها واستقلالها فى نطاق هـــذا الائتلاف. وكانت هذه الولايات قد اكتسبت حقوقها خلال الحروب واثناء الثورة، فاقامت كل ولاية هيئة تشريعية خاصة بها، واختارت حاكمها ثم اقرت كل منها دستورها الخاص لفترة مابين ١٧٧٦ و ١٧٨٠ . امـــا الكونجرس فكان يتكون من مجلس واحد، وكان لكل ولاية ، بغض النظـــر عن حجمها او عدد سكانها، صوت واحد فى الكونجرس وكان الكونجـــرس مخولا حق اعلان الحرب او السلم او اقتراض المال وارسال واستقبـــال السفراء ومعالجة الامور الخارجية، ولكن الكونجرس لم يمنح سلطـــة فرض الضرائب على الشعب مباشرة فتشبثت الولايات باعطاء هـــذا الحق لهيئاتها التشريعية فقط. كما لم يكن للامة سلطة تنفيذيـــة لتنفيذ التشريعات التى يقرها الكونجرس ومهما كان الامر، فـــان هذا النظام الذى تأسس بمقتضى بنود أو شروط الاتحاد هذه، كـــان خطوة نحو الاتحاد بين الولايات الذى اتخذ صورته النهائية فيما بعد

كما صار للشعب الان الحق فى انتخاب حكامه بعد ان كانوا يعينون بطريقة او باخرى .

وبرغم ما احدثته شروط الاتحاد فى التطور الدستورى فى امريكا فقد كان النظام ناقصا من عدة وجوه ، فالحكومة الفيدرالية كانت مفككة ، ولم تكن للكونجرس القدرة الكافية لتنفيذ قوانينه ، كما لم تكن هناك محكمة عليا لتفسير هذه القوانين. ولكن الحاجة عقب الحرب ستدعو الى تعديل هذا النظام الذى ادى الغرض منه خلال فترة الحرب وحتى اتمام وضع الدستور.

وقد حذر بعض الامريكيين، ومن بينهم جورج واشنطن، من الاخطار الناجمة عن غياب حكومة مركزية قوية ، وقال واشنطن "يجب ان يكون هنالك سلطة عليا تنظم الامور المشتركة لجمهورية اتحاد الولايات الجنوبية ، وبدون هذه السلطة لايمكن ان يطول الامر بالاتحاد". وقد تحققت هذه النبوءة عندما عبر الكونجرس بكل اسف عن عدم استطاعته تسيير امور الامة ، فقد قل عدد الحضور فى جلساته الى حد لم يكن يوجد فيه عدد كاف من الاعضاء ليكمل النصاب. وهكذا فقد مضى وقت لم يكن يوجد فيه حكومة للولايات المتحدة على الاطلاق.

فقد حدث ان تنازعت ولايتا مارى لاند وفرجينيا على حق السيطرة على التجارة فى نهر البوتوماك (Potomac) وبذلك وجدت مناسبة لبحث التعاون بين الولايات استفاد منه المنادون بحكومة أقوى. فدعى مفوضون من الولايتين الى بيت واشنطن لمباحثات تمهيدية ، وسرعان ما اتضح ان مصالح ولايات اخرى تتشابك مع مصالح مارى لاند وفرجينيا لذلك اتفق على ان تدعى جميع الولايات لارسال مندوبين عنها فى اجتماع يعقد فى العام القادم لبحث مشاكلهم التجارية المشتركة

ولم تقبل الدعوة الاخمس ولايات فى عام ١٧٨٦. ورغم ذلك، فقـــد استغل احد المؤ منين بالحكومة القومية وهو الكسندر هاملتـــون (Hamilton) هذا الموقف، لاسيما وانه شعر بأن زملاءه المجتمعيـن معه مستعدون ان يتجاوزوا بحث التجارة الى اعادة النظر فى شـــروط الاتحاد. فقد اقترح عقد مؤ تمر آخر فى فيلادلفيا فى عام ١٧٨٧لدراسة الجهاز الحكومـــى كله. ثم وافق الكونجرس على اقتراح هاملتـــون وارسلت الدعوات ثانية الى الولايات الثلاث عشرة.

ارسلت جميع الولايات ممثلين عنها ماعدا ولاية رود آيلانـــد واجتمع المؤ تمر وانتخب رئيسا له جورج واشنطن، وحضره بعض الرجـــال البارزين من امثال بنجامين فرانكلين والكسندر هاملتون وجيمـــس مادسون (M Madison) وجون ديكنسون (Dickinson) وغيرهـــم وظهرت رغبة الاغلبية منذ البداية، فقد جاءوا لا لتعديل الشروط السابقة بل لاستبدالها بأخرى تحقق نظاما حكوميا جديدا.

ولقد قدم اقتراحان رئيسيان ، احدهما من قبل فرجينيا التـــى تمثل الولايات الكبيرة والاخر من قبل نيوجرسى التى تمثل الولايـــات الصغرى. فقد اقترحت فرجينيا شكلا حقيقيا لحكومة وطنية تتألـــف من ثلاثة فروع : تنفيذية وتشريعية وقضائية. وتتألف السلطـــة التشريعية من مجلسين يمثل فى المجلس الاعلى او الـ "سنيست Senate جميع الولايات تمثيلا مبنيا على حجم كل ولاية وثروتها. وينتخـــب الشعب اعضاء المجلس الادنى او مجلس الممثلين. وبهذا الاقتراح،فقـــد سددت فرجينيا الضربة الى مجالس الولايات التشريعية،فبموجبه لم تعـــد الولايات تعمل كليا لمصلحتها الذاتية وتقف فى وجه التشريع الاتحـــادى الذى لاتقره. وبموجب هذا الاقتراح، تمثل المواطنون مباشرة ويحكمون

من قبل الكونجرس الولايات المتحدة . اما اقتراح ولاية نيوجرسي فقد كان اكثر ضررا . فقد خشيت الولايات الصغيرة ان تضيع في نظام التمثيل المباشر للشعب كالذى اقترحته فرجينيا . وفى هذه الحالة تتغلب الحكومة الاتحادية عليها فى المسألة تلو المسألة وذلك عن طريق التشريعات التى تقرها الولايات الكبيرة على حسابهم لذلك اقترحت نيوجرسى تأليف كونجرس بمجلس واحد يتساوى فيه التمثيل لكل ولاية كما نصت على ذلك شروط الاتحاد، ولكن مع منح الكونجرس السلطة لفرض الضرائب على الولايات وتنظيم التجارة ، فخطة نيوجرسى فيها تأكيد على سيادة حكومات الولايات، وذلك باعطائها سلطة توجيه سياسات الحكومة الوطنية بدلا من اعطاء هذه السلطة للافراد التى تعيش ضمن الولايات .

وبرغم ان اقتراح نيوجرسى وفرجينيا كانا متباعدين فى المعنى والشمول، الا ان المندوبين المجتمعين ففيلادلفيا استطاعوا عن طريق الحلول الوسطى، الوصول الى اتفاق بعد عدة اسابيع من النقاش فالكونجرس يجب ان يتألف من مجلسين، كما اقترحت فرجينيا ، ولكن الولايات جميعها يجب ان تمثل فى المجلس الاعلى عن طريق عضوين تنتخبهما مجالس الولايات التشريعية . وفى المجلس الادنى يبنى عدد الممثلين الذين ترسلهم كل ولاية على عدد سكانها ، وينتخب الشعب هؤلاء الممثلين مباشرة حسب ما جاء فىاقتراح فرجينيا .

كانت هذه هى العقبة الكؤود التى واجهت المندوبين ولم يتغلبوا عليها بسهولة ، فقد طلب الجنود مثلا ان تعتبر الاعداد الكبيرة من الرق فيه قسما من السكان، وان كان لا يحق لهم الاقتراع

وذلك لكى يزيد عدد الممثلين عن ولاياته. واخيرا جرى الاتفاق على اعتبار ثلاثة اخماس الرق مع عدد المواطنين الاحرار . وهكذا انتزع الدستور سيادة الولايات وسلمها للشعب ككل، فيكون للحكومة الوطنية اختصاصها ولحكومات الولايات اختصاصات اخرى. واعلن الدستور ان الولايات المتحدة ستضمن لكل ولاية فى الاتحاد شكلا جمهوريا فى الحكومة وستحمى كل واحدة منها فى حالة تعرضها للهجوم. وبموجب دستور الاتحاد انقسمت الحكومة الوطنية الى ثلاثة فروع : تشريعية وتنفيذية وقضائية . لكل منها بعض السلطة او القيود على الاخرى وذلك لمنع اى فرع منها من ان يتطرف أو يصبح دكتاتورا. هذه الطريقة التى تدل على تفكير فى المحافظة على الحقوق الديمقراطية قد سميت بنظام "حفظ التوازن" .

واعطى الكونجرس وهو الهيئة التشريعية ، سلطة سن القوانين فى كثير من المجالات التى تتعلق بالنواحى الوطنية والمسائل الخارجية ومن اهم واجباته المخصصة فرض الضرائب، واقتراض المال، وتنظيم التجارة بين الولايات، وتوحيد النقد بين الولايات، وانشاء جيوش مسلحة ، وحكم اراضى الولايات المتحدة ، وقبول الولايات الجديدة فى الاتحاد. وهناك اختصاصات عامة ، وهذا اعطى الكونجرس قوة حقيقية فهو يستطيع اعتماد الاموال لما فيه مصلحة الولايات المتحدة العامة ويسن جميع القوانين اللازمة للتنفيذ وقد خول حق اقتراح التشريعات لتحصيل الضرائب لمجلس الممثلين (النواب) . ومن ناحية اخرى، حرمت على الكونجرس بعض السلطات فلم يستطع مثلا ان يفضل مرافىء ولاية على ولاية اخرى فى قضايا التجارة والعائدات، وكذلك لايستطيع ان يمنح الالقاب، ومن العوامل التى ساعدت على تقوية السلطة المركزية ، هى

ان حكومة الاتحاد، وليس الولايات هى التى كانت تدفع رواتب رجـــال الكونجرس فالسناتور Senator يخدم مدة ست سنوات بينمـــا يخدم اعضاء مجلس الممثلين سنتين، وفى المجلس الاعلى، ينتخب ثلـــث الاعضاء كل سنتين، ولذلك يبقى نوع من الاستقرار فى عضوية هـــذا المجلس .

وكانت الهيئة التنفيذية للحكومة تشرف على تنفيذ القوانيـــن التى يقرها الكونجرس، والسلطات التنفيذية كانت تجبى الضرائـــب التى صوت عليها الكونجرس وتنظيم القوات المسلحة التى أنشأهـــا وتصك النقود التى أذن بها . وباختصار، تعمل على تنفيذ جميـــع تشاريع الكونجرس ويرأس الهيئة التنفيذية رئيس الولايات المتحدة الذى تولى تنفيذ القوانين التى يمكن الموافقة عليها بواسطـــة الكونجرس ومدة رئاسته اربع سنوات ويساعد الرئيس نائب الرئيس الذى يرأس المجلس الاعلى، وكذلك يساعده موظفون اداريون آخـــرون بعد موافقة الكونجرس عليهم ومن هنا نشأ نظام الوزارة Cabinet الذى يتألف من وزير الدولة ، ووزير الخزانة ، والداخلية ، والحربيـــة وبعض الموظفين الاخرين . وكل هؤلاء يساعدون الرئيس التنفيـــذى ويتلقون اوامره . غير ان الرئيس لم يكن مجرد اداة فى يد الكونجرس فكل مشروع قانون يقر، يجب ارساله اليه للموافقة عليه وتوقيعه لكـــى يصبح قانونا . واذا لم يوافق عليه فهو يستطيع استعمال حـــق الفيتو (Veto) ويرده لاعادة النظر فيه . واذا عاد الكونجرس وأقـــر القانون بأغلبية ثلثى الاصوات عندها يصبح القانون سارى المفعـــول بدون توقيع الرئيس وهذا الفيتو اداة قوية ويشكل جزءا مـــن نظام حفظ التوازن الذى يجعل قوى فروع الحكومة الثلاثة موزعـــة

توزيعا متوازنا . والرئيس ايضا هو القائد الاعلى للجيوش والبحرية ويعقد المعاهدات مع البلاد الاجنبية شريطة ان يوافق عليها ثلثا اعضاء المجلس الاعلى ، وكذلك فهو يعين السفراء وقضاة المحكمة العليا وموظفى الاتحاد الاخرين بموافقة المجلس الاعلى. واذا دعت الحاجة فهو يستطيع دعوة الكونجرس لجلسة خاصة والمفروض فيه ان يقترح تدابير مختلفة للكونجرس فى رسالته السنوية عن حالة الاتحاد . ومن جهة اخرى، وهنا ايضا نجد فى نظام "حفظ التوازن" الكونجرس يستطيع ان يقدم الرئيس للمحاكمة واستجوابه وعزله من منصبه فى حالة الرشوة والخيانة أو غيرها من الجرائم او الجنح.

اما بالنسبة لوضع نظام خاص لانتخاب الرئيس التنفيذى فتنتخب كل ولاية بالطريقة التى تحددها تشريعاتها ، جماعة من المنتخبين مساوين فى العدد لمجموع ممثلى الولاية فى كل من مجلس الكونجرس ثم يقترح المنتخبون على الرئيس ، فاذا حصل اى مرشح على اغلبية ظاهرة انتخب وينتخب الذى يأتى بعده مباشرة نائبا للرئيس. وفى حالة التساوى او انعدام الاغلبية يختار مجلس الممثلين (النواب) الرئيس ، ويكون لكل ولاية صوت واحد. وقد هدف واضعو الدستور من هذا النظام فى انتخاب الرئيس الى انلا ينتخب الرئيس من قبل الكونجرس او السلطات التشريعية لكى لا يصبح الرئيس مقيدا بهم. ولكن ارادوا ان ينتخبه جماعة من الرجال يمثلون اصحاب السلطة من الناس فى جميع الولايات.

اما السلطة الثالثة وهى السلطة القضائية فكانت تتألف من المحكمة العليا وغيرها من المحاكم الدنيا التى يعينها الكونجرس وتفصل المحكمة العليا فى المنازعات ذات الصفة الوطنية او فى

المنازعات التى تنشأ بين الولايات وتكون احكامها نهائية وغير قابلة للرفض غير اننا نجد مرة اخرى نظام حفظ التوازن فالاعضاء الذين يتألفون من الرئيس وثمانية اعضاء يعينهم الرئيس بموافقة المجلس الاعلى، وهؤلاء وغيرهم من القضاه فى المحاكم الدنيا يمكن محاكمتهم. وكانت المحاكم الاتحادية موزعة فى الولايات وهى تذكر كل مواطن بحقوقه والتزاماته للحكومة الوطنية. فاذا خرق شخص قانونا اتحاديا يحاكم فى محكمة اتحادية، واذا وجد مذنبا يحكم عليه بالسجن فى سجن اتحادى. ولكن من جهة اخرى استطاع المواطن ان يظهر سببا كافيا لاعادة النظر فى قرار المحكمة. فانه يستطيع ان يرفع قضية ليصل بها الى المحكمة العليا. كما اعطى نظام المحاكم الاتحادية سلطة شرعية واسعة فى الامور التى تؤثر على القضايا الوطنية والدولية. فهذا النظام مفوض بان يحكم فى المعاهدات الاجنبية التى تعقدها الولايات المتحدة وفى الحالات التى تتعلق بالسفراء والوزراء، وكذلك فهو يفصل فى المنازعات التى تنشأ بين ولايتين أو اكثر وبين الولاية والمواطنين من ولاية اخرى، وبين المواطنين من ولاية مختلفة. وبرغم ذلك فقد بقيت امور كثيرة فى المجال القضائى لمحاكم الولايات والمحاكم المحلية التى بقيت تعالج معظم الامور للمواطنين العاديين فى انحاء البلاد

وقد نص الدستور على اجراء تعديلات كلما دعت الاوقات والظروف الى مثل ذلك. فيستطيع الكونجرس باجماع الثلثين فى كل المجلسين ان يقترح تعديلا او اذا تقدم ثلثا مجالس الولايات التشريعية بطلب فيعقد مؤتمر لتقديم الاقتراح. وفى كلتا الحالتين، اذا وافق ثلاثة ارباع المجالس فى الولايات التشريعية، فان التعديل يصبح

نافذ المفعول ويصبح جزء من الدستور. ولقد دل الزمن على انه لم تدع الحاجة الا لقليل من التعديلات ، ذلك لان الدستور كتب بطريقة مرتبة مرنة ، ويمكن التوسع في تفسيره من قبل الكونجرس والمحاكم. وبعد ان انشأ مندوبو المؤتمر الدستوري اداة قوية متوازنة لحكم الولايات المتحدة ، انتهت اعمالهم في عام ١٧٨٧ . وارسلت الوثيقة الى الكونجرس الذى قدمها بدوره الى الولايات للتصديق عليها من قبل مؤتمرات تدعى خصيصا لهذه الغاية ، وقد كان تصديق تسع ولايات لازما لاقرار هذا الدستور ، فكان لابد من معركة قاسية لتأمين هذا الاقرار.

لقد نال الدستور التسعة اصوات اللازمة لاقراره . ولكن بقيت ولايتان كبيرتان هما فيرجينيا ونيويورك تعالجان المسألة بعنف وكان الصراع في نيويورك عنيفا ، فاحرز الفيدراليون النصر نتيجة لجهود الكسندر هاملتون وكان التصويت النهائي ٣٠ مقابل ٢٧ لتبني الدستور. وبعد ان اصبحت احدى عشر ولاية من ثلاثة عشرة منضمة تحت لواء علم الاتحاد وحكومة واحدة ، كان لابد للولايتين الباقيتين رود آيلاند وكارولينا الشمالية من الانصياع للوضع الراهن. ولم تشترك رود آيلاند في المؤتمر الدستوري في فيلادلفيا كما انها لم تدع لمؤتمر التصديق الدستوري ، ولكن عندما هددتها الولايات المتحدة بان تعاملها كأمة اجنبية ، استسلمت رود ايلاند اخيرا واصبح الاتحاد كاملا. اما هذه الولايات الثلاثة عشر الاصلية فهي كونكتكوت ديلاوير (Delaware) ،جورجيا ، ميري لاند ماساتشوستس نيوهامبشر ، نيوجرس ، نيويورك ، كارولينا الشمالية ، بنسلفانيا رود آيلاند ، كارولينا الجنوبية ، وفرجينيا . ولقد اجريت الانتخابات

ووقع الاختيار الاجتماعى على جورج واشنطن، ثم اختير جون آدامز من ماساتشوستس كنائب للرئيس، وكانت العاصمة فى السنوات الاولى مدينة نيويورك.

وهكذا تكونت جمهورية متوثبة اصبحت متأهبة لتبدأ حياتها فى العالم الجديد. ولقد كشف تعداد للسكان اجرى فى العام التالى لتنصيب واشنطن، عن انها كانت تضم حوالى اربعة ملايين نسمة، كان ثلاثة ملايين ونصف المليون تقريبا من البيض". وكان هؤلاء السكان فى الغالب من الريفيين جميعا. فلم تكن هناك من المدن ما تستحق الاسم سوى خمس : فيلادلفيا وتضم ٤٢٫٠٠٠ شخص، ونيويورك وتضم ٣٣٫٠٠٠ وبوسطن ١٨٫٠٠٠ وتشارلستون ١٦٫٠٠٠ ، وبلتيمور ١٣٫٠٠٠. كانت الاغلبية العظمى من السكان يعيشون فى مزارع او ضياع أو فى قرى صغيرة. وكانت المواصلات شحيحة وبطيئة، اذ كانت الطرق سيئة والحافلات غير مريحة، والسفن غير منتظمة. بيد ان شركات الطرق بدأت تتكون ، ومالبثت القنوات ان حفرت. وكان معظم الناس يعيشون فى عزلة نسبية ، والمدارس قليلة ، والكتب اقل، والصحف نادرة، كان الطابع الذى خلفته امريكا لدى الرحالة الاوربيين طابع الخشونة وقلة الراحة، وغلظة الطباع، وضآلة الثقافة مع الاستقلال واليسر المادى، واعتداد بالنفس لاحدود له. علما ان حالها كانت فى تحسن ثقافيا وماديا.

ذلك ان البلاد كانت فى نمو مطرد دائب فاخذ المهاجرون من العالم القديم يفدون باعداد جعلت الامريكيين يظنون فى بعض الاحيان ان نصف اوربا الغربية كان يتدفق على بلادهم. وكانت المزارع الجيدة

متوفرة لقاء مبالغ صغيرة ، والطلب شديدا على العمال، والاجر طيبا . ونظرت الحكومة الى هذه الهجرة نظرة تشجيع وكان جورج واشنطون يحبذ فكرة استقدام المزارعين ذوى الخبرة من انجلترا لتعليم الامريكيين اساليب زراعية افضل، وسرعان ما اصبحت المساحات المترامية فى وادى موهوك وجنيس فى شمال نيويورك، ووادى سهسكيهانا فى شمال بنسلفانيا، ووادى شيناندوا فى فرجينيا ، مناطق لزراعة القمح. واخذ الناس من نيوانجلند وبنسلفانيا ينتقلون الى اوهايو، ومن فرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية الى كنتكى وتنيسى .

كذلك كان اصحاب المصانع فى ازدياد، تشجعهم المنح من الولايات واخذت ماساتشوستس وورود آيلاند تضعان اسس صناعات نسج مهمة . اخذت تحصل خفية على نماذج الالات من انجلترا . وكانت كونكتيكوت قد بدأت تنتج السلع التصديرية والساعات، وولايات الوسط تنتج الورق والزجاج والحديد. غير ان امريكا لم تكن حتى ذلك الحين قد اوتيت مدنا صناعية ينصرف سكانها تماما الى العمل فى المصانع . والواقع ان معظم العمليات الصناعية كانت تؤدى فى المساكن فكان بوسع المزارعين ان يصنعوا فى امسيات الشتاء الطويلة ، اقمشة خشنة وسلعا من الجلد، وآنية من الفخار والادوات الحديدية البسيطة والسكر والادوات الخشبية . وعندما بدأت المصانع والورش فى الظهور كان اصحابها كثيرا ما يشتغلون مع عمالهم الاجراء .

واخذت الملاحة تزدهر ، وشرعت الولايات المتحدة فى احتلال المكانة الثانية بعد انجلترا فى المحيط، وصنعت السفن باعداد كبيرة للتجارة الساحلية . ولصيد السمك ولصيد الحوت ولنقل الحبوب والتبغ

والاخشاب وغيرها من البضائع فى اوربا . ولم تكن الثورة قد انتهت تماما عندما قامت السفينة "امبريس" برحلة الى "كانتون" وعادت بانباء امكانيات الاتجار مع الصين، مما اثار تحمس اهل نيوانجلند وبرزت تجارة جديدة، بلغ من نشاطها ان خمس سفن تحمل العلم الامريكى "النجوم والاشرطة" ذهبت الى الصين فى عام ١٧٨٧. وكان الصينيون يتلهفون على اقتناء الفراء، فصمم بعض تجار بوسطن على ارسال سفن الى الساحل الشمالى الغربى لامريكا الشمالية، لشراء جلود الحيوان من الهنود الحمر ونقلها الى الصين مقابل احضار الشاى والاقمشة الحريرية . وقد ادت هذه الفكرة الى بداية علاقات تجارية ناجحة بين الصين والولايات المتحدة مبكرا .

الفصل الرابع عشر

الحرب الاهليــة الامريكيــة

١٨٦١ - ١٨٦٤

اندلعت الحرب الاهلية الامريكية بين ولايات الشمال والجنوب بفعل عوامل كثيرة متعددة ، ويرجع بعضها الى طبيعة الاستعمار الاوروبى لامريكا منذ ان استقرت الهجرات الاوربية فى اماكن معينة اتخذت لها طابعا اقتصاديا خاصا املته عليها طبيعة ظروفها الجغرافية والثقافية والاجتماعية . فلقد ظلت الولايات الشمالية حتى عام ١٧٦٠ تحترف الزراعة شأنها فى ذلك شأن الولايات الوسطى والجنوبية برغم ان الطبيعة لم تمنح الولايات الشمالية سعة فى الاراضى الزراعية كما منحت ولايات الجنوبه ولذلك لم يكن للزراعة شأن كبير فى حياة تلك الولايات الشمالية .

وترتب على هذا ان تبنت الولايات الشمالية نظريات اقتصادية معينة تستند اساسا على عدم الاهتمام بالارض الزراعية كمورد هام من موارد الثروة . فلم تحافظ على بقاء تلك الارض على هيئة اقطاعيات كبيرة كما كان الحال فى الولايات الجنوبية ، بل كانت تورث الارض للابناء بالتساوى دون وضعها فى يد الابن الاكبر فقط كما كان متبعا فى الجنوبه ومن ثم اختفت الاقطاعيات الكبيرة فى الشمال بينما ظلت باقية فى الجنوب بشكل واضح وملموس ، ومن هنا اختلفت نظرة كل من الشماليين والجنوبيين للارض .

اما الولايات الجنوبية ، فقد حبتها الطبيعة بالسهول الواسعة وبالخصب وبوفرة الماء. وبكل مقومات الاقليم الزراعى الخصيب وتخصص المزارعون فى الجنوب فىزراعة محاصيل معينة كالتبغ والارز النيلة ثم القطن، واصبحت الولايات الجنوبية من اكبر اقاليم العالم انتاجا للقطن والسيطرة على اسواقه العالمية وعلى اسعاره. وقد واجه الجنوبيون مشكلة صعبة عند زراعة تلك المساحات الواسعة من الارض وهى قلة الايدى العاملة. وجاء الحل فى شراء الرقيق من اواسط افريقيا وتشغيلهم فى الارض وبمضى الوقت ظهرت مشكلة جديدة بتكاثر عدد هؤلاء الارقاء وزيادة عددهم زيادة كبيرة وعدم تمتعهم بما يتمتع به الامريكى من الحقوق. وهكذا اصبح الرقيق من اهم مستلزمات الحياة الاقتصادية فى الجنوب . ومن هنا جاء اختلاف النظرة الى الارض بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية.

وكان سكان الولايات الشمالية يضغطون على الكونجرس الامريكى لاباحة الهجرة الى تلك الولايات دون قيد او شرط ليتمكنوا من اجتذاب عدد كبير من الايدى العاملة الرخيصة التىتستخدم فى ادارة المصانع وفى الانتاج الصناعى الكبير ، والقيام بالمشروعات العمرانية الواسعة التى تحتاج الى رؤوسالاموالالكبيرة. كما كانوا ايضا يحثون الكونجرس على فرض ضريبة عالية على المصنوعات المستوردة من الخارج لحماية المنتجات المحلية التى يقومون بانتاجها،فالحماية الجمركية فى صالح اصحاب رؤوس الاموال فى الشمال فى حين انها تضر بمصالح المستهلك من طبقة المزارعين فى الجنوب.

ومن ناحية اخرى، عارض الجنوبيون فكرة منح الاراضى لصغار المزارعين والعمال حتى لا يؤدى هذا العمل الى انشاء دويلات

جديدة تتبع نظاما لايقوم على الرق كعامل هام من مقومات الحياة الاقتصادية . وسيصبح انضمام تلك الولايات الجديدة الى الاتحاد الامريكى فى غير صالح ولايات الجنوب ، لانه سيزيد من عدد الولايات المعارضة للرق داخل الاتحاد مما قد يؤدى الى تغلب اصواتها فى الكونجرس الامريكى على اصوات الولايات الجنوبية المؤيدة والواقع انه لم يكن من الميسور القضاء على الرق بسهولة لان الغاء بالنسبة للولايات الجنوبية معناه القضاء التام على اهم مقومات الحياة الاقتصادية فى تلك الولايات. بينما لن تتأثر الولايات الشمالية من هذا القرار الخطير لان الحياة الاقتصادية تركزت فى ايدى البيض. ولم يكن للزنوج عمل فى الشمال سوى الخدمة فى المنازل ، وكان من السهل على اهل الشمال الاستغناء عن خدماتهم .

وعندما نالت الولايات المتحدة استقلالها فى عام ١٧٨٣ ، لم يكن هناك بد من الاعتراف فى الدستور بشرعية الرق. ولكن فى نفس الوقت ، سادت فى الولايات الشمالية فكرة التدرج فى الغائه واتخاذ التدابير اللازمة لذلك. وبدأت الولايات الشمالية الواحدة بعد الاخرى تدخل التعديلات الضرورية فى دساتيرها للنص على هذا الالغاء. وكانت اولى تلك الولايات ماساتشوستس ، اذ الغت الرق عام ١٧٨٠ ، وتلتها بنسلفانيا فى نفس السنة ثم ولاية نيويورك عام ١٧٩٩. وابتداء من عام ١٨٣٠ ، اخذت الاتجاهات تشتد باطراد بصدد الرق من القطاعين الشمالى والجنوبى . وفى عام ١٨٣١ أنشأ وليم لويد جاديسون صحيفته "المحرر" (Librator) فى بوسطن كما قام بدور لايقل عن دوره اهمية فريق قوى من اوهايو تزعمه آرثر تابان ، وفى نفس الوقت اعلن كثير من زعماء الجنوب ان الرق

خير مؤكد، فنشر توماس ديو، من جامعة وليم آند ميرى ،كتابا يدافع عنه، ووصفه هموند ، حاكم كارولينا الجنوبية فى عام ١٨٣٥ ، بأنه "حجر الزاوية فى صرحنا الجمهورى" .

وهال اصحاب المصانع فى الجنوب ان تضيع مصالحهم تحقيقا لمبادئ انسانية لم يكن يعيروها ادنى اهتمام. وبدأ الخلاف يشتد بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية عندما اخذت الولايات الغربية تنضم للاتحاد الامريكى. ففى عام ١٨١٨ انضمت ولاية الينوى الى الاتحاد واصبح بذلك عدد الولايات التى تناهض الرق احد عشر ولاية مقابل عشر ولايات تؤيده . وفى عام ١٨١٩، تقدمت ولاية الباما للانضمام للاتحاد كولاية تقر مبدأ الرق، فعارضت الولايات الشمالية فى ذلك ، اذ ستتعادل ولايات الجنوب مع ولايات الشمال فى الاصوات داخل الاتحاد الامريكى. وكاد هذا الاختلاف يؤدى الى حرب بين الطرفين لولا تدخل احد السياسيين ويدعى هنرى كلاى (Clay) فى الامر، فوضع ما يعرف باتفاق ميسورى كحل للمشكلة . وبمقتضى هذا الاتفاق، جعل خط عرض ٣٦ شمالا تقريبا كحد فاصل بين الولايات التى تقر الرق فى الجنوب والولايات التى تناهضه فى الشمال، ووافق الطرفان على هذا الحل.

غير ان هذه المشكلة ثارت مرة اخرى بشكل يهدد الاتحاد وذلك بعد انتصار الولايات المتحدة الامريكية فى الحرب الاهلية المكسيكية واستيلائها على كاليفورنيا ونيو مكسيكو. وفى ذلك الوقت تقدم احد نواب الشمال الى الكونجرس الامريكى يطالب بمنع الرق فى هذه المستعمرات الجديدة ، فثار نواب الجنوب وطالبوا بأن يكون لهم نفس الحق الذى للشماليين فى ممارسة نشاطهم الاقتصادى. وكاد ان

يؤدى هذا الخلاف ايضا الى حرب بين الفريقين لولا تدخل هنـــرى كلاى للمرة الثانية وقيامه بوضع اتفاقية فى عام ١٨٥٠ اسهمت فـــى وضع حد لهذا النزاع لما يقرب من ثلاث سنوات.

وبرغم ذلك، ظل التوتر قائما، وتجدد النزاع من جديد عندما اقر الكونجرس الامريكى بدخول ولايتى كانساس ونبراسكا الخصبتين الاتحـاد بالشكل الذى ترياه اما مؤيدتان للرق أو مناهضتين له. ولما كانت هاتان الولايتان فى شمال خط عرض ٣٦ شمالا، وهو الحد الاقصى لامتـــداد الرق طبقا لاتفاقية ميسورى، فقد اعتبرهذا القرار من الكونجـــرس مخالفة صريحة لنصوص تلك الاتفاقية. وكان هذا الحادث الجديـــد من العوامل التى ايقظت الحقد الدفين فى صدور كلا الفريقين

وفى عام ١٨٥٤، قام تنظيم جديد هو "الحزب الجمهورى" الـــذى اجتذب الشباب من ذوى الذكاء، وضم رجال الاعمال فى شرق الولايـــات المتحدة الامريكية والمزارعين فى غربها. وكان مطلب الحزب الاول هو الغاء الرق ومقاومة كل حركة ترمى الى امتداده الى الولاياتالغربيـة وكان من رجال هذا الحزب البارزابراهام لنكولن Abraham Lincoln (١٨٠٩ - ١٨٦٥) الذى قال فى عام ١٨٥٤ "لو اوتيت كافة السلطـــات الدنيوية لما عرفت ماذا ينبغى ان افعل للنظام القائم" واعلن ان، حق الكونجرس فى الغاء اتفاق ميسورى لايتعدى حقه فى الغاء القانـون المناهض لجلب العبيد من افريقيا. واكد ان جميع التشريعات القومية يجبان تصاغ فى اطار المبدأ الذى اتخذه مؤسسو الجمهورية وان الرق نظام لابد من تغييره بتوطئة لالغائه فى النهاية.

ولاحت طلائع الحرب فى الافق بسبب تكالب كلا الفريقين الشمالى والجنوبى على استيطان ولاية كانساس ،ومحاولة كل منهما ان يتفوق فى عدد انصاره على الآخر، ليتمكن من تقرير مصير الولاية فى صالحه الخاص . وعندما اجريت الانتخابات داخل الولاية لاختيار ممثل لها لدى الكونجرى الامريكى، تغلبت اصوات المؤيدين على اصوات خصومهم وقد اغضبت هذه النتيجة ، التى جاءت فى صالح مؤيدى الرق، اهل الشمال ووسعت شقة الخلاف بينهم وبين اهل الجنوب .

ومن الخصائص التى زادت من خطورة الاحداث ، ان الشمال والجنوب كانا قد تطورا الى قطاعين مختلفين اختلافا كبيرا من النواحى الاقتصادية والاجتماعية . فكان الجنوب بأكمله ، تقريبا ، ريفيا ولم توجد به سوى مدينة كبيرة واحدة هى نيواورليانز . اما الشمال فقد انتشرت المدن فى اجزاء كبيرة منه ، واقترب تعداد سكان مدينة نيويورك من المليون نسمة . ولم تكن فى الجنوب صناعة تذكر، والواقع ان ماكانت تستهلكه مصانع النسيج من القطن كان يقل عما تستهلكه مدينة لوويل Lowell وحدها فى ماساتشوستس وازدهر الشمال بالمنشآت الصناعية التى انتجت الحديد والمنسوجات والاحذية والساعات والادوات الزراعية وغيرها . وبالاضافة الى ذلك كان انشاء الطرق الحديدية فى الشمال أكثر تقدما مما كان عليه الحال فى الجنوب ،وحظى الشمال وحده بالجزء الاكبر من العشرين الف ميل من الخطوط الحديدية التى انشئت بين عامى ١٨٥٠، ١٨٦٠.

وبرغم أهمية هذه الفوارق، فلم يكن فى مقدورها ان توقع الفرقة بين الشمال والجنوب لو لم يضخمها الخوف ، ولو لم يستغلها مثيرو الفتن بين عامة الشعب . وكان الجنوب يدرك ادراكا تاما ان وراء مشكلة الرق مشكلة عنصرية لا حل لها . اما الشماليون بما فيهم لينكولن فكانوا يخشون ان يعمل الجنوبيون على نشر الرق فى الأمة الامريكية

بأسرها . وبالغ كثيرون من مثيرى الفتن فى مساوىء المجتمع الصناعى واهداف الداعين الى ارض الحرية . وقد قال احد الحكماء من زعماء نيويورك، ان الوئام بين الشمال والجنوب يمكن ان يصان لو تم جمع مثيرى الخواطر بين الفريقين وشحنهم فى مركب واحد واغراقهم فى نهر بوتوماني لمدة خمس عشرة دقيقة . وعلى اية حال، تكهرب الجو بين اهل الشمال والجنوب وتدهورت الامور الى الحد الذى فكر فيه كل فريق فى حل تلك المشكلة بحد السيف . ومهما يكن الامر، فان هذه الحرب التى ستنشب بين الطرفين اطلق عليها بعض المؤرخين الثورة الامريكية الثانية واعتبروها نتيجة حتمية للنظم الاجتماعية الامريكية اقتضتها الظروف المحيطة بالشعب الامريكى فى ذلك الوقت.

وبدأ الحزبان الرئيسيان فى امريكا حركة المقاومة فى كلا الجانبين فالحزب الجمهورى فى الشمال اخذ ينظم صفوفه ويستعد لخوض المعركة الانتخابية عام ١٨٦٠، فاجتمع فى مدينة شيكاغو وقام بترشيح ابراهام لنكولن رئيسا على اساس المبادىء التى نادى بها الحزب والتى تنص على انه ليس للكونجرس ولا لاى مجلس تشريعى من مجالس الولايات الحق فى منح الاسترقاق الصفة القانونية فى اية ولاية من الولايات الامريكية . وفى الجانب الاخر، وجد الحزب الديمقراطى الذى كان يتكون من زعماء الحزب وكانت سياسته ترمى الى مراعاة الحقوق المكتسبة لكل ولاية ، وكذلك العمل على حفظ سياستها واستقلالها ، وان يكون للكونجرس الامريكى السلطة فى حماية الرق فى الولايات الغربية ، على الا يتعدى تلك السلطة حدودا معينة ، وبحيث لايكون امر الغاء الرق من اختصاصه .

وبفوز ابراهام لنكولن بالرئاسة بتأييد الولايات الشمالية والحزب الجمهورى، غضبت الولايات الجنوبية ، وفى مقدمتها ساوث كارولينا زعيمة

الجنوب، واعلنت ان الشمال قد انتخب للرئاسة رجلا "ذا آراء وغايات معادية للرق" ولذلك قررت فى ٢٠ ديسمبر عام ١٨٦٠ الانسحاب من الاتحاد الامريكى، وتبعتها بعد ذلك ولاية فلوريدا والباما ومسيسيبى وتكساس ولويزيانا وجورجيا. ويعتبر انفصال هذه الولايات الجنوبية عن الاتحاد عملا خطيرا ادى الى تصدع الجبهة الداخلية فى الولايات المتحدة وحمل الرئيس الجديد ابراهام لنكولن مهمة شاقة لارجاع هذه الولايات المتمردة الى حظيرة الاتحاد باية وسيلة من الوسائل، على ان يكون استخدام القوة آخر تلك الوسائل التى ذهب تفكيره اليها.

ويمثل هذا الانفصال، من وجهة نظر الولايات الجنوبية المنشقة، خوف الولايات على مصالحها من ان تضيع اذا ما قدر لاهل الشمال التغلب عليهم فالنزاع فى نظر رجال الاقطاع فى الجنوب يتمثل فى الصراع بين المصالح الصناعية فى الشمال والمصالح الزراعية فى الجنوب، وخوف الجنوب من سيطرة الصناعة والتضحية بمصالحه الزراعية وعلى اية حال، لم يكن الانفصال فى صالح الولايات المتحدة الجنوبية بقدر ماكان فى صالح زعماء الجنوب واصحاب المصالح الزراعية فيه. وفى ٤ فبراير عام ١٨٦١ اجتمع مندوبو الولايات الجنوبية السبع المنشقة على الاتحاد، وقرروا فيما بينهم تكوين حكومة الولايات الائتلافية الامريكية Confederate States of America وعلى رأسها جيفرسون ديفس Jefferson Davis (١٨٠٨ – ١٨٨٩).

واختلف الرأى العام الامريكى فى نظرته الى تلك الحركة الانفصالية فالتجار الشماليون الذين كانوا يرتبطون بعلاقات تجارية مع الولايات الجنوبية قد اسفوا لهذه الخطوة، ولكنهم فى نفس الوقت حاولوا اعادة تلك الولايات الى حظيرة الاتحاد بالطرق السلمية دون ان يحبذوا استخدام القوة حتى لاتسوء علاقاتهم مع سكان الجنوب. وفريق آخر من الناس كان

يرى ان انفصال الولايات المتحدة هو الحل العملي لتلك المشكلة فتستطيع الولايات الجنوبية ان تتصرف داخل حدودها كيف تشاء دون ان تتحمل الولايات الشمالية هذا العمل الاجرامي الذى تقوم به ولايات الجنوب. ولكن المسئولين الامريكيين ارادوا فض النزاع بالطرق الودية وعرضوا حلولا لهذا الموضوع تتلخص فى اباحة الاتجار بالرقيق داخل الولايات التى تبيح الرق، وان تبقى تلك الولايات داخل الاتحاد الامريكى على ان يفصل بينها وبين الولايات الحرة خط يتفق عليه على غرار اتفاق ميسورى.

غير ان هذه الحلول لم ترض اى من الطرفين . ووقفت مشكلة امتداد الرق الى الولايات الغربية حجر عثرة فى سبيل الوصول الى اى اتفاق نظرا لتمسك كل منها بوجهة نظره . وكان على ابراهام لنكولن انقاذ الموقف المتدهور ومحاولة ايجاد علاج سريع يجنب البلاد ويلات حرب اهلية داخلية ، ولذلك اعلن عن سياسته التى تهدف الى التمسك بالوحدة ، وبانه ليست لاية ولاية من الولايات الحق فى الانسحاب من الاتحاد وانه سيركز جهوده حول صيانة الوحدة وارجاع البلاد الى ما كانت عليه من قبل. ومن ناحيته ، لم يفكر لينكولن فى اتخاذ اى اجراء عسكرى قد يؤدى الى حرب اهلية يتحمل هو وحده نتائجها. ولذلك ترك للايام تقرير مصير هذا العبء وقد واتته الفرصة فى ١٢ ابريل عام ١٨٦١ اذ حدث صدام مسلح بين حامية احدى القلاع بميناء تشارلستون بولاية كارولينا وبين احدى فرق قوات الولايات الاشتلافية فى الجنوب . فكان هذا الصدام بمثابة الشرارة الاولى التى اضرمت النار والتى اتخذها الشمال ذريعة للهجوم ومواجهة العدوان بمثله بحجة ان الولايات الجنوبية هى البادئة به .

واستغل لينكولن هذا الحادث وطلب من الولايات الشمالية تعبئة

٧٥ ألف متطوع لخوض تلك الحركة . وباعلان هذا الطلب انسحبت ولايات اركنساس وكارولينا وتنسى من الاتحاد . وانضمت الى الائتلاف الجنوبي وبذلك بلغ عددها احدى عشر ولاية تضم تسعة ملايين نسمة ، بينما كان عدد ولايات الاتحاد فى الشمال ثلاث وعشرين ولاية بلغ مجموع سكانها اثنين وعشرين مليونا . هذا بالاضافة الى ما تتمتع به الولايات الشمالية من سعة فى خطوط مواصلاتها الحديدية . ومن هنا نرى ان كفة الشماليين سترجح فى هذه الحرب كفة الجنوبيين . اذا ما اخذنا فى الاعتبار قوة راس المال فى الشمال، وكذلك الخبرة والتقدم العلمى والثقافى بيد ان اهل الجنوب كانوا يرون فى انتاجهم للقطن ما يساعدهم على تصريفه لدى الدول التى هىفى حاجة اليه واهمها انجلترا وفرنسا . وكذلك فى شراء ما يلزمهم من اسلحة وعتاد حربى، هذا الى جانب ايمانهم العميق بقوتهم وان فى مقدورهم انتزاع النصر من الشماليين.

سير حرب الانفصال :

لايهمنا فى هذا المجال سوى ان نوضح المعالم الرئيسية لتلك الحرب وخطوطها العريضة ليتسنى الالمام بها وتتبع نتائجها . لقد ركز لينكولن خطته العسكرية على اهداف ثلاثة : اولهما ، الاستيلاء على ريتشموند عاصمة الولايات الائتلافية والتى تركز فيها النشاط الحربى وثانيهما ، دق اسفين بين الولايات الجنوبية بالاستيلاء على نهر المسيسبى وفصل الولايات الجنوبية فى الشرق عن زميلاتها فى الغرب، وثالثهما محاصرة الموانى الجنوبية لشل حركة التجارة بين الولايات الائتلافية والعالم الخارجى، وفى حصار اقتصادى شديد عليها حتى لاتستطيع تصريف قطنها خارجيا او استيراد الاسلحة اللازمة لها .

وفى سبيل تحقيق الهدف الاول وهو الاستيلاء على مدينة ريتشموند عاصمة الحكومة الائتلافية ، حاولت الجيوش الاتحادية القيام بعدة حملات بدأت فى منتصف عام ١٨٦١ باءت جميعها بالفشل، وذلك لصلابة سكان الجنوب ودفاعهم بعناد شديد عن مدينتهم . وهذا النجاح فى صد تيار الغزو الشمالى ، قد شجع الجنوبيين على القيام بغزو الشمال على يد قائدهم الكبير الجنرال روبرت لى Robert Lee ولكن محاولتهم ايضا لم تكن احسن حظا من محاولات الشماليين . وفى عام ١٨٦٤ عين الجنرال يوليسس جرانت Ulysses Grant قائدا عاما لجيوش الشمال الاتحادية ، فقام بمهاجمة ولاية فرجينيا والاستيلاء على مدينة ريتشموند والقضاء على الحكومة الائتلافية بعد استسلام قواتهم بقيادة الجنرال لى .

اما فيما يتعلق بالاستيلاء على حوض نهر المسيسيبى فقد تمكن الجيش الاتحادي فى اوائل عام ١٨٦٢ من توجيه ضرباته الى معاقل الائتلافيين على نهرى تنسى وكمبرلند من فروع نهر المسيسيبى . وفى نفس الوقت، قامت قوة بحرية بالاستيلاء على مصب نهر المسيسيبى لمعاونة الجيش الشمالى فى مهمة الاستيلاء على حوض النهر كله من الشمال والجنوب فى وقت واحد. وبنجاح تلك العملية الحربية يتم الفصل بين الولايات الجنوبية الشرقية وزميلاتها الجنوبية الغربية ، وتنقسم قوة الائتلافيين الى قسمين منعزلين لايمكن التعاون فيما بينهما . وكان هذا من الاسباب الجوهرية فى هزيمة الائتلافيين.

اما بالنسبة للحصار البحرى للسواحل الجنوبية الممتدة من ساوث كارولينا الى فلوريدا ، فقد نجح نجاحا كبيرا وكان من الاسباب الاساسية

ان لم يكن السبب الاساسى فى القضاء على مقاومة الجنوبيين. فهذا السلاح الفعال، استطاع الشماليون ان يحرموا اهل الجنوب من اهم لوازم الحياة كالغذاء والكساء والادوية والعتاد اللازم للجيش وبالاضافة الى ذلك ، اصابت الحياة الاقتصادية فى الجنوب خسارة فادحة من جراء عدم تمكنها من تصريف القطن والمحاصيل الرئيسية الى العالم الخارجى وقد أدى ذلك الى زيادة الاعباء الملقاه على عاتق الحكومة الجنوبية الى جانب ما تواجهه من اعباء حربية .

وفى خلال تلك الحرب، نشطت الدبلوماسية الامريكية نشاطا كبيرا فالحرب الاهلية الامريكية تعتبر، من وجهة نظر الولايات المتحدة الامريكية حربا داخلية تخص الولايات المتحدة وحدها دون تدخل من قبل الدول الاوربية اى ان هذه الحرب تعتبر اختبارا عمليا لمبدأ فاعلية مبدأ منرو Monro Doctrine الذى اعلنته الولايات المتحدة الامريكية فى ٢ ديسمبر عام ١٨٢٣ وينادى بان الولايات المتحدة الامريكية تعتبر اى تدخل من قبل الدول الاوربية فى شئون القارة الامريكية عملا عدائيا موجها لها . وان الولايات المتحدة الامريكية لن تتدخل فى الشئون الاوربية ، وترى ان تعاملها الدول الاوربية بالمثل. وبمعنى آخر يجب ان تكون امريكا للامريكيين.

ولذلك خشيت الحكومة الاتحادية ان تؤدى تلك الحرب الى تدخل من قبل الدول الاوربية لصالح الائتلافيين. وعلى وجه الخصوص انجلترا وفرنسا . فضاعفت حكومة الاتحاديين من نشاطها السياسى لدى الدول الاوربية ، وخصوصا الدول الكبرى منها حتى لا تعترف باستقلال الحكومة الائتلافية عن حكومة الاتحاد. اذ لو قدر للمساعى الدبلوماسية التى

بذلتها الولايات الجنوبية لدى حكومات الدول الاوربية المختلفة لحملها على الاعتراف بكيانها المستقل عن الحكومة الاتحادية، لوجدت الحكومة الشمالية نفسها في موقف حرج لايمكن مجابهته، ولاضطرت الى الرجوع للامر الواقع والتسليم للجنوبيين. وخصوصاً ان حكومة الائتلافيين كانت تجد عطفا وتأييدا من قبل التجار في الدول الاوربية الذين تربطهم علاقات تجارية مع تجار الجنوب.

وعلاوة على ذلك فان هدف الشماليين من تلك الحرب لم يكن واضحا فلم يعلنوا بانهم قاموا بتلك الحرب لالغاء تجارة الرقيق، بل على العكس من ذلك، فقد اوضحوا بما لايدع مجالا للشك بانهم يوافقون على بقاء تجارة الرقيق على ماهي عليه اذا ما وافقت الولايات الجنوبية على الرجوع الى حظيرة الاتحاد. وهذا الموقف من قبل الشماليين قد نفر منهم جزءا من الرأى العام الانجليزى الذى راى فى موقف الشماليين طغيانا على مصلحة الجنوبيين وان الهدف منه السيطرة والمصلحة وليس الغاء تجارة الرقيق الشائنة. كما ان تلك الحرب قد اصابت المنسوجات القطنية الانجليزية بضرر بليغ. وفى نفس الوقت، وقف عدد كبير من الرأى العام الى جانب الاتحاديين فى هذا الصراع، ووجهة نظرهم فى هذا الشأن ان هذه الحرب قائمة بين الشمال والجنوب تمثل الحرب بين الحرية والاسترقاق. وان انجلترا قد جاهدت فى تاريخها الطويل لنصرة الحرية ومساندة النظم الدستورية فى العالم. ولهذا وجب على الشعب الانجليزى الوقوف الى جانب اهل الشمال لتحقيق هذا الهدف السامى.

اما عن موقف فرنسا من هذه الحرب فكان يختلف الى حد كبير عن موقف انجلترا، ففرنسا كانت تتوق منذ خروجها من مستعمراتها فى امريكا الشمالية فى عام ١٧٦٣ الى انتهاز الفرص المناسبة للتدخل فى

شئون القارة الامريكية لمحاولة استعادة ماكان لها من نفـــوذ .

ولهذا كانت فرنسا تعطف على امانى الجنوبيين وتود التدخل لمصلحتهم ولكنها كانت لاترى التدخل بمفردها فى هذا النزاع وترغب فى ايجاد حل لها . يؤ ازرها هذا التدخل . فلجأت الى الحكومة الروسية طالبة معاونتها ، ولكن مسعاها لم يكلل بالنجاح . وقد ساعد على فشل تلك المحاولات انتهاء الحرب بسرعة فى صالح الشماليين وقد وضع انتهاؤها بهذه السرعة حدا للتدخل فى هذا النزاع . اما روسيا وبروسيا فقد اظهرتا عطفا كبيرا على امانى الاتحاديين، وتعبيرا عن هذا العطف قام الاسطول الروسى بزيارة ودية لمينائى نيويورك وسان فرانسيسكو مما كان له اجمل الاثر فى نفوس اهل الشمال وفى تشجيعهم على مواصلة القتال .

نتائج الحـــرب :

انتهت الحرب الاهلية الامريكية بانتصار الولايات الاتحادية على الحكومة الانفصالية الجنوبية ، ولكنها كبدت الطرفين خسائر فادحة ، فقد اشترك فيها من الجانبين ما يقرب من الاربعة ملايين جندى، وذهب ضحيتها ما يزيد عن ٦٠٠ الف جندى . هذا عدا ضحاياه من الجرحى والمشوهين وماسببته من خسائر مادية جسيمة عانت منها الولايات المتحدة لفترة غير قصيرة .

وبعد ان انتهت الحرب بانتصار وجهة نظر حكومة الاتحاديين وعلى رأسها ابراهام لنكولن، بدأ هذا الرئيس يفكر فى حل تلك المشكلة وبالشكل الذى يضمن دوام الاتحاد . فعند بداية الحرب عام ١٨٦١ ، لم يكن الرئيس الامريكى يطلب اكثر من بقاء الولايات الثائرة داخل

الاتحاد مع موافقته على وجود الاسترقاق كما هو، ولكن هذا الحل لم يرض تلك الولايات . فلجأ الكونجرس الامريكي الى اتخاذ خطوة جديدة لحل تلك المشكلة، فاصدر عام ١٨٦٢ قانونا يمنح الولايات التى توافق على عتق الرقيق بالتدريج اعانات مالية لتواجه الالتزامات التى ترتبت على هذا العتق. ولكن هذه الخطوة الجديدة فشلت فى حل تلك المشكلة . ثم تلا تلك الخطوة اصدار الكونجرس لقانون اخر فى تلك السنة يلغى الرق فى جميع الولايات الغربية فقط دون ان يتعرض هذا القانون الى الرق فى الولايات المنضمة للاتحاد. فقوبل هذا القانون بنقد مرير من قبل سكان جميع الولايات وذلك للتفرقة فى المعاملة بين الولايات التى تقر الرق. كذلك كثر الهجوم على ابراهام لنكولن واتهمه خصومه بالتردد والمحاباه فى معالجة المشكلة . وهذا ما دفعه فى عام ١٨٦٢ الى الاعلان عن عزمه لتحرير العبيد اذا ما رفضت الولايات المنشقة الرجوع الى حظيرة الاتحاد فى اول يناير عام ١٨٦٣ .

ولكن هذا التهديد قوبل بالرفض من قبل الولايات الجنوبية وظل هذا القرار حبرا على ورق حتى ديسمبر عام ١٨٦٥، حيث اقر الكونجرس الامريكى التعديل الثالث عشر للدستور والذى ينص على الغاء الرق الغاءا تاما من البلاد. ثم اعقب هذا التعديل تعديل آخر اطلق عليه اسم التعديل الرابع عشر للدستور الذى منح العبيد الحقوق المدنية والسياسية واصبحوا بمقتضى تلك الحقوق يتمتعون بالجنسية الامريكية وقد اشترط الكونجرس الامريكى بانه ليس للولايات الجنوبية الحق فى دخول الاتحاد الا بعد الموافقة على التعديل الرابع عشر. واضطرت ولايات الجنوب تحت ضغط القوة العسكرية الرضوخ للامر الواقع . وما ان اقبل عام ١٨٧٠، حتى رجعت جميع الولايات المنشقة الى الاتحاد مكرهة .

وقد سبق انضمام تلك الولاياتالمنشقة اجراءات خاصة وتنظيمات جديدة ، رأت حكومة الاتحاد ضرورة اتخاذها فى الجنوب لتضييق شقة الخلاف بين الطرفين وللاخذ بيد الجنوبيين ليستطيعوا مسايرة النهضة فى الشمال. ووجدت انه من الضرورى فى تلك المرحلة الاولى ان تقسم الولايات الجنوبية الى خمسة اقسام عسكرية خاصة لرجال من العسكريين الشماليين الذين اخذوا على عاتقهم تنفيذ تلك التنظيمات الجديدة واعادة تعمير الجنوب والعمل على مساعدة الرقيق والاخذ بيدهم وتدريبهم على ممارسة حقوقهم المدنية والسياسية . واقتضى وضع التنظيمات الجديدة ابعاد انصار العهد الماضى من السياسيين الجنوبيين عن الحكم وعن تولى الوظائف العامة حتى تستقر الامور فى الولايات الجنوبية وتتركز النظم الجديدة وكان لكل هذا أسوأ الاثر فى نفوس الجنوبيين اصحاب المصالح فى العهد السابق.

وقد مكنت الادارة الشمالية ، لولايات الجنوب الزنوج من التعبير عن رغباتهم فى الانتخابات العامة التى اجريت فى ذلك الوقت واستطاعت العناصر الزنجية بالتعاون مع العناصر البيضاء الفقيرة من ان يكون لها رأى فى حكم الولايات وان تقف هذه العناصر امام اطماع الشماليين والراغبين فى الاثراء على حساب اهل الجنوب. وفى هذه الفترة استطاعت العناصر الزنجية من ان تسيطر على بعض المجالس التشريعية فى الجنوب وان توجه السياسة المحلية وان تتولى الوظائف العامة فيها عدا الوظائف العليا التى سيطر عليها رجال من الولايات الشمالية وقد ازعجت هذه الحالة العناصر البيضاء فى الجنوب. فهم يخشون من سيطرة اصحاب رؤوس الاموال على ثروات الجنوب. وفى نفس الوقت فهم لا يرضون ايضا بسيطرة العنصر الزنجى على الحياة السياسية فى الجنوب. هذا العنصر

الذى كان بالامس القريب عبدا لهم ليست له من الحقوق الا النذر اليسير. ولهذا فقد لجأوا الى طريق غير مشروعة للتخلص من سيطرة الطرفين فقامت الجمعيات الارهابية السرية التى القت الرعب فى نفوس الانتهازيين الشماليين ، وابعدتهم عن تلك الولايات. كما استخدمت تلك الجمعيات مختلف وسائل الارهاب للحيلولة بين الزنوج وبين التعبير عن رغباتهم فى الانتخابات حتى يخلو لهم الطريق. ومن اشهر هذه الجمعيات السرية الارهابية جمعية كوكولوس كلان Ku-Klux- Klan التى تأسست فى بولاسكى Pulaski فى ١٨٦٥ — ١٨٦٦، وقد نجحت تلك الجمعيات فى تحقيق اهدافها نجاحا كبيرا.

واستطاعت العناصر البيضاء فى الولايات الجنوبية عن طريق الارهاب من ان تستعيد سيطرتها على مصائر الامور فى الجنوب بعد انسحاب قوات الاحتلال الشمالية. فما ان اقبل عام ١٨٧٧ حتى اصبحت الغلبة فى المجالس التشريعية للعناصر البيضاء وقد اصاب اعضاء الحزب الجمهورى الشمالى شىء من اليأس نتيجة لما وصلت اليه الحالة فى الجنوب. فهذه الحرب كلفت الامريكيين الكثير من الارواح والاموال، وهذا الجهد الكبير الذى بذل فى ادخال النظم الجديدة فى الجنوب لم يؤد فى حقيقة الامر الى صيانة مصالح العبيد الا فترة محدودة من الزمن اثناء وجود القوات المختلفة. ولكن الاوضاع السياسية فى الجنوب عادت الى ماكانت عليه من قبل بعد فترة قصيرة من انتهاء الحرب. فالحرب الاهلية الامريكية رغم ما بذل فيها من تضحيات لم تحقق للعبيد كل ماكانوا يصبون اليه من حقوق، فهى قد منحتهم الحرية من الناحية القانونية الا انها لم تمنحهم المساواة الفعلية مع البيض رغم اعتراف القانون الامريكى

لهم بتلك المساواة . فظلت عوامل التفرقة والبغضاء تسيطر على فريقى الامة حتى الان. ولكن فى اوقات الازمات التى مرت بالامة الامريكية وقف عنصرا الامة صفا واحدا للدفاع عن وطنهم لافرق بين ابيض واسود وقد حدث هذا فى الحرب الاسبانية - الامريكية عام ١٨٩٨، وكذلك فى الحربين العالميتين الاولى والثانية وفى حرب فيتنام.

وعلى كل، فقد احدثت الحرب الاهلية ثورة فى المجتمع والاقتصاد الامريكيين، سواء فى الشمال او فى الجنوب، وبرغم ان جذور الولايات المتحدة تتغلغل فى السنوات السابقة على الحرب، فانه بوسعنا ان نرجع بزوغها الحقيقى الى الحرب ذاتها . فلقد نشط هذا الصراع الصناعة وعجل باستغلال الموارد الطبيعية ، وساعد على نهضة الاعمال المصرفية الاستثمارية واتساع التجارة الخارجية ، كما انه دفع الى الصدارة بجيل جديد من قادة الصناعة واصحاب رؤوس الاموال ولقد فتح الصراع ايضا المجال امام ظهور مساحات جديدة شاسعة للزراعة والرعى، مما اوجد اسواقا جديدة وخلق ظروفا مناسبة لنمو المدن، واتاح مجال العمل لمئات الالاف من المهاجرين الذين سرعان ما تدفقوا على العالم الجديد. وفى الجنوب قضت الهزيمة على طبقة اصحاب المزارع الكبيرة ، ونمت طبقة وسطى جديدة ، وفى خلال اربعين عاما ، زاد سكان الولايات المتحدة من واحد وثلاثين مليونا الى ستة وسبعين مليونا ، وتضاعف حجم مدن كبيرة مثل نيويورك وشيكاغو ، بيتسبرج ، وكليفلاند وديترويت .

الفصل الخامس عشر

التوسع الخارجي للولايات المتحدة الامريكية

تعتبر الحرب الامريكية - الاسبانية عام ١٨٩٨ نقطة تحول هامة في تاريخ الولايات المتحدة الامريكية التى اصبحت دولة عالمية غير محصورة فى نطاق القارة الامريكية. بل دخلت حلبة الصراع العالمى لقد اتبعت الولايات المتحدة الامريكية منذ عهد جورج واشنطون، أول رئيس للولايات المتحدة (١٧٨٩ - ١٧٩٧)، مبدأ عدم التدخل فى تعقيدات الشئون الاوروبية، غير ان ذلك لا يعنى عدم استغلال الامريكيين المنازعات الاوربية لتحقيق مصالحهم الخاصة فى امريكا اللاتينية وفى المحيط الهادى. لقد صدر "مبدأ منرو" (١٨٢٣) فى الواقع حماية للمصالح الامريكية فى القارة الامريكية، وكان بمثابة المنفذ لتدخل الولايات المتحدة فى شئون القارة. حقيقة ان الهدف الاساسى للرئيس كان الحد من تدخل الدول الاوربية فى شئون القارة الامريكية، لكن ذلك كان هدفا سلبيا. فمنذ عام ١٨٤٥، اتخذ مبدأمونرو صفة ايجابية هامة وهى حق الولايات المتحدة فى التدخل فى شئون امريكا اللاتينية ونتج عن هذه الصفة الايجابية الجديدة سياسة التوسع وفرض النفوذ الامريكى فى هذه المنطقة، ومما يوضح ذلك تلك الحرب التى شنتها الولايات المتحدة ضد المكسيك عام ١٨٤٦ وانتهت بضم اراضى مكسيكية واسعة اليها.

وحتى التسعينات من القرن التاسع عشر لم تهتم الولايات المتحدة الامريكية كثيرا بالشئون الخارجية لانها لم تشعر بضرورة ملحة للتوسع الخارجى، اذ كانت منهمكة فى عملية التطور الاقتصادى والاجتماعى

والسياسى فى الداخل . ولكن منذ عام ١٨٩٠ بلغت الولايات المتحدة درجة كبيرة من القوة الاقتصادية مكنتها من بلوغ مرتبة الدول العالمية والتطور الاقتصادى الامريكى يعتبر العامل الرئيسى الذى حدد وضع الولايات المتحدة العالمى فى الفترة الممتدة من ١٨٩٠ الى ١٩١٤. ففيما بين ١٨٦٠ و ١٩١٠ شهدت الولايات المتحدة ثورة زراعية ضخمة تمثلت فى التوسع الكبير فى ميكنة الزراعة واستخدام الاساليب العلمية ، والتوسع الافقى والرأسى وهو الامر الذى ادى الى زيادة الانتاج الزراعى بدرجة كبيرة فاقت احتياجات السوق المحلية . وفى الفترة من ١٨٩٧ الى ١٩١٧، ارتفع الانتاج الاجمالى الى ٣٠ ٪ غير ان هذا التقدم الزراعى الكبير لم يؤد الى تحسين احوال الريف بمقارنتها بأحوال الحضر الصناعى ، فقد ساعد وفرة الانتاج على انخفاض اسعار الحاصلات الزراعية نتيجة لتشبع السوق المحلية مما ادى الى نتيجتين :

أولا - هجرة سكان الريف الى المدن الصناعية ، ومما يلاحظ ان عدد سكان الريف انخفض من ٦٥ ٪ عام ١٨٨٠ الى ٤٠ ٪ عام ١٩٢٠.

ثانيا - العمل على زيادة الصادرات من السلع الزراعية ويمثل ذلك احد عوامل اهتمام الولايات المتحدة بالتوسع الاستعمارى.

ومن ناحية اخرى - شهدت الولايات المتحدة فى الفترة ذاتها ثورة صناعية عظمى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ من حيث الضخامة ، وساهمت بالنصيب الاكبر فى تحديد وضع الولايات المتحدة الدولى. فحتى عام ١٨٨٠ كانت الزراعة هى المصدر الاول للثروة القومية . ولكن الصناعة احتلت هذا المركز ابتداء من عام ١٨٩٠، ومنذ عام ١٩٠٠ فاقت قيمة الانتاج الصناعى ضعفى قيمة الانتاج الزراعى . ومن ابرز ما يلاحظ

فى هذا المجال تقدم الولايات المتحدة على الدول الصناعية الاخرى . ففى عام ١٨٤٠ احتفظت الولايات المتحدة بالمركز الخامس بين هذه الدول وفى عام ١٨٦٠ احتلت المركز الرابع ثم قفزت الى المركز الاول فى عام ١٨٩٤ حيث بلغ الانتاج الصناعى الامريكى ضعف انتاج بريطانيا ونصف انتاج اوربا بأكملها.

وكان لهذه الثورة الصناعية اثر واضح فى توجيه السياسة الخارجية الامريكية فمنذ عام ١٨٩٠ وصلت السوق الداخلية الى مرحلة التشبع واخذت الولايات المتحدة تبحث عن اسواق خارجية فى دول امريكا اللاتينية ودول الشرق الاقصى لتصريف فائض الانتاج. ومن الملاحظ ان ضخامة الانتاج الصناعى جاء نتيجة طبيعية لضخامة المشروعات الصناعية التى خضعت لتنظيم دقيق وادارة مركزية تمثلت فى تجمعات الشركات والتراست والشركات القابضة (١). واصبحت هذه التجمعات والمؤسسات المالية من اقوى جماعات الضغط فى الولايات المتحدة وساهمت مساهمة فعلية وقوية فى عملية اتخاذ القرارات السياسية (٢) .

ولقد انعكس هذا التطور الزراعى والصناعى على تجارة الولايات المتحدة الخارجية التى زادت بمعدلات كبيرة . فأخذت الصادرات تتزايد بشكل كبير مما يعنى فى الواقع اتساع الاسواق الخارجية التى تمكنت الولايات المتحدة من استغلالها. وبالرغم من انه ، حتى عام ١٩١٤ ،

---

(١) Pools, Trusts, Holding Companies

(٢) من اهم هذه المؤسسات المالية مؤسستا روكفلر (Rockeffler) ومورجان (Morgan) وتمثلان عصب الحياة الاقتصادية والتجارة الامريكية.

اتجهت حوالى ٦٣٫٤٠ ٪ ، وهى نسبة كبيرة من الصادرات الامريكية الى القارة الاوربية ، فانه من الملاحظ ان هذه الصادرات تكونت فى معظمها من السلع الزراعية التموينية . وهكذا تطلبتسويق السلع الصناعية المتزايدة البحث عن اسواق خارج القارة الاوربية . ويضاف الى ذلك ان قوة الاقتصاد الامريكى قد ادت الى زيادة المدخرات التى توجه جزء كبير منها الى الخارج سعيا وراء مزيد من الربح. ويمكن القول بأن جملة الاستثمارات الامريكية فى الخارج بلغت ٦٨٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار عام ١٨٩٧، وارتفع هذا المبلغ الى ٢٫٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار مع بداية الحرب العالمية الاولى.

ويمثل هذا التقدم الاقتصادىالضخم ، الذى لا نجد له مثيلا فى التاريخ من حيث المدى والسرعة ، شعور الامريكيين بقوتهم التى ولدته فى نفوسهم روح العظمة والزهو ودفعتهم الى الخروج من الاطار الانعزالى التقليدى الذى فرضته ظروف تنمية الولايات المتحدة فى الداخل وتوطيد اركان الدولة السياسية . ومن ثم شعرت الولايات المتحدة بضرورة ملحة فى ان تقوم بدور هام على مسرح السياسة الدولية . وبرز هذا الدور منذ اواخر التسعينات من القرن التاسع عشر حيث اتجهت الى التوسع الخارجى الذى تركز فى بدايته فى منطقتين رئيسيتين هما : منطقة البحر الكاريبى وامريكا الجنوبية من ناحية ، ومنطقة المحيط الهادى والشرق الاقصى من ناحية اخرى. وقد انتهى هذا المد التوسعى المصحوب بثورة تكنولوجية عظمى بأن اصبحت الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٥ احدى الدولتين العظميين اللتين تسعيا للسيطرة على العالم بأسره .

ومما ساعد على نمو الشعور بالعظمة والزهو ظهور مجموعة قوية من المفكرين السياسيين الذين اعتنقوا ما يعرف بالنظرية الواقعية في السياسة والتي تهتم اساسا بتوازن القوى بين الدول في ضوء المصالح القومية المختلفة بصرف النظر عن المبادىء والقيم الخلقية . وكان على راس هذه المجموعة : ألفريد ماهان (A.T.Mahan) وتيودور روزفلت (Theodore Roosevelt) وهنري كابوت لودج (Henry Cabot Lodge) والبرت بيفيريدج (Albert Beveridge) وغيرهم . وقد انتهى هؤلاء من دراساتهم الى انه حان الوقت لكي تنظر الولايات المتحدة الى وضعها العالمي نظرة واقعية في ضوء تنافس الدول الاستعمارية الكبرى، اذ ان مصالح الولايات المتحدة بما في ذلك امنها القومي مهددة بتنافس الدول الصناعية والبحرية الكبرى ومن ثم يتعين على الولايات المتحدة تقوية اسطولها الحربي والسيطرة على قواعد بحرية في البحر الكاريبي وفي المحيط الهادى كاجراء دفاعي ضد اى هجوم او غزو خارجي . وواقع الامر ان الادعاء بأن الامن الامريكي اصبح مهددا، كان مجرد ستار شفاف لايحجب تماما ما وراءه من طموح واطماع نحو رغبة بعض الامريكيين من ذوى النفوذ الكبير في التوسع الخارجي والسيطرة .

ولقد انتقلت هذه النظرة الواقعية في السياسة من النطاق الفكري الى ميدان الممارسة السياسية عندما اعلن الحزب الجمهوري عام ١٨٩٦ برنامجه الانتخابي وورد فيه تعهد الحزب باتباع سياسة خارجية "حازمة" وتقوية الاسطول الحربي بما يتناسب مع وضع الدولة ومسئولياتها وضرورة السيطرة على جزر هاواى وحفر قناة نيكاراجوا (بنما فيما بعد) على ان تكون القناة مملوكة للولايات المتحدة التي تقوم بادارتها

والحصول على قواعد بحرية فى جزر الهند الغربية • وقد نجح الحزب الجمهورى فى انتخابات الرئاسة عام ١٨٩٦ وتبع ذلك النجاح مباشرة بناء امبراطورية استعمارية امريكية فى البحر الكاريبى وفى المحيط الهادى، وتأكيد سياسة "الباب المفتوح" تجاه الصينيين، بالاضافة الى فرض سيطرة اقتصادية ومالية على معظم دول امريكا اللاتينية استتبعت سيطرة سياسية قوية تكاد تشبه الحماية الفعلية • وقد انعكست هذه السياسة على مفهوم "مبدأ منرو" كما فسره الرئيس تيودور روزفلت عام ١٩٠٤، اذ اعلن فى ذلك الوقت بأن مبدأ منرو" يخول الولايات المتحدة حق التدخل العسكرى فى شئون دول امريكا اللاتينية للمحافظة على الامن والنظام فيها •

وكانت اول خطوة فى اتجاه تصميم الولايات المتحدة على فرض سيطرتها على القارة الامريكية بأكملها شراء اقليم الاسكا من روسيا مقابل ٧٫٢٠٠٫٠٠٠ دولار وذلك طبقا لمعاهدة ٣٠ مارس عام ١٨٦٧ • وقد ترتب على هذه الصفقة التجارية آثار هامة بالنسبة لوضع الولايات المتحدة الدولى• واقليم الاسكا لايذخر بالثروات المعدنية والخشبية فحسب، ولكنه يتمتع ايضا بحكم موقعه، بأهمية استراتيجية بالغة الخطورة • وبالاستيلاء على اقليم الاسكا اصبحت الولايات المتحدة تشرف على شمال غربى المحيط الهادى، واصبحت تلامس قارة آسيا عند مضيق بيرنج (Bering)• وقد زادت هذه الاهمية الاستراتيجية فى النصف الثانى من القرن العشرين عندما اصبحت منطقة القطب الشمالى محورا للمواصلات الجوية • وتحولت الاسكا الى قاعدة عسكرية ضخمة تهدد الاتحاد السوفيتى مباشرة •

اما الخطوة الثانية فى مجال التوسع الاستعمارى الامريكى فتمثلت فى انشاء منظمة اقليمية ، أو بالاحرى، قارية، تضم جميع دول القارة الامريكية بزعامة الولايات المتحدة . وكان الهدف من انشاء هذه المنظمة هو استخدامها كأداة لفرض السيطرة الامريكية على القارة بأكملها . ففى عام ١٨٨١ ، دعا جيمس بلين (James Blaine) وزير خارجية الولايات المتحدة ثمان عشرة دولة امريكية لحضور مؤتمر يعقد فى واشنطون فى العام التالى لمناقشة التدابير الخاصة لمنع الحرب بين الدول الامريكية وتشجيع العلاقات التجارية بين الولايات المتحدة اللاتينية ، الامر الذى يؤدى كما ذكر بلين الى زيادة الصادرات الامريكية الى تلك الدول . وقد تأجلت دعوة المؤتمر الى الانعقاد الى عام ١٨٨٩ لاسباب داخلية فى الولايات المتحدة . وفى عام ١٨٨٨ طلب الكونجرس من الرئيس الامريكى دعوة مؤتمر للدول الامريكية فى واشنطن فى اكتوبر عام ١٨٨٩. ووضح فى جدول اعمال المؤتمر كما وضعه الكونجرس والحكومة الامريكية ، ان الولايات المتحدة تسعى الى فرض سيطرتها على دول القارة فى اطار منظمة اقليمية . فقد اقترحت الحكومة الامريكية اقامة اتحاد جمركى ونقدى بين اعضاء المنظمة وانشاء خط حديدى قارى يربط الارجنتين بالمكسيك ، وقبول مبدأ التحكيم الاجبارى لفض المنازعات بين الدول الاعضاء .

ولكن دول امريكا اللاتينية ابدت تحفظا على خطة الولايات المتحدة ، اذ شعرت فيها رغبة السيطرة والتسلط، فرفضت الاتحاد الجمركى واقترحت بدلا منه ابرام معاهدات ثنائية على اساس المعاملة بالمثل وتم الاتفاق على مشروع معاهده للتحكيم الاجبارى ولكن لم يصدق

عليه . ولم يسفر المؤتمر الا عن انشاء "مكتب الجمهوريات الامريكية"(١) ومقره واشنطن ويتكون من الممثلين الدبلوماسيين لهذه الجموريات في العاصمة الامريكية وكان من اهم اختصاصاته العمل على توطيد العلاقات بين الدول الاعضاء والتمهيد لعقد مؤتمرات آخرى . ويرجع فشل الولايات المتحدة فى انشاء منظمة امريكية عام ١٨٨٩ خاضعة لسيطرتها الى ان تنفيذ هذه السياسة كان سابقا لاوانه لاسيما من الناحية الاقتصادية فرؤوس الاموال الامريكية المستثمرة فى الخارج كانت ضئيلة نسبيا بسبب اتساع مجال استثمارها داخل الولايات المتحدة حتى اواخر التسعينات من القرن التاسع عشر. كما ان فشل مؤتمرات "الاتحاد الامريكى" فى الفترة التالية حتى عام ١٩١٤ كان بسبب الاعتبارات السياسية التى تلخصت فى خوف جمهوريات امريكا اللاتينية من سيطرة الولايات المتحدة عليها .

التوسع الامريكى فى البحر الكاريبى وامريكا الوسطى :

١ - قضية كوبا :

لقد تأثرت السياسة الامريكية تجاه كوبا بعاملين اساسيين هما : العامل الاقتصادي، والعامل الاستراتيجي. فالولايات المتحدة كانت فى حاجة الى المنتجات الكوبية وخصوصا السكر والتبغ ، كما ان مناجم الحديد الكوبية كانت محل تطلع الرأسماليين الامريكيين. وفى عام ١٨٩٣ بلغ مجموع الاستثمارات الامريكية فى كوبا اكثر من ٥٠ مليون دولار بينما بلغ حجم تجارة كوبا مع الولايات المتحدة فى نفس العام ١٠٠ مليون

(١) تغير اسمه عام ١٩١٠ الى "الاتحاد الامريكى" : Pan American Union)

دولار. وفى عام ١٨٩٤ اندلعت ثورة مسلحة فى كوبا ضد حكم اسبانيا مالبثت ان تطورت الى حرب اهلية مدمرة استغرقت اكثر من أربع سنوات . وقد ازعجت هذه الحرب الاهلية الرأسماليين الامريكيين بسبب الخسائر الكبيرة التى لحقت بزراعة قصب السكر والتبغ وصناعة التعدين ومرفق السكك الحديدية . ومن ثم قوى الاتجاه فى الولايات المتحدة لاسيما فى المناطق الصناعية فى الشمال وفى الشرق، الى ضرورة ضم كوبا وكذلك بورتوريكو الى الولايات المتحدة لحماية رؤوس الاموال الامريكية المستثمرة فى هذين البلدين. وهكذا يمكن القول بان حماية مصالح الرأسمالية الامريكية كانت من اهم الاسباب التى ادت الى اندلاع الحرب الامريكية — الاسبانية عام ١٨٩٨ .

وبالنسبة للاهمية الاستراتيجية لجزيرة كوبا ، فانها تحتل موقعا حيويا يسيطر على خليج المكسيك ويتحكم فى احد مدخلى القناة البحرية المزمع حفرها عبر امريكا الوسطى . وبذلك تعتبر السيطرة على جزيرة كوبا من اهم الشروط الاساسية للسيطرة على القناة البحرية وعلى امريكا الوسطى وشمال امريكا الجنوبية . وبسبب انفجار بارجة حربية امريكية فى ميناء هافانا فى يوليو عام ١٨٩٨ اعلنت الولايات المتحدة الحرب ضد اسبانيا ، وبالرغم من انتهاء الحرب الاهلية فى كوبا واصدار عفو عام عن المتمردين واطلاق سراح المواطنين الامريكيين الذين اشتركوا فى الثورة ، فلقد اصرت الولايات المتحدة على احتلال كوبا متجاهلة فى ذلك جميع التنازلات التى قدمتها اسبانيا .

وانتهت الحرب بهزيمة اسبانيا وتم ابرام معاهدة باريس فى ديسمبر عام ١٨٩٨ بمقتضاها اعترفت اسبانيا باستقلال كوبا ،وتنازلت

عن بورتوريكو للولايات المتحدة ، كما تنازلت عن جزر الفليبين وجوام في المحيط الهادى مقابل عشرين مليون دولار. واصبحت كوبا تحت الحماية "المقنعة" للولايات المتحدة ، فقد خضعت لحكم عسكرى امريكى لمدة ثلاث سنوات من ١٨٩٩ الى ١٩٠٢ قبل انتقال السلطة الى حكومة مدنية جديدة بمقتضى دستور جديد. ولم يوافق الكونجرس الامريكى على نقل السلطة الى حكومة مدنية الا بشروط عرفت باسم "تعديل بلات". (Platt Amendment) ادمجت فى دستور كوبا الجديد، وتتلخص فيما يلى :

١ - لايحق لكوبا ابرام معاهدات مع دول اجنبية من شأنها المساس باستقلال كوبا او السيطرة على اى جزء منها من اجزاء الجزيرة.
٢ - لايحق لكوبا عقد قروض لا تتناسب ومقدرتها الاقتصادية العادية.
٣ - يحق للولايات المتحدة التدخل المباشر لحماية استقلال كوبا ، كما اعترفت كوبا بحق الولايات المتحدة فى التدخل لحماية اية حكومة كوبية ترى الولايات المتحدة انها قادرة على المحافظة على حياة وحرية وممتلكات المواطنين.
٤ - يحق للولايات المتحدة اقامة قواعد عسكرية بحرية فى كوبا (*).

وهكذا لم تدع الولايات المتحدة لنفسها حق التدخل فى شئون كوبا الخارجية فحسب، بل اعطت لنفسها حق التدخل المباشر فى شئون الجزيرة

---

* من اهم القواعد التى اقامتها الحكومة الامريكية قاعدة جوانتنامو (Guantanamo) التى تسيطر على خليج المكسيك.

الداخلية . وقد طبقت الولايات المتحدة هذا الحق عام ١٩٠٦ عندما ثار الشعب الكوبي ممثلا في حزب الاحرار ضد رئيس الدولة الموالي للولايات المتحدة والذى انتخب عام ١٩٠٢ بمساعدة القوات الامريكية التي كانت تحتل الجزيرة آنذاك. وتوالى هذا التدخل مرة اخرى وفي عام ١٩١٢ هددت الولايات المتحدة بالتدخل العسكرى في كوبا للمرة الثالثة عندما قامت ثورة شعبية تطالب بوضع حد للسيطرة الامريكية واقامة نظام ديموقراطي واجراء اصلاحات اقتصادية واجتماعية . ولم يتوقف التدخل الامريكي هذا الا عام ١٩٣٤ بسبب تطبيق سياسة "حسن الجوار" التي تبناها الرئيس فرانكلين روزفلت . ومن اهم النتائج التي ترتبت على هذه التطورات ان القيود التي تضمنها "تعديل بلات" لم يطبق على "كوبا" فحسب بل اصبح اساسا عاما للسياسة الامريكية في منطقة البحر الكاريبي وامريكا الوسطى.

٢ - <u>قضية قناة بنما</u> :

لم تقتصر نتائج الحرب الامريكية - الاسبانية على سيطرة الولايات المتحدة على منطقة البحر الكاريبي بل ان استيلاءها على جزر الفلبين وجوام قد ادى الى تدعيم مركزها في منطقة المحيط الهادى. ومن ثم فقد اصبح موضوع حفر قناة بحرية تصل بين المنطقتين اكثر أهمية من ذى قبل واصبحت هذه القناة حجر الزاوية في الاستراتيجية البحرية الامريكية وبالرغم من اعلان "مبدأ منرو" لم تتمكن الولايات المتحدة قبل توحيدها وتعاظم قوتها العسكرية والاقتصادية من التغلب تماما على منافسة الدول الاستعمارية الاخرى لها في منطقة امريكا الوسطى ولاسيما بريطانيا . ففي عام ١٨٥٠ اضطرت الحكومة الامريكية الى توقيع معاهدة كلايتون - بلور (Clayton - Bulwer) التي انكرت على الولايات المتحدة الاشراف

المنفرد" على منطقة امريكا الوسطى . وامام رغبة الولايات المتحدة في ازالة هذه العقبة القانونية التي كانت تعوق فرض سيطرتها التامة على المنطقة ، رضخت بريطانيا التي كانت مشغولة بحرب جنوبية افريقية وتم توقيع معاهدة هاي - بونسيفوت (Hay-Pauncefote) في ١٨ نوفمبر عام ١٩٠١ التي الغت معاهدة كلايتون - بلور، واعترفت بمبدأ حياد القناة وحق الولايات المتحدة في الاشراف عليها، وادارتها والدفاع عنها وحق اقامة التحصينات والاستحكامات اللازمة . وعلى هذا يمكن القول ان معاهدة هاي - بونسيفوت اطلقت يد الولايات المتحدة في منطقة امريكا الوسطى.

واستمر توسع الولايات المتحدة بسرعة كبيرة . وفي يناير ١٩١٣ - عقدت الولايات المتحدة معاهدة هاي -هوران (Hay - Harran) مع كولومبيا حيث حصلت الولايات المتحدة على امتياز تأجير منطقة برزخ بنما بعرض ستة اميال لحفر قناة بحرية فيها وذلك لمدة ٩٩ عاما مقابل عشرة ملايين دولار. واجرة سنوية مقدارها ربع مليون دولار. وعندما رفض برلمان كولومبيا التصديق على المعاهدة لجأت الحكومة الامريكية الى تشجيع ومساعدة حركة انفصالية في اقليم بنما الذي كان تابعا لدولة كولومبيا في ذلك الوقت. وحالت القوات البحرية الامريكية دون قيام قوات كولومبيا بقمع الحركة الانفصالية التي اعلنت استقلال بنما عن كولومبيا واسرعت الولايات المتحدة بالاعتراف بدولة بنما الجديدة في نوفمبر ١٩٠٣ وعقدت معها معاهدة هاي - بونوفاريلا Hay-Bunau Varilla التي منحت الولايات المتحدة حقوق السيادة على منطقة القناة . كما نصت الولايات المتحدة على حق الولايات المتحدة في امتلاك وتحصين قناة بنما الى

الابد، وحقها فى احتلال واستغلال جميع الاراضى اللازمة لادارة القناة والدفاع عنها. ومن ناحية اخرى، تعهدت الولايات المتحدة بضمان استقلال جمهورية بنما الجديدة التى خضعت للوصاية الفعلية للولايات المتحدة. وبعد حفر القناة تزايد تدخل الولايات المتحدة فى شئون دول امريكا الوسطى والبحر الكاريبي انطلاقا من "مبدأ مترو" احيانا، وبدافع تأمين قناة بنما احيانا اخرى.

٣ - **قضية جمهورية الدومينيكان** :

بين جزيرتى كوبا وبورتوريكو تقع جزيرة هسبانيولا Hispaniola التى تضم جمهوريتى هايتى والدومينيكان محتلة بذلك موقعا استراتيجيا هاما عند مشارف البحر الكاريبى وفى مواجهة قناة بنما. ولذلك عملت الولايات المتحدة منذ فترة طويلة على منع الدول الاستعمارية الاوروبية من السيطرة على الجزيرة، واتبعت سياسة اكثر ايجابية ازاء باقى دول البحر الكاريبى وامريكا الوسطى بعد ان فرضت سيطرتها على جزيرتى كوبا وبورتوريكو. ولم يعد الامر محصورا على منع الدول الاوروبية من السيطرة على المنطقة ولكنه يعنى ايضا فرض السيطرة الامريكية الفعلية عليها. وقد ساعدت الولايات المتحدة على تنفيذ هذه السياسة الايجابية الجديدة تلك الاضطرابات والثورات التى شملت هذه الاقاليم بشكل مستمر وافضل دليل على ذلك تطور الاحداث فى جمهورية الدومينيكان .

فلقد ظلت الدومينيكان منذ استقلالها عن هايتى عام ١٨٤٤ تخضع لحكم دكتاتورى رجعى واجه ثورات شعبية متكررة بسبب فساد الحكم وجشع الرأسماليين الاوروبيين والامريكيين الذين اثقلوا كاهل الدولة

بالديون الخارجية . ولما لوحت الدول الاوروبية بالتدخل لحماية مصالح رعاياها الدائنين طلبت حكومة الدومينيكان تدخل الولايات المتحدة لمساعدتها . وكانت فرصة انتهزها الرئيس الامريكى روزفلت ليعلن رسميا مفهومه الجديد لمبدأ منرو (Roosevelt Corollary) ففى ٦ ديسمبر ١٩٠٤ قال روزفلت فى رسالته السنوية "حيث ان الولايات المتحدة بمقتضى مبدأ منرو لن تسمح للدول الاوروبية باستخدام القوة ضد هذه الشعوب الصغيرة المتمردة التى لاتسدد ما عليها من ديون - أو تستولى على ممتلكات الاجانب او تسىء معاملة الاجانب المقيمين بها فقد وضع هذا على كاهل الامريكيين مسئوليات لامفر منها . وسوف تتولى الولايات المتحدة بنفسها مهمة مراقبة سلوك هذه الجمهوريات" واضاف روزفلت ان قيام اية اضطرابات فى دولة من دول القارة الامريكية سوف يقتضى التدخل بالقوة من جانب الولايات المتحدة عملا بمبدأ منرو وهكذا اعطت الولايات المتحدة لنفسها سلطة البوليس الدولى فى القارة الامريكية .

وتحقيقا لهذه السلطة المزعومة عينت الولايات المتحدة مراقبا ماليا فى جمهورية الدومينيكان لتحصيل الرسوم الجمركية وتوزيع جزء كبير منها على الدائنين الاوروبيين والامريكيين واباحت الحكومة الامريكية لنفسها حق حماية مراقبها المالى بالقوة اذا استدعى الامر ذلك ولكن الاضطرابات الداخلية استمرت فى الدومينيكان بسبب الصراع السياسى على السلطة وتدخل الولايات المتحدة السافر فى امور البلاد. الامر الذى ادى الى تطور هذه الاضطرابات الى حرب اهلية . وهنا تدخلت الولايات المتحدة مرة اخرى وطالبت الدومينيكان بتوقيع معاهدة جديدة

تقضى بتعيين مستشار اقتصادى امريكى بجانب المراقب المالى الذى توسعت اختصاصاته وذلك بهدف تحصيل جميع موارد الدولة الداخلية علاوة على الرسوم الجمركية . وبالاضافة الى ذلك طالبت الولايات المتحدة بحق الاشراف على تنظيم الشرطة . ولكن حكومة الدومينيكان رفضت هذه المطالب لما فيها من مساس بسيادة البلاد . وفى مايو ١٩١٦ قرر الرئيس الامريكى وودرو ولسون احتلال البلاد واخضاعها لحكم عسكرى امريكى وهكذا تحولت جمهورية الدومينيكان الى مستعمرة امريكية من الناحية الواقعية ومكثت القوات الامريكية بها حتى عام ١٩٢٤ عندما تشكلت فى البلاد حكومة موالية للحكومة الامريكية .

٤ - قضية المكسيك :

تعتبر المكسيك اهم دول امريكا الوسطى من حيث عدد سكانها ومواردها الزراعية والمعدنية وموقعها الجغرافى . وكان من الطبيعى ان تتدفق رؤوس الاموال الاجنبية على المكسيك لاستغلال مواردها المتعددة وتبوأت رؤوس الاموال الامريكية المقام الاول بين الاستثمارات الدولية . وفى عام ١٩١٢ بلغت جملة الاستثمارات الامريكية فى المكسيك ٥٢ ٪ من مجموع الاستثمارات الامريكية فى جميع دول امريكا اللاتينية . وكما يحدث عادة فى البلاد الضعيفة المتخلفة اقتصاديا فان الرأسمالية الاجنبية لاتتمكن من اقتصاديات البلاد الا بالتحالف مع الطبقات الحاكمة من الاقطاعيين والرأسمالية الوطنية التى لاتتورع عن استخدام اكثر اساليب الدكتاتورية تعسفا لتحقيق مصالحها الخاصة المرتبطة ارتباطا وثيقا بالرأسمالية الدولية . وهذا يمثل وضوح ملامح الحكم فى المكسيك فى عهد الدكتاتور بروفيريو دياز Profirio Diaz الذى قبض

على زمام الحكم في البلاد بيد من حديد لمدة تربو على الثلاثين عامـــا
من ١٨٧٧ الى ١٧٨٠ ثم من ١٨٨٤ الى ١٩١١٠ وفي عام ١٩١٠ اندلعـــت
ثورة شعبية قومية بزعامة فرنشيسكو ماديرو Francesco Madero
ضد دكتاتورية بروفيريو دياز .

لقد اقتصرت ثورة ماديرو، الذي كان ينتمي الى الطبقة الاقطاعيـــة
رغم اعتناقه مبدأ الليبرالية السياسية . اقتصرت على الجانـــب
السياسي دون معالجة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية . ولذلك تعـــرض
نظام حكم ماديرو (١٩١١ - ١٩١٣) لمقاومة بعض اتباعه اصحـــاب
النزعات التقدمية . كما ان ديمقراطيته السياسية فتحت المجال للرجعيـــة
الاوتوقراطية باغتصاب الحكم مرة اخرى بواسطة انقلاب عسكري بزعامـــة
الجنرال فيكتوريانو هويرتا (Victoriano Huerta)
الذي تطلع الى الانفراد بالسلطة المطلقة والقضاء على منافسيه بكـــل
اساليب الغدر والتنكيل. وأشعلت هذه السياسة الحرب الاهلية بين الرجعية
والعناصر التقدمية مما ترتب عليه الاضرار بالمصالح الاقتصاديـــة
الرأسمالية الامريكية . ومما تجدر الاشارة اليه ان شركات البتـــرول
الامريكية كانت تؤيد حكومة هويرتا لانها باتت الاقدر على حمايـــة
المصالح الرأسمالية . ولكن حكومة الرئيس وودرو ويلسون التي تولـــت
الحكم عام ١٩١٣ كانت ابعد نظرا من هذه الشركات فساندت الحركـــة
الديمقراطية على امل استقرار الحكم في المكسيك بواسطة حكومـــة
ديموقراطية معتدلة تستطيع ان تكبح جماح التيارات الثورية بتقديـــم
بعض الاصلاحات الدستورية التي لاتؤ ثر على المصالح الرأسمالية الامريكيـــة
في المكسيك . ولم تكتف الولايات المتحدة بعدم الاعتراف بحكومة هويرتا

ولكنها قدمت السلاح الى "الثوار" كما احتلت القوات الامريكية ميناء فيرا كروز (Vera Cruz) لمنع حكومة هويرتا من الحصول على معونات خارجية . وبذلك نجحت الثورة المكسيكية بقيادة فنوستيانو كرانزا (Venustiano Carranza) بفضل التدخل الامريكى.

ولكن استيلاء كرانزا على الحكم فى اغسطس عام ١٩١٤ لم يمثل نجاحا مطلقا لسياسة الرئيس ويلسون ، فقد كان رجلا وطنيا يريد وضع حد لسيطرة الرأسمالية الامريكية على البلاد . ومن هنا اصطدم كرانزا بحكومة ويلسون التى كانت ساندته الرئيسى فى صراعه للوصول الى الحكم غير ان نجاح الثورة الشعبية فى المكسيك لم يمنع من استمرار الاضطرابات بسبب اختلاف زعماء الثورة على خطط الاصلاح الاقتصادى والاجتماعى، الامر الذى ادى الى تدخل الولايات المتحدة بقوة السلاح فى شئون المكسيك بحجة الانتقام لمصرع بعض الامريكيين اثناء القتال بين زعماء الثورة المتصارعين وبسبب قرب دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الاولى اضطرت الحكومة الامريكية الى سحب قواتها من المكسيك فى يناير ١٩١٧ . وفى نفس العام اصدرت حكومة كرانزا دستورا نص على ملكية الدولة لجميع الثروات المعدنية فى البلاد . واعادة توزيع الاراضى الزراعية لصالح الفلاحين وحق الدولة فى تأميم الشركات الاجنبية التى تستغل ثروات البلاد المعدنية والزراعية . كما نص الدستور ايضا على ان تتنازل الشركات الاجنبية التى تستمر فى استغلال ثروات البلاد عن حق الحماية الدبلوماسية اذا ثار نزاع بينها وبين حكومة المكسيك حول عقود الامتياز . ولذلك قامت الشركات الامريكية بعد الحرب العالمية الاولى مباشرة بالتحريض على قلب الحكومة القومية فى المكسيك وتدخلت الولايات المتحدة مرارا لاقناع حكومة المكسيك بعدم التعرض للشركات الاجنبية .

التوسع الامريكي في امريكا الجنوبية :

لم يبلغ تدخل الولايات المتحدة في امريكا الجنوبية درجة تدخلها في شئون امريكا الوسطى، فاكتفت بفرض نفوذها المالي والاقتصادي عن طريق الشركات الامريكية الكبرى والاعتماد على الاساليب الدبلوماسية لفرض نفوذها السياسي. ويرجع اهتمام الولايات المتحدة بامريكا الجنوبية الى اوائل القرن التاسع عشر عندما ظهرت حركات التحرر في هذه البلاد من الحكم الاسباني والبرتغالي. وقد ادى هذا الاهتمام الى اعلان مبدأ مترو عام ١٨٢٣ كما اسلفنا. وتعتبر الدوافع السياسية والاستراتيجية من اهم الدوافع التي وجهت اهتمام الولايات المتحدة بامريكا الجنوبية لاسيما الدول المطلة على البحر الكاريبي مثل كولومبيا وفنزويلا.

ولكن اهم اسباب تدخل الولايات المتحدة في شئون امريكا الجنوبية كانت اسبابا ذات طبيعة اقتصادية. ولقد برزت هذه الاسباب منذ اواخر القرن التاسع عشر بعد تشبع السوق الداخلية الامريكية وعجزها عن استيعاب فائض الانتاج الصناعي وفائض رأس المال، وبدأ الاقتصاد الامريكي يواجه خطر الكساد. وتمثل امريكا الجنوبية، بمواردها الطبيعية الغنية وقوتها البشرية مجالا واسعا امام استثمار فائض رأس المال الامريكي وتنمية التجارة الامريكية، الامر الذي يؤدي الى مزيد من التقدم والازدهار للاقتصاد الامريكي ككل، وقد ارتفعت الاستثمارات الامريكية في امريكا بمقدار عشرة اضعاف خلال الفترة من ١٨٩٧ الى ١٩١٤. كما ارتفعت معدلات التجارة الخارجية مع دول امريكا الجنوبية ارتفاعا واضحا في نفس الفترة. وكان من الطبيعي ان تصطدم رغبة الولايات المتحدة في التغلغل الاقتصادي في امريكا الجنوبية بمصالح الدول الاستعمارية الاخرى

وعلى رأسها بريطانيا . وانعكس هذا التنافس البريطاني - الامريكي على النزاع الذى ثار بين فنزويلا وبريطانيا حول الحدود بين مستعمرة غيانا البريطانية وفنزويلا .

ويعود النزاع على الحدود بين فنزويلا وغيانا البريطانية الى ما قبل منتصف القرن التاسع عشر حيث لم يسبق تحديدها من قبل . وحاولت الحكومتان التوصل الى اتفاق بهذا الصدد . لكن جميعها باءت بالفشل اذ ارادت كل دولة فرض سيطرتها على مصب نهر اورينوكو Orinoco الذى يتحكم فى تجارة جزء كبير من داخل البلاد . ومنذ عام ١٨٨٤ توترت العلاقات بين البلدين وتمسك كل طرف بموقفه بعد اكتشاف مناجم الذهب فى منطقة النزاع بينهما . وقررت حكومة فنزويلا فى عام ١٨٨٧ قطع علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا وطلبت من الولايات المتحدة التوسط لحمل بريطانيا على قبول عرض النزاع على لجنة التحكيم . ورفضت بريطانيا الوساطة ، كما رفضت عرض الموضوع للتحكيم وتمسكت بمطالبها الاقليمية كاملة . حينئذ ارسل ريتشارد اولنى Richard Olney وزير خارجية الولايات المتحدة فى ٢٠ يوليو ١٨٩٥ مذكرة شديدة اللهجة الى الحكومة البريطانية اكد فيها حق بلاده التدخل فى كل القضايا الاقليمية المتعلقة بالقارة الامريكية . واستندت هذه المذكرة الى مبدأ منرو وادعى اولنى ان هذا المبدأ له جانب ايجابى يهدف الى حماية وتأكيد مصالح الولايات المتحدة فى القارة الامريكية بأكملها . وفى نهاية المذكرة انذر اولنى بريطانيا بضرورة عرض هذا النزاع على هيئة تحكيم مؤكدا ان الولايات المتحدة اصبحت تتمتع بالسيادة الفعلية على القارة وان ارادتها فى مقام القانون الملزم

فيما يتعلق بالموضوعات التى ترى التدخل فيها .

ومن ناحيتها رفضت بريطانيا هذا التفسير الامريكى لمبدأ منرو وانكرت على الولايات المتحدة حقها فى فرض وساطتها فى النزاع الفنزويلى البريطانى لمخالفة ذلك لقواعد القانون الدولى. فطلب الرئيس الامريكى كليفلاند (Cleveland) من الكونجرس الموافقة على تكوين لجنة امريكية لتقصى الحقائق فى هذا النزاع . واكد كليفلاند فى رسالة الكونجرس بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٨٩٥ بانه اذا اتضح لهذه اللجنة أحقية فنزويلا فى المنطقة المتنازع عليها ، فسوف تعتبر حكومة الولايات المتحدة استيلاء بريطانيا على هذه المنطقة عدوانا على حقوق ومصالح الولايات المتحدة التى من واجبها ان تدفع هذا العدوان بكل وسيلة ممكنة . وقد وافق الكونجرس على تكوين هذه اللجنة .

ولكن بريطانيا تراجعت عن موقفها وقبلت عرض النزاع على هيئة تحكيم تتكون من عضوين امريكيين وعضوين بريطانيين وبرئاسة شخص محايد هو الفقيه الروسى الشهير دى مارتنز F.F. de Martens وبمقتضى قرار هيئة التحكيم احتفظت فنزويلا بسيطرتها على مصب نهر اورينوكو وهو ما يحقق المصالح التجارية الامريكية فى المناطق التى يمر بها النهر. وتعتبر هذه الفائدة ثانوية بالنسبة الى الاثار السياسية العامة التى ترتبت على اسلوب تسوية هذا النزاع ونجملها فيما يلى :

١ - يعتبر اصرار الولايات المتحدة على فرض وساطتها لتسوية النزاع الفنزويلى - البريطانى تطورا هاما لمبدأ منرو اذ ادعت الولايات المتحدة لنفسها حق التحكيم فى كل نزاع ينشب فى القارة الامريكية واعتبرته حقا من حقوق السيادة تلتزم به السياسة

الامريكية وترضخ له جميع الدول. وبالفعل رضخت بريطانيا لانها كانت مشغولة بقضايا استعمارية هامة فى آسيا وافريقية ، ومنذ ذلك الوقت اتسمت العلاقات البريطانية - الامريكية بطابع التعاون ليس فى القارة الامريكية فحسب وانما ايضا فى الشرق الاقصى والمحيط الهادى.

٢ - تدخلت الولايات المتحدة فى هذا النزاع دون تفويض من فنزويلا وقد اثار هذا الاسلوب مخاوف دول امريكا الجنوبية من فرض سيطرة الولايات المتحدة عليها كما حدث فى امريكا الوسطى وفى منطقة البحر الكاريبى. ونتيجة لذلك ظهرت بوادر التوتر فى العلاقات بين دول امريكا الجنوبية والولايات المتحدة لان هذه الاخيرة افصحت بوضوح عن نواياها الاستعمارية التى لم تختلف كثيرا عن سلوك الدول الاستعمارية الاوربية التى حاربتها دول امريكا الجنوبية للتخلص من سيطرتها . ولقد اضرت هذه المخاوف الوحدة الامريكية حيث رأت فيها دول امريكا الجنوبية وسيلة لفرض السيطرة الامريكية على جميع دول القارة ، الامر الذى انعكس ايضا على الحركة الادبية والفكرية فى امريكا الجنوبية والتى تبنت فكرة المحافظة على التراث الاسبانى لمواجهة النفوذ الثقافى الامريكى.

التوسع الامريكى فى المحيط الهادى :

لم يكن عام ١٨٩٨ نقطة انطلاق جديدة للدبلوماسية الامريكية فى منطقة البحر الكاريبى وامريكا اللاتينية فحسب وانما فى منطقة المحيط الهادى والشرق الاقصى ايضا. وكان هذا التوسع الامريكى الجديد سببا فى اثارة عدة قضايا يرجع تاريخها الى ما قبل عام ١٨٩٨ مثل ضم جزر الفلبين وجوام، وضم جزر هاواى وتسوية قضية جزيرة ساموا، واخيرا التنافس الاستعمارى فى الصين. ومما لاشك فيه ان كل هذه القضايا كانت

متشابكة تماما بحيث لا يمكن فهم احداها دون النظر الى الاخرى. ولكن رغم ذلك يمكن الفصل بين معالجة القضايا التى ثارت فى المحيط الهادى ، وقضية التنافس الاستعمارى فى الصين.

ويرجع تزايد النفوذ الامريكى فى منطقة المحيط الهادى الى اواخر القرن الثامن عشر عندما قام التجار والمبشرون الامريكيون بمد نشاطهم الى جزر المحيط الهادى واليابان وكوريا والصين. وامام تزايد هذا النشاط التجارى والتبشيرى بدأت الولايات المتحدة تولى اهتماما متزايدا بالمنطقة. وبالاضافة الى ذلك، فقد اقنعت الحرب الاهلية الامريكية المسئولين الامريكيين بضرورة وضع خطة كاملة للدفاع عن البلاد وحماية نشاط مواطنيها فى المحيط الهادى وبصفة خاصة ضد الحيتان. وفى عام ١٨٦٧ اكتسبت الولايات المتحدة مراكز استراتيجية هامة فى المحيط الاطلنطى بعد شرائها لشبه جزيرة الاسكا وأرخبيل الوتيان (Aleutian) من روسيا، واحتلالها لجزر ميدواى (Midway) التى تقع شمال جزر هاواى. وقد بذلت عدة محاولات من قبل بعض رجال الاعمال الامريكيين عند منتصف القرن التاسع عشر لدفع الحكومة الامريكية على ضم جزر هاواى غير ان اوضاع الولايات المتحدة الداخلية والموقف الدولى لم تكن ملائمة لاتخاذ مثل هذه الخطوة.

ولكن الحرب الامريكية - الاسبانية عام ١٨٩٨ غيرت الموقف كلية فبمقتضى معاهدة باريس تنازلت اسبانيا عن جميع حقوقها فى جزر الفلبين وجوام وقررت الولايات المتحدة ضمها. ويمكن ان نلخص العوامل التى دفعت الولايات المتحدة على التوسع خارج القارة الامريكية على النحو التالى :

أولا — دعا فريق من ذوى النفوذ من الامريكيين امثال روزفلت وماهان وكابوت لودج الى استيلاء الولايات المتحدة على الفلبين وسائر جزر المحيط الهادى لاهميتها الاستراتيجية . وقد ثار الرئيس الامريكى وليام ماكنلى (W.MacKinley) بآراء هذا الفريق من الاستعماريين الامريكيين وارسلت تعليمات الى الوفد الامريكى فى مفاوضات الصلح مع اسبانيا جاء فيها "ان الحرب القت على عاتقها اعباء ومسئوليات يجب علينا القيام بها باعتبارنا دولة كبرى . كتب لها حاكم الامم منذ الازل القيادة العليا ونشر المدنية .

ثانيا — تمثل الفلبين ركيزة للتوسع الاقتصادى الامريكى فى الشرق الاقصى، فالفلبين بلاد غنية بمواردها لاسيما التبغ والخشب والبن وقصب السكر والايدى العاملة الرخيصة . كما ان الفلبين تعتبر قاعدة انطلاق هامة لتدعيم التوسع التجارى والاقتصادى الامريكى فى الصين، وبذلك ارتبط استيلاء الولايات المتحدة على الفلبين بسياسة "الباب المفتوح" وقد عبر السناتور "بفريدج" (A.J.Beveridge) عن ذلك بقوله "ان الفلبين لنا ومن ورائها اسواق الصين غير المحدودة لن ننسحب من أى منها، ان الجزء الاكبر من تجارتنا يجب ان يكون مع آسيا .. الصين هى المستهلك الطبيعى للمنتجات الامريكية .. والفيليبين توفر لنا قاعدة على اعتاب الشرق بأكمله .. ان الدولة التى تسيطر على المحيط الهادى تسيطر على العالم ...".

ثالثا — أثرت الاعتبارات الدينية على الرأى العام الامريكى لحمله على تقبل فكرة ضم الفلبين وجوام الى الولايات المتحدة . فقد رأت الطوائف البروتستانتية ان الفلبين تفتح مجالا واسعا للنشاط التبشيرى ومنافسة الوضع الممتاز الذى تمتعت به الكنيسة الكاثوليكية

فى عهد الحكم الاسبانى. ولقد كان لهذه الطوائف تأثير على الرئيس الامريكى ماكنلى .

رابعا — ادى تطور الاوضاع فى الفلبين ذاتها الى تمسك الولايات المتحدة بالسيطرة عليها ، فخلال الحرب الامريكية — الاسبانية ضاعفت الحركة القومية فى الفليبين نشاطها بزعامة اميليو اجونيالدو (Aguinaldo) للتحرر من الاستعمار الاسبانى. وتعاون اوجونيالدو مع الحملة العسكرية الامريكية للاطاحة بالحكم الاسبانى املا فى اعتراف الولايات المتحدة باستقلال الفلبين. وفى مايو عام ١٨٩٨ كون اجونيالدو حكومة فلبينية مؤقتة واعلن استقلال البلاد ، فى ١٢ يونيو من نفس العام. وصدر أول دستور للبلاد فى ٢١ يناير من العام التالى. ولما ادركت الولايات المتحدة ان الحكومة الوطنية فى الفلبين تتبع سياسة قومية ،قررت الاستيلاء على البلاد وتحويلها الى مستعمرة امريكية . وفى اعقاب ذلك اندلعت الثورة فى البلاد ولم تتمكن القوات الامريكية من اخمادها الا فى ابريل ١٩٠٢ .

خامسا — اقتنعت الولايات المتحدة بضرورة الاستيلاء على الفيلبين كعنصر هام فى مجال التنافس الاستعمارى بينها وبين الدول الاستعمارية الاخرى. وفى ذلك الوقت انحصر التنافس الاستعمارى فى المحيط الهادى بين بريطانيا والمانيا والولايات المتحدة . وخوفا من الخطر الالمانى فى المحيط الهادى حثت الحكومة البريطانية الولايات المتحدة على ضم جزر الفلبين لمنع المانيا من الاستيلاء عليها أو على الاقل منعها من الحصول على قاعدة بحرية فى تلك الجزر تهدد توازن القوى فى المحيط الهادى وفى الشرق الاقصى عموما . ومن ناحية اخرى خشيت الولايات المتحدة

من ان تمتد اطماع اليابان التوسعية الى الفلبين فى المستقبل.

ولقد انهى استيلاء الولايات المتحدة على الفلبين سياسة العزلة التقليدية قبل دخول الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الاولى بربع قرن. وانعكست سياسة الولايات المتحدة فى الحفاظ على توازن القوى فى المحيط الهادى على بعض القضايا الاخرى مثل قضية جزر هاواى وقضية جزر ساموا. وبالنسبة لجزر هاواى، فان لها اهمية استراتيجية لفتت نظر الولايات المتحدة اليها منذ اواخر القرن الثامن عشر. وبالرغم من احتفاظ الجزر باستقلالها الاسمى، فقد اصبحت جزر هاواى مستعمرة امريكية بحكم الواقع اقتصاديا وثقافيا وسياسيا. وفى عام ١٨٧٥ — اخذت الولايات المتحدة تعهدا على حكومة هاواى بعدم التنازل عن حقوقها لاية دولة اخرى، وفى عام ١٨٨٢ استأجرت الولايات المتحدة ميناء بيرل هاربر (Pearl Harbour) وحولته الى قاعدة بحرية. وفى عام ١٨٩٣ قام الامريكيون المقيمون فى هاواى بانقلاب ضد نظام الحكم فى البلاد واقاموا حكومة مؤقتة يرأسها امريكى وطالبوا حكومتهم بضم الجزر، وفى يوليو ١٨٩٨ وافق الكونجرس الامريكى على ضم جزر هاواى الى الولايات المتحدة.

اما جزر ساموا فتحتل موقعا استراتيجيا هاما فى جنوب المحيط الهادى على الطريق الملاحى بين كاليفورنيا وقناة بنما من ناحية واستراليا ونيوزيلندا من ناحية اخرى. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر شهدت جزر ساموا تنافسا شديدا بين مواطنى بريطانيا والولايات المتحدة والمانيا مما اضطر حكومة ساموا الى توقيع معاهدات تجارية وسياسية مع هذه الدول الثلاث لتحييد نشاطها..

وفى اواخر ١٨٨٨ حدث صدام مسلح بين القوات الالمانية وشعب ساموا وانتهزت المانيا هذه الفرصة لتفرض سيطرتها على البلاد . ولذلك نشبت ازمة دبلوماسية بين المانيا من ناحية والولايات المتحدة وبريطانيا من ناحية اخرى. وأرسلت الولايات المتحدة بعض قطع اسطولها الحربى لمنع اى محاولة للتدخل العسكرى الالمانى. ولكن الازمة انتهت بين الدولتين بعقد مؤتمر ثلاثى فى برلين عام ١٨٨٩ ضم المانيا والولايات المتحدة وبريطانيا . وفى ١٤ يونيو من نفس العام وقعت معاهدة برلين التى اخضعت جزر ساموا لادارة مشتركة بين الدول الثلاث (Condominium)

كانت هذه هى الخطوة الاولى لتقسيم جزر ساموا بين الدول الاستعمارية الثلاث. وفى عام ١٨٩٨ ثار صراع حاد حول خلافة العرش فى جزر ساموا وتطور هذا الصراع الى حرب اهلية . ولتفادى نشوب حرب بين الدول الثلاث التى تدخلت فى هذا الصراع، تم تسوية النزاع بالطرق الدبلوماسية فابرمت معاهدة اخرى فى يونيو ١٨٩٩ انهت النظام الملكى فى جزر ساموا والغت الادارة الثلاثية . وقد حصلت الولايات المتحدة على الجزر الواقعة شرقى خط طول ١٧١! وتضم جزيرة تتويلا (Tutuila) وبها اهم ميناء فى جنوب المحيط الهادى وهو ميناء باجو باجو Pago Pago الذى تحول الى قاعدة بحرية امريكية وهى من اهم القواعد الاستراتيجية فى المحيط الهادى الى جانب قاعدتى بيرل هاربر وجوام. ووضعت الولايات المتحدة الجزر التى حصلت عليها بمقتضى هذه المعاهدة تحت ادارة البحرية الامريكية دون ان تعلن الولايات المتحدة ضم الجزر رسميا واستمر هذا الوضع حتى عام ١٩٢٩ عندما وافق الكونجرس الامريكى على ضم الجزر الى الولايات المتحدة .

سياسة الباب المفتوح :

في ٦ سبتمبر عام ١٨٩٩ ارسل جون هاي (John Hay) وزير خارجية الولايات المتحدة مذكرة الى الدول التي استحوذت على مناطق نفوذ لها في الصين يطالبها فيها بالاعتراف بمبدأ حرية التبادل التجاري مع الصين في تلك المناطق دون اية قيود. ودون تمييز في المعاملة بين رعاياها ورعايا الدول الاخرى. وقد اطلق على هذا المبدأ "سياسة الباب المفتوح" (Open Door Policy) ولم يكن هذا المبدأ جديدا على الدبلوماسية الاستعمارية في الشرق الاوسط، فقد كان في الاساس مبدأ رئيسيا من مبادىء الدبلوماسية البريطانية في الشرق الاقصى منذ منتصف القرن التاسع عشر. فلقد استحوذت بريطانيا على ٨٠ ٪ من تجارة الصين بفضل تفوقها الصناعي وقوة مصارفها وسيطرتها على البحار.

وفي مطلع عام ١٨٩٨ زاد احتمال تقسيم الصين الى مناطق نفوذ بين الدول الاستعمارية ، وكانت هذه الدول نفسها قد تدخلت لارغام اليابان على التخلي عن بعض الامتيازات الاقليمية التي حصلت عليها بمقتضى معاهدة شيمونوزيكي (١) (Shimonoseki) التي انهت الحرب اليابانية الصينية (١٨٩٤ — ١٨٩٥) وفي مقابل هذا التدخل طالبت الدول الاستعمارية

---

(١) وقعت هذه المعاهدة في ١٧ ابريل ١٨٩٥ واعترفت الصين بمقتضاها باستقلال كوريا (اي وضعها تحت الحماية الفعلية لليابان) كما تنازلت لليابان عن جزر فورموزا (تايوان) والبسكادور وشبه جزيرة لياو تونج بما في ذلك ميناء دايرن (Dairen) وميناء بورت آرثر (Port Arthur) كما التزمت الصين بدفع مبلغ ١٦٥ مليون دولار على سبيل التعويض

بامتيازات فى مناطق عديدة من الصين، وهكذا بدأت حرب الامتيازات - التى هددت بتفكك الامبراطورية الصينية ، وقد خشى الرأسماليون البريطانيون من ان تقسيم الصين الى مناطق نفوذ بين الدول الاستعمارية قد يؤدى الى تقييد التجارة البريطانية اذا لجأت تلك الدول الى فرض قيود على التجارة الدولية فى مناطق نفوذها . ولهذا فان سياسة الباب المفتوح كانت اكثر ملائمة للنشاط التجارى البريطانى الذى كان يعتمد اساسا - حتى نهاية القرن التاسع عشر - على تجارة السلع الاستهلاكية .

ولقد أثرت هذه الاعتبارات الاقتصادية ايضا على سياسة الولايات المتحدة تجاه الصين، ووضح هذا عندما قررت الولايات المتحدة ضم جزر الفلبين بهدف تحويلها الى قاعدة انطلاق لزيادة وتدعيم النشاط الاقتصادى الامريكى فى الصين التى اعتبرتها الرأسمالية الامريكية اهم سوق عالمية لتصريف فائض الانتاج الامريكى. وبالفعل ارتفع معدل الصادرات الامريكية الى الصين ارتفاعا كبيرا لاسيما فى منطقتى منشوريا وشمال الصين اللتان دخلتا فى دائرة النفوذ الروسى - الالمانى بعد الحرب اليابانية - الصينية ومن ثم خشى الرأسماليون الامريكيون والبريطانيون ان تفرض روسيا والمانيا قيودا على نشاط رعايا الدول الاخرى فى هاتين المنطقتين ولذلك دعت الحكومة البريطانية الولايات المتحدة الى تأييد سياسة الباب المفتوح ولبت الحكومة الامريكية هذه الدعوة فكان ان اصدر جون هاى فى ٦ سبتمبر ١٨٩٩ المذكرة التى سبق الاشارة اليها .

مما يلاحظ ان مذكرة جون هاى قد اشارت فقط الى مبدأ المساواة بين رعايا جميع الدول فى التعامل التجارى مع الصين. وكل الاقاليم الصينية ولكنها لم تشر الى الوجه الاخر من النشاط الاقتصادى الاجنبى فى

فى الصين وهو امتيازات انشاء السكك الحديدية وصناعة التعدين وقد وافقت الحكومة البريطانية على سياسة الباب المفتوح لانها كانت تخدم مصالحها ولكنها اوردت استثناء على تطبيقه فيما يتعلق باقليم كولون Kwoloon المواجه لجزيرة هونج كونج. وتفسير هذا الوضع المتناقض للسياسة البريطانية يرجع، فى الواقع، الى تطور الوضع فى الصين بعد الحرب اليابانية — الصينية والى مضمون مذكرة جون هاى. ولذلك قررت بريطانيا اتباع ثلاثة اساليب دبلوماسية فى آن واحد تتلخص فيما يلى :

١ — تأييد سياسة الباب المفتوح بصفة عامة ومحاولة حمل الدول الاستعمارية الاخرى على تطبيقها فى جميع المناطق الخاضعة لنفوذها . وفى حالة فشل هذه المحاولة تلجأ بريطانيا الى اسلوبين دبلوماسيين آخرين هما :

٢ — محاولة الحد من التوسع الروسى والالمانى فى شمال الصين ولذلك احتلت بريطانيا ميناء واى هاى واى (Wei Hai Wei) على خليج ميناء كياتشو Kiaochow كما رأت بريطانيا ضرورة قيام قوى تضمن توازن القوى فى المنطقة يخدم مصالحها ويحد من توسع النفوذ الروسى فى منطقة جنوب منشوريا وشمال الصين . وقد ادى ذلك الى ضرورة التعاون مع اليابان وتوقيع التحالف البريطانى — اليابانى عام ١٩٠٢.

٣ — تمسك بريطانيا بالحصول على منطقة نفوذ خاصة بها وهى منطقة حوض نهر اليانج تسى والمنطقة المواجهة لجزيرة هونج كونج .

وقد علقت الدول الاستعمارية الاخرى قبولها لسياسة الباب المفتوح على موقف روسيا التى كانت تعتبر اكبر منافس للولايات المتحدة وبريطانيا واليابان فى هذه المنطقة . فقد رفضت روسيا تماما سياسة الباب المفتوح ولم تتعهد الالتزام بها فى المناطق الخاضعة لنفوذها وبالذات فى منشوريا . ولذلك لم تطبق الدول الاخرى هذه السياسة نظرا لسلبية موقف

روسيا وعلى الرغم من ذلك اعتبرت الولايات المتحدة ردود الدول على مذكرة جون هاى مرضية وقاطعة وبالتالى فان سياسة الباب المفتوح اصبحت قاطعة ونهائية .

ولكن النتائج التى تمخضت عن ثورة البوكسر (١) (١٩٠٠–١٩٠١) ، أدت الى مزيد من التوسع فى مناطق النفوذ الاستعمارى مما هدد بالقضاء على سياسة الباب المفتوح. وعند ذلك رأت الولايات المتحدة ضرورة تحديد موقفها مرة اخرى ، فأرسل جون هاى مذكرة اخرى بتاريخ ٣ يوليو عام ١٩٠٠ ، الى الدول يطالبها فيها بضرورة المحافظة على سلامة الصين الاقليمية ، غير أن الدول الاستعمارية تجاهلت هذه المذكرة واستمرت فى سياستها التوسعية ونتيجة لذلك اضطرت الولايات المتحدة الى انتهاج نفس اسلوب السياسة البريطانية بالاعتماد على اليابان فى وقف التقدم الروسى فى الصين . وهكذا تكون وفاق ثلاثى فى الشرق الاقصى بين بريطانيا والولايات المتحدة واليابان . ولكنه لم يستمر اكثر من خمس سنوات فبعد انتصار اليابان على روسيا عام ١٩٠٥ اتجهت الى فرض سيطرتها على كوريا وفرضت قيودا على تجارة الدول الاوروبية مع هذا الاقليم مما ادى الى فتور فى العلاقات بين الولايات المتحدة واليابان وتطور الى تنافس وعداء فى فترة ما بين الحربين العالميتين. وعلى الرغم من فشل

---

(١) لقد قام بأهم مقاومة للتدخل الاجنبى فى شئون الصين جماعة وطنية سرية اطلقت عليها الدول الغربية اسم "البوكسر" وقامت هذه الجماعة بثورة مسلحة ضد الاجانب فى جميع انحاء الصين واعتدت على منشآتهم التجارية وسفاراتهم ومبشريهم ابتداء من يونيو عام ١٩٠٠ كما شجعت بعض الدوائر الحكومية الصينية هذه الثورة واشتركت بعض وحدات الجيش الصينى فى الهجوم على حى السفارات .

سياسة الباب المفتوح الا انها ادت الى بعض النتائج ذات الاثر البعيد وتتلخص فيما يلى :

١ – تورطت الولايات المتحدة فى شئون الشرق الاقصى وكذلك فى السياسة الاوروبية بسبب الارتباط الوثيق بين الشئون السياسية والشئون الاوروبية .

٢ – اوضحت سياسة الباب المفتوح التنافس الحاد بين الولايات المتحدة وروسيا حول السيطرة على الشرق الاقصى واذا كان هذا الصراع قد احتجب مؤقتا فيما بين ١٩٠٥ و ١٩٤٥ بسبب هزيمة روسيا عام ١٩٠٥ وفى الحرب العالمية الاولى، فقد تجدد هذا الصراع من جديد فى اعقاب الحرب العالمية الثانية بانتصار النظام الشيوعى فى الصين عام ١٩٤٩ وحرب كوريا (١٩٥٠–١٩٥٣) وحرب فيتنام .

الملحـــق

التحالفات التى تكونت خلال الحروب الايطالية

١ - حلف البندقية (١٤٩٥) :

اعضاء الحلف : البابوية + الامبراطورية + اسبانيا + البندقية + ميلان + فلورنسا ضد فرنسا

٢ - حلف كمبراى (١٥٠٨)

البابوية + الامبراطورية + اسبانيا + انجلترا + فرنسا ، ضد البندقيــة + ميلان .

٣ - الحلف المقدس (١٥١١)

البابوية + الامبراطورية + اسبانيا + انجلترا ضد فرنسا

٤ - الحلف المقدس (١٥٢١)

البابوية + الامبراطورية + اسبانيا + انجلترا + ضد فرنسا

٥ - حلف كونياك (١٥٢٦)

البابوية + البندقية + ميلان + فلورنسا + انجلترا + فرنسا + ضـــد الامبراطورية + اسبانيا .

اسرة الهابسبرج

مكسمليان الاول (١٤٩٣-١٥١٩)

فيليب الجميل (توفى ١٥٠٦)

فرديناند الاول(١٥٥٦-١٥٦٤) — شارل الخامس(١٥١٩-١٥٥٦)

حكام اسبانيا

فرديناند (اراجون)+ ايزابيلا (قشتالة)

كاترين
تزوجت (١) آرثر امير ويلز
(٢) هنرى ٨ ملك انجلترا

جوان (توفيت ١٥٥٥)
تزوجت فيليب هابسبرج

شارل الاول (١٥١٦-١٥٥٦)
الامبراطور شارل الخامس

تزوج ايزابيلا البرتغالية

فيليب الثانى(١٥٥٦-١٥٧١)

فيليب الثالث(١٥٩٨-١٦٢١)

فيليب الرابع (١٦٢١ - ١٦٦٥)

الفهـــــرس

صفحـــة

القســـم الاول

معالم التاريخ الأوروبى الحديث

القسم الثاني

معالم التاريخ الامريكى الحديث